

صفحات من تاريخ
العروب الصليبية

<http://www.al-maktabeh.com>

التحصينات الحربية وأدوات القتال

في العصر الأيوبي بمصر والشام
زمن الحروب الصليبية

تأليف

د. مرفت عثمان

دار العالم العربي

DAR AL-AALAM AL-ARABI



المفتدين

التحصينات الحربية وأدوات القتال

© **دار العالم العربي**
DAR AL-AALAM AL-ARABI

19 شارع امتداد رمسيس (2) - أمام وزارة المالية
مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 24024612 - 24051498

e. mail: af_madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: المحرم 1431 هـ / يناير 2010 م

رقم الإيداع: 20278 / 2009

الترقيم الدولي: 3 - 83 - 6276 - 977 - 978

■ صفحات من تاريخ الحروب الصليبية ■

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

تأليف

د. مرفت عثمان حسن على

تقديم

د. عبد العزيز محمود عبد الدايم

دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

على، مرفت عثمان حسن.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي

بمصر والشام زمن الحروب الصليبية /

تأليف مرفت عثمان حسن على؛

تقديم عبد العزيز محمود عبد الدايم .-

ط 1 .- القاهرة: دار العالم العربي، 2010.

404 ص؛ 24 سم .-

(صفحات من تاريخ الحروب الصليبية)

تدمك 3 83 6276 977 978

1. الحروب الصليبية في مصر

2. الدولة الأيوبية

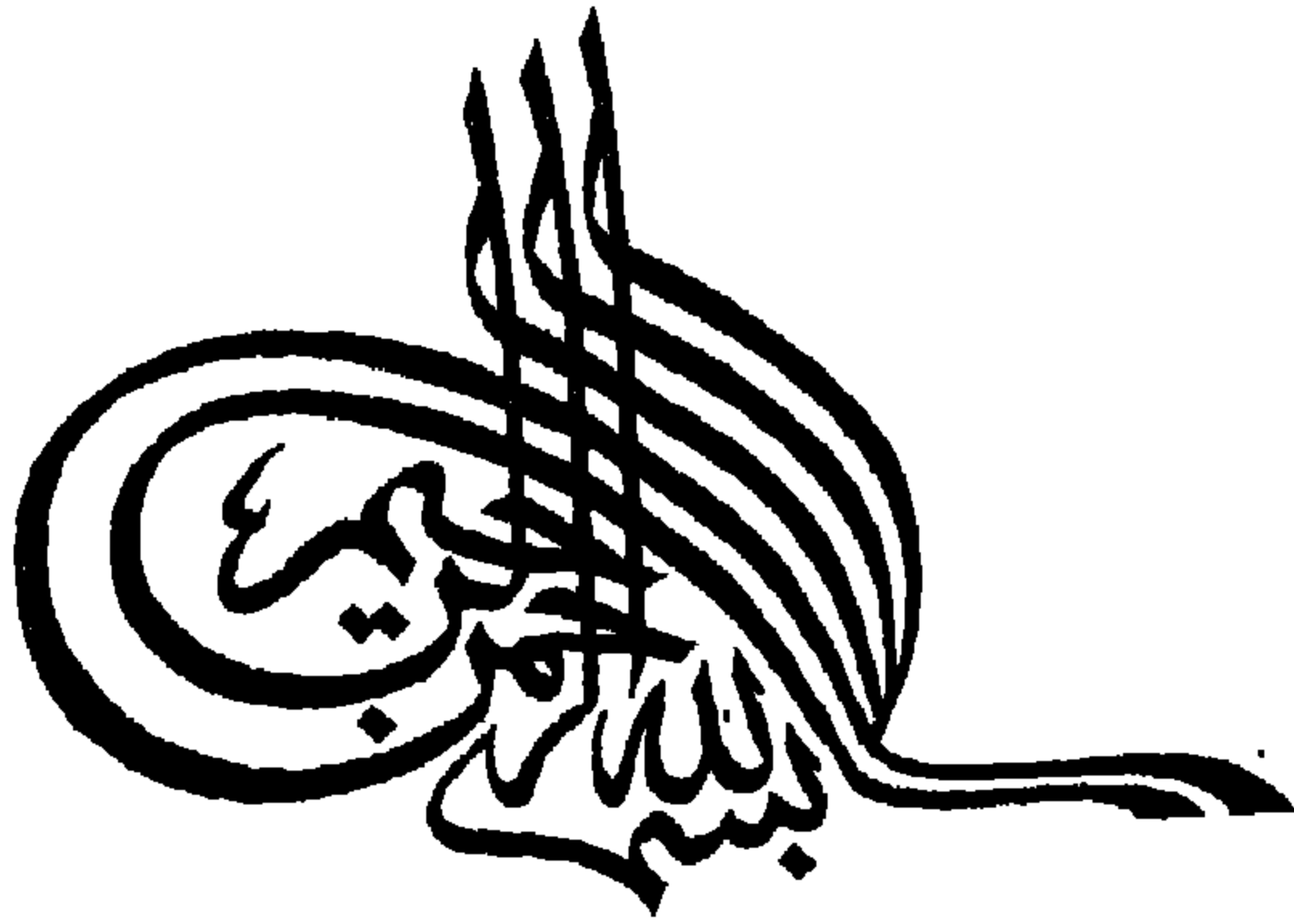
3. مصر - تاريخ - العصر الأيوبي

أ. العنوان

ب. السلسلة

ديوي 953.07393

عبد الدايم، عبد العزيز محمود (مقدم)





مكتبة

المفتديين

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة تغمده الله برحمته..

إلى أمي الحبيبة، واحتى الخضراء، التي سارت معي على درب الحياة، ورأيت بعينها الأمان والاطمئنان، والتي تحملت معي الكثير من العناء والشقاء، والتي استقطعت من حقها الكثير، أطال الله عمرها بالخير..

أهدى إليها هذا العمل، فلها جزيل الشكر والامتنان.

جزاهما الله كل خير

محتويات الكتاب

17	تقديم: بقلم د. عبد العزيز محمود عبد الدايم
19	المقدمة
27	الفصل الأول: الأخطار الداخلية والخارجية في العصر الأيوبي .
29	توطئة.
29	الأحوال السياسية في الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية.
35	الحروب الصليبية - تعريفها - أسبابها وظروفها.
36	أصل الحروب الصليبية والظروف والأسباب التي أدت إليها.
37	الحملة الصليبية على الشرق.
37	الحملة الصليبية الأولى.
38	حركة النهوض وبداية الجهاد الإسلامي.
40	الحملة الصليبية الثانية.
41	«نور الدين محمود» بين الفاطميين والصليبيين والاستيلاء على مصر.
42	التنافس بين الوزيرين «شاور» و«ضرغام» وتدخل «نور الدين» والصليبيين
42	حملات «نور الدين محمود» والصليبيين على مصر.
48	«صلاح الدين» وزيراً للخليفة «العاقد» الفاطمي.
49	الأخطار الداخلية التي واجهت «صلاح الدين» عند بداية توليه الوزارة.
51	الأخطار الخارجية التي واجهت «صلاح الدين» وهو وزير.

- 54 الصعاب التي واجهت «صلاح الدين» بعد زوال الخلافة الفاطمية.
- 58 الأوضاع في بلاد الشام بعد وفاة «نور الدين».
- 61 الاستعدادات البرية والبحرية التي قام بها «صلاح الدين» لمواجهة أخطار الصليبيين.
- 63 «صلاح الدين» والصليبيون.
- 64 «صلاح الدين» والجهاد ضد الصليبيين.
- 66 موقعة حطين الكبرى (583هـ - 1187م).
- 70 الحملة الصليبية الثالثة.
- 74 خلفاء «صلاح الدين» والأخطار التي واجهتهم.
- 75 الحملة الصليبية الرابعة.
- 75 الحملة الصليبية الخامسة.
- 80 الحملة الصليبية السادسة.
- 82 «الصالح أيوب» وتوحيد الدولة الأيوبية.
- 84 الحملة الصليبية السابعة على مصر.
- 85 «شجرة الدر» و«توران شاه» والصليبيون.
- 87 الفصل الثاني: التحصينات الحربية بمصر في العصر الأيوبي.
- 89 مقدمة.
- 90 المقومات المعمارية في التحصينات الحربية.
- 92 التحصينات الحربية في غضون الحملات الصليبية.
- 93 سور القاهرة وأبوابها.
- 99 قلعة «صلاح الدين» بالقاهرة (قلعة الجبل).
- 101 اختلاف الآراء حول موقع القلعة.
- 103 تخطيط القلعة.
- 105 الأعمال المعمارية في عهد «الكمال».

107	الباقي من قلعة الجبل.
107	بئر القلعة.
108	ملخص أعمال البناء في القلعة عبر العصور.
109	أسلوب الدفاع في السور وسور القلعة.
111	قلعة البرلس.
112	قلعة المقس.
112	تحصين مدينة تيس.
113	التحصينات الحربية للمنصورة.
114	قلعة جزيرة الروضة.
116	تحصين دمياط.
119	التحصين الحربي للإسكندرية.
120	برج السويس في دمياط.
120	التحصينات الحربية في شبه جزيرة سيناء.
121	قلعة «صلاح الدين» بجزيرة فرعون.
122	تخطيط قلعة جزيرة فرعون.
123	قلعة الجندي (رأس الجندي).
128	قلعة أيلة.
131	الفصل الثالث: التحصينات الحربية في بلاد الشام.
133	مقدمة.
134	الدوافع التي أدت إلى تشييد الحصون.
136	تقسيم القلاع حسب الأهمية العسكرية.
137	قلعة حلب.
148	قلعة «صلاح الدين» (صهيون).
152	قلعة عجلون (الربض).

157	بيت المقدس وأسواره.
163	قلعة حمص.
165	قلعة الكرك.
170	قلعة الشويك.
175	قلعة حارم.
177	قلعة بعلبك.
179	قلعة بصرى.
180	قلعة نمرود (الصبية-بانياس).
182	قلعة شقيف آرنون.
186	قلعة كوكب.
188	قلعة شيزر.
190	قلعة الطور.
191	اللاذقية - قلاعها وسورها.
193	قلعة السلط أو الصلت.
195	قلعة الأزرق.
197	قلعة معرة النعمان.
200	قلعة قيسارية.
201	قلعة عكا.
202	قلعة صيدا أو صيدون.
205	قلعة حماة.
206	قلعة شميس.
207	قلعة الرحبة.
208	قلعة صرخد.
208	قلعة المضيق.

- 209 قلعة نجم.
- 210 قلعة دمشق.
- 219 مميزات العمارة الحربية في العصر الأيوبي.
- 220 التأثيرات التي تأثر بها «صلاح الدين» في تحصيناته الحربية.
- 221 التأثيرات المختلفة التي أخذها الصليبيون من العرب.
- 226 الأدوار التي كانت تقوم بها القلاع.
- 235 مناعة القلاع وأهمية موقعها.
- 237 ما يمكن قوله في القلاع بصفة عامة.
- 241 الفصل الرابع: أدوات القتال في العصر الأيوبي.
- 243 مقدمة.
- 244 خزانة السلاح وصناعة الأسلحة.
- 246 أنواع الأسلحة التي كان يستعملها الجيش الإسلامي في العصر الأيوبي.
- 246 الأسلحة الهجومية الفردية (السيف، الخنجر، الرمح، أنواع الرماح، صناعة الرمح، الفأس أو الطبر أو البلطة، النبوت، العمود، المقاليح، الدبوس ووظائفه)
- 259 الأسلحة الرشقية: (القنبرة أو القنبلة، الجلاهقات، أجزاء القوس وتركيبها)
- 262 الأسلحة الجماعية وفنون استخدامها: القسي الجماعية الثقيلة
- 262 أنواع القسي الإسلامية: (قسي الزيار، قسي الجروخ، الزنبورك، قسي الرجل، قسي الحسبان، قسي متعددة الاتجاه، قسي قاذفة النفط)
- 271 المنجنيق.
- 273 المنجنيق العربي.
- 273 المنجنيق الفارسي.
- 274 أنواع المناجيق.
- 276 العرادة.
- 276 المنجنيق ودوره في حروب الحصار الصليبية.

- 277 وسائل الوقاية من المنجنيق.
- 279 عيوب المنجنيق.
- 279 آلات الحصار
- 279 الدبابة (البرج).
- 281 ملحقات الدبابة (الكبش، سلاالم الحصار، الضبر، السفود)
- 285 النار اليونانية.
- 289 «الطرسوسى» يتحدث عن طرق تحضير النار الإغريقية.
- 290 استعمال النار الإغريقية في الجيش الأيوبي.
- 291 الأسلحة الدفاعية في الجيش العربى (أغطية الجسم والرأس).
- 292 أولاً: أغطية الرأس (المغفر، البيضة)
- 293 ثانياً: أغطية الجسم (الدرع، الجوشن، الترس، الحسك الشائك)
- 304 الأسلحة الدفاعية للخيل (اللجام، السرج، الحدوة، التجفاف)
- 306 الخيل ودوره في المعارك الحربية.
- 306 النظم الحربية.
- 307 فئات الجيش الإسلامى.
- 309 خطط وأساليب القتال.
- 312 طريقة القتال ووقته.
- 314 المبادئ التى كانت تخضع لها صناعة الأسلحة.
- 317 الفصل الخامس : الأسطول ودوره في العصر الأيوبي.
- 319 مقدمة.
- 319 الأسطول في العصر الإسلامى.
- 322 الأسطول في العصر الفاطمى.
- 323 البحرية في زمن الأيوبيين.
- 324 الإصلاحات التى قام بها «صلاح الدين» في مجال البحرية.

329	مراكز صناعة السفن في مصر في عصر الأيوبيين.
331	أنواع المراكب البحرية الأيوبية.
	أنواع سفن الأسطول الحربى (الشينى، الطريدة، البطسة، الشلندى، الحراقة، المسطح، الحماله، غراب، العشارى أو العشيرى، البركوش أو المركوش، الأعزازى، ابكترا وسييكللا تورى، فاسلى، أعوادى، سفرى أو سفريه أو
332	مسافرة، القرقور، مرمه)
344	معدات السفن الحربية.
352	نشاط البحرية الأيوبية.
352	المراحل التى مر بها الأسطول الأيوبى.
362	ضعف البحرية الأيوبية بعد «صلاح الدين».
363	دور الأسطول في الحملة الصليبية الخامسة.
367	سبب فشل الحملة الصليبية الخامسة.
367	أثر الأسطول ودوره في الحملة الصليبية السابعة.
375	الخاتمة، وتتضمن أهم نتائج البحث
381	قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية.
383	قائمة المصادر العربية
388	قائمة المراجع العربية
396	قائمة الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه)
398	قائمة المجلات العلمية
401	أسماء المراجع الأجنبية

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد..
فلاشك أن ظاهرة البحث عن التحصينات الحربية وأدوات القتال لاتزال تفتقر إلى مزيد من الجهد والبحوث، والغريب في أمر هذه التحصينات أنها لا تقتصر على بلد دون آخر من البلاد، وإنما كانت تعم كافة البلاد، خاصة في وقت كان لا بد من وجودها فيه، ألا وهو وقت الحروب الصليبية التي تأثرت بها كل البلاد والعباد، سواء في مصر أو بلاد الشام، وما لبثت أن تركت بصماتها واضحة في أحوال المجتمع وأوضاعه، مما جعل منها سمة هامة من سمات العصر الأيوبي الذي اشتهر في التاريخ الإسلامي بعصر الحروب الصليبية.
وتكمن أهمية الموضوع في أنه يمثل جانب الربط والتضمين بين التحصينات الحربية وأدوات القتال وأهمية وجودهما مع بعضهما باعتبارهما دليلًا قاطعًا لا يتطرق الشك إلى شهادته بأي حال من الأحوال بأنها الأساس في نجاح معظم الحروب التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين في عصر البطل العظيم «صلاح الدين» بصفة خاصة، وعصر خلفائه بصفة عامة.
وقد أقدمت على هذا العمل الشاق الباحثه/ مرقت عثمان، فمثل هذه الدراسات تحتاج إلى جهود فريق من الباحثين المتمرسين، ولكن الباحثة قد اشتهرت بالجدية والمثابرة والكفاية، ما جعلها أهلاً للنهوض بهذه الدراسة الضخمة.
وأنا لا أريد أن أطنب في الثناء على الجهد الذي بذلته الباحثة، وإنما أترك للقارئ وحده أن يستشف مدى هذا الجهد في كل صفحة، بل في كل سطر من سطور هذا العمل الكبير.
والله ولي التوفيق

أ.د. عبد العزيز محمود عبد الدايم
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآثار - جامعة القاهرة

المقدمة

على الرغم من قصر المدة الزمنية التي عاشتها الدولة الأيوبية في مصر والشام واليمن - ثمانون عامًا (567 هـ / 1171 م - 648 هـ / 1250 م) - إلا أنها تركت بصمات واضحة في شتى نواحي الحياة المختلفة، خاصة في مجال العمارة الحربية، فقد ازدهرت أيما ازدهار وصرف عليها غالبية ميزانية الدولة، فشيدت القلاع على الثغور المصرية والشامية لصد هجوم الصليبيين.

والحق أن الدولة الأيوبية وجهت كل قوتها إلى النواحي الحربية، حيث كان هناك صراع دائم بينها وبين الصليبيين في الشام، وعلى الرغم من ضراوة القتال الذي دار في هذه الفترة إلا أن ذلك لم يمنع من الاتصال الحضاري بين الصليبيين والمسلمين، ذلك الاتصال الذي كان له أثره الواضح على عمارة وفنون الشرق والغرب معًا.

وتكمن أهمية موضوع البحث في أنه يشمل جانب الربط والتضمين بين كلٍّ من التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي، فكم هو مفيد ذلك الجانب في معرفة أدوات القتال التي كان يستخدمها المسلمون في حصار القلاع وتسليق الأسوار والحصون ومعرفة الأدوار المختلفة للقلاع.

هذا والسبب الأساسي في اختيار هذا الموضوع، هو ندرة وجود بحث مستقل بذاته قد طال بكلماته جانب الربط والتضمين، فقد كان كل بحث يتحدث عن عنصر بذاته فقط، سواء في التحصينات الحربية بمفردها مثل قلعة الجبل أو أسوار «صلاح الدين» أو غير ذلك، وهذا الكلام ينطبق على بلاد الشام التي تحتوي على العديد من الأبراج والأسوار والقلاع حتى أدوات القتال، فكل هذه العناصر أدمجتها مع بعضها البعض، وجمعتها في موضوع واحد ألا وهو التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي في مصر والشام زمن الحروب الصليبية.

أما المنهج الذي اتبعته في دراسة هذا الموضوع فقد قسمته إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية البحث وسبب اختياره ليكون موضوعاً لنيل درجة الماجستير، ودراسة المقدمة تعتبر المدخل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

فالفصل الأول: حمل عنوان «الأخطار الداخلية والخارجية في العصر الأيوبي»، وقد تحدثت فيه عن الأحوال السياسية في الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية وكيف أثرت هذه الأحوال السياسية على تفكير الغرب في الحروب الصليبية ومجيئها إلى الشرق، فتحدثت عن الحملة الصليبية الأولى ثم حركة الجهاد الإسلامي التي حمل رايها عظماء المسلمين أمثال «شرف الدولة مودود»، «نجم الدين إيلغازي»، ثم «عماد الدين زنكي» وغيرهم، هذا وقد تحدثت عن الحملات الصليبية التي جاءت في العصر الأيوبي وتصدى لأحدها البطل «صلاح الدين الأيوبي» الذي قضى على الأخطار التي واجهته في الداخل، وبدأ في الاستعداد لمواجهة الصليبيين، فتصدى لهم وهزمهم في حطين، ودخل مع ملوك أوروبا في حملة صليبية سميت الثالثة، وعقد مع ملكهم «ريتشارد قلب الأسد» صلح الرملة في سنة (588 هـ / 1192م)، وبعد كفاح رائع وجهاد توفى وخلد الزمن اسمه إلى الآن، عقب ذلك تولى مسيرة الكفاح خلفاء «صلاح الدين الأيوبي» واستمر الجهاد ضد الصليبيين.

وأتبعت ذلك بالإشارة إلى الحملات الصليبية من الخامسة إلى الحملة الصليبية السابعة وموقف سلاطين الدولة الأيوبية من هذه الحملات.

أما الفصل الثاني: من الدراسة فقد حمل عنوان «التحصينات الحربية في مصر».

وقد تحدثت فيه عن التحصينات الحربية في مصر، فتناولت بالدراسة سور القاهرة وأبوابه، وقلعة «صلاح الدين» بمصر وأسباب بنائها، بالإضافة إلى الثغور الحربية في مصر مثل قلعة المقس، وقلعة البرلس، وتحصين مدينة تيس والمنصورة ودمياط والإسكندرية، أضف إلى ذلك قلعة جزيرة الروضة.

هذا وقد أفردت جزءاً للحديث عن التحصينات الحربية بشبه جزيرة سيناء، فعرجت بالحديث على قلعة «صلاح الدين» بجزيرة فرعون وأسباب بنائها وتخطيطها، بالإضافة إلى قلعة الجندي (رأس الجندي)، وقلعة أيلة، وذكرت الأسباب التي دعت «صلاح الدين» إلى الاهتمام بشبه جزيرة سيناء وبنائه لهذه القلاع، فقد كانت شبه جزيرة سيناء مسرحاً لمعظم العمليات الحربية التي خاضتها الدولة الأيوبية، وإحدى المنافذ المهمة لقوافل التجارة والحجاج.

أما عن الفصل الثالث: من الرسالة فقد حمل عنوان «التحصينات الحربية في بلاد الشام» وتحدثت فيه عن أهم الدوافع التي أدت إلى تشييد الحصون والقلاع، كذلك تحدثت عن القلاع حسب أهميتها العسكرية.

هذا وقد تحدثت عن القلاع الأيوبية سواء الباقية منها مثل قلعة حلب وقلعة دمشق وقلعة عجلون (الربض)، وتحدثت عن القلاع المندثرة مثل قلعة شميميس وقلعة الطور وغيرهما من القلاع كما ستوضح الدراسة.

وقد أوضحت أيضًا أهم المقومات المعمارية ومميزات العمارة في التحصينات الحربية، بالإضافة إلى التأثيرات التي تآثر بها «صلاح الدين» في هذه التحصينات، هذا إلى جانب التأثيرات المختلفة التي أخذها الصليبيون من العرب، وأهم الأدوار التي كانت تقوم بها القلاع في أوقات الحرب.

أما عن الفصل الرابع: فيحمل عنوان «أدوات القتال في العصر الأيوبي»، وتناولت بالدراسة في هذا الباب مقدمة عن صناعة الأسلحة وخزانة السلاح، بعد ذلك تحدثت عن أنواع الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش الإسلامي في العصر الأيوبي بدءًا من الأسلحة الفردية والأسلحة الرشقية والأسلحة الجماعية وفنون استخدامها، هذا بالإضافة إلى أدوات القتال الأخرى كالقسي بأنواعها والمنجنيق بأنواعه وآلات الحصار المختلفة، وانتهاءً بأن الخيل هو الآخر كان يرتدى أسلحة دفاعية؛ لأنه كان له الدور الأساسي في المعركة إلى جانب المحارب المسلم.

كما تحدثت في هذا الباب عن النظام الحربي المتبع في الحروب وفتات الجيش الإسلامي، بالإضافة إلى الخطط والأساليب التي كان يتبعها المسلمون في القتال، وكيف كانوا يختارون وقت القتال، مما سبق يتضح أن أدوات القتال هي العامل الأساسي في كل معركة حربية دارت بين كل من المسلمين والصليبيين، حيث إننا وجدنا أنها لعبت دورًا أساسيًا، خاصة النار اليونانية التي كان لها الفضل في انتصار المسلمين على الصليبيين في بعض المعارك الحربية، خاصة في حرق أبراج الصليبيين التي كانوا يفخرون بها زهوا أنها لا تحرق ولا تؤثر فيها النار، ولكن الله عز وجل نصر المسلمين باختراعهم لهذا السائل الذي تحدث عنه «الطرسوسى» في كتابه التبصرة.

أما الفصل الخامس: فيحمل عنوان «الأسطول ودوره في العصر الأيوبي»، وفيه تحدثت عن الأسطول بصفة عامة والأسطول الأيوبي بصفة خاصة، وأهم الإصلاحات التي قام بها

«صلاح الدين» في مجال الأسطول، هذا وقد أشرت إلى مراكز صناعة السفن في مصر في العصر الأيوبي وتطرقت إلى الحديث عن أنواع المراكب الحربية الأيوبية؛ أي أنواع سفن الأسطول الحربى المختلفة، بالإضافة إلى معدات السفن الحربية التى كان لا بد أن تتوفر عند القتال في البحر.

هذا وقد أشرت إلى نشاط البحرية الأيوبية، بالإضافة إلى المراحل التى مر بها الأسطول الأيوبي في مصر، لكن بعد وفاة «صلاح الدين» مرت البحرية بمرحلة ضعف، ثم بهاد النشاط وبدأ يدب مرة أخرى في الأسطول الأيوبي، ولعب الدور الأكبر في الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة.

هذا وقد اعتمدت على العديد من المصادر والمراجع المختلفة التى أفادتني في البحث موضوع الدراسة والتي كان لزاماً على الرجوع إليها.

ومن أهم المصادر التى اعتمدت عليها، أبو المحاسن يوسف رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي المعروف بـ «ابن شداد» والملقب ببهاء الدين، ولد في الموصل سنة 539هـ/1145م، وتوفي في حلب سنة 632هـ/1235م، وقد سجل سيرة «صلاح الدين» في كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، والذي ينقسم إلى قسمين: القسم الأول تناول مولد «صلاح الدين» ونشأته وأخلاقه وصفاته، أما القسم الثانى فتناول الناحية السياسية والحربية لعهد «صلاح الدين» منذ توليه الحكم في مصر وجهاده ضد الصليبيين حتى وفاته، ويعتبر كتاب ابن شداد وثيقة تاريخية مهمة؛ لأنه شارك «صلاح الدين» معاركه الحربية، كما شاهد الأحداث، وكان مستشاراً لـ «صلاح الدين الأيوبي».

ومن المؤرخين الذين أرخوا أيضاً للدولة الأيوبية، القاضي جمال الدين محمد بن سالم الحموي المعروف بـ «ابن واصل» (ت 697هـ/1297م)، في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب منذ قيامها إلى نهايتها على أيدي المماليك، هذا وقد عاصر معظم ملوك الدولة الأيوبية، وقد شاهد ابن واصل بنفسه الأحداث حيناً وتسم أيضاً أخباره بالوثائق الرسمية.

وهذا الكتاب يقع في ستة أجزاء، الأول منها تناول وصول «صلاح الدين» لحكم مصر أما الجزءان الثانى والثالث فقد تناولوا عصر السلطان «صلاح الدين» وأولاده وفترة حكم السلطان «العادل الأول» إلى سنة (615هـ/1218م)، وتناول الجزء الرابع عصر السلطان «الكامل محمد»، وتناول الجزءان الخامس والسادس عصر «الصالح نجم الدين أيوب» وابنه

الملك المعظم «توران شاه» ومرحلة قيام الدولة المملوكية، وهو من الكتب التي تحتوى على تاريخ مفصل ودقيق للدولة الأيوبية وسلاطينها جميعًا.

هذا ومن المصادر العربية التي اعتمدت عليها كتاب «الكامل في التاريخ» لـ «ابن الأثير الجزري» (555هـ / 1160م - 630هـ / 1238م)، ويعد كتاب الكامل من أضخم كتب التاريخ ذات القيمة الثرية الغنية بالمعلومات المختلفة والتي ينهل منها الباحث دون حساب، فهو من أكثر الكتب تنظيمًا في المكتبة العربية.

هذا بالإضافة إلى ما كتبه المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بـ «أبو شامة» (ت 665هـ / 1267م)، في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»، والذي تناول فيه تاريخ الدولة النورية والأيوبية في عصر السلطان «صلاح الدين» عن طريق ذكر الأحداث الحولية سنة بسنة أخرى، فهو تناول الأحداث بشرح وإسهاب، وتطرق إلى كل ما يتعلق بالدولة النورية، كما تحدث عن تاريخ السلطان «صلاح الدين» ومجيئه إلى مصر والمراحل التي مر بها إلى أن وصل للحكم بعد وفاة الخليفة الفاطمي «العاقد»، وبدء جهاده ضد الصليبيين.

هذا بالإضافة إلى كتاب «الفتح القسى في الفتح القدسى» للعماد الأصفهاني (519هـ - 1125م / 597هـ - 1200م)، والذي ولد بأصفهان وتوفي في دمشق، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب «محمد محمود صبيح»، وهو يعتبر سجلًا حافلًا لما قام به «صلاح الدين» من جهاد وحروب ضد القوى الصليبية في المنطقة من عام (583هـ / 1187م - 589هـ / 1192م)، ومن الكتب التي استفدت منها أيضًا كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لـ «سبط بن الجوزي» وهو سبط شمس أبي المظفر يوسف قزاقلى، ولد في عام 582هـ / 1186م، في بغداد، وكان أبوه عبدًا تركيًا ودرس في مسقط رأسه وأصبح مدرسًا وكاتبًا بدمشق وتوفي عام 654هـ / 1257م، وكتابه من بدء الخليقة وينتهي بعام 1256م.

ولأنه كان مقيمًا في دمشق فقد تحدث في هذا الكتاب عن مراحل النزاع بين مصر والشام لكنه وجه عناية خاصة للأحداث التي كانت دمشق مسرحًا لها بحكم تواجده فيها، ويعتبر من الكتب القيمة في المكتبة العربية.

هذا ومن أهم الكتب العربية أيضًا والتي كانت عونًا لى في الدراسة موضوع البحث كتاب «الأنيق في المناجيق» لابن أرنبغا الزردكاش (كان حيًا سنة 867هـ)، تحقيق الدكتور / «إحسان هندی»، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات الحربية والعسكرية، إذ أن هذا

الكتاب يعد شاهداً على ما كان للعرب من فضل في مجال علم الحروب وآلاتها واستخدام الأسلحة الثقيلة، فإنه دليل قاطع على أن العرب ما فرطوا في العلوم من شيء، وأسهموا في كل مجال وأبدعوا وابتكروا في كل علم، هذا وقد بذل المحقق من الجهود الكبيرة ليأتي هذا الكتاب فريداً في نوعه مفيداً في موضوعه شيئاً في محتواه.

هذا ويشتمل الكتاب على وضع مقدمة في استخدام المنجنيق والأسلحة الثقيلة عند العرب المسلمين، بالإضافة إلى شرح الرسوم التي حوتها المخطوطة التي أوردها «أرنباغ الزردكاش» وحققتها الدكتور/«إحسان هندی» وعلق عليها وشرح العبارات والكلمات الفنية أو الغامضة حسب سياقها في النص، هذا وقد أفدت إفادة كبيرة من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لشيخ المؤرخين «تقي الدين أحمد بن علي المقریزی» (ت 845هـ/ 1442م)، في مجلدين (جزأين)، فقد تحدث عن الخطط في الفسطاط ومن نزل بها وذكر الآثار الواردة بها وأبواب مدينة مصر وما كانت عليه القاهرة وبنائها في عهد الدولة الفاطمية وذكر مسالكها وسورها وأبوابها المختلفة، بالإضافة إلى حديثه عن خزائن السلاح، هذا وقد ذكر ما صارت إليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها، وذكر قلعة الجبل أيضاً، بالإضافة إلى أن هذا المصدر المهم كان قد ذكر كل صغيرة وكبيرة تخص مصر، فقد ذكر المساجد على مر العصور الإسلامية المختلفة، بالإضافة إلى المدارس أيضاً التي بنيت في أماكن متفرقة من مصر المحروسة، هذا إلى جانب الخنقاوات والأربطة والخنادق والمقابر وغير ذلك.

ف«المقریزی» بحق يعتبر موسوعة مهمة لدارسي التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية في كافة العصور ومختلف النواحي، ومن أهم الكتب التي اعتمدت عليها كتاب قوانين الدواوين لـ«الأسد بن ممتی» (ت 606هـ/ 1209م)، ناظر الدواوين وناظر ديوان الجيش في عهد «صلاح الدين» وهو أحد وزراء الدولة الأيوبية البارزين والذي يمكن اعتباره بحق من الكتب الفريدة في بابها، العظيمة في قيمتها، فهو يصف لنا حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على وجه التقريب.

هذا وقد ذكر مصر وفتوحها وأخبارها وخلقجانها وجسورها وترعها، لكن الذي يهمني هنا هو أنه تحدث عن الأسطول وسماه الأسطول المنصور، وذكر أسماء بعض سفن الأسطول على عصر العهد الأيوبي منها الطريدة والحماله والشلندي وغيرها، وكل ما كتبه «ابن ممتی» في كتابه قوانين الدواوين يعتبر وثائق من الطراز الأول؛ لأنه تقلب في كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم أحد وزراء الدولة المستولين.

ومن الكتب المهمة أيضًا كتاب «تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر أعلام الأعلام في العُدَد والآلات المُعِينة على لقاء الأعداء»، تأليف «مرضی بن علی بن مرضی الطرسوسی» المتوفى سنة 589هـ/1193م، والذي ألفه لـ «صلاح الدين الأيوبي» وحققه «كلود كاهين»، فقد تحدث عن أدوات القتال حيث ذكر السيف بأنواعه وتطرق إلى ذكر أدوات القتال الأخرى كالقسي وأصنافها وخصائصها وصفة عملها، والرمح وأنواعه وخصائصه، بالإضافة إلى جميع أدوات القتال وطريقة عمل كل أداة وكيفية التراكيب المختلفة، أما عن النفوط فقد تحدث عن جميع أنواع النفوط وطريقة بل وسر عملها وتركيب كل منها.

هذا وقد أفدت أيضًا إفادة كبيرة من بعض رسائل الماجستير والدكتوراه أهمها رسالة الدكتوراه لأستاذنا الدكتور/ «عبد العزيز عبد الدايم»، وهي «الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر مع دراسة عن فن القتال البحري في عصر سلاطين المماليك»، فقد تحدث عن الأسطول وأهميته وأنواع السفن المختلفة ومعداتنا بالإضافة إلى حديثه عن فن القتال البحري.

ومن الرسائل العلمية أيضًا التي أفدت منها رسالة للدكتور/ «حسين عليوة»، ألا وهي «السلح المعدنى للمحارب المصرى فى عصر سلاطين المماليك».

فقد أفدت منها فى معرفة أنواع الأسلحة المختلفة فى العصر الأيوبي، والتي استمر استخدامها فى العصر المملوكى.

هذا بالإضافة إلى رسالة دكتوراه أخرى لـ «أسامة سيد على أحمد»، وعنوانها «الظهير الشامى ودوره فى الصراع الإسلامى الصليبي».

وقد أفدت منها فى معرفة العناصر المعمارية المهمة التى نقلها الصليبيون عن العرب فى حصونهم والعوامل التى أثرت فى سقوط القلاع، بالإضافة إلى أنه تحدث عن أدوات القتال والأسلحة المختلفة مثل الأبراج والكباش وسلام الحصار والمنجنيق وغير ذلك.

ومن أهم الرسائل التى أفدت منها إفادة كبيرة رسالة ماجستير لأجفان الصغير وعنوانها «القلاع فى فترة الحروب الصليبية ودورها الاقتصادى والاجتماعى والإدارى عند المسلمين فى بلاد الشام»، فقد استفدت منها فى معرفة النواحي الحضارية للقلاع، أما عن الدور الاقتصادى للقلاع فقد كان مهمًا جدًا بوصفها محطات تجارية ومستودعات لحفظ المواد التموينية والغذائية ولعبت دورًا محوريًا فى حفظ المياه فى الخزانات والصهاريج وحفظ الخيول والمواشى، بالإضافة إلى الأدوار المختلفة الأخرى كالدور الاجتماعى وغير ذلك.

هذا بالإضافة إلى أنني أفدت أيضًا من خاتمة هذه الرسالة في معرفة دوافع بناء القلاع عند المسلمين، وأهمية الأسوار والمتاريس ومميزات معظم القلاع الشامية.

هذا وقد استفدت أيضًا من بعض المقالات العلمية التي وردت في المجلات العلمية المختلفة منها مقال بعنوان «الإعداد المعنوي للحرب الصليبية المضادة» للدكتور/ «صلاح الدين البحيري» بالمجلة التاريخية المصرية، العدد الحادي والعشرون، وهو قد تحدث عن هزيمة البيزنطيين في موقعة ملاذكرد، وكيف أن السلاجقة استولوا على آسيا الصغرى، هذا وقد تحدث أيضًا عن البابوية التي قد سنحت لها الفرصة للانتقام من الدولة السلجوقية عندما حلَّ بها الانهيار والتفتت والذي حلَّ أيضًا بالخلافة الفاطمية بمصر، وتحدث عن مقدمات الحملة الصليبية الأولى ودعوة البابوية لها في الغرب الأروبي.

هذا وقد استفدت أيضًا من مقال مهم للدكتور/ «عبد الرحمن زكي»، وعنوانه «القلاع في الحروب الصليبية» بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، فهو يتحدث عن القلاع، ولماذا شيدت الحصون، ومراحل بناء القلاع وأهم مميزات القلاع وتقسيمها حسب الأهمية العسكرية، سواء لتأمين طريق الحج أو لتحصين المدن الساحلية والقلاع الإستراتيجية، هذا بالإضافة إلى أنه تحدث عن الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية بالإضافة إلى حديثه عن أثر العمارة العربية على الغرب.

أما مقالته التي تحمل عنوان «بين قلاع العرب وقصورهم»، المجلة، العدد الخامس، فقد أفادتني كثيرًا، فالجزء الخاص الذي أفادني هو قلاع الأيوبيين في الشام واهتمامهم بها إلى جانب أنه تحدث عن قلعة حلب وقلاع شرق الأردن وتبادل الأساليب المعمارية بين الشرق والغرب، وقد كان له مقال أيضًا بعنوان «صناعة السيوف الإسلامية في الشرق الأدنى في العصور الوسطى»، المجلد الخامس بالمجلة التاريخية، والتي يتحدث فيها عن السيوف المختلفة وأنواعها ومواطن صناعتها ويشير إلى موطنها الأصلي ويذكر أنه الهند، هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات التي سوف يرد ذكرها في قائمة المصادر والمراجع، إضافة إلى العديد من المراجع الأجنبية المختلفة التي سيرد ذكرها في القائمة الخاصة بالمصادر والمراجع.

هذا وقد ألحقت بالبحث موضوع الدراسة بعضًا من الصور والأشكال لتوضيح بعض المفاهيم الخاصة بالبحث وذلك في مجلد خاص.

هذا بالإضافة إلى الخاتمة التي حملت العديد من النتائج الخاصة بالبحث موضوع الدراسة...



■ الفصل الأول

الأخطار الداخلية والخارجية في العصر الأيوبي

توطئة

في بداية الحديث عن هذا الجزء المهم من تاريخ العصور الوسطى بوجه عام، وتاريخ الدولة الأيوبية بوجه خاص، لا بد أن أذكر أنى لست بأول من تعرض للكتابة والحديث عن هذا الجزء المهم من تاريخ العصور الوسطى بل هناك من المؤرخين العلماء من حفروا بأقلامهم، ونقبوا بجهودهم عن هذه الحقبة المهمة من تاريخ العصور الوسطى، وتحدثوا عن المخاطر المختلفة التي تعرضت لها الدولة الأيوبية سواء بالداخل أو بالخارج، ودور قوادها وسلاطينها في حمل راية الجهاد ضد هذه الأخطار التي واجهتهم، فتاريخ الأيوبيين يمثل صفحة مضيئة ومشرقة في تاريخ الإسلام، ويمثل عصر جهاد وأمجاد وبطولات وانتصارات حاسمة كان قد توجهها «صلاح الدين الأيوبي» البطل والقائد العظيم.

هؤلاء المؤرخون منهم القدامى⁽¹⁾ ومنهم المحدثون⁽²⁾.

الأحوال السياسية في الشرق الأوسط قبيل قيام الدولة الأيوبية

قامت الدولة العباسية في سنة (132هـ / 751م)، وقد توالى على عرشها عدد من الخلفاء العظام، أمثال «المنصور» و«المهدى» و«الرشيد» و«المأمون» فحافظوا على كيانها وأملاكها وردوا عنها غارات الروم الشرقيين وأحرزوا ضدّهم الانتصارات الكثيرة⁽³⁾، ثم تولى الخلافة

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ابن شداد، كتاب سيرة صلاح الدين المسماة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، الأسعد بن ممتى، قوانين الدواوين، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، إبراهيم الخنيلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.

(2) سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، والسيد الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي جزءان، أحمد مختار العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبي... وغيرها من المراجع الحديثة.

(3) مزيد من التفاصيل عن الدولة العباسية انظر محمد بك الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ط الحلبي 1930، د/ السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب (3) العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة 1398هـ عبد المنعم ماجد: العصر العباسي: مكتبة الأنجلو 1973، د/ حسن أحمد محمود، د/ أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي: دار الفكر العربي بدون تاريخ.

من بعدهم عدد من الخلفاء أقل شأنًا وأضعف شخصية فاستبد بأموورهم الوزراء والقواد، وانفصل عن الدولة في القرن الثالث كثير من أطرافها.

فقامت في المغرب الأقصى دولة الأدارسة، وفي إفريقية دولة الأغالبة، واستقل بمصر الطولونيون ثم الإخشيديون، وباليمن الزياتيون ثم ورثت دولة الفواطم ملك الأغالبة في نهاية القرن الثالث الهجري، ولم تلبث أن فتحت مصر وجعلتها مقر حكمها في منتصف القرن الرابع الهجري ثم ضمت إليها ملك اليمن وبلاد المغرب والشام⁽¹⁾.

وفي المشرق قامت الدولة الطاهرية⁽²⁾ ثم الدولتان الصفارية والسامانية⁽³⁾، وهي دول استقلت بأطراف الدولة العباسية الشرقية خلال القرن الثالث الهجري، وفي منتصف القرن الرابع قوى شأن البويهيين الشيعة⁽⁴⁾ ودخلوا بغداد نفسها، واغتصبوا السلطة في أيديهم، ولم يصبح للخليفة العباسي في عهدهم إلا الصفة الرسمية والمكانة الروحية، هكذا نجد أن شرق البحر المتوسط وما يليه من الأقاليم الآسيوية قد خضع في النصف الأول: من القرن الحادي عشر الميلادي لقوتين:

الأولى: مسيحية رمزها الإمبراطورية البيزنطية.

الثانية: إسلامية شيعية رمزها الدولة الفاطمية.

ويقابل هاتين القوتين الخلافة العباسية في بغداد، تلك التي حل بها الضعف والانهيار وسيطر عليها البويهيون الشيعيون تمام السيطرة⁽⁵⁾، مما سبق يتضح لنا أنه لم يكد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي يشرف على منتصفه حتى كانت الدول الإسلامية تبدو وكأنها جدار يوشك على الانقضاض والانهيار نتيجة تعدد الخلافات في الأندلس ومصر والعراق⁽⁶⁾.

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي، الجزء الثاني، دار المعارف 1967م، ص3.

(2) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، الطبعة الأولى سنة 1988م، 1409هـ، ص13.

(3) عبد النعيم محمد حسنين، دولة السلاجقة، الناشر من مكتبة الأنجلو المصرية 1975م، ص12.

(4) فتحى أبو سيف، المرجع السابق، ص113، عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص9.

(5) السيد الباز العريني، مصر في عيون الأيوبيين، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة 1960م، ص5.

(6) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ص4، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1999م، ص16.

ومما هو جدير بالذكر أن هناك ثلاث ظواهر قوية جدية بالملاحظة لا بد من ذكرها كان لها أثر في تاريخ الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس قبيل الحروب الصليبية، وهي:

- (1) ظهور قوة الأتراك السلاجقة.
- (2) ظهور قوة الفاطميين.
- (3) ظهور الدولة البيزنطية، وهي القوة الثالثة في الشرق الأدنى.

أولاً: ظهور قوة الأتراك السلاجقة

عندما قدم السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أنقذوا الخلافة العباسية⁽¹⁾ وساعدوا الخليفة العباسي على التخلص من نفوذ البويهيين الشيعة⁽²⁾، ولم يلبث السلاجقة أن لموا الشمل وضموا الشتات فأخضعوا لنفوذهم بلاد الفرس والشام وآسيا الصغرى⁽³⁾، فأصبح السلاجقة بذلك حماة السنين، وعدة الخلافة العباسية، وأداتها الحربية في مهاجمة أعدائها من البيزنطيين والفاطميين⁽⁴⁾، فدولة السلاجقة هي القوة الإسلامية الحقيقية التي كانت تسيطر على شئون الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجري/ وأوائل القرن السادس الميلادي⁽⁵⁾، هذا وقد استولى السلاجقة على جانب كبير من ممتلكات كل من البيزنطيين والفاطميين، وتوغلوا في آسيا الصغرى، فأقام السلطان السلجوقي ملك شاه مملكة تمتد من إقليم ما وراء النهر إلى الأناضول والشام كله بما في ذلك دمشق وحلب وأنطاكية⁽⁶⁾.

وقد برز من ملوك السلاجقة العظام ثلاثة، وهم «طغرل بك» (429هـ / 1037م - 455هـ

(1) عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص 9.

(2) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص 15.

(3) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص 4-5.

(4) السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص 5.

(5) يجمع معظم المؤرخين على أن السلاجقة يرجع أصلهم إلى الأتراك الغز (أمة عظيمة من الترك) الذين ظهروا في التاريخ كمجموعة تركية للإمبراطورية التركية في القرن السادس الميلادي، والسلاجقة أحد فروع القبائل التركمانية الغزية.

لمزيد من التفاصيل انظر: عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، النهضة المصرية 1959 م ص 16، د/ محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ط 1، 2001م، ص 29.

محمد محمود إدريس، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى 1983م، دار الثقافة والطباعة والنشر، ص 15، عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص 17.

(6) السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص 5.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

1063م⁽¹⁾، «ألب أرسلان» (455هـ / 1063م - 465هـ / 1072م)⁽²⁾، «ملك شاه» (465هـ / 1072م - 485هـ / 1092م)، وقد قنع هؤلاء في سياستهم الداخلية بالسلطان الدنيوي الفعلي وتركوا للخليفة العباسي كل مظاهر السيادة الاسمية والروحية⁽³⁾.

سياسة السلاجقة الخارجية

أما عن سياستهم الخارجية وخاصة مع دولة الروم الشرقية، فقد لجئوا إلى السيف وجعلوه الحكم بين الدولتين وأحرزوا ضد هذه الدولة انتصارات كثيرة متتالية، كان أهمها النصر الذي أحرزه «ألب أرسلان» على الإمبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجينيس» (460هـ / 1068م - 463هـ / 1071م) في موقعة ملاذكرد سنة (463هـ / 1071م)⁽⁴⁾، والتي انتهت بأسر الإمبراطور البيزنطي وهو جريح⁽⁵⁾.

هكذا تقدم المسلمون لأول مرة في أملاك الدولة البيزنطية⁽⁶⁾ واستولوا على أجزاء واسعة من آسيا الصغرى وضموها لأملاكهم، هذا مما ترك صدًى خطيراً في نفوس ملوك وأمراء أوروبا، وبانقضاء عهد سلاطين السلاجقة العظام تفككت وحدة الدولة السلجوقية⁽⁷⁾ وانهارت، إذ أنه بوفاة السلطان السلجوقي «ملك شاه» (485هـ / 1092م)، دب النزاع بين أبناء البيت السلجوقي إذ أعلن «تتش» أخو «ملك شاه» وأمير الشام الحرب على «بركياروق» ابن «ملك شاه»، انتهت بانتصار «بركياروق» على عمه «تتش» سنة (489هـ / 1096م) بالقرب من الرى⁽⁸⁾، حيث لقي «تتش» مصرعه⁽⁹⁾، وتطورت الأحداث مرة أخرى حيث تفككت

(1) تعتبر سنة 429هـ / 1037م هي بدء قيام دولة السلاجقة من الناحية العملية، أما من الناحية النظرية فقد كان السلطان السلجوقي في هذا الوقت بحاجة إلى تفويض شرعي من الخليفة العباسي، لمزيد من التفاصيل انظر: د/ محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص 51، عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة، ص 11، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج 1، ط 2، دار الثقافة للطباعة والنشر 1404هـ / 1984م، ص 35.

(2) محمد محمود إدريس، المرجع السابق، ص 28.

(3) السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص 16-17، جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية ص 5.

(4) محمد عبد العظيم أبو النصر، المرجع السابق، ص 87.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة 1978م، ص 85.

(6) محمد أبو النصر، المرجع السابق، ص 87.

(7) محمد أبو النصر، المرجع نفسه، ص 111.

(8) محمد محمود إدريس، المرجع السابق، ص 29.

(9) المقرئ، تقى الدين أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1934م، جزءان، الجزء الأول 3 أقسام، الجزء الثاني قسامان، ج 1، ص 34، ص 35، ص 41، انظر أيضاً سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 107، 113.

ممتلكات «تتش» بالشام نتيجة لنزاع نشب بين ولديه «رضوان» و«دقاق»⁽¹⁾، إذ أراد كل منهما أن يستأثر بملك أبيه وجده وكان «رضوان» يحكم في حلب، على حين سيطر «دقاق» على دمشق وديار بكر والجزيرة⁽²⁾، وانحاز إلى «رضوان» قبيلة كلاب العربية، و«سكمان بن أرتق التركمانى» صاحب سروج⁽³⁾، على حين انضم إلى «دقاق» صاحب أنطاكية «ياغى سيان»⁽⁴⁾، و«الغازى الأرتقى»، ولم يلبث «ياغى سيان» أن تحول إلى جانب «رضوان» وجرت الاستعدادات، وبينما الأحداث في سيرها متوالية، جاءت الأنباء بقدم الصليبيين، فتفرق المتنازعون وتوجه كل منهم إلى إمارته لحمايتها من الصليبيين، وبذلك انهار ما حدث من المحالفات.

ثانياً: ظهور قوة الفاطميين

أسقط الفاطميون ملك الأغالبة⁽⁵⁾، وبعد أن أسقطوا ملكهم ورثوه مع أسطولهم،

(1) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص 88.

(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 1، ص 107 - 113.

(3) السيد الباز العرينى، مصر في عصر الأيوبيين، ص 6.

(4) عبد العزيز محمود عبد الدايم، بيت المقدس في العصر الأيوبي، القاهرة 1989م، ص 65.

(5) من المؤكد أن دعاة الإسماعيلية كانوا يعملون بصبر وجلد لتنتشر دعوتهم في ربوع الأرض وليسقطوا الخلافة العباسية، وقد كان اليمن وشمال إفريقيا أهم الأمكنة التي وجهوا لها عنايتهم، ونجحت دعوتهم في المكانين، غير أن الشمال الإفريقى كان أهم للدعوة من جهة أنه يتمتع بالإضافة إلى عزله بانفساحه واتصاله بمصر، وكان لهم داعية شهير اسمه أبو عبد الله الحسين بن أحمد وشهرته أبو عبد الله الشيعى وكان باليمن، وفي إفريقيا أعلن عبد الله أنه يدعو إلى أبو عبيد الله المهدي من نسل على بن أبى طالب وأنه يقيم بالشام ونجحت دعوة أبو عبد الله بإفريقيا نجاحاً عظيماً، وفي خلال هذه الانتصارات مات أبو عبيد الله المهدي، وقامت الدعوة لابنه عبيد الله المهدي وسرعان ما ازدادوا قوة وانتصروا على أعدائهم من العباسيين الذين سلطوا عليهم الأغالبة بقيادة زياد الله بن الأغلب فهزمهم المهديون، وتولى عبيد الله المهدي زمام الأمور بالقيروان وكانت دول إفريقيا الثلاث تتدهور واحدة بعد الأخرى وتضعف قواها فورثها العبيديون جميعاً وقد بدءوا بتونس فأسقطوا ملك الأغالبة ومدوا نفوذهم إلى الجزائر وأسقطوا ملكهم (ملك آل رستم)، فمراكش حيث قضوا على بقايا الأدارسة، ودان لهم الشمال الإفريقى.

لمزيد من التفاصيل عن الفاطميين، انظر، فرحات الدشراوى، الخلافة الفاطمية بالمغرب، نقله إلى العربية حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994م، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة 1981م ص 326، 384، الداعى إدريس عماد الدين المتوفى 872هـ / 1488م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق محمد البعلاوى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1985م، أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الطبعة السابعة، ج 4، مكتبة النهضة المصرية، 1984م، ص 291.

واستطاعوا أن يواصلوا نشاط الأغلبة بالبحر الأبيض المتوسط وأن يوسعوا نفوذهم في الشمال الإفريقي ويتطلعوا إلى فتح مصر⁽¹⁾.

زحف الفاطميين إلى القاهرة

تطلع الفاطميون منذ سنيهم الأولى إلى مصر، ولم تكد تظهر دولتهم بشمال إفريقيا حتى أخذوا يعدون العدة للزحف على الشرق، إذ كانت مصر تمر بمرحلة من الفوضى والاضطراب خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية (292هـ / 906 م)، وقيام الدولة الإخشيدية (323هـ / 935 م)، إذ عادت في تلك الفترة إلى سلطان العباسيين⁽²⁾.

وفي خلال هذه الفترة قام الفاطميون بمحاولات ثلاث لاحتلال مصر، ولكنها فشلت إلا المحاولة الثالثة، التي نجحت في بدايتها ثم فشلت، بعد ذلك تولى الإخشيديون حكم مصر ولكنهم ضعفوا في نهاية حكمهم، وانتهز الفاطميون فرصة ضعفهم، وبادروا بفتح مصر، وتجمعت الظروف للفاطميين، وآلت الخلافة الفاطمية إلى «المعز لدين الله» وأعاد المعز للبلاد الأمن والرخاء والاستقرار، واستطاعت الخلافة الفاطمية في عهد «المعز» أن تمتد غرباً حتى وصلت المحيط الأطلسي وقضت على بقايا الأدارسة وعلى سلطان القبائل بمراكش على أثر ضعف الأدارسة، وكانت جيوش الخلافة يقودها «جوهر الصقلي»⁽³⁾، وتمكّن «المعز» وقائده «جوهر الصقلي» من فتح مصر بسبب ضعف واضطراب الإخشيديين، وضعف الدولة العباسية، فرحب الشعب المصري بالفتح الفاطمي لمصر⁽⁴⁾.

ثالثاً: ظهور الدولة البيزنطية

تعتبر الدولة البيزنطية القوة الثالثة في الشرق الأدنى⁽⁵⁾، رغم أنها تعرضت قبيل الحروب الصليبية لتغيرات بالغة الأهمية، نظراً لتطور الموقف في الشرق الأدنى، ذلك أن انتصارات السلاجقة⁽⁶⁾ بقيادة «ألب أرسلان» على البيزنطيين بقيادة الإمبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجينيس» في موقعة ملاذكرد (مانزيكرت) (463هـ / 1071 م)⁽⁷⁾، وبحق كانت هذه

(1) أحمد شلبي، المرجع السابق، ج4، ص292.

(2) أحمد شلبي، المرجع نفسه، ج4، ص293.

(3) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص326، 384.

(4) أحمد شلبي، المرجع السابق، ج4، ص295، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ص284، 326.

(5) جمال الدين الشيبان، المرجع السابق، ص6 ص7، السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص7، 8.

(6) سعد محمد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن دراسة تاريخية أثرية إستراتيجية، دار البشير، 1987م، ص30.

(7) رافت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، 1998م، ص6، سعيد عبد الفتاح

عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص85.

الواقعة كارثة عظمى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية⁽¹⁾، غير أن هناك من المؤرخين من يعتبر أن هزيمة الإمبراطورية البيزنطية في «ملاذكرد» من أسود أيام تاريخ بيزنطة الطويل⁽²⁾، إذ فقدت الإمبراطورية البيزنطية في ساحة القتال خير ما عندها من قوات، فاستولى السلاجقة بقيادة «سليمان بن قطلمش»⁽³⁾ على آسيا الصغرى فخسرت بيزنطة بذلك مصدرًا كانت تستمد منه معظم قواتها، ولم يبق للإمبراطورية البيزنطية حين تولى عرشها «ألكسيوس كومنينوس»⁽⁴⁾ 474هـ / 1081م من الأملاك في آسيا الصغرى سوى سواحل البحر الأسود وبعض المدن الداخلية المتناثرة⁽⁵⁾.

الحروب الصليبية: تعريفها - أسبابها وظروفها

شهدت العصور الوسطى عامة والقرنان الثاني عشر والثالث عشر الميلاديان خاصة، حركة من أخطر الحركات في تاريخ الإنسانية ألا وهي الحروب الصليبية، لما تمخضت عنه تلك الحروب من النتائج الفعالة في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية⁽⁶⁾، فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب⁽⁷⁾، هذا ويمكن القول بأن الحروب الصليبية ما هي إلا حركات كبرى ظهرت في الغرب الأوروبى في العصور الوسطى، واتخذت طابع الهجوم الحربى على بلاد المسلمين، وخاصة بلاد الشام بقصد امتلاكها، وقد ظهرت هذه الحركة من طبيعة الأوضاع الفكرية والاقتصادية والدينية، التى سادت غرب أوروبا في القرن الحادى عشر، واتخذت من استغاثة نصارى الشرق بالأوروبيين ضد المسلمين ستارًا دينيًا لتعبر عن نفسها تعبيرًا عمليًا

(1) ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د/ السيد الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت، ج 1، الطبعة الثانية، 1980م، ص 110.

(2) صلاح الدين البحرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الحادى والعشرون، 1974م، ص 122.

(3) رنسيان، المرجع السابق، ج 1، ص 111.

(4) رنسيان، المرجع السابق، ج 1، ص 119، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 1، ص 97.

(5) لمزيد من التفاصيل عن الدول البيزنطية انظر نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية تعريب د/ حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / 1369هـ - 1950م، ص 384 ص 387، انظر أيضا، د/ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، سنة 1403هـ / 1983م، دار النهضة العربية، ص 229، 235.

(6) حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى، الطبعة الأولى، القاهرة 1947م، ص 15.

(7) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 1، ص 22، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 63.

واسع النطاق⁽¹⁾، هذا وقد عرّف الدكتور «زيادة» الحروب الصليبية على أنها «حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمدت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب، ومن توغل الفتوح العربية الإسلامية الأولى في أطراف الإمبراطورية البيزنطية، وفي أجواف الممالك المسيحية الغربية في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وجزر البحر المتوسط»⁽²⁾، والواقع أن الذى فكّر في الحروب الصليبية وقام بها هو الغرب المسيحي وبتوجيه أولى من البابوية، والهدف هو الاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين⁽³⁾، وبخاصة مدينة القدس وقبر المسيح «عيسى بن مريم» في بيت لحم القريب من القدس⁽⁴⁾.

أصل الحروب الصليبية والظروف والأسباب التى أدت إليها

لا شك أن أصل الحروب الصليبية كلها عند البابوية، حيث كان هدفها تقوية العالم المسيحي، وتفاصيل ذلك أنه عندما استنجد الإمبراطور البيزنطى «ألكسيوس الأول كومنينوس» (474هـ / 1081 م - 512 هـ / 1118 م) بالبابا «أربانوس الثانى» (إيربان) (481هـ / 1088 م - 493هـ / 1099 م) ضد الهجمات المتتالية المتزايدة التى تعرضت لها الدولة البيزنطية، وخاصة من الأتراك السلاجقة⁽⁵⁾ الذين اكتسحوا أملاكها حتى إنهم هددوا القسطنطينية نفسها⁽⁶⁾، وسنحت الفرصة للبابوية لتحقيق أهدافها، وقد نجحت في اختيار الوقت المناسب خاصة بعد التفتت الذى طرأ على وحدة الإمبراطورية السلجوقية الإسلامية في أعقاب وفاة السلطان السلجوقى «ملك شاه»، بالإضافة إلى الضعف الذى أصاب الخلافة الفاطمية في مصر⁽⁷⁾، واستجابة لهذا الاستنجد دعا البابا «أوربان الثانى» في اجتماع دينى عقد في كنيسة كليرمونت⁽⁸⁾ في 488هـ / 1095 م الغرب الأوروبى إلى مساعدة

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج1، ص26.

(2) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط1 القاهرة 1961م، المقدمة، ص ز، ص ح.

(3) حسن حبشى، المرجع السابق الأولى، ص15، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص6، على حسن الخربوطلى، مصر العربية الإسلامية منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، 1963م، ص260 - 261.

(4) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى، 1987م، ص267.

(5) عبد العزيز محمود عبد الدايم، المرجع السابق، ص64.

(6) عبد النعيم حسنين، المرجع السابق، ص88.

(7) صلاح الدين البحرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية، ص124.

(8) ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج1، ص170، صلاح الدين البحرى، الإعداد المعنوى للحرب الصليبية، ص124، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، تحقيق عصام محمد شبارو، ط1، 1988م، ص124، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص6، الخربوطلى، المرجع السابق ص261، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية، إبريل 1960م، ص5.

البيزنطيين⁽¹⁾، هكذا جاءت الدعوة إلى الحروب الصليبية لتحقيق آفاق وآمال عريضة فقد كانت أول حادثة أوروبية عامة⁽²⁾ قد جمعت جميع طوائف الشعب الأغنياء منهم والفقراء، والمعدمين، الأمراء والنبلاء من جميع أنحاء أوروبا.

الحملة الصليبية على الشرق

الحملة الصليبية الأولى (490هـ / 1097م - 492هـ / 1099م)

يعتبر كثير من المؤرخين والباحثين أن الحملة الصليبية الأولى، كانت حملة فرنجية الطابع على بلاد المسلمين، إذ استجاب لنداء البابا نحو 150 ألفاً من الفرنج والنورمنديين⁽³⁾ من جميع أنحاء البلاد الأوروبية، ففي أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي غزت الشواطئ السورية حملة أوروبية⁽⁴⁾ عرفت بالحملة الصليبية الأولى، هذا وقد كتب لهذه الحملة النجاح والنصر على المسلمين، إذ كان من نتائجها أن تكونت في الشرق مملكة وإمارات ثلاث⁽⁵⁾، الثلاث منها في بلاد الشام والواحدة في شمال غربي الجزيرة الفراتية، وهذه الإمارات حسب ترتيب ظهورها هي إمارة الرها (ربيع الأول 491هـ / فبراير 1098م)، إمارة أنطاكية (رجب 491هـ / يونيو 1098م)، مملكة بيت المقدس (شعبان 492هـ / يوليو 1099م)، إمارة طرابلس (ذو الحجة 502هـ / يوليو 1109م)⁽⁶⁾، هكذا سقطت القدس في أيدي الصليبيين في عام 492هـ / 1099م⁽⁷⁾، وباستيلاء الصليبيين على بيت المقدس تحقق لهم الهدف الأساسي من الحروب الصليبية⁽⁸⁾، وقد كان السبب الأساسي في نجاح الحملة الصليبية

- (1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 1، ص 127، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 64.
- (2) محمد عبد الله عنان المحامي، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1934م، ص 96، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 6.
- (3) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، راجعه جبرائيل حبور، الجزء الثاني، بيروت 1959م، ص 224.
- (4) الخربوطلي، المرجع السابق، ص 262 - 263.
- (5) ذكرنا أنه أصبح للصليبيين في الشرق مملكة وثلاث إمارات، إمارة إنطاكية في الشمال التي امتدت على ساحل البحر الأبيض إلى جبال طوروس وشمال الشام، وإمارة الرها على الفرات التي امتدت من مرعش إلى منبج في الجنوب، وإمارة طرابلس التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذا لها على الساحل، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان، ثم مملكة بيت المقدس الممتدة من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، لمزيد من التفاصيل انظر حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 10.
- (6) حامد غنيم، المرجع السابق، ص 122 - 123.
- (7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 73، سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 41 - 42.
- (8) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول، دار النهضة العربية 1963م، ص 277.

الأولى هو تفكك العالم الإسلامي⁽¹⁾ وانقسام دولة السلاجقة، وحرمان المسلمين من زعيم يوحد كلمتهم ويجمع قواتهم تحت رايته، ويقودها ضد الصليبيين⁽²⁾.

حركة النهوض وبداية الجهاد الإسلامي

من المؤكد أن سقوط القدس، واحتلال الصليبيين لسواحل الشام، وإنشاء الإمارات الصليبية كان له رد فعل عنيف في العالم الإسلامي، وإذا كان الملوك والأمراء قد تقاعسوا عن الدخول في حرب مع المحتلين نتيجة الخلاف والانقسام بينهم، فقد أخذت جماهير المسلمين تتحرك مطالبة بالقيام لحرب المعتدين⁽³⁾، هذا وقد أشعل نار الحماس الديني⁽⁴⁾ عند المسلمين ما فعله الصليبيون في الأراضي المقدسة من المذابح والاعتداء على المقدسات الإسلامية، وجباية الأموال من المسلمين، فضلاً عن تعرضهم لنهب قوافل التجار المسلمين.

كل هذا أثار عواطف المسلمين وحفزهم للتجمع تحت راية الجهاد، وكان أول من رفع راية الجهاد ضد الصليبيين هو «شرف الدولة مودود» (502هـ / 507هـ - 1108م / 1113م)⁽⁵⁾ أمير إمارة الموصل وكان أخو السلطان «محمد السلجوقي»، وهو أول من أدرك أن القضاء على الصليبيين لا يتم إلا إذا تحالف أهل الشام وأهل العراق ليصبحوا يداً واحدة⁽⁶⁾، عمل «شرف الدولة مودود» على جمع الأمراء حوله للخروج للجهاد⁽⁷⁾ وكانت هذه أول مرة يتجمع فيها هذا العدد من الأمراء لقتال الصليبيين، ولهذا تعتبر هذه الحملة فاتحة عهد جديد في تاريخ الشرق الإسلامي في هذا العصر، ونقطة التحول من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم، وكان ذلك عام (503هـ / 1110م - 504هـ / 1111م)⁽⁸⁾.

(1) لمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الأولى انظر، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص 192-194، فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، الطبعة الثالثة، بيروت 1985م، ص 75، 114.

(2) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص 6.

(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

(4) حسين مؤنس، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، القاهرة، 1959م الطبعة الأولى ص 13، انظر أيضاً فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 199-201.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليبات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة 1382هـ / 1963م، ص 17-19، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 78.

(6) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 121.

(7) انظر:

W.B. Stevenson: The crusades in the East, Cambridge 1907, P91.

(8) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 123-125.

جمع «مودود» جنوده واقتحم أراضي إمارة الرها في بلاد الجزيرة، وخرَّب كثيرًا من بلاد الأرمن الساكنين هناك، وأسر عددًا من جنود صليبيين فكان هذا فاتحة لحركة النهوض الإسلامية والتجمع لحرب الفرنج⁽¹⁾، لكن الزمن لم يمهل حتى يقضى على الفرنج أعداء الإسلام، فقد قتل في الجامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة 507هـ / 1113م، تسلم راية الجهاد بعد «شرف الدولة مودود» رجل من حلفائه شاركه معظم حملاته وتشبع من فكرة الجهاد وهو «نجم الدين إيلغازي» صاحب ماردین⁽²⁾ من بلاد الجزيرة، ودخل الأراضي التي كان يسيطر عليها الصليبيون، والتقى بقوة صليبية عند بلدة قسطون غرب معرة النعمان جنوب حلب سنة 513هـ / 1119م، وانتصر عليها «نجم الدين إيلغازي» وكان لانتصاره على الصليبيين رد فعل قوى في بلاد الإسلام، ولم يمهل القدر «إيلغازي» على مواصلة الجهاد؛ لأنه قتل عام سنة 516هـ / 1122م، وتسلم راية الجهاد من بعده الأمير «آق سنقر» صاحب الموصل⁽³⁾ والد «عماد الدين زنكي» وجد «نور الدين محمود» ولكنه قتل هو الآخر عام (520هـ / 1126م)، وتسلم راية الجهاد ضد الصليبيين وقام بالدور الأكبر «عماد الدين زنكي» (521هـ / 1126م - 541هـ / 1146م) الذي كان أعظم هؤلاء جميعًا⁽⁴⁾ كبير أمراء السلاجقة، وأتابك الموصل⁽⁵⁾ والعراق⁽⁶⁾ والذي نجح في استعادة مدينة الرها⁽⁷⁾ من الصليبيين (رغم ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية

(1) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 268.

(2) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 134.

(3) كان هناك بعد إيلغازي وقبل آق سنقر صاحب قلعة خرتبرت نور الدولة بلك بن برهام بن أرتق وصاحب حلب تمرتاش انظر شاكر أبو بدر: المرجع السابق، ص 46-47.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 78.

(5) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر (دمياط والمنصورة) مطبعة النيل، القاهرة، مارس، 1945م / 1364هـ، ص 6، عبد المنعم ماجد العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت سنة 1966م، ص 154.

(6) شاكر أبو بدر، المرجع السابق، ص 57، حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، سنة 1948م، ص 22.

(7) ابن واصل، (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، 5 أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953م، ج 1، ص 94، ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين، المتوفى سنة، 630هـ، الكامل في التاريخ، إدارة الطباعة الميترية 1348هـ، حوادث 539هـ، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 593، ماجد، المرجع السابق، ص 156، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص 25، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص 7، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 78.

W.B. Stevenson, op.cit, P150.

على طالبيها⁽¹⁾ بعد حصار دام 28 يومًا في سنة (539هـ / 1144م)⁽²⁾، واعتبر ذلك فتح الفتوح بالنسبة للمسلمين، وبالنسبة للصليبيين كانت الخطوة الأولى في هدم البناء الذي شيده الفرنج بالشرق⁽³⁾.

الحملة الصليبية الثانية (542هـ / 1147م - 544هـ / 1149م):

من المؤكد أن الذي دعا الغرب الأوروبي للقيام بحملة صليبية جديدة هو استرداد المسلمين لإمارة الرها، فقد كان لهذا السبب رد فعل قوى في أوروبا وحافز لإرسال الحملة الصليبية الثانية⁽⁴⁾، وفي أثناء وصول تلك الحملة، كان قد مات «عماد الدين زنكي» وخلفه ابنه «نور الدين محمود»⁽⁵⁾ في حكم الشام، واتخذ مدينة حلب مقرًا له، وسار على نهج أبيه في مكافحة الصليبيين⁽⁶⁾، نزلت الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام، وكان هدفها الأول استرداد الرها من أيدي المسلمين⁽⁷⁾، لكن الحملة باءت بالفشل⁽⁸⁾ قبل أن تصل إلى سوريا ولم تنجح في الوصول إلى دمشق، وفقد الصليبيون ثلاثة أرباع قوتهم الأصلية؛ لأنهم انحرفوا عن هدفهم الأصلي، فقد كان صاحب دمشق الخليف الوحيد للصليبيين ضد «نور الدين محمود» ولكن «نور الدين محمود» أسرع للاستيلاء على إمارة دمشق، وكانت تلك الإمارة وصاحبها «معين الدين أنر»⁽⁹⁾ معادية لجهة الجهاد ومخالفة في أحيان كثيرة للفرنج كما سبق أن ذكرنا، وبضم دمشق سنة (549هـ / 1154م)⁽¹⁰⁾، أصبحت جبهة الجهاد عريضة واسعة، تشمل بلاد العراق والجزيرة الفراتية بما في ذلك الموصل وبلاد الشام، ومضى «نور الدين محمود» يعمل

(1) ابن واصل، ج1، ص94، ابن الأثير حوادث سنة 539هـ، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص593.

(2) فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص200-201.

(3) فايد عاشور، المرجع السابق، ص201، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص78.

(4) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد، راجعه محمد مصطفى زيادة، جزءان، القاهرة 1962م، ج1، ص36-37،

52، 53، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص157، حسن حبشي، المرجع السابق، ص50.

(5) فيليب حتى، المرجع السابق، ص234.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص79.

(7) حسن حبشي، المرجع السابق، ص54، السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص26.

(8) آرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، القاهرة 1960م، ص14، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص157.

(9) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبو الفداء) دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 4 مجلدات في جزأين، ج3، ص29، ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص158.

(10) فيليب حتى، المرجع السابق، ص234، السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص6-7.

أكثر من عشر سنوات مناضلاً للصليبيين في كل جهة وناحية من نواحي الشام، بعد أن عمل على اتحاد قوى المسلمين وبناء دولة إسلامية موحدة وقوية.

«نور الدين محمود» بين الفاطميين والصليبيين والاستيلاء على مصر

ذكرنا في الصفحات السابقة ظهور الفاطميين وتمركزهم في القاهرة، ولكن نتحدث عنهم الآن بصورة أخرى حيث نتحدث عن قوتهم في البداية ثم ضعفهم الذي أطمع فيهم الفرنج وتتوالى الأحداث كما يلي، بداية يجب أن نوضح أن الدولة الفاطمية نشأت في بلاد المغرب سنة (296هـ / 909م)، وامتد سلطانها في أواسط القرن الرابع إلى مصر سنة (358هـ / 972م)⁽¹⁾ ومن ثم أخذت تنازع الخلافة العباسية زعامة العالم الإسلامي في الناحية الدينية⁽²⁾، بدأ الفاطميون حكمهم في مصر وعملوا على نشر المذهب الشيعي، وكانت قد ازدهرت في بداية عهدها، واتسعت حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة، بالإضافة إلى إفريقية (تونس)، واستمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة «المستنصر» سنة (465هـ / 1073م)، ثم توالى عليها الأزمات والمصائب والكوارث نتيجة استخدامهم طوائف مختلفة من الجند والتنازع فيما بينهم، حتى انتهت البلاد إلى حالة من الضعف والاضطراب اللذين هويا بها إلى الانحطاط والفوضى، ونتيجة ضعف الخلفاء الفاطميين استبد الوزراء بأمر الحكم، حتى سُمى العصر الفاطمي الثاني بعصر الوزراء العظام⁽³⁾، واستمر النزاع إلى عهد الخليفة «العاقد» آخر الخلفاء الفاطميين، والذي بدأ حكمه باغتيال «طلائع بن رزيك» سنة 556هـ / 1161م⁽⁴⁾ وأقام مقامه «أبا شجاع العادل» الذي نازعه «شاور» في الوزارة سنة 558هـ / 1163م وغلبه وقتله وتولى الأمر مكانه⁽⁵⁾، وكان ينافس «شاور» في الوزارة «ضرغام»، الذي كان أميراً لفرقة من الجند تسمى «البرقية»⁽⁶⁾.

(1) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، تعليق حسين مؤنس، دار الهلال، ط 1 1920م، ط 2 1958م، ص 102.

(2) السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص 6-7.

(3) كان أول الوزراء بدر الجمالي 465هـ - 487هـ، ثم الأفضل بن بدر الجمالي 487هـ ثم شرف المعالي بن الأفضل 487هـ - 515هـ ثم أبو عبد الله محمد المأمون البطائحي 515هـ - 525هـ جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 104.

(4) كان الصالح بن رزيك وزير العاضد صاحب مصر قد ولاه الصعيد الأعلى من ديار مصر، ثم ندم على توليته، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، 1948م، ج 2، ص 156 - 157.

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 40.

(6) لمزيد من التفاصيل انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 152، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 143، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 271.

التنافس بين الوزيرين «شاور» و«ضرغام» وتدخل «نور الدين» والصليبيين

أدرك «نور الدين محمود» في بداية الأمر أن توحيد الجبهة الإسلامية لمحاربة الصليبيين لن يكتمل إلا بالاستيلاء على مصر لغناها بالمال والرجال⁽¹⁾، فأراد أن ييسط نفوذه عليها⁽²⁾ وكان هدفه من ذلك وحدة مسلمي الشام والجزيرة وإقامة وحدة كبرى مع مصر⁽³⁾، وقد سنحت له الفرصة عندما تنافس الوزيران «شاور» و«ضرغام» على حكم مصر⁽⁴⁾، مما أدى إلى وقوع الصدام المسلح بينهما⁽⁵⁾ واستنجد كل من المتنافسين بأعداء الدولة الفاطمية للاستيلاء على مصر⁽⁶⁾، فاستنجد «ضرغام» بالصليبيين، وفر «شاور» إلى الشام واستنجد بـ«نور الدين محمود» صاحب دمشق⁽⁷⁾، وحرص «نور الدين» على ألا تفلت من يده هذه الفرصة؛ لأنها تقربه من الغرض الذي يرمى إليه وهو التعجيل بالقضاء على الدولة الفاطمية⁽⁸⁾ وضم مصر إلى بلاد الشام للوقوف في وجه الصليبيين، وانتهز كل من الصليبيين والنوريين الفرصة للتدخل في شئون مصر، إذ تنافس كل من «نور الدين محمود»، و«عموري الأول» ملك بيت المقدس حول الفوز بديار مصر⁽⁹⁾.

حملات «نور الدين محمود» والصليبيين على مصر

بدأ «نور الدين محمود» يرسل الحملة تلو الأخرى إلى مصر للظفر بها⁽¹⁰⁾.

- (1) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 79.
- (2) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم (البيزنطيين)، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة 1991م، ص 129.
- (3) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 79.
- (4) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص 7.
- (5) عبد السلام عبد السلام، دليل متحف الآثار بكلية الآداب، الإسكندرية 1959م، ص 23.
- (6) عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص 161.
- (7) انظر:
- Amin Maalouf, The crusades through Arab eyes, Translated by Jon Roth S Child, 1983, P160.
- (8) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية 1926م، ج 28، ص 332 - 333، السيد الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، ص 24.
- (9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 694.
- (10) انظر:

Paul Deschamps, les châteaux de croisés en terre sainte le crac des chevaliers, texte, paris, 1934, p24.

الحملة الأولى

كانت أولى تلك الحملات في جمادى الأولى 559هـ / إبريل 1164م وقد أرسلها «نور الدين محمود» صاحب حلب ودمشق مع «شاور» الذي استنجد به ضد خصمه «ضرغام»، وكانت هذه الحملة بقيادة «أسد الدين شيركوه»⁽¹⁾ الذي صحب معه ابن أخيه «صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب»⁽²⁾ وكان «أسد الدين» عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي معه بمخافة⁽³⁾، وعندما اقترب وصول جيش «نور الدين» إلى مصر علم «ضرغام» بذلك وأصابه الفزع والهلاك والهلع؛ لأن الجيش الفاطمي في حالة لن تمكنه من أي مواجهة عسكرية، فأرسل يطلب من الصليبيين بقيادة «عموري الأول» مساعدتهم للوقوف ضد جيش «نور الدين» مقابل أن يدفع له مبلغا سنويًا من المال⁽⁴⁾، ووافق «عموري»، وبدأ يعد العدة للسير إلى مصر، لكن «شيركوه» أسرع وسبقه في الوصول إليها سنة 559هـ / 1164م، ولما وصل «شيركوه» إلى بليس⁽⁵⁾ خرج «ضرغام» مع جنوده وأخيه «ناصر الدين» لملاقاة «شاور».

(1) أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان، الملقب بـ «الملك المنصور»، أسد الدين عم السلطان صلاح الدين، وشيركوه لفظ أعجمي تفسيره بالعربية أسد الجبل، فشير تعنى أسد، وكوه تعنى جبل، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ترجمة 277، ص176، انظر أيضًا ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، هامش 1، ص7، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص41، المقرئى، اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين والخلفاء، تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد، الجزء الثالث، القاهرة 1393هـ / 1973م، ص266، ماجد، العلاقات، ص161.

(2) أبو الشكر أيوب بن شاذى بن مروان الكردى، الملقب بالملك الأفضل نجم الدين، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قبيلة الروادية أحد بطون الهدبانية، نشأ هو وأخوه أسد الدين شيركوه ببلدوين من أرض أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، ودخلا بغداد وخدموا مجاهد الدين بهروز في بغداد فبعث أيوب إلى قلعة تكريت وأقام بها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وهو أصغر منه سنا واتفق أن شيركوه قتل رجلا بتكريت فطرد هو وأخوه أيوب من قلعتها، فمضيا إلى عماد الدين زنكى صاحب الموصل فأواهما وأقطعهما إقطاعا عنده ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك وأنعم عليه بأمره، واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى في أيام أبيه وخدمه، فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدين أيوب عمل كثير في أخذ دمشق لنور الدين فتمكنا في دولته، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ترجمة 104، ص232، المقرئى، تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية بيولاى القاهرة المعزية 1270هـ، ج2، ص233.

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص331.

(4) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص33.

(5) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر، ج3، ص41، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص98، ابن العديم، كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق د/ سامى الدهان، دمشق الشام 1954م، ج2، هامش 4، ص316، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص80.

W.B. Stevenson, The crusades in the east, P188.

Amin Maalouf, The crusades through Arab eyes, P163.

دار قتال عنيف وأمكن لـ«شاور» وقوات «شيركوه» أن توقع الهزيمة بـ«ضرغام»، وقتل «ضرغام» وأخوه في هذه المعركة وعاد «شاور» وزيراً ولقب بالملك «المنصور» وتمكّن من منصبه⁽¹⁾، وكتب له الخليفة «العاقد» سجلاً بتفويض الوزارة، في هذا الوقت نزل «شيركوه» بجنده بظاهر القاهرة⁽²⁾ منتظراً أن يفى «شاور» بما وعد به «نور الدين»، وهو أن يكون لـ«نور الدين» ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العسكر، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر⁽³⁾ ويتصرف بأمر «نور الدين» واختياره⁽⁴⁾، لكن «شاور» غدر به⁽⁵⁾ وعاد عما كان قرره مع «نور الدين»، وأمر «شيركوه» بالعودة إلى الشام⁽⁶⁾، وطلب «نور الدين» من «شاور» أن يؤدي ما تم الاتفاق عليه، ولم يجبه «شاور» إلى طلبه فأرسل «شيركوه» نوابه إلى بلبس فتسلموها وصار يحكم الأقاليم الشرقية، واتخذ بلبس مقرّاً لقيادته وتحصن بها⁽⁷⁾، عندئذ بادر «شاور» بالاتصال بالفرنجة ودعاهم إلى إخراج «شيركوه» وجيشه بالقوة ووعدهم ببذل الأموال الكثيرة إذا نجحوا في إرغام «شيركوه» على الانسحاب من مصر، رحب «عموري»⁽⁸⁾ بالدعوة وأسرع بالخروج على رأس جيشه واتجه به في سنة 559هـ / 1164م نحو مصر، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجة ونازلوا بلبس وحاصروها، وحماها «أسد الدين» وعسكره ثلاثة شهور⁽⁹⁾، وعندما أحس «نور الدين محمود» بما يتهدد جيشه في مصر من أخطار، عمل على إحكام الضغط على أملاك الصليبيين في الشام، وأرسل الأعلام التي غنمها في معاركه مع الفرنجة إلى «شيركوه» ليضعها على أسوار بلبس، فرآها الصليبيون، وفكروا في الانسحاب من البلاد، وانتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على أن يجلو كل منهما عن مصر في آن واحد.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص332.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335، ابن العديم، زبدة حلب، ص317، الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، ص27.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن جابر الحضرمي الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري، كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج4، ص88.

(4) ابن العديم، زبدة حلب، ص316-317.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص335.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص85.

(7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص41، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص139-140.

(8) انظر:

W.B Stevenson, The crusades, PP188 – 189

(9) ابن واصل مفرج الكروب، ج1، ص139-140، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص337.

الحملة الثانية

رحل كلٌّ من الصليبيين و«شركوه» إلى بلاده وكل منهما تحدّثه نفسه بالرجوع مرة أخرى إلى مصر، ولما غدر «شاور» بـ«نور الدين محمود» ورجوعه عن عهده واتفاقه معه فكر «نور الدين محمود بن زنكي» سنة (562هـ / 1166م)، أن يرسل «شركوه» إلى مصر ليملكها، وسير معه جماعة من الأمراء⁽¹⁾ وصحب «أسد الدين» معه ابن أخيه، ثم سار إلى الديار المصرية وعبر النيل عند إطفيح⁽²⁾ بالجانب الغربي ونزل بالجيزة⁽³⁾ مقابل مصر، فأقام فيها ما يقرب من الخمسين يوماً، وعندما علم «شاور» بذلك أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم، وقد ذكر «ابن واصل» أنهم أتوه على الصعب والذلول، وحملهم على ذلك أمران: أحدهما: الطمع في تملك الديار المصرية، وثانيهما: الخوف من تملك العساكر النورية لها، وعلموا أنه إن ملكها «نور الدين» واستضافها إلى البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام، وأنه سيستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده⁽⁴⁾، سار «أسد الدين» إلى الصعيد وعسكر في مكان يعرف بـ«الباين»⁽⁵⁾، ثم لحقت به العساكر المصرية والفرنج والتقى الفريقان عند

- (1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص148، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص363، ماجد، العلاقات، ص161، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1348هـ / 1929م، ط1، ج5، ص317.
- (2) ابن العديم، زبدة الحلب، ص322، ابن واصل، مفرج الكروب، ص149.
- إطفيح بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقية لمزيد من التفاصيل انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، المجلد الأول، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1374هـ / 1955م، ص218، وقيل أيضاً إنها مدينة قديمة كانت تسمى في العصر اليوناني «أفروديتو بوليس» لمزيد من التفاصيل انظر ابن العديم، زبدة حلب، هامش 4، ص322 - 323، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج5، ص317، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص95، سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص100، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ص132.
- (3) الجيزة في لغة العرب الوادي أو أفضل موضع فيه، والجيزة بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر، لمزيد من التفاصيل انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، بيروت 1375هـ / 1956م، ص200، وذكر بن تغري بردى أن الجيزة معناها الجانب والناحية، وجمعها جيز، لمزيد من التفاصيل انظر النجوم الزاهرة، ج5، ص348، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص132، سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص100.
- (4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص149.
- (5) ابن الأثير، الباهر، ص133، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص323، ابن واصل، ج1، ص150، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص364، المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1934م، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1914م، ج1، ق1، ص43، الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كثر الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب)، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء السابع، القاهرة 1972م، ص27، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص64.

البابين⁽¹⁾، ودارت معركة عنيفة انتصر فيها «شيركوه» وأكثر من عدد القتلى والأسرى⁽²⁾، سار «أسد الدين شيركوه» بعد ذلك إلى الإسكندرية ففتحها وتسلمها بدون قتال ثم ترك عليها «صلاح الدين الأيوبي»⁽³⁾، وعاد «شيركوه» إلى الصعيد فتملكه وجبى أمواله⁽⁴⁾.

انتهز الفرنج فرصة رحيل «شيركوه» إلى الصعيد فهاجموا الإسكندرية وحاصروا «صلاح الدين»، واشتد حصارهم وقل الطعام إلى أن علم «شيركوه» بذلك فأسرع إلى الإسكندرية وأنقذ الموقف، وطلب الفرنج الصلح فوافق «شيركوه» على ذلك، وكان أن اشترط عليهم عدم إقامتهم في البلاد فوافقوا على ذلك، فرحل «شيركوه» إلى الشام، أما الفرنج بقيادة «عموري» اتفقوا مع «شاور» على الآتي:

(1) أن يكون لهم بالقاهرة شحنة⁽⁵⁾ (حاكم ينوب عن «عموري» في ضبط البلد وتصريف شئونها).

(2) أن تكون أبوابها في يد فرسانهم ليمتنع «نور الدين» عن إنفاذ عسكر إليهم⁽⁶⁾.

(3) كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر⁽⁷⁾، ثم عاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم⁽⁸⁾.

الحملة الثالثة

نقض الصليبيون شروط الصلح مع «شيركوه»؛ لأنهم طمعوا في مصر فأتوا إليها في سنة أربعة وستين وخمسة⁽⁹⁾ (564هـ / 1169م)، وأخذوا بلبيس⁽¹⁰⁾ وساروا إلى القاهرة فقاتلوها⁽¹¹⁾، ولما علم «شاور» بقدوم الفرنج إلى مصر أصابه الخوف والفرع؛ لأنه أيقن أن

(1) انظر:

Amin Maalouf, The crusades, p166

(2) هذه العبارة قريبة عند كل من ابن الأثير، ابن واصل، ابن تغرى بردى، ابن العديم، الدواداري.

(3) السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص 64.

W.B. Stevenson, The crusades, p191

(4) ابن الأثير، الباهر، ص 134، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 394، ابن واصل، ص 152.

(5) ابن واصل، ج 1، ص 152، ابن العديم، ص 324، أبو شامة، ج 1، ق 2، ص 365، ابن الأثير، الباهر، ص 134.

(6) سيد على الحريري، الحروب الصليبية، ص 102.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 81.

(8) أبو شامة، ج 1، ق 2، ص 366، ابن واصل، ج 1، ص 152، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 324.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 359.

(10) سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص 103.

(11) ابن العديم، ج 2، ص 326، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 157.

الصلبيين جاءوا هذه المرة لأنهم طامعون في احتلال مصر، عندئذ قرر أن يتصدى للفرنج ويقاتلهم، فأمر «شاور» بإخلاء القاهرة (الفسطاط) من سكانها ثم أحرقها بهدف عرقلة الصليبيين، فظلت النار تعمل فيها مدة أربعة وخمسين يوماً⁽¹⁾، وعندما علم الخليفة «العاقد» بما حدث من حريق الفسطاط فأدرك خطورة الموقف وأيقن بأن الفسطاط على وشك التسليم للصليبيين، ومن هنا استغاث الخليفة «العاقد» بـ «نور الدين محمود» لينقذه ويلاذه من أيدي الفرنج، وهنا جاء على لسان «ابن الأثير»: «أرسل الخليفة «العاقد» إلى «نور الدين» يستغيث به ويُعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذا شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج»⁽²⁾، فاستجاب «نور الدين» لاستنجد الخليفة به؛ لأنه كان قد وعده بثلاث بلاد مصر، وأن يكون «أسد الدين» مقيماً عندهم، فبعث «نور الدين» جيشاً إلى مصر بقيادة «شيركوه»⁽³⁾ ومعه ابن أخيه «صلاح الدين»⁽⁴⁾، وفي هذه المرة استاء «صلاح الدين» من نزوله إلى مصر⁽⁵⁾ وهو لا يعلم أن هذه هي البداية بالنسبة له، هذا ويشير إلى ذلك «ابن الأثير» في قوله «أحب «نور الدين» مسير «صلاح الدين» وفيه ذهاب بيته، وكره «صلاح الدين» المسير وفيه سعادته وملكه»⁽⁶⁾، وسار «أسد الدين شيركوه» إلى مصر، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم⁽⁷⁾، ذلك أن «عمورى» أدرك خطورة الموقف وآثر الانسحاب حتى لا يقع بين نارين، وهما جيش «نور الدين»، والوزير «شاور»، فانسحبوا دون الاشتباك في قتال⁽⁸⁾، عائدتين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوه⁽⁹⁾، دخل «شيركوه» الأراضي المصرية دون قطرة دماء واستقبله الخليفة بالترحاب والإكرام⁽¹⁰⁾، أبدى «شاور» غضبه لإكرام الخليفة لـ «أسد الدين شيركوه» وبدأ

(1) ابن واصل، ج1، ص157.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص99، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص326، ابن الأثير، الباهر، ص138.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص132.

(4) انظر:

W.B. Stevenson, The crusades in the East, p193

(5) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص43.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص100، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص45، ابن الأثير، الباهر، ص139

، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص159.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص327.

(8) الخربوطلى، المرجع السابق، ص180.

(9) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص171.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص100 - 101، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص138 - 139.

يدبر له المكائد، ولكن «صلاح الدين» تمكن من القبض عليه وأمر الخليفةُ بقتله⁽¹⁾، وولى الخليفة العاضد «شيركوه» وزيراً⁽²⁾ وأبلغ في إكرامه، وسماه الملك «المنصور»⁽³⁾ وجعله قائداً عاماً لجيوشه في 564هـ / 1168م، ولكن القدر لم يمهلته بالتمتع بالوزارة، إذ توفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة أربعة وستين وخمسة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام⁽⁴⁾ 564هـ / 1169م من توليه الوزارة⁽⁵⁾.

«صلاح الدين» وزيراً للخليفة «العاقد» الفاطمي

بعد وفاة «شيركوه» كان من المتوقع أن يختار الخليفة «العاقد» للوزارة أحد رجال الدولة الفاطمية، ولكنه اتخذ خطوة جريئة وعهد بالوزارة إلى «صلاح الدين الأيوبي»⁽⁶⁾ سنة

(1) ابن واصل، ج1، ص163.

(2) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص35، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص342-343، المقرزي، تقي الدين أحمد ابن علي المقرزي، اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة 1973م، ج3، ص302، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص389، ابن الأثير، الباهر، ص140، العماد الحنبلي، المؤرخ الفقيه الأديب أبو الفلاح عبد الحمى بن العماد الحنبلي،، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عنت بنشره مكتبة القدس، ج4، ص211.

Amin Maalouf, The crusades, p170.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5، ص351، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص163، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص46.

(4) ابن كثير، الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، مطبعة السعادة ج12، ص256، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص328، ابن الأثير، الباهر، ص140، ابن واصل، ج1، ص168، ماجد، العلاقات، ص164، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص176 ترجمة 277، ابن خلدون، العبر، ج5، ص282.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص165، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص256، ابن الأثير، الباهر، ص141، الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، 1996م، ص9، العبادي، التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص43، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص108.

W.B. Stevenson, The crusades in the East, p194

(6) اتفق أرباب التاريخ أن صلاح الدين كان منذ مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسة بقلعة تكريت وهو ابن نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الكردي، أحد بطون الهذبانية، لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص563، المقرزي، الخطط، ج2، ص233، المقرزي، السلوك، ج1، ق1، ص42 - 43، النويري، ج28، ص343، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص27، المقرزي، اتعاظ الخنفا، ج3، ص308 - 309، الحنبلي، شفاء القلوب، ج4، ص211، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص108، ماجد، صلاح الدين، ص43.

565هـ / 1169م، ابن أخى «شيركوه» ظناً منه أنه إذا ولى هذا الشاب القليل الشأن يستطيع أن يمارس سلطته كخليفة؛ لأنه ليس له عسكر ولا رجال⁽¹⁾. فلما حضر «صلاح الدين» في قصر الخليفة خلع عليه الوزارة⁽²⁾، ولقب بالملك «الناصر»⁽³⁾، وعاد إلى دار «أسد الدين» فأقام بها⁽⁴⁾.

لم يكن منصب الوزارة وقتئذ منصباً يتهافت عليه الطامحون، إذ كان هذا المنصب مليئاً بالمصاعب والأخطار، فقد كان «صلاح الدين» وزيراً سنياً في دولة شيعية للخليفة «العاقد»، ونائباً لسيد «نور الدين محمود» في وقت واحد⁽⁵⁾، مع أن ذلك لم يكن بدعاً أن يتولى أحد السنين الوزارة للخليفة الفاطمي الشيعي؛ لأنه حدث أن تقلد الوزارة زمن الفاطميين وزراء سنيون من حين لآخر⁽⁶⁾.

الأخطار الداخلية التي واجهت «صلاح الدين» عند بداية توليه الوزارة

عانى «صلاح الدين» في بداية عهده بالوزارة كثيراً من الصعوبات، فقد أعلن القواد الفاطميون سخطهم على تولى أحد رجال «نور الدين» الوزارة دونهم، فأعلنوا مقاطعتهم له؛ لأنهم اعتبروا «صلاح الدين» دخيلاً عليهم فاستمروا في تدبير المؤامرات.

أولاً: مؤامرة «مؤتمن الخلافة جوهر»

هو رئيس حراس القصر، وكان خصياً أسود اسمه بالكامل «مؤتمن الخلافة جوهر»⁽⁷⁾،

(1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص406.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص47، ابن كثير، ج12، ص256، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، أيضاً انظر، ج5، ص253، ابن الأثير، الباهر، ص141 ص142، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص568، سيد علي الحريري، الحروب الصليبية، ص108، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص169.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص43، أبو الفداء، المختصر، ج3، ص47، ابن خلدون، ج5، ص283، ابن واصل، ج1، ص169.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص17، أبو شامة، ج1، ص406، المقرئ، الخطط، ج2، ص233، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص168.

(5) الخربوطلي، المرجع السابق، ص182.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس في العصر الأيوبي، ص83، الوزراء الستة في العصر الفاطمي هم أبو الفضل جعفر بن فرات، الحسن بن علي اليازوري، خطير الملك محمد بن اليازوري، رضوان بن الوخشى، علي بن إسحاق بن السلار، عباس بن يحيى بن باديس.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص174-175، الدواداري، ج7، ص44، شفاء القلوب، ص11.

وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر⁽¹⁾، فقد دبر مؤامرة للتخلص من «صلاح الدين»⁽²⁾ فقام بالاتصال سراً بالصليبيين⁽³⁾ في بيت المقدس يدعوهم لنصرته، فإذا خرج «صلاح الدين» لمواجهةهم يقوم «مؤتمن الخلافة» وأتباعه بإعلان الثورة في الداخل، ويكون الموقف في صالحهم، وفي الوقت نفسه يتخلصون من «صلاح الدين»، وتكون البلاد بين الفرنج وبينهم يقتسمونها⁽⁴⁾ وكان كاتب الرسالة يهودياً⁽⁵⁾ من الرهط، ولكن رسالة «مؤتمن الخلافة» إلى «عموري» وقعت في يد «صلاح الدين» الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره⁽⁶⁾، ولم يتردد «صلاح الدين» في قتل «مؤتمن الخلافة»، ولذلك أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه وأتوا برأسه سنة أربعة وستين وخمسة⁽⁷⁾ الأربعاء الخامس والعشرون من ذي القعدة⁽⁸⁾، 20 أغسطس 1169م.

ثانياً: مؤامرة الجند السودان (وقعة بين القصرين)

ثار الجند السودان ثورة عارمة نتيجة مقتل زعيمهم وكبير رجال القصر «مؤتمن الخلافة»، وكان عددهم يزيد على خمسين ألفاً⁽⁹⁾، ندب إليهم الملك «الناصر صلاح الدين» «أبا الهيحاه السمين»⁽¹⁰⁾، ووقعت الحرب بين الفريقين بين القصرين⁽¹¹⁾ بالقاهرة، واشتد القتال بين الفريقين، استمر ذلك يومين وصاروا كلما لجئوا إلى محلة أحرقت عليهم، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك وانتقلوا إلى الجيزة، ولكن «صلاح الدين» أرسل إليهم أخاه «توران شاه»⁽¹²⁾ في طائفة

- (1) على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى طبعة بولاق، ج1، ص19، ماجد، صلاح الدين، ص68.
- (2) سيد على الحريري، الأخبار السنية، ص110، ابن خلدون، العبر، ج5، ص283.
- (3) ابن خلدون، العبر، ج5، ص283.
- (4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص174-175، أبو شامة، ج1، ص450.
- (5) سيد على الحريري، الأخبار السنية، ص110.
- (6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.
- (7) النويري، نهاية الأرب، ج28، ص360، ابن كثير، ج12، ص257-258، المقرئ، اتعاظ الخنفا، ج3، ص312، ابن واصل، ج1، ص174 ص175.
- (8) ابن واصل، ج1، ص174 ص175، عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.
- (9) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص19، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص451، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص179.
- (10) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص85.
- (11) النويري، نهاية الأرب، ج28، ص361، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص45-46.
- (12) توران شاه، معناه ملك الشرق، انظر ماجد، صلاح الدين، ص70.

من العسكر فأعمل فيهم السيف، فلم يبق منهم إلا الشريد وضعف أمر «العاقد» فأصبح لا حول له ولا قوة، وفي أثناء تلك الأحداث ولي «صلاح الدين» على القصر خصياً أبيض من رجاله المخلصين الذين يثق بهم وهو «بهاء الدين قراقوش»⁽¹⁾.

الأخطار الخارجية التي واجهت «صلاح الدين» وهو وزير

وصول حملة صليبية جديدة إلى دمياط

لا شك أن نجاح «نور الدين محمود» في الاستيلاء على مصر⁽²⁾ بدأ يثير المخاوف عند الصليبيين، ذلك لأن الإمارات الصليبية أصبحت محصورة بين الشمال الشرقي والجنوب الغربي، مما أصاب الفرنج بالخوف والفرع فأيقنوا بالهلاك⁽³⁾، ومن هذا المنطلق فكر «عموري» في أن يقوم بإعداد حملة صليبية لغزو مصر، فأرسل سفرائه إلى ملوك أوروبا يستنجد بهم، ولكن ملوك أوروبا كانوا منصرفين إلى مشاكلهم الخاصة، لكن «عموري» لم يأس، فاتصل بالإمبراطور البيزنطي «مانويل كومنين»، إمبراطور الدولة البيزنطية، فلبى «كومنين» الاستجابة، وذلك لأنه كان قد أحس بالخطر الذي يهدد دولته من جهة حلب ودمشق، والذي كان ينظر بعين الخوف إلى التوسع النوري في مصر⁽⁴⁾.

أسرع الإمبراطور البيزنطي بإرسال أسطول⁽⁵⁾ بيزنطي بقيادة «أندرونيك كونستفانو»⁽⁶⁾ إلى «عموري» وتوجهوا جميعاً إلى دمياط من الديار المصرية⁽⁷⁾ فلما وصلت الحملة إلى دمياط

(1) هو الأمير أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب «بهاء الدين»، كان خادماً صلاح الدين وقيل خادماً أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه، وصلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه.

وقراقوش هو لفظ تركي تفسيره بالعربية العقاب الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان.

لمزيد من التفاصيل، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص254-255، ترجمة رقم 516، انظر أيضاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص103.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص130.

(3) ابن واصل، ج1، ص197، حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، ص132.

(4) حسن حبشي، المرجع السابق، ص134-135.

(5) سيد علي الحريري، الأخبار السنوية، ص112، ولیم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م، ص116.

(6) عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص131، وفي مراجع أخرى (الكسيوس كونستفانوس)، انظر ولیم الصوري، ص117.

(7) ولیم الصوري، الحروب الصليبية، ص117-118.

علم «صلاح الدين» فانزعج لذلك، وأدرك أنه لو خرج إلى دمياط للدفاع عنها فقد يثير رجال القصر وأتباع الفاطميين الفتن والاضطرابات، وينقضون على بقية جيشه، ويستعيدون سلطانهم من جديد، وأدرك أنه لو بقي في القاهرة فقد ينجح الصليبيون في الاستيلاء على دمياط، لكن لم يلبث أهل دمياط أن استغلوا ظاهرة جريان النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي الضرر⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى مساعدة «نور الدين» حيث هاجم بعض حصون الصليبيين في الشام لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط وذلك بإرسال الإمدادات إرسالاً يتلو بعضها بعضاً⁽²⁾ فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها⁽³⁾، هكذا فشلت الحملة في اقتحام ثغر دمياط، وانسحبت السفن البيزنطية من دمياط في (565هـ - 1169م)، بعد أن عجز بحاروها عن السيطرة عليها والتحكم فيها⁽⁴⁾، فرجعوا إلى بلادهم مهزومين يملكهم الأسى والحزن⁽⁵⁾ فكانوا موضع المثل «خرجت النعامه تطلب قرنين رجعت بلا أذنين»⁽⁶⁾، وأعلن الخليفة الفاطمي «العاقد» سروره لنجاح «صلاح الدين» في صد الصليبيين فأغدق عليه المال والسلاح، كما أبدى المصريون سرورهم⁽⁷⁾.

هكذا يعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول مهمة في تاريخ الشرق الأدنى، وانتهزها «صلاح الدين» فرصة، وبدأ خطة الهجوم ضد الصليبيين، فأغار على الرملة وعسقلان وهاجم داروم (دارون)⁽⁸⁾ وغزة في عام (566هـ / 1170م)، ثم عاد إلى القاهرة، غير أن «نور الدين» لم يكثرث لما فعله «صلاح الدين»؛ لأن اهتمامه كان منصباً على إسقاط الخلافة الفاطمية وإعلان الخلافة العباسية في مصر⁽⁹⁾.

(1) المقرئزي، الخطط، ج2، ص214-215.

Stevenson, The crusades in the East, pp196 – 199

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص15-17، ابن الأثير، حوادث سنة 565هـ، ج9، ص105.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص48-49.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم البيزنطيين، ص131.

(5) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج4، ص127.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص105، سيد علي الحرير، الأخبار السنوية، ص113.

(7) ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، الخربوطلي، المرجع السابق، ص183-184.

(8) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص114.

Stevenson, The crusades, p199

(9) السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص36-37.

سقوط الخلافة الفاطمية

عندما تولى «صلاح الدين» الوزارة الجديدة، كان موزع الولاء، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان وزيراً للخليفة «العاقد الشيعي» وهو في الوقت نفسه قائد لجيش «نور الدين» صاحب الشام السني، ونائب عنه في مصر، ونظراً لأنه كان سنياً متعصباً فقد كان يتصرف بالحكمة والحذر، على الرغم من أن «نور الدين» كان يبعث إليه ويستحثه على إسقاط الخلافة الفاطمية نتيجة لتعصبه لسنيته، وأيضاً لأن الخليفة العباسي كان قد طلب منه ذلك، فقد كان «صلاح الدين» ينتظر الفرصة الملائمة لذلك؛ لأنه كان أعلم بأحوال مصر من نور الدين، إذ كانت تحيط به الأخطار والمصاعب من جميع الجهات في الداخل والخارج، لكن استمرار «نور الدين» في الإلحاح على «صلاح الدين» في القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية، يلزمه ذلك إلزاماً لا فسخة فيه⁽¹⁾، اتخذ «صلاح الدين» خطوات لتنفيذ ذلك، فقد بدأ بالقضاء على قواد جيش الخليفة «العاقد»⁽²⁾ ورجال قصره ذوى النفوذ الواسع في القصر، فبدأ يستبد بهم ويقضي عليهم إلى أن أبعدهم عن القاهرة إلى الصعيد، أيضاً عمل «صلاح الدين» على محاربة المذهب الشيعي، وفي الوقت نفسه عمل على إرضاء الشعب المصري، وأغدق الأموال على رجالات الدولة، وملاً مناصب الدولة برجال يثق هو بهم⁽³⁾ فمال الناس إليه وأحبوه⁽⁴⁾، وقويت نفسه على القيام بإضعاف أمر «العاقد»⁽⁵⁾ وأزال شعار الدولة الفاطمية⁽⁶⁾، هكذا سنحت الفرصة لـ«صلاح الدين» في أن ينفذ أمر سيده «نور الدين»، فقد عزم على قطع⁽⁷⁾ الخطبة للخليفة الفاطمي، فلما كان يوم الجمعة الأول من المحرم سنة سبعة وستين وخمسمائة، أمر «صلاح الدين» الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة «العاقد»⁽⁸⁾ وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 200-201، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 44، عاشور، ج 2، ص 698.

(2) ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة سنة 1964م، ص 48-49، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 86.

(3) ابن شداد، النوادر، ص 49، الخربوطلي، مصر العربية الإسلامية، ص 182.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 335، ج 6، ص 18، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 684.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 172، 174.

(6) علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج 1، ص 22، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 43.

(7) انظر:

Gaston wiet, L Egypt Arable Histoir de la Nation Egyptienne, IV, Paris, 1973, P309.

(8) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج 3، من سنة 547هـ إلى سنة 700هـ، دار الكتب العلمية وبيروت، لبنان، ص 49.

هذا وتشير المصادر إلى أنه تم إسدال الستار على الدولة الفاطمية في هدوء على حد قول «ابن الأثير»: «ولم يتطرح فيها عتزان»⁽¹⁾ في أول جمعة من المحرم 567هـ / 10 سبتمبر 1171م⁽²⁾.

من هنا، عمل «صلاح الدين» على نحو آثار الدولة الفاطمية⁽³⁾، وكان هذا بمنزلة إعلان رسمي بنهاية الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمي يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومات دون أن يعلم بسقوط الدولة الفاطمية سنة 567هـ / 1171م، هكذا بعث «صلاح الدين» إلى سيده «نور الدين» من يخبره بتحقيق أوامره، كما بعث إلى الخليفة العباسي في بغداد يبشره بعودة الخطبة له على منابر مصر، وعم الفرح⁽⁴⁾ والسرور وبعث الخليفة لـ «صلاح الدين» وسيده «نور الدين» الخلع⁽⁵⁾، ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين⁽⁶⁾.

الصعاب التي واجهت «صلاح الدين» بعد زوال الخلافة الفاطمية

لا شك أنه بإعلان سقوط الدولة الفاطمية بدأ «صلاح الدين» يواجه مصاعب كثيرة من جانب أتباع الفاطميين في مصر، فلم يرض المخلصون من الشيعة في مصر بزوال الخلافة الفاطمية، هذا فضلاً عن أنه كان يوجد عدد كبير من أتباع النظام القديم الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل «صلاح الدين».

مؤامرة «عمارة اليمنى»

لعل أكبر المحاولات التي اشتركت فيها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد، والتي كانت تستهدف إحياء الخلافة الفاطمية⁽⁷⁾ وإعادتها إلى ما كانت عليه سنة 569هـ / 1174م، هي محاولة «عمارة بن أبي الحسن اليمنى الشاعر»⁽⁸⁾ الذي قاد لواءها، واشترك معه القاضي

- (1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 156، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 698.
- (2) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 492، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 111، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 570.
- (3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 699، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 43.
- (4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 699.
- (5) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الصفحة نفسها..
- (6) ابن الأثير، الكامل، حوادث 567هـ، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 46.
- (7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 705، عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين، ص 76، الخربوطلي، ص 238.
- (8) سعيد عاشور، ج 2، ص 705.

«العوريس» داعى دعاة الشيعة⁽¹⁾ و«عبد الصمد الكاتب» وبقايا الجند السودانيين، وخدم القصر⁽²⁾ وغيرهم⁽³⁾، وعندما شعر المتآمرون بضعفهم، اتصلوا بقوة خارجية لتنفيذ مؤامرتهم وكانت تتمثل في الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية)⁽⁴⁾، وهى القوة الشيعية الكبرى بالشام⁽⁵⁾. ولم يكتف المتآمرون بذلك، إنما اتصلوا أيضًا بالصليبيين واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر، كذلك اتصل المتآمرون بـ«وليم الثانى» ملك صقلية⁽⁶⁾ ليهاجم أسطوله الإسكندرية⁽⁷⁾ فى الوقت الذى يغزو الصليبيون فيه مصر من الناحية الشرقية، وقد اختار المتآمرون فرصة غياب «توران شاه» أخى «صلاح الدين» فى اليمن، وكانوا قد اتفقوا على تعيين الخليفة والوزير بحيث لم يبق أمامهم سوى التنفيذ⁽⁸⁾.

لكن المتآمرين ما لبث أن انكشف أمرهم؛ لأنهم كانوا قد أشركوا معهم فى هذه المؤامرة الكبرى الفقيه الواعظ «زين الدين على بن نجا» الذى أطلع «صلاح الدين» على خطوات هذه المؤامرة⁽⁹⁾، فلم يكف «صلاح الدين» أن يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين وانتقم من زعمائهم وصلبهم (569هـ / 1174م)⁽¹⁰⁾، ونفى سائر الثوار إلى الوجه القبلى⁽¹¹⁾، وكانت هذه أكبر مؤامرة تعرض لها «صلاح الدين»⁽¹²⁾.

ثورة «كنز الدولة» بأسوان

بعد أن قضى «صلاح الدين» على الفتنة الكبرى ما لبث أن اشتعلت من جديد نار الفتنة

(1) سيد على الحريرى، المرجع السابق، ص 119.

(2) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 80.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 705.

(4) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 2، ص 53 - 55، الحنبلى، شفاء القلوب، ص 11.

(5) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص 70 - 71.

(6) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 598، مفرج الكروب، ج 2، ص 12، 14، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص 65.

Lane - pool (s), saladin, pp126-127.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 705.

(8) لمزيد من التفاصيل انظر فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 49.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 706، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 76 - 77، الخربوطلى، المرجع السابق، ص 239.

(10) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 706.

(11) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 77 - 78.

(12) فايد حماد، المرجع السابق، ص 50.

في الصعيد بأسوان وقوص، وكان يرأسها نجاح «كنز الدولة»⁽¹⁾، وكانت هذه الثورة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية وذلك في 570هـ / 1174م⁽²⁾، أدرك «صلاح الدين» خطورة ثورة الصعيد، حتى إنه فكر أن يذهب بنفسه للقضاء عليها، ولكن خاف من تجدد الفتنة والثورات في القاهرة، فقرر أن يبعث إليهم أخاه «العادل سيف الدين أبي بكر»⁽³⁾ الذي استطاع أن يقضي على هذه الفتنة⁽⁴⁾ ومحو آثارها.

«صلاح الدين» وموقفه من «نور الدين»

بعد القضاء على الدولة الفاطمية كان على «صلاح الدين» أن يحدد موقفه من سيده «نور الدين محمود»، فقد ذكرنا سابقاً أن «صلاح الدين» هو أحد قواد «نور الدين» ويمثله في مصر، وكان «صلاح الدين» طموحاً يميل إلى المحافظة على ما في يده من سلطة ونفوذ، وكان «نور الدين» يعتبر «صلاح الدين» نائباً عنه في مصر، بينما «صلاح الدين» يتخطاه حينما يبعث للخليفة العباسي في بغداد يخبره بسقوط الخلافة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية في مصر⁽⁵⁾، وكان «صلاح الدين» حريصاً على ألا يغضب «نور الدين» ويشير بخاوفه منه، وألا يعرض نفسه لعداء «نور الدين»، لذا حرص «صلاح الدين» على الدعاء «لنور الدين» بعد الخليفة العباسي، كما نقش اسم «نور الدين» على النقود⁽⁶⁾، لكن «نور الدين» شعر أن «صلاح الدين» لم يعد نائباً عنه في حكم مصر، وأدرك أن «صلاح الدين» بدأ يرسخ قواعد دولة أيوية جديدة في مصر، وتمنى «نور الدين» أن يقضي على أطماع «صلاح الدين» وهي ما زالت في بدايتها، ولكن دون جدوى؛ لأنه قد مات قبل تحقيق أمنيته⁽⁷⁾، وتؤكد جميع المصادر التاريخية أن «صلاح الدين» حزن حزناً شديداً لوفاة «نور الدين».

(1) المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص57، أبو شامة، الروضتين، ص598، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص396، الحافظ الذهبي، العبر في خبر من خبر، ج3، ص62، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص707، ابن خلدون، العبر، ج5، ص288.

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص56، عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص80.

(3) المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص58، سعيد عاشور، ج2، ص707.

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص56، السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص71.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص699.

(6) الخربوطلي، المرجع السابق، ص240.

(7) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص161.

اتهامات المؤرخين لـ «صلاح الدين»

يتهم المؤرخون «صلاح الدين» أنه جحد فضل سيده «نور الدين»، ويستدل على ذلك أنه استدعى أسرته من الشام ليقطع كل صلة بينه وبين دولة «نور الدين»⁽¹⁾.

الاتهام الأول:

عندما ذهب «صلاح الدين» لمقاتلة الصليبيين وحصاره حصن الشوبك⁽²⁾ 567هـ / 1170م، فلما علم بمجيء «نور الدين» لمساعدته رجع إلى مصر⁽³⁾، محتجاً باضطراب شئون مصر الداخلية⁽⁴⁾، مما أثار غضب سيده «نور الدين»⁽⁵⁾.

الاتهام الثاني:

حدث أن اتفق «صلاح الدين» و«نور الدين» على حصار حصن الكرك⁽⁶⁾ 568هـ / 1171م، ومقاتلة الصليبيين، فحاصر «صلاح الدين» الحصن وعندما علم بقدوم «نور الدين» فك الحصار، ورجع إلى مصر محتجاً بمرض والده⁽⁷⁾، وحاول إرضاء «نور الدين» ولكن «نور الدين» لم يقبل عذره⁽⁸⁾.

الاتهام الثالث:

فيذهب إلى أن «صلاح الدين» بعث جيشاً لفتح النوبة بقيادة أخيه «شمس الدولة توران شاه بن أيوب» في أواخر سنة (568هـ / 1172م)، لكن «صلاح الدين» اكتشف أن بلاد النوبة فقيرة قليلة الجدوى، فأرسل أخاه «توران شاه» إلى اليمن سنة (705هـ / 1174م)، حيث

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص113، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص183، المقرئ، ج1، ق1، ص48.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص700.

(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص701.

(4) لأمر بلغته أن ثورة العلويين تنذر بالاشتعال في القاهرة مما تطلب سرعة عودته، انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص701.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص112 - 113، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص223، محمد كرد علي، خطط الشام، المطبعة الحديثة بدمشق 1925م، ج1، ص41، المقرئ، الخطط، ج2، ص233، أبو الفدا المختصر، ج3، ص52.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص222.

(7) ابن خلدون، العبر، ج5، ص285.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121، خطط الشام، ج1، ص41 - 42، المقرئ، الخطط، ج2، ص233، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص48، ابن كثير، ج12، ص268، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ص61.

أنخضعها وضمن تبعيتها لـ «صلاح الدين»⁽¹⁾ حتى تكون ملجأ لـ «صلاح الدين» إذا طرده «نور الدين»⁽²⁾.

لكن «صلاح الدين» منذ أن تولى الحكم، وهو يعمل بكافة الطرق والوسائل على إرضاء سيده «نور الدين» ولم يتحول عن إخلاصه ووفائه له دائماً، فهو كان حريصاً دائماً على ذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة العباسي، ولم يقطع عنه الهدايا، حتى ما كان يوجد في خزائن الخليفة «العاقد» من نفائس لم يأخذها «صلاح الدين» بل بعثها إلى سيده «نور الدين»، أضف إلى ذلك أنه نقش اسم سيده «نور الدين» على العملة، وأن له العذر في الامتناع عن مساعدة سيده «نور الدين»؛ لأنه كان يقع بين الفتن والاضطرابات كما ذكرنا آنفاً.

الأوضاع في بلاد الشام بعد وفاة «نور الدين»

كان لوفاة «نور الدين محمود بن زنكي» رد فعل شديد في بلاد الشام⁽³⁾، فقد خلف «نور الدين» على الحكم ابنه الملك «الصالح إسماعيل» الذي لم يكن إلا طفلاً صغيراً⁽⁴⁾ لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره⁽⁵⁾، فقد بدأ النزاع حول ما تركه «نور الدين» من ميراث (تركة)، وبدأت فترة مليئة بالفوضى والاضطراب⁽⁶⁾، ذلك لأن أمراء كل من دمشق وحلب والموصل كانوا قد طمعوا في الاستئثار بالسلطة وملك بلاد الشام⁽⁷⁾.

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص703.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص118، أبو الفداء، المختصر، ج3، ص53، محمد كرد علي، خطط الشام، ص41-42.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص55، العبادي، المرجع السابق، ص45، الخربوطلي، المرجع السابق، ص243.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص24، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص54-55، ابن الأثير، الباهر، ص162، عمر الإسكندري، أ.ج سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، 1990م، ص45.

Gaston wiet, op.cit, P311.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص55، القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، ج4، ص165، جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها الخارجية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بينها، جامعة الزقازيق 1989م / 1410هـ ص39، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص24، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص712.

W.B. Stevenson, The crusades in the East, p208 .

(6) جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية، ص39.

(7) محمد كرد علي، خطط الشام، ج1، ص49.

استولى «سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود أتابك» على الموصل، وأعلن نفسه أميراً على الجزيرة، ثم طمع بعد ذلك في أن يضم حلب إليه⁽¹⁾، أما حلب فكان أكبر قوادها شأنًا هو «شمس الدين علي بن الداية»⁽²⁾، أما دمشق فقد سيطر عليها «شمس الدين بن المقدم»⁽³⁾، وتنافس الأمراء الثلاثة فيما بينهم لتحقيق هدف واحد هو ضم «الصالح إسماعيل» إليهم، والفائز بضمه هو الذي تتحقق له السيطرة على بلاد الشام كلها، أدرك «صالح الدين» وهو بمصر أن هذا الفراغ⁽⁴⁾ الذي تركه «نور الدين» بعد وفاته لا بد أن يملأه رجل تحبه القلوب وتثق به، ومن هنا التزم «صالح الدين» طريق الحكمة حتى يحقق أغراضه⁽⁵⁾، وهي القضاء على أسباب الخلاف، ووضع حد للتمزق والفرقة بين المسلمين والعمل على جمع شملهم وتوحيد كلمتهم حتى يستطيع أن يوحد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين الذين استغلوا اختلاف كلمة أمراء الشام⁽⁶⁾، وحدث أن نزل الفرنج يقصدون بانياس، فخرج إليهم «شمس الدين محمد بن المقدم»، وراسلهم ومنح إليهم أموالاً طائلة ليكفوا عن مهاجمة بلاده، وقد اتفق معهم على الهدنة وأن يحصل الصليبيون منه على خراج⁽⁷⁾ وإطلاق سراح أسرى الصليبيين في دمشق⁽⁸⁾، وكان «صالح الدين» قد علم بما دار بين «ابن المقدم» والفرنج فأنكره واستعظمه ولم يعجبه، فاستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم⁽⁹⁾، وقال «إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة وضاعت المناهج المتسعة، وانفردت مصر عن الشام»⁽¹⁰⁾ وطمعت الكفار في البلاد»⁽¹¹⁾.

(1) فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 56.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 712.

(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

Stevenson, the Crusades, p208

(4) محمد كرد علي، خطط الشام، ج 1، ص 49.

(5) كرد علي، خطط الشام، الجزء والصفحة أنفسهما، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 9، 11، ابن الأثير، الباهر، ص 163.

(6) ابن شداد، النوادر، ص 50، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 605، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 163، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ص 24-25، المقرئ، السلوك، ج 1، ص 58.

(7) محمد كرد علي، خطط الشام، ج 1، ص 50.

(8) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 713.

(9) سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 18، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 715، هامش 4، محمد كرد علي، خطط الشام، ج 1، ص 50.

(11) ابن واصل، ج 2، ص 17، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 715، هامش 4.

وقد حانت الفرصة لـ «صلاح الدين» لتحقيق أهدافه السابقة الذكر عندما تنازع أمراء الشام، واستعانوا بقوى خارجية للحد من التنازع القائم بينهم، فاستنجد أمراء حلب بالصليبيين، و«سنان» زعيم الإسماعيلية الحشيشية، بينما استنجد أمراء دمشق بـ «صلاح الدين الأيوبي»⁽¹⁾، فاستجاب «صلاح الدين» لندائهم، ووجدها فرصة ذهبية لتحقيق ما تصبو إليه نفسه، وهو كما ذكرنا توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين وقتالهم، ولكنه نجح في السيطرة على الموقف قبل أن تقدم هذه القوات إلى الشام⁽²⁾، فتوجه «صلاح الدين» في 570 هـ / 1174 م إلى الشام⁽³⁾، واستولى على دمشق بغير مانع، وأبطل المكوس التي كانت تؤخذ منها⁽⁴⁾، وأعلن «صلاح الدين» أنه جاء إلى الشام لتربية الملك «الصالح إسماعيل» رعاية لعهد والده⁽⁵⁾ وأنه أحق بتربيته من أى شخص آخر.

استولى «صلاح الدين» على حمص وحماة⁽⁶⁾، وعندما حاصر حلب أيقن «إسماعيل بن نور الدين» أن «صلاح الدين» جاء لينزع منه السلطة، لذا منعه من دخول حلب فاضطر «صلاح الدين» إلى حصار حلب والاستيلاء عليها بالقوة⁽⁷⁾، مما اضطر «الصالح إسماعيل» والحلبيين إلى طلب الصلح⁽⁸⁾ من «صلاح الدين» لكن «صلاح الدين» كان قد خلع طاعة «الصالح إسماعيل» وحذف اسمه من الخطبة والسكة⁽⁹⁾، بعث «صلاح الدين» يخبر الخليفة العباسي بما لجأ إليه خصومه من الاستغاثة بالصليبيين والباطنية الذين يعتبرون أعداء الإسلام⁽¹⁰⁾، وأنه قضى عليهم واستأصل شأفتهم فأنعم عليه الخليفة العباسي «المستضيء» بلقب سلطان مصر والشام⁽¹¹⁾، وهذا يعنى أن بلاد الشام ينبغي أن تخضع لـ «صلاح الدين»

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص714.

(2) الحروب على المرجع السابق، ص243-244.

(3) المقرئى، الخطط، ج2، ص233، السلوك، ج1، ق1، ص58، ابن الأثير، الباهر، ص163، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص236.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص716.

(5) المقرئى، الخطط، ج2، ص233.

(6) الحافظ الذهبى، العبر في خبر من غير، ص59، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص716-717، ماجد، العلاقات، ص167.

(7) لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص716، 718.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص33-34، آرنست باركر، الحركة الصليبية، ص215.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص719.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118، آرنست باركر، المرجع السابق، ص215-216.

(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118، آرنست باركر، المرجع السابق، ص215-216، انظر أيضًا سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص719.

وعليه يقع عبء توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، كان هذا إيذاناً بقيام الدولة الأيوبية بصفة رسمية، ونهاية تبعية «صلاح الدين» للدولة النورية بالشام⁽¹⁾.

بعد أن وافق «صلاح الدين» على الصلح، واستولى على حلب إلى جانب المعرة وكفر طاب⁽²⁾، وسلمت إليه بارين بالأمان وسار إلى بزاعة واستولى عليها سنة 571هـ / 1175م⁽³⁾، ثم قام بفتح منبج⁽⁴⁾ واستولى على عزاز⁽⁵⁾ ثم أخذ مصياف وهي بلد الباطنية⁽⁶⁾، وقد كان «صلاح الدين» حسن الحظ، فقد خلصته الأقدار من جميع أعدائه، فقد مات «سيف الدين غازي» أمير الموصل سنة 578هـ / 1182م، وتبعه «إسماعيل بن نور الدين» بعد فترة من الوقت، ومرة أخرى قام صراع عنيف بين القواد النوريين، فرأى «صلاح الدين» أن الوقت قد حان ليعتد سيادته على بلاد الشام فحارب النوريين ونجح في القضاء عليهم، وتوحيد كلمة المسلمين، هكذا انتهى الدور الثاني لـ «صلاح الدين» في بلاد الشام، والذي كان قد بدأ بوفاة «نور الدين»، وبعده ظهر «صلاح الدين» بمظهر أكبر حاكم إسلامي في الشرق الأدنى، ونشر نفوذه في بلاد الشام والجزيرة، واستعد لجمع وتوحيد القوات الإسلامية تحت لوائه للدخول في الصراع النهائي مع الصليبيين، ثم عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها بعد أن تزوج من أرملة «نور الدين»، وكان مسيره إلى مصر في ربيع الأول من شهر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة⁽⁷⁾.

الاستعدادات البرية والبحرية التي قام بها «صلاح الدين» لمواجهة أخطار الصليبيين

بعد أن قضى «صلاح الدين» على الأخطار التي واجهته في بلاد الشام قرر العودة إلى مصر⁽⁸⁾، وذلك للقيام بالاستعدادات الحربية وتحصين القاهرة⁽⁹⁾؛ لأنه كان يتوقع هجومًا

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص102، 118.

(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص719.

(3) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.

(4) المقرئزي، الخطط، ج2، ص233، الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ص60، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص117، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص721.

(5) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ص60.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص117، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص722.

(7) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص723.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص52، عمر الإسكندري، المرجع السابق، ص245.

(9) العبادي، المرجع السابق، ص50.

صليبيًا بيزنطيًا ضد مصر، فعمل على تقوية الجبهة الداخلية بتطهير البلاد من الجواسيس والخونة الذين يتعاملون مع العدو⁽¹⁾ لمواجهة الأخطار الخارجية المتمثلة في الصليبيين.

فقد كانت أعمال «صلاح الدين» في مجالين

أولهما: المجال الحربى البرى. ثانيهما: المجال الحربى البحرى.

أولاً: المجال الحربى البرى

كانت أعمال «صلاح الدين» في هذا المجال هى عمل تحصينات قوية للدفاع عن القاهرة بوجه خاص ومصر بوجه عام حتى يأمن عليها من اعتداءات الصليبيين، مثل بناء سور كبير ضخيم حول القاهرة (مصر) بدلاً من سور القاهرة الذى كان قد تهدم حتى أصبح لا يرد داخلاً ولا خارجاً على حد قول «ابن أبى طى»⁽²⁾ ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل⁽³⁾، فتولى ذلك الأمير «بهاء الدين قراقوش الأسدى» وشرع في بناء القلعة، وحفر حول السور خندقاً عميقاً وحفر في القلعة بئراً عميقاً يضمن لمن فيها الحصول على الماء⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى تحصيناته الحربية في شبه جزيرة سيناء⁽⁵⁾.

ثانياً: في مجال البحرية

بذل «صلاح الدين» جهوداً جبارة للعمل على إحياء البحرية العربية، حتى يستطيع أن يتخذها كسلاح مضاد للعدوان الصليبي، الذى امتدت أخطاره إلى المدن الساحلية المصرية⁽⁶⁾، فأمر بتعمير الأسطول⁽⁷⁾. هذا بالإضافة إلى أنه عمل على بث روح الجهاد في

(1) نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربى المصرى في عهد الأيوبيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م، ص 125.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 448، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 91.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 52، 54، المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 63، فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 70.

(4) نظير حسان سعداوى، المرجع السابق، ص 91، 108، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين الأيوبي وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر 1960م، ص 31، 33.

(5) لمزيد من التفاصيل عن التحصينات الحربية (المجال الحربى البرى) في مصر انظر الفصل الثانى من الرسالة.

(6) العبادى، المرجع السابق، ص 46.

(7) لمزيد من التفاصيل عن الأسطول وإصلاحات صلاح الدين به انظر الفصل الخامس من الرسالة، الأسطول في العصر الأيوبي، المقرئى، السلوك، ج 1، ص 73، المقرئى، الخطط، ج 1، ص 359، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 199، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 729.

نفوس المسلمين، فقد عمل على محاربة المذهب الشيعي، فأنشأ المدارس لتدريس المذهب الشافعي، وتدریس الفقه وتعاليم الدين الإسلامي⁽¹⁾، هكذا قام «صلاح الدين» بسلسلة من الأعمال والاستعدادات الحربية والبحرية على الرغم من أنه كان في استطاعته بفضل إمكاناته الكثيرة في مصر أن يحارب الصليبيين مباشرة في فلسطين، ولكنه فضل أن يعمل على تقوية جيوشه، وأساطيله، وتوحيد الجبهة الإسلامية المتمثلة في مصر والشام.

«صلاح الدين» والصليبيون

نشأ «صلاح الدين الأيوبي» في بلاد الشام، التي كانت بمرتلة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين، حيث نشأ في عصر كان الجهاد هو الهدف الأول فيه عند الأمراء، الذي بدأه «شرف الدولة مودود» ثم «نجم الدين إيلغازي»، ومن بعده «عماد الدين زنكي» ثم «نور الدين محمود» الذي تولى راية الجهاد من بعده، فعمل على توحيد الجهود وإقامة وحدة إسلامية تضم البلدان العربية التي تتعرض باستمرار للخطر الصليبي وهي مصر والشام والعراق، فمن الطبيعي أن يتشرب «صلاح الدين» روح الجهاد، ليس هذا فقط بل أصر إصراراً شديداً على تنفيذها حتى آخر لحظة في حياته، وأول ما يثير الانتباه في حروب «صلاح الدين» وجهاده ضد الصليبيين هو أنها مرت بمرحلتين.

المرحلة الأولى

التي امتدت من سنة 570هـ / 1174م - 582هـ / 1186م، وهو الدور الذي لم يغفل فيه «صلاح الدين» أمر قتال الصليبيين مطلقاً على الرغم من أنه لم يقم حتى ذلك الوقت بحرب حاسمة لفتح بلادهم⁽²⁾، كان «صلاح الدين» قد اشتبك مع الصليبيين في هذه المرحلة في عدة غارات قبل أن تكتمل استعداداته البحرية والعسكرية، فقد هاجمهم عند الكرك والشوبك⁽³⁾، ووصل إلى عسقلان 573هـ / 1177م، وأغار عليها ومنها سار إلى الرملة⁽⁴⁾ ثم إلى مرج عيون، وانتصر على الفرنج عام 575هـ / 1179م⁽⁵⁾، وفي عام 574هـ / 1178م اشتبك «صلاح الدين»

(1) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، 88 - 89، العبادي، المرجع السابق، ص 47، عمر الإسكندري، المرجع السابق، ص 245 - 246، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط 1، القاهرة 1961م، ص 30.

(2) السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص 66.

(3) آرنيست باركر، المرجع السابق، ص 226.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 141.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 75.

مع الفرنج وهزمهم عند مخاضة الأحزان (بيت الأحزان) هزيمة نكراء على أساسها اضطر ملك بيت المقدس «بلدوين الرابع» لعقد هدنة مع «صلاح الدين» سنة 576هـ / 1180م⁽¹⁾ لمدة عامين.

المرحلة الثانية

فهي تمتد من 582هـ / 1186م - 588هـ / 1192م، وتعتبر هذه المرحلة هي أهم المراحل في حياة «صلاح الدين»، ففيها تحول من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، والدخول مع الصليبيين في معارك حاسمة خلدت ذكرى «صلاح الدين».

«صلاح الدين» والجهاد ضد الصليبيين

نجح «صلاح الدين» في إقامة إمبراطورية واسعة الأرجاء مرهوبة الجانب، تمتد من بلاد النوبة واليمن جنوباً إلى بلاد أرمينية شمالاً، ومن برقة غرباً إلى الموصل وبلاد الجزيرة شرقاً، وورث أيضاً أملاك الدولة الفاطمية في مصر، والدولة الأتابكية في بلاد الشام، وأصبح قائداً، بل زعيماً لجهة إسلامية متحدة القوى أمام القوى الصليبية المتنافرة في بلاد الشام.

ونحن قد بينا أن «صلاح الدين» عقد هدنة مع ملك بيت المقدس «بلدوين الرابع» سنة 576هـ / 1180م، وبعد وفاته تولى الوصاية على «بلدوين الخامس» ملك بيت المقدس «ريموند الثالث» صاحب طرابلس⁽²⁾.

اضطر «ريموند الثالث» إلى تجديد الهدنة بينه وبين «صلاح الدين»⁽³⁾ لمدة أربع سنوات (579هـ / 1184م - 583هـ / 1188م)، لكن في هذه الفترة برز رجل من الفرنج يسمى «أرناط»⁽⁴⁾ ريجنالد دي شاتيون» صاحب حصن الكرك والشوبك⁽⁵⁾، وعرف عن «أرناط»⁽⁶⁾

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص66 - 67، السيد الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، ص68، آرنست باركر، الحروب الصليبية، ص228، الخربوطلي، المرجع السابق، ص269.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص65.

(3) وليم الصوري، الحروب الصليبية، تعليق د/ حسن حبشي، ج4، ص256.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص70، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية 1990م، دار المعرفة الجامعية، ص32، عبد اللطيف حمزة، صلاح الدين بطل حطين، دار الفكر العربي، 1958م، ص104 - 105، الباز العريني، الأيوبيون، ص73.

(5) جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص48.

(6) كان أرناط قد جاء إلى الشام مع لويس السابع ملك فرنسا، ووقع في أسر نور الدين محمود سنة 555هـ / 1160م، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فتزوج من وريثة حصن الكرك، وبذلك أصبح صاحب الكرك، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص649، عبد الدايم، المرجع السابق، ص91، الباز العريني، الأيوبيون، ص73.

الشجاعة لدرجة التهور والاندفاع والغدر والخيانة، إلى جانب أنه كان أشد عداء للمسلمين وأكثرهم تعطشاً لسفك دمائهم⁽¹⁾.

وكان من «أرناط» أن نقض الهدنة التي كانت بين مملكة بيت المقدس و«صلاح الدين»، والتي كانت تنص على تمتع التجار من كلا الطرفين بالحرية التامة في الذهاب والعودة من مصر إلى بلاد الشام⁽²⁾، وهذه الهدنة قد استفاد منها «أرناط»؛ لأنه جنى منها ثروات طائلة من المكوس التي يفرضها على القوافل التي تمر به، غير أن «أرناط» هجم على قافلة مصرية، كانت مارة بالكرك من بلاد الشام إلى مكة، فاستولى على ما تحمله من تجارة وبيع، ولم يكتف بذلك⁽³⁾ بل عمد إلى غزو البحر الأحمر للاستيلاء على قلعة أيلة⁽⁴⁾ التي تقع على بحر الحجاز ومدخله، ومهاجمة المدينة المنورة⁽⁵⁾ ودخولها، هذا بالإضافة إلى السيطرة على البحر الأحمر لاحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي⁽⁶⁾، وعندما وصل هذا الخبر الملك «العاقل» بمصر، أمر بإعداد أسطول تحت قيادة الحاجب «حسام الدين لؤلؤ»⁽⁷⁾ الذي نجح في هزيمة الصليبيين، عندما نزل إلى أيلة فظفر بمراكب العدو وحرقها وأسر جنودها، ثم سار إلى عيذاب⁽⁸⁾ وانتصر عليها وأسر جميع أهلها، عدا «رينو» الذي لاذ بالفرار⁽⁹⁾، لكن «صلاح الدين» أقسم ألا يغفر له ما فعله⁽¹⁰⁾ وإن وقع «أرناط» في يده فسوف يقتله.

(1) السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص 106.

(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 743.

(3) انظر:

Steven Runciman, A history of the crusades, VII, cambridg, 1951, p436

(4) إسمت غنيم، المرجع السابق، ص 33-34.

Amin Maalouf, op.cit, p186.

(5) ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي المشهور بسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط 1، 1952م، مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر أباد الدكن، الهند، ط 1، ق 1، ص 369.

W.B. Stevenson, op.cit, pp 240, 241.

(6) ابن واصل، ج 2، ص 127، 130، أبو شامة، ج 2، ص 27، سعيد عاشور، ج 2، ص 758، حسنين ربيع، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية (ندوة تاريخ البحر الأحمر) جامعة عين شمس 1979م، ص 109-110.

(7) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 369.

Steven Runciman, The crusades, VII, p437

(8) ابن واصل مفرج الكروب، ج 2، ص 128.

(9) حسنين ربيع، ندوة البحر الأحمر، ص 110-111، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 759.

(10) أبو شامة، ج 2، ص 75، ابن واصل، ج 2، ص 185، سعيد عاشور، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسها.

موقعة حطين الكبرى (583هـ - 1187م)

لا شك أن الخطوة المنطقية التي يجب أن يتبناها «صلاح الدين» هي القيام بهجوم إسلامي شامل على مملكة بيت المقدس التابعة للصليبيين، خاصة بعد الأعمال العنيفة التي فعلها «أرناط» صاحب حصن الكرك الذي يشرف على طريق التجارة والحج بين مصر والشام والحجاز، هذا هو ما ذكره المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم على الصليبيين وإن كان من المعروف أن حادثة «أرناط» لا تعدو أن تكون السبب المباشر فقط، وأن «صلاح الدين» لم يقيم بهذا العمل الهجومي إلا بعد أن استكمل استعداداته الحربية والبحرية كما رأينا.

أعلن «صلاح الدين» حركة الجهاد وتزعمها ضد الصليبيين فرأى أن يتجنب تجمعات الصليبيين بالساحل في صفورية⁽¹⁾ قرب عكا، وهاجم الصليبيين بالقرب من صفورية وانتصر عليهم⁽²⁾ ولم يمض وقت قليل حتى تمكن من الاستيلاء على طبرية⁽³⁾ حتى يجبر الصليبيين على الخروج من صفورية⁽⁴⁾ مركز تجمعهم، واستولى على طبرية 583 هـ / 1187م⁽⁵⁾، غير أن أمراء الصليبيين اجتمعوا في عكا وقرروا الزحف من صفورية إلى طبرية⁽⁶⁾، وفرح «صلاح الدين» عندما تحرك الصليبيون إلى طبرية، ثم عسكر غربي طبرية وبالتحديد عند قرون حطين⁽⁷⁾ الغنية بالمراعى والماء⁽⁸⁾ حتى ينعم هو وجنوده

(1) قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية 1994م، بيروت، لبنان، ص 315-316.

(2) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 392، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 773.

Stevenson, the Crusades, p244.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 71، فيليب حتى، المرجع السابق، ج 2، ص 237.

(4) سيد على الحريري، المرجع السابق، ص 147.

Amin Maalouf, op. cit, p191.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 176، حوادث سنة 583هـ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 32، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 76 أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 71-72، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 392.

(6) آرنست باركر، المرجع السابق، ص 232، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 54.

(7) انظر:

Runciman, the crusades, VII, p457, Amin Maalouf, op.cit, p191.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 189، ابن كثير، الإمام الحافظ المؤرخ المفسر عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، ج 12، ص 320-321، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 93، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 775، ماجد، العلاقات، ص 169.

عن موقعة حطين انظر أيضا:

Runciman, The crusades, VII, p457, Joshua Prawer, Histoire du Royaume latin de Jerusalem second edition, tome II, Paris 1970, pp 9-10.

بالظل والماء الوفير عند بحيرة طبرية⁽¹⁾ والأردن، بينما كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية الثقيلة طريقاً وعراً لا ماء فيه، في وقت اشتدت فيه حرارة⁽²⁾ الشمس في شهر يوليو، ووصلوا منهكين⁽³⁾ متعبين عند تل حطين⁽⁴⁾ وطلعوا إلى تل حطين والنار تضرم حولهم فهلكوا وتساقطوا من التل⁽⁵⁾، وانتهز «صلاح الدين» الفرصة عندما حل ظلام الليل، وأحاط بالجيش الصليبي ثم دار القتال بين الفريقين، وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً⁽⁶⁾ بعد أن كبدوا الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح، والمعدات، وأسر المسلمون الملك «جاي لوزجنان»، والبرنس «أرناط» صاحب الكرك⁽⁷⁾ ولم ينج إلا القومص «ريموند» كونت طرابلس الذي هرب إلى مدينة صور⁽⁸⁾، وبعد أن رأى «صلاح الدين» الأسرى قتل «أرناط» بيده⁽⁹⁾؛ لأنه كان قد أقسم على قتله⁽¹⁰⁾ لمحاولته الاعتداء على المدينة المنورة وقبر الرسول⁽¹¹⁾.

كانت واقعة حطين كارثة عظيمة على الصليبيين؛ لأنهم خسروا فيها خسائر فادحة منها زهرة شبابهم وفرسانهم، وغلق المؤرخ «ابن الأثير» على هذه الواقعة بقوله «وكان من يرى

(1) انظر:

Runciman ,The crusades, p244.

(2) انظر:

Runciman., The S crusade, VII, p457.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص190، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص776، إسمنت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص37، ماجد، العلاقات، ص169.

(4) انظر:

Stevenson, The crusades, p246.

(5) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص393.

(6) انظر:

Heinrich von sybel, History and literature of the crusades, translated from the German and edited by lady Duff Gordon with an index, London, New York, 1861, p71.

(7) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة، دمشق 1991م، ج1، ق2، ص398.

(8) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص73، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص94-95.

(9) المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص93.

Runciman., The crusades, VII, pp457- 458.

(10) انظر:

Amin Maalouf, op. cit, p191, Heinrich von sybel, op,cit, p72, W.B. Stevenson op.cit, p274.

(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص195، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص79، ماجد، العلاقات، ص170.

القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى»⁽¹⁾، بعد ذلك اتجه «صلاح الدين» إلى الاستيلاء على المدن الساحلية⁽²⁾ التي تربط الصليبيين بموطنهم في غرب أوروبا، فيحصرهم في داخل الشام، فضلاً عن أن احتلاله للمدن الساحلية سوف يسهل عليه الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام⁽³⁾.

استولى «صلاح الدين» على عكا ويافا وصيدا وبيروت وجيبيل⁽⁴⁾، وحيفا وعسقلان⁽⁵⁾ وغزة⁽⁶⁾، ولم تستعص عليه سوى مدينة صور الحصينة⁽⁷⁾ المنيعة في أسوارها وأبراجها.

بعد ذلك رأى «صلاح الدين» أن يتجه إلى الداخل نحو مدينة بيت المقدس، فعرض على أهلها تسليم المدينة على أن يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم، ولكن أهل بيت المقدس رفضوا ذلك العرض⁽⁸⁾، فأقسم «صلاح الدين» على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف⁽⁹⁾ وتطهير أولى القبليتين، وثالث الحرمين ومسرى رسول الله ﷺ⁽¹⁰⁾ من الوجود الصليبي، فتقدمت جموع المسلمين للتطوع والجهاد من أجل طرد الصليبيين، وتزعم حركة المقاومة ضد الصليبيين⁽¹¹⁾ «باليان بن بيرزان» صاحب الرملة⁽¹²⁾، وبعد حصار مدينة القدس (بيت المقدس) وشدة بأس المسلمين، اتفق الصليبيون على إرسال جماعة من أمرائهم وأعيانهم

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص178، ابن واصل، ج2، ص192، رانسيان، الحروب الصليبية، ج2، ص739 - 740، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص780، عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص169.

(2) مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1998م، ص220، عبد المنعم ماجد، العلاقات، ص171.

(3) مصطفى العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1992م، ص146.

(4) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص396.

(5) مصطفى العسقلاني، عسقلان، ص136، ابن واصل، ج2، ص209 - 210.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص179، ماجد، العلاقات، ص171 - 172.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص181، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص82، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص400 - 401.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص98.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص787.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص92، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص84 - 85، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص403.

(11) انظر:

Lane - pool (s), Saladin and the fall of kingdom of Jerusalem, Beirut 1946, p226.

(12) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص211.

في طلب الأمان وتسليم القدس⁽¹⁾ بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين والسماح لمن يشاء بمغادرتها، وفي ذلك يقول «العماد الأصفهاني»: «طار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من بها رعبا وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت... وضائق بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شرك للمشرك وقاموا بالتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وأيس الفرنج من الفرج وأجمعوا على بذل المهج⁽²⁾، وكانت هذه الشروط نفسها هي التي سبق أن عرضها «صلاح الدين» على أهل بيت المقدس، ورفضوها⁽³⁾، هكذا دخل «صلاح الدين» مدينة بيت المقدس⁽⁴⁾ في ليلة الإسراء 27 رجب سنة (583هـ / 1187م)، واستولى عليها استيلاء كاملاً⁽⁵⁾، وكانت معاملته للأسرى الفرنج معاملة يملؤها التسامح والكرم. بعد ذلك اتجه «صلاح الدين» بعد فتح القدس إلى فتح الحصون الباقية، فاستولى على الشويك والكرك، وقلعة كوكب والشقيف وصهيون ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبله واللاذقية⁽⁶⁾، ولم يبق في يد الفرنج سوى صور وهي المدينة الوحيدة الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية وطرابلس التي لم يبق منها سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرسوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية، وأنطاكية التي لم يبق من المناطق التابعة لها سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب⁽⁷⁾.

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص72-73، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1346هـ / 1927م، ص139.

(2) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م، ص117.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص789.

(4) المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص98.

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص66، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص84-85، ابن واصل، ج2، ص215، ابن شداد، المحاسن، ص82، الذهبي، العبر في خبر من غير، ج3، ص85، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص791، ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص98-99، مجلة القدس، العدد 11، نوفمبر 1999م / رجب 1420هـ، ص114، د/ مصطفى حسن محمد الكنانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثاني 1990م، ص362، مها يسرى محمد، معرة النعمان، ص221، ماجد، العلاقات، ص171-172، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص45.

(6) المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص94-95، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص94-95.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص805، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص113.

الحملة الصليبية الثالثة

أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين ثم سقوط بيت المقدس في يد «صلاح الدين» رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي⁽¹⁾، مما دفع البابوية إلى الإعداد لحملة صليبية ثالثة⁽²⁾ للانتقام مما حل ببيت المقدس والصليبيين بالشام على يد «صلاح الدين»⁽³⁾، هذا وقد ساهم في تلك الحملة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم «فريدريك بارباروسا» إمبراطور ألمانيا، و«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا، و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا⁽⁴⁾، وتعتبر هذه الحملة من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها، كما أنها تمثل حقبة من أروع الحقب وأشدها إثارة في تاريخ الغرب والشرق⁽⁵⁾، كان أول من تحرك بجيشه إمبراطور ألمانيا «فريدريك بارباروسا»، فكان أسرع إلى العمل مع كبر سنه، فتحرك في 585هـ / 1189م، وبصحبه ثانی أبنائه «فريدريك» أمير سوابيا⁽⁶⁾ على رأس جيش قوى من أوروبا ووصل إلى آسيا الصغرى ودخل القسطنطينية ومنها اتجه بطريق البر عبر آسيا الصغرى، ولكنه غرق في نهر صغير في قيليقية⁽⁷⁾ وهو نهر كاليكادنوس⁽⁸⁾ أثناء مسيره من طرسوس صوب أذنة وأنطاكية 586هـ / 1190م⁽⁹⁾، هذا ولم يلبث أن أفلت زمام الجيش الألماني الكبير عند وفاة قائده فاختل النظام، وعجز «فريدريك السوابي» ابن الإمبراطور الراحل عن السيطرة على الجند، وفضل «فريدريك السوابي» أن يتجه برجاله صوب عكا لمشاركة بقية طوائف الصليبيين في حصارها 586هـ / 1190م⁽¹⁰⁾، هذا وقد كان هدف الحملة الصليبية الثالثة التي

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق الجزء والصفحة نفسها، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) فيليب حتى، المرجع السابق، ص 238-239.

Praver, Histoire Du Royaume, tome II, pp9-10.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 811.

(4) انظر:

Zoe oldenbourg, the crusades, Translated from the French by Anne Carter, New York (without date),p525.

(5) فيليب حتى، المرجع السابق، ص 239.

(6) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 812.

(7) سعيد عاشور، المرجع السابق الجزء السابق نفسه، ج 2، ص 817.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 115.

(9) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 817، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 116.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 156، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 819.

لمزيد من التفاصيل عن قواد الحملة الصليبية الثالثة انظر:

Joshua Praver, Histoire du Royaume, pp 11-17.

خرجت من صور، هو احتلال عكا والتوجه بعدها لاسترداد بيت المقدس من «صلاح الدين»⁽¹⁾، فنجد أن «فيليب أوغسطس» ملك فرنسا، و«ريتشارد» ملك إنجلترا قد اتخذوا الطريق البحري وظلا عامًا كاملاً في جزيرة صقلية، فوصلا إلى عكا في 12 ربيع الأول 587هـ / 20 إبريل 1191م⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى ارتفاع روح الصليبيين المعنوية في الشام بعد أن أطلق «صلاح الدين» سراح ملكهم «جاي لوزجنان» ملك بيت المقدس⁽³⁾، وحاصر الصليبيون عكا⁽⁴⁾ حصارًا شديدًا إلى أن وصل «ريتشارد قلب الأسد» إلى عكا في 13 جمادى الأول 587هـ / 8 يونيو 1191م⁽⁵⁾، وقد وصف «ابن شداد» «ريتشارد» قائلاً «إنه شديد البأس عظيم الشجاعة، قوى الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحروب»⁽⁶⁾، وعلى الرغم من أن المسلمين تمكنوا من مقاومة الحصار مدة ستين كاملتين (585هـ / 1189م - 587هـ / 1191م)، ورغم استبسالهم في صد هجمات الأعداء عنهم، إلا أن المدينة سقطت أخيرًا في جمادى الآخر 587هـ / يوليو 1191م، وذلك لطول مدة الحصار المضروب عليها وعدم وصول الإمداد إليهم⁽⁷⁾، وبعد سقوط عكا⁽⁸⁾ اعتذر «فيليب أوغسطس» بالمرض وأبحر من صور في 587هـ / 1191م، قاصدًا «برنديزي» في إيطاليا⁽⁹⁾ تاركًا المهمة لـ«ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا⁽¹⁰⁾، أما «ريتشارد» فقد واصل زحفه واستطاع أن يستولى على شاطئ

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 116.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 118.

(3) أسر جاي لوزجنان في معركة حطين ووقع على نفسه عهدًا بأنه سوف يبحر إلى بلاده، وأنه لن يشهر السلاح على المسلمين، غير أن جاي لوزجنان نكث العهد وأجاز له التحلل من اليمين إذ تعتبر في نظر الكنيسة يمينًا باطلاً؛ لأنها بذلت لغير مسيحي، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، النوادر، ص 153، رنسيان، الحروب الصليبية، ج 3، ص 47، 50، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 116 - 118.

(4) انظر:

Zoe Oldenbourg, The crusades, p531, W.B. Stevenson, op. cit, p261.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 120.

(6) ابن شداد، النوادر، ص 161.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 120.

(8) انظر: Zoe Oldenbourg, op. cit, p536.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 835، ولكن يرى حسين مؤنس في كتاب أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة 1987م، ص 270، أنه أبحر من ميناء عكا في 588هـ / 8 يونيو 1192م، انظر سعيد عاشور، ج 2، ص 835، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 124.

(10) لمزيد من التفاصيل عن عكا وسقوطها، انظر ابن واصل، ج 2، ص 355 - 362.

فلسطين من عكا إلى يافا ثم اتجه نحو عسقلان يريد أخذها قاعدة عسكرية⁽¹⁾، وعندما علم «صلاح الدين» خشي من أطماع الصليبيين، فاضطر إلى تخريب عسقلان⁽²⁾ إذ قال «إن موت أحد أبنائي أحب إلى نفسي من تخريب عسقلان»⁽³⁾، فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التي كانت من الممكن استغلالها في مهاجمة مصر، ولم ينجح «ريتشارد» إلا في استرداد أرسوف⁽⁴⁾ ويافا وقيصرية وحيفا⁽⁵⁾، ثم حاول «ريتشارد» أن يسترجع بيت المقدس ولكنه فشل في كل محاولاته، واضطر أن يعقد الصلح مع «صلاح الدين» (صلح الرملة) شوال 588هـ / نوفمبر 1192م⁽⁶⁾، نتيجة وصول أخبار سيئة لـ «ريتشارد» من إنجلترا تفيد أن أخاه «حنا» قام بفتنة ضده، الأمر الذي تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده خوفاً على مصير عرشه⁽⁷⁾، أضف إلى ذلك أن «ريتشارد» مرض مرضاً شديداً كان قد أشرف منه على الهلاك⁽⁸⁾.

تم عقد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين في 22 شعبان 588هـ / 2 سبتمبر 1192م⁽⁹⁾.

أهم شروط صلح الرملة

(1) أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا

- (1) ابن واصل، ج2، ص363، مصطفى العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي، ص143.
- (2) ابن واصل، ج2، ص369، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص192، المقرزي، السلوك، ج1، ص106، مصطفى العسقلاني، عسقلان، ص143، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص843.
- (3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص192، ابن شداد، النوادر، ص186 - 187، ابن واصل، ج2، ص369، عسقلان، ص143.
- (4) اشتبك الصليبيون مع الجيش الأيوبي في معركة فاصلة دارت فيها الحرب بين الفريقين فانهمز الجيش الأيوبي، هذا وتعتبر معركة أرسوف وهزيمة المسلمين فيها نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص841، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص127.
- (5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص126.
- (6) التويري، نهاية الأرب، ج28، ص436 - 437، سعيد عاشور، ج2، ص843، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية، ص200، مصطفى العسقلاني، عسقلان، ص159، سوسن سليمان يحيى، تجديد صلاح الدين الأيوبي للعبائر الإسلامية في بيت المقدس، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الخامس، ص297.
- (7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص861.
- (8) ابن خلدون، العبر وديوان المتبدأ والخبر، ج5، ص105.
- (9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص862، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص133.

وأرسوف⁽¹⁾، أما عسقلان فتكون للمسلمين⁽²⁾، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين⁽³⁾.

(2) أما الأماكن المقدسة فنصت الاتفاقية على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة مقابل ذلك، وفي الوقت نفسه أعلن «صلاح الدين» أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل⁽⁴⁾، وبعد إتمام هذه الاتفاقية يحلف عليها الطرفان⁽⁵⁾.

بعد اتفاقية صلح الرملة أحرز «صلاح الدين» نجاحًا باهرًا في منع الحملة الصليبية الثالثة من تحقيق الهدف الذي خرجت من أجله، وهو الاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين، فبعد هذه الاتفاقية عاد «صلاح الدين» إلى القدس وعمل بعمارة أسوارها وترميم حصونها، ثم رحل إلى دمشق مارًا بنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت، وما لبث أن أصلح أمور أجنادها وشحنها بالرجال والعتاد⁽⁶⁾.

غير أن «صلاح الدين» لم يلبث بدمشق طويلًا، فقد أصابه مرض الحمى، وتوفي⁽⁷⁾ في صفر 589هـ / مارس 1193م⁽⁸⁾، ودفن في دمشق بعد أن قضى حياته كلها في كفاح وجهاد ضد أعداء الإسلام فقد كان أعظم ملوك زمانه⁽⁹⁾.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403، مصطفى العسقلاني، عسقلان، ص159.
Zoe Oldenbourg, The crusades, p540, W.B. Stevenson, pp269 – 270.

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص83.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403، مصطفى العسقلاني، عسقلان، ص159، إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1990م، ص56.

(4) المقرئزي، السلوك، ج1، ص110.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص403 - 405، المقرئزي، السلوك، ج1، ص110، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص862.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص240، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص407.

(7) انظر:

W.B. Stevenson, op.cit, p 287

W.B. Stevenson, Ibid, p287.

(8) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص114، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص437، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص135، كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية د/ نيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1948م، ص155.

Zoe Oldenbourg, The crusades, op.cit, p554.

(9) الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلة تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه، عدد خاص عن دمشق، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، العدد الخامس والثلاثون 1985م، ص403.

خلفاء «صلاح الدين الأيوبي» والأخطار التي واجهتهم

أوصى «صلاح الدين» بالسلطنة من بعده لابنه «الأفضل نور الدين علي» الذي كان موجودًا مع أبيه بدمشق، أما الابن الثاني وهو «العزیز عثمان» الذي كان بمصر وقت وفاة أبيه فقد احتفظ بها، أما الابن الثالث وهو «الظاهر غازي» فقد أخذ حلب وشمال الشام، أما «العادل» أخو «صلاح الدين» فقد منحه أخوه بعض الإقطاعات الثانوية المتفرقة مثل الأردن والكرك إلى جانب الجزيرة وديار بكر⁽¹⁾، ونظرًا لسوء تصرفات الملك «الأفضل» فلم يكن مرغوبًا فيه بعد أن انتقلت إليه السلطنة بوصية من أبيه⁽²⁾.

حدث انقسام في البيت الأيوبي والذي أدى إليه هو بطانة السوء التي التفت حول الملك «الأفضل»، رغم ميل أبناء «صلاح الدين» إلى الاتفاق والوفاق فيما بينهم⁽³⁾ فخرج الملك «العزیز» من مصر إلى دمشق في محاولة لانتزاعها من أخيه «الأفضل» سنة 590هـ / 1194م، مما دفع «الأفضل» إلى الاستنجاد بعمه الملك «العادل»، وكما ذكر بعض المؤرخين «أفضى إليه بأسراره وشاهد الملك العادل اختلال أحواله، ولم يعجبه سيرة وزيره «ضياء الدين بن الأثير»، وكان الملك «العادل» يجه الملك «الأفضل» بالتحذير منه، وهو لا ينزل عنه ولا يبرأ منه»⁽⁴⁾، هذا وقد حال الملك «العادل» دون وصول «العزیز» إلى دمشق وانسحابه عائداً إلى مصر⁽⁵⁾ ليعاود الكرة من جديد بعد عام، إلا أن «العادل» بحال دون وصوله إلى دمشق من جديد بعد أن حرّض أمراء «العزیز» على تركه والعودة إلى مصر⁽⁶⁾، تمكّن «العادل» بذكائه الشديد أن يسيطر على الموقف إذ كان ذا مكر شديد وخديعة، صبورًا ذا أناة وتؤدة⁽⁷⁾، فانتهاز فرصة أن يدب النزاع بين أولاد «صلاح الدين» وأن يكون حكمًا بينهم مما مكنه من فرض كلمته عليهم ليصبح سيد الموقف، وقد ساعدته الظروف، فقد توفي الملك «العزیز عثمان» في السابع والعشرين من المحرم سنة 595هـ / أواخر نوفمبر 1198م⁽⁸⁾، وانتقل حكم البلاد إليه

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص378-379، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص136.
(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص226، ابن الأثير، الكامل، حوادث 589هـ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص876.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص38-39، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص118.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص43-44، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص123.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص71.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص137.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص71.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص82-83، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص95، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص143-144.

وأعطى «الأفضل» سميحاً بعد أن أنزل به الهزيمة، وبذلك أعيد توحيد البلاد من جديد تحت زعامة الملك «العادل»، وانتظمت البلاد في حكمه واستقرت قواعده، وقد قسّم «العادل» حكمه على أبنائه فأعطى ابنه «الكامل محمد» حكم مصر، و«المعظم عيسى» دمشق، و«الأشرف موسى» حران، و«الأوحد» ميا فارقين، وأصبح على «العادل» مواجهة الصليبيين، وحماية الأراضي الإسلامية، بعد أن نجح «العادل» في توحيد البلاد بدأ يهتم بتحصين ثغور مملكته، لا سيما ثغر دمياط؛ لأنها قفل الديار المصرية⁽¹⁾، إذ بنى «العادل» مدينة العادلية جنوباً وشحنها بالمقاتلين، والآلات الحربية وعمل على تقوية برج السلسلة، وكان في هذا الوقت قد عزم الصليبيون على غزو مصر بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة مصدرها مصر⁽²⁾.

الحملة الصليبية الرابعة

دعا البابا «أنوسنت الثالث» (595هـ / 1198م - 613هـ / 1126م) الغرب الأوروبي إلى القيام بحملة صليبية رابعة لاسترداد بيت المقدس، وشجع الأوروبيين على ذلك ما حدث من النزاع بين أبناء «صلاح الدين» حول تقسيم الدولة الأيوبية⁽³⁾، لكن هذه الحملة سرعان ما أخفقت بسبب أنها اتخذت القسطنطينية⁽⁴⁾ طريقاً لها بدلاً من النزول في مصر للسيطرة عليها، وتسببت الحملة في إضعاف الصليبيين في الوقت الذي كانت فيه قوة الإسلام في الازدياد⁽⁵⁾.

الحملة الصليبية الخامسة

لم ينس الصليبيون والغرب الأوروبي بيت المقدس⁽⁶⁾، فأرسل البابا «أنوسنت الثالث» (لوثر أوف سيجن) (585هـ / 1189م - 613هـ / 1216م) إلى السلطان «العادل» الأيوبي يحذره بما سوف يجل من الغضب، ويحثه أن يتنازل في هدوء عن بيت المقدس⁽⁷⁾، لكن البابا

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص195.

(2) المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص188، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص183-184.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص139.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص891، 894، آرنست باركر، الحروب الصليبية، ص201، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص213، 219، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج1، ص11، هامش1.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص139، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص189.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص258.

توفي سنة (613هـ / 1216م)، وتولى مكانه البابا الجديد «هونوريوس الثالث» (الكاردينال سنسيوس) (613هـ / 1216م - 635هـ / 1227م)⁽¹⁾ الذي لم يمهل الرغبة في استعادة بيت المقدس، فبعد توليته البابوية ببضعة أيام كتب إلى الملك «حنا دى برين» الذي تزوج من «ماريا» ابنة «عمورى الثانى» ملك قبرص وبيت المقدس، وأصبح له حق المحاربة من أجل عرش بيت المقدس⁽²⁾، وفعلا اجتمعت جموع الصليبيين بعكا، فقرروا أن يقصدوا مصر أولاً ثم بعدها لا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد⁽³⁾، وتقرر أن تكون مدينة دمياط هى المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه؛ لأنها قفل الديار المصرية⁽⁴⁾، خرجت الحملة الصليبية الخامسة من عكا (615هـ / 1218م) بقيادة الملك «حنا دى برين» فوصلت أمام دمياط فى صفر 615هـ / مايو 1218م⁽⁵⁾ فحاصرت دمياط 9 أشهر، فاستولت على برج السلسلة⁽⁶⁾ أهم الحصون المائية لحماية دمياط من جهة البحر⁽⁷⁾.

ولما علم السلطان «العادل» باستيلاء الصليبيين على برج السلسلة على حد قول بعض المؤرخين «تأوه تأوهاً شديداً، ودق يديه على صدره أسفاً وحزناً ومرض من ساعته»⁽⁸⁾، ومات يوم الخميس سابع جمادى الآخر 615هـ / 1218م حزناً وكمداً⁽⁹⁾، وبعد وفاة «العادل» استقل الملك «الكامل» بحكم مصر، وإخوانه، «المعظم عيسى» فى دمشق، و«الأشرف موسى» فى حران، و«الأوحد» فى ميا فارقين⁽¹⁰⁾، عندما علم الصليبيون فى الغرب بهذا النصر أرسلوا المدد بقيادة الكاردينال «بلاجيوس» الذى وصل إلى مصر فى 615هـ /

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص923.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص140.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص921.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص109.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص269، الحافظ الذهبى، العبر فى خبر من غير، ج3، ص164.

(6) كان على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ، تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح إلى الديار المصرية، انظر المقرئى، السلوك، ج1، ص188، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص258، ميخائيل عواد، المآصر فى بلاد الروم والإسلام، مجلة المقتطف، ج3، من المجلد الرابع بعد المائة، مارس 1944، 6 ربيع الأول 1363هـ، ص40، 42.

(7) انظر:

Wiet, L'Egypt Arabe, pp345-364

(8) المقرئى، السلوك، ج1، ص189 - 190، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص119، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص593، ابن واصل، ج2، ص275 - 276، سعيد عاشور، ج2، ص926.

(9) المقرئى، السلوك، ج1، ص190، الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص196 - 197.

(10) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص142.

1218م⁽¹⁾ مندوبًا عن البابا وقائدًا على الصليبيين في حملتهم على مصر⁽²⁾، وأخذ الملك «الكامل» يعمل على عرقلة الصليبيين فاشتبك معهم عند العادلية الذي كان معسكرًا بها وحدث النصر والهزيمة لكل من المسلمين والصليبيين⁽³⁾، وحدث أن نزل الصليبيون بالدلتا، فأعقب نزولهم حالة من الفوضى إذ نزحت من سيناء الشرقية بعض قبائل البدو والأعراب لتستفيد من حالة الفوضى بعد نزول الصليبيين بالدلتا، فقطعوا الطرق وأغاروا على القرى، ونهبوا وأفسدوا وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج⁽⁴⁾، على أن الخطر الداخلي الأكبر الذي هدد الملك «الكامل» أثناء تصديه للصليبيين على حدود دمياط، هو تعرضه لمؤامرة من بعض كبار أمراءه وعلى رأسهم «عماد الدين أحمد بن علي» ويعرف بـ«ابن المشطوب»، الذي كان أكبر أمير بمصر⁽⁵⁾، وكان هدف المؤامرة هو عزل «الكامل» وإحلال أخيه الصغير «الفائز» بدلاً منه لصغر سن «الفائز»، مما يتيح الفرصة لـ«ابن المشطوب» للسيطرة عليه وعلى الحكم، مما أدى إلى إضعاف عزيمة «الكامل» في أول الأمر، وانقسام جيشه ثم هروبه من معسكره في العادلية قاصداً أشموم طناح⁽⁶⁾، لكن الله عز وجل لطف بالمسلمين، ذلك أن الملك «المعظم عيسى» استجاب لنداء أخيه «الكامل» وحضر إلى أشموم طناح، وعلى حد قول «ابن الأثير»: «فقوى به قلبه، واشتد ظهره، وثبت جناحه، وأقام بمنزله»⁽⁷⁾.

واستطاع الأخوان أن يتخلصا من أعدائهما، فقبض «المعظم عيسى» على «ابن المشطوب» وأرسله إلى الشام⁽⁸⁾، أما «الفائز» فطلب منه «المعظم» أن يسير إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق رسولاً عن الملك «الكامل» ليقضى لهم بعض المهام، وعلى حد قول بعض المؤرخين «بسبب إرسال عساكر الإسلام لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج»⁽⁹⁾.

تقدم الجيش الإسلامي مرة أخرى لمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمياط، لكنه فشل في

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 927.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 142.

(4) ابن الأثير، الكامل، حوادث 614هـ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 929.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 143.

(6) المقرئ، السلوك، ج1، ص 196.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، حوادث، 614هـ، المقرئ، السلوك، ج1، ص 197.

(8) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 230-231.

(9) المقرئ، السلوك، ج1، ص 197، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص 231.

زحزحتهم عن مكانهم أمام دمياط⁽¹⁾، وحدث فجأة تغير في سياسة «الكامل» تجاه الصليبيين، ففتح باب المفاوضات بينه وبينهم وعرض عليهم أسخى عرض يمكن التقدم به وهو رد بيت المقدس وجميع ما كان «صلاح الدين» استرده من بلاد الساحل، ما عدا الكرك والشوبك لأهميتها الإستراتيجية، وتسليم صليب الصليبوت الذي كان «صلاح الدين» أخذه لما استولى على بيت المقدس، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة، وذلك في مقابل أن ينسحب الصليبيون من الأراضي المصرية⁽²⁾، قبل «حنا دى برين» قائد الحملة هذا العرض السخى الذى يحقق غرض الحملة⁽³⁾، ولكن المندوب البابوى «بلاجيوس» رفضه⁽⁴⁾.

وأخذ الملك «الكامل» يكرر عرضه على الصليبيين مرة بعد مرة، نظرًا لسوء موقفه وانخفاض فيضان النيل مما هدد البلاد بالمجاعة، ورغبة «المعظم» فى العودة إلى الشام، بالإضافة إلى سوء موقف حامية دمياط⁽⁵⁾.

لم يجد السلطان «الكامل» من وسيلة إلا الجهاد بعد أن رفض الصليبيون عروضه بسبب إصرار «بلاجيوس»⁽⁶⁾، وسقطت دمياط فى أيدي الصليبيين بعد حصار استمر تسعة أشهر كاملة، وبعد سقوط دمياط اتجه الملك «المعظم» إلى الشام، حيث أمر بتخريب بيت المقدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها إلا برج داود... فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط⁽⁷⁾.

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 144.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 932، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص 284 - 285، عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 190.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 144.

(4) يعتقد أن المدن الإيطالية كانت من وراء هذا الرفض، فقد رأت فى احتلال الدلتا مكسبًا تجاريًا ضخمًا يفوق استرداد بيت المقدس وهناك سبب آخر، ففى اعتقاد بلاجيوس عدم جدوى الدخول فى اتفاق مع المسلمين خصوصًا بعد أن قام الملك المعظم عيسى بتدمير استحكامات بيت المقدس وأسوارها حتى لا يستفيد العدو منها فى حالة إعادتها لهم إذا ما تم توقيع الاتفاق، المقريزى، السلوك، ج 1، ص 204، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 932، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص 286 - 287، سهير محمد إبراهيم نعينع، جبلة ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية 1994م، ص 225.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 933، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 145.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 145.

(7) المقريزى، السلوك، ج 1، ص 204.

حُقت مكاسب طائلة بدخول الصليبيين دمياط 616هـ / 1219م⁽¹⁾، بعد ذلك قرر الصليبيون منازل القاهرة واغتروا بما حصلوا عليه من مكاسب ورفضوا سماع الملك «الكامل» ودخلوا وسط مثلث تحيط به المياه من جهات ثلاث، بحيرة المنزلة شرقاً، وفرع دمياط غرباً، والبحر الصغير جنوباً، تلك الأرض التي تفيض بالمياه أثناء ارتفاع منسوب النيل، فدخل الصليبيون تلك الأرض 618هـ / 1221م، وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، فقد كان لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل⁽²⁾.

هذا في الوقت الذي نقل «الكامل» معسكره من فارسكور إلى قبالة طلخا، حيث خيم بالمنزلة⁽³⁾ التي شيدها على الشاطئ الشرقي للنيل في مقابلة طلخا، وأطلق عليها اسم «المنصورة»⁽⁴⁾ تفاؤلاً بها من الانتصار على الصليبيين، انتهزها «الكامل» فرصة فأمر بقطع كل السدود وكان الماء زائداً جداً فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم وأرادوا العودة إلى دمياط فوجدوا أن المسلمين قطعوا الطريق عليهم⁽⁵⁾، هكذا ساء موقف الصليبيين في دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور فلم يبق أمامهم سوى الصلح بعد أن عاينوا الهلاك فأرسلوا إلى السلطان «الكامل»⁽⁶⁾ يعرضون عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج من مصر مقابل السماح لهم بالخروج من مأزقهم سالمين⁽⁷⁾، ووافق «الكامل» على الصلح للأسباب الآتية؛ لأنه كان يتوقع وصول «فريدريك الثاني» إمبراطور ألمانيا لنجدة الصليبيين، ويخشى من اشتداد الأمر على المسلمين الذين

(1) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج3، ص168 سهير محمد، جبلة، ص225، مرآة الزمان، ج3، ق2، ص603.

(2) المقرئزي، السلوك، ج1، ص207، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص146.

(3) انظر:

Runciman, op.cit, VIII, p168.

(4) بنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفرق البحرين الآخذ أحدهم إلى دمياط، الفاصل بينها وبين جيزتها والأخرى إلى أشمون طنح ومصبه في بحيرة تنيس، ونزل فيها بعساكره وبنى عليها سوراً على بحر النيل، عن بناء مدينة المنصورة زمن السلطان الكامل، انظر ابن واصل، ج4، ص33، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص122، حسنين ربيع، النظم المالية، ص70.

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص129، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241 - 242، المقرئزي، السلوك، ج1، ص207 - 208، أبو شامة، الروضتين، ص129، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص298، 300، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.

(6) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.

(7) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.

لازموا القتال سنوات طويلة وهم في مواجهة الصليبيين⁽¹⁾ لكن على شرط أن يبعث إليه الصليبيون برهائن من ملوكهم⁽²⁾ لا من أمرائهم، فأرسل الصليبيون عشرين من كبارهم من بينهم الملك الصليبي «حنا دي برين» والمندوب البابوي «بلاجيوس»، في حين بعث «الكامل» إليهم مقابل ذلك ابنه «الصالح نجم الدين» ومعه جماعة من خواصه⁽³⁾، وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط في (19 رجب 618هـ / 7 سبتمبر 1221م).

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة للحصول على بيت المقدس وتوابعها من المدن والحصون مقابل الجلاء عن دمياط، فاضطروا إلى الجلاء أخيراً دون مقابل⁽⁴⁾.

فقد ذكر «ابن الأثير» في ذلك «أن الله تعالى أتى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها»⁽⁵⁾.

الحملة الصليبية السادسة

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل وعقد هدنة بين الطرفين الصليبي والإسلامي، ولم تكن هذه آخر حملة وصلت إلى الشرق، فقد وصلت إلى الشرق حملة صليبية أخرى في أواخر عهد الملك «الكامل» هي الحملة الصليبية السادسة⁽⁶⁾، والتي تميزت بطابع غريب⁽⁷⁾؛ لأنها كانت حملة ملعونة من البابوية⁽⁸⁾ ولم تحظ بعطف البابوية مثل الحملات الصليبية السابقة أو اللاحقة، وتذكر معظم المصادر التاريخية أن الحملة الصليبية السادسة تميزت بسمة خاصة عن الحملات الصليبية التي خرجت من أوروبا، وهي تطفح بروح العداوة⁽⁹⁾ ضد المسلمين؛

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص940، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص147.

(2) سعيد عاشور، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص342، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص129 - 130، المقرئ، السلوك، ج1، ص208، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص300 - 301.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص148.

(5) ابن الأثير، الكامل، حوادث، ج9، ص614هـ.

(6) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط1، 1998م، ص132.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص957، 960.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص959.

(9) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.

لأن إمبراطور الحملة «فريدريك الثاني» نشأ في صقلية مركز الحضارة الإسلامية فشب محباً للمسلمين وحضارتهم⁽¹⁾.

وأحداث هذه الحملة هي أنه في 624هـ / 1227م، ساءت العلاقة بين الملك «المعظم عيسى» صاحب دمشق وبين أخويه الملك «الكامل» والملك «الأشرف موسى» فاستنجد «المعظم» بـ«جلال الدين خوارزم شاه»⁽²⁾ سلطان الدولة الخوارزمية يستعين به على أخيه «الكامل»⁽³⁾، واتصل «الكامل» بالإمبراطور «فريدريك» ليستعين به ضد أخيه «المعظم عيسى» ووعدته أن يتنازل له عن القدس وبعض مدن الساحل فوصل «فريدريك الثاني» إلى عكا 625هـ / 1228م⁽⁴⁾، واتفق وصول الإمبراطور «فريدريك» بعد وفاة الملك «المعظم عيسى» الذي توفي في 624هـ / 1227م⁽⁵⁾، ولم يعد الملك «الكامل» في حاجة إلى معونة الإمبراطور «فريدريك الثاني»⁽⁶⁾؛ لأن الظروف أصبحت في صالحه، لكن الإمبراطور «فريدريك» كان قد استعطف الملك «الكامل» في عقد الصلح حتى يعود إلى الغرب الأروبي مرفوع الرأس، ويحقق النصر على البابا والكنيسة التي ناصبته العداوة⁽⁷⁾، وعقدت بينهم معاهدة يافا⁽⁸⁾ التي كانت من أغرب المعاهدات في تاريخ العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين.

أهم شروط معاهدة يافا:

- (1) أن يتم تسليم القدس على شرط أن تبقى خراباً ولا يجدد سورها⁽⁹⁾.
- (2) أن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي

(1) سعيد عاشور، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.
 (2) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 152.
 (3) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 222، رآقت عبد الحميد، المرجع السابق، ص 133.
 (4) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 228، الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج 3، ص 194 - 195.
 (5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 690.
 (6) أبو القدا، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 141، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 965، عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 153.
 (7) شهد الغرب الأروبي في العصور الوسطى نزاعاً حاداً بين البابوية والإمبراطورية المقدسة، استمر من 1057م حتى 1250م تقريباً، ومر بأدوار عديدة تخرج عن نطاق بحثنا، لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 949 - 962.
 (8) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 156.
 (9) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241، المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 230، سعيد عاشور، ج 2، ص 967.

المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام المسلمين⁽¹⁾.

تم عقد اتفاقية يافا في 627هـ / 1229م، وبمقتضى تلك الاتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، كان من الطبيعي أن تثير هذه المعاهدة عوامل السخط على كل من الطرفين وخاصة المسلمين، فيذكر «ابن واصل» و«المقريزي»: «أنه لما تم تسليم القدس إلى الفرنج وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين وأنكروا على الملك «الكامل» هذا الفعل، واستشنعوه منه، على حين قال الفرنج إن الإمبراطور «فريدريك» نزل إلى حد المفاوضة مع المسلمين بدلاً من محاربتهم»⁽²⁾.

هكذا نجح «فريدريك الثاني» باتفاقه مع الملك «الكامل» في تحقيق مكسب كبير للفرنج لم تستطع الحملات الصليبية الثالثة والرابعة والخامسة أن تحققه، باسترداد بيت المقدس دون عناء⁽³⁾.

«الصالح أيوب» وتوحيد الدولة الأيوبية

لا شك أن وفاة السلطان «الكامل» 635هـ / 1238م، كان سبباً في تفكك الدولة الأيوبية، فقد دب النزاع بين أبناء البيت الأيوبي، الملك «العادل الثاني» الذي ولاه أمراء مصر السلطة حتى يكون خليفة لأبيه، وبين أخيه «الصالح نجم الدين أيوب» الذي كان موجوداً بالشام في ذلك الوقت، وعظم عليه ذلك لأنه الأخ الأكبر⁽⁴⁾، وما لبث «الصالح أيوب» أن غادر الشام ليستولى على مصر، لكن «الناصر داود» صاحب الأردن والكرك عندما علم بخروج «الصالح أيوب» إلى مصر قبض عليه واعتقله، وبعد فترة وجيزة أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون بلاد الشام لـ «الناصر» وأن تكون مصر لـ «الصالح أيوب».

في ذلك الوقت استاء كبار أمراء البيت الأيوبي من «العادل الثاني» لاشتغاله باللهو والفساد⁽⁵⁾، فكان منهم أن قبضوا عليه وعزلوه في نهاية 637هـ / 1240م، واستدعوا بدلاً منه «الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل»، الذي دخل القاهرة وأصبح سلطاناً على مصر

(1) ابن واصل، الجزء والصفحة أنفسهما، ج4، ص241، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص230.

(2) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص654، المقريزي، السلوك، ج1، ص230، ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243، سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص242، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص156.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص158.

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص304-305.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص294، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص54.

(637هـ / 1240م - 647هـ / 1249م⁽¹⁾)، وذكر «ابن واصل»: «أن الملك «الصالح نجم الدين أيوب» دخل قلعة الجبل، وفرح الناس بقدومه»⁽²⁾.

تطورت الأحداث في بلاد الشام بسبب النزاع الذي اشتد بين أبناء البيت الأيوبي، خاصة بين «الصالح إسماعيل» و«الصالح أيوب» في وقت كانت فيه الدولة الأيوبية في حاجة إلى التعاون والاتحاد لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي تتمثل في:

(1) الوجود الصليبي، وحملة صليبية جديدة إلى الشام⁽³⁾.

(2) تعرض بلاد الشام لغزو جموع الخوارزمية⁽⁴⁾.

(3) اقتراب خطر المغول.

في خضم هذه الأحداث المتلاطمة نجح «الناصر داود» في الاستيلاء على بيت المقدس وإخراج الفرنج منه⁽⁵⁾، وذلك بعد وصول حملة صليبية جديدة على بلاد الشام 637هـ / 1239م.

تطورت الأحداث مرة أخرى عندما تولى «الصالح نجم الدين أيوب» السلطة في مصر، فاستاء من ذلك «الصالح إسماعيل» صاحب دمشق، وفي هذا الوقت أرسل للصليبيين وطلب معاونتهم له ضد «الصالح أيوب» في مصر، و«الناصر داود» في الأردن، الذي وقف إلى جانب «الصالح أيوب»، وتعهد لهم بإعادة بيت المقدس إليهم⁽⁶⁾، بالإضافة إلى عسقلان⁽⁷⁾ وطبرية، مما أثار عليه الرأي العام الإسلامي، وانتهى الأمر بهزيمة الصليبيين الذين انسحبوا إلى عسقلان، وكانوا قد عقدوا صلحاً مع «الصالح أيوب» سلطان مصر 638هـ / 1240م. لكن ما لبث أن دب النزاع مرة أخرى بين «الصالح أيوب» وعمه «الصالح إسماعيل» في دمشق، فاستنجد «الصالح إسماعيل» بالفرنج وسانده «الناصر داود» صاحب الأردن، وما لبث «الصالح أيوب» هو الآخر أن استعان بالخوارزمية⁽⁸⁾، كان الأمر قد انتهى باقتحام الخوارزمية بيت المقدس في 642هـ / 1244م واستولوا عليه. ثم دخلوا مع الصليبيين في

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص319، 321.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص266، ابن الأثير، الكامل، حوادث 637هـ.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص986.

(4) لمزيد من التفاصيل عن الخوارزميين انظر أسامة زكي زيد، الخوارزميون ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد30، 1982م.

(5) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص247، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص164.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص322، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص304-305.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص165.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

معركة حاسمة وانتصروا عليهم في موقعة غزة 642 هـ / 1244 م، التي كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين (583 هـ / 1187 م)، حتى أطلق عليها الأوروبيون «حطين الثانية»⁽¹⁾، لكن نتيجة لسوء العلاقات بين الخوارزمية و«الصالح أيوب» لم يسمح لهم بالإقامة في مصر وطردتهم منها، واستطاع أن يقضي عليهم. ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبيين فتمكن من هزيمتهم واستولى على طبرية وعسقلان 645 هـ / 1247 م، فنجح في استعادة الدولة الأيوبية ووحدها⁽²⁾ وأصبح سلطاناً على القاهرة ودمشق وبيت المقدس.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

من المؤكد أنه كان لاستيلاء المسلمين على بيت المقدس 624 هـ / 1244 م رد فعل قوى في الغرب الأوروبى، فقامت البابوية بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة، لكن ظروف الغرب الأوروبى كانت تحول دون أن يلبي معظم ملوك وأمراء أوروبا تلك الدعوة.

فما لبث أن استجاب لها «لويس التاسع» ملك فرنسا الذى لقب بـ«القديس» نتيجة لتقواه وورعه، فأعد حملة صليبية كان معظمها من الفرنسيين، بارحت الحملة أوروبا لتصل إلى ميناء ليا سول في قبرص في 642 هـ / 1248 م⁽³⁾، ثم اتجهت من قبرص إلى مصر⁽⁴⁾ ونزلت قريباً من دمياط واستولت عليها دون مقاومة 647 هـ / 1249 م⁽⁵⁾. عندما علم «الصالح أيوب» بذلك أسرع بالمجيء من دمشق إلى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط ولكنه توفي في 647 هـ / 1249 م⁽⁶⁾، دون أن يقوم بالدفاع عن مصر ضد الصليبيين بعد أن ترك ولداً لم يخلف غيره هو ابنه المعظم «توران شاه»⁽⁷⁾.

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص999.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص168.

(3) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1007، السيد سالم، سحر السيد سالم، المرجع السابق، ص166.

(4) عبد الحميد العبادى، محمد مصطفى زيادة، إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، ط3، ص168.

(5) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص331، المقرئى، السلوك، ج1، ص333، الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص382، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج3، ص179، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1015، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص274.

(7) توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبو بكر الأمير نجم الدين أيوب، كان أبوه قد ولاه حصن كيفا فى الشرق، ثم كان يستدعيه فلا يجيبه، فلذلك كان يكرهه، ولذلك لم يوصى إليه بالملك، مع أنه لم يخلف ولداً غيره، لمزيد من التفاصيل انظر العيني، بدر الدين محمود العيني، عقد الجمعان فى تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د/ محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987 م، ج1، ص23، انظر د/ محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ص280-281.

«شجرة الدر» و«توران شاه» والصليبيون

استطاعت «شجرة الدر» زوجة «الصالح نجم الدين أيوب»⁽¹⁾ أن تسيطر على الموقف فأخفت نبأ وفاة زوجها «الصالح نجم الدين أيوب»، وعملت على تدير أمور الدولة وشئونها وإصدار المراسيم إلى أن يصل المعظم «توران شاه»⁽²⁾ فهو شاب مستهتر عديم الخبرة كان ينوب عن والده في حصن كيفا⁽³⁾ وديار بكر⁽⁴⁾.

ورغم كل الاحتياطات والتكتم الشديد تسرب خبر وفاة السلطان لا إلى المصريين فحسب بل وصل إلى الصليبيين أيضاً⁽⁵⁾، لذلك رأى «لويس التاسع»⁽⁶⁾ أن يسرع بالهجوم على مصر منتهزاً تلك الظروف السيئة التي أصبحت فيها البلاد⁽⁷⁾. لكن المهالك البحرية بقيادة «بيرس البندقداري» الذي أكثر «الصالح أيوب» من شرائهم أنقذوا الموقف وانقضوا على الصليبيين⁽⁸⁾ في دروب المنصورة وقتلوهم.

ثم وصل «توران شاه» إلى مصر ونزل في قصر أبيه وبدأ محاربة الصليبيين، فأمر بتجهيز عدة سفن في المنصورة ونقلها على الجمال وهي مفككة وأعاد تركيبها وشحنها بالمقاتلين والإمدادات لقطع طريق الإمدادات الصليبية القادمة من دمياط إلى موقع معسكرات الفرنج⁽⁹⁾، وحدث القتال بين الفريقين، واشتدت الضائقة بالفرنج لانقطاع الإمدادات عن دمياط⁽¹⁰⁾، واضطر الفرنج إلى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة، على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بيت المقدس عوضاً عنها فلم يلب أحد مطلبهم، واضطر «لويس» إلى التقهقر نحو

(1) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1016.

(2) المقرزي، السلوك، ج1، ق1، ص353، 357، سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص252، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص281.

(3) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص180، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1017.

(4) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص180، المقرزي، الخطط، ج2، ص236، الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج3، ص256.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص131.

(6) انظر:

Villehardouin and de Joinville, Memorise of the crusades, London, J.M Rent, sons LTD, New York, E.P. Dutton, co. 1Ne 1908, pp 135-140.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1020.

(9) المقرزي، السلوك، ج1، ق1، ص353، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص134.

(10) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص181.

دمياط فطارده المسلمون حتى فارسكور⁽¹⁾، وقضوا على جيشه، وأسر «لويس التاسع»⁽²⁾ وسيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، حيث سجن في دار ابن لقمان⁽³⁾ كاتب الإنشاء «فخر الدين إبراهيم بن لقمان»⁽⁴⁾ بالمنصورة، ولم يهتم المسلمون بأمر دمياط؛ لأنهم اعتقدوا أن استردادها أصبح أمراً سهلاً مفروغاً منه، لذلك كان تركيزهم على الممتلكات الصليبية بالشام، لكن «لويس» أجاب أنه لا سلطان على الصليبيين بالشام، ورفض أن يعترف للمسلمين بأي حق في الممتلكات الصليبية، قرر «توران شاه» طلب مبلغ ضخيم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي⁽⁵⁾ أو أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك «لويس» نفسه، وقد وافق «لويس»، وأبرمت معاهدة بينه وبين «توران شاه» بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات، وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح⁽⁶⁾، وما لبث «توران شاه» أن قتل في المحرم 648هـ / 1250م قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية مع الصليبيين⁽⁷⁾، وأهم ما ترتب على مقتل «توران شاه» في تاريخ مصر والشرق الأدنى هو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية في مصر والشام⁽⁸⁾.

(1) لمزيد من التفاصيل انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1016، 1020.

(2) سيد على الحريري، المرجع السابق، ص254.

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص181، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص303، الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص384، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص135، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1024، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص85.

(4) العيني، عقد الجمان، ج1، ص19.

(5) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1025.

(6) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1025.

(7) عزل الملك المعظم توران شاه جميع من كان بيده مقاليد الحكم من أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر منه واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا وكانوا سفلة أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور وهجموا عليه بالسيوف وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس وبموته انقرضت الدولة الأيوبية، انظر أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص181، العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج5، ص141، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص172، سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص254 - 255، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص89.

(8) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص1025.



■ الفصل الثاني

التحصينات الحربية بمصر في العصر الأيوبي

مقدمة

استحوذت التحصينات الحربية بمصر على قلم الكثير من العلماء والباحثين، حيث حظيت القاهرة بالنصيب الأكبر من اهتماماتهم، في حين استأثرت قلعة الجبل وأسوار «صلاح الدين» باهتمام كثير من الدراسات والبحوث من الناحيتين التاريخية والأثرية، فقد كانت الظروف السياسية والأخطار الخارجية التي أحاطت بالدولة الأيوبية هي العامل الأساسي في تشييد كثير من العمارات الحربية خاصة في مصر والشام، فشيدت القلاع والأبراج والأسوار، هذا بالإضافة إلى تشييدها داخل البلاد وعلى حدود مصر وفي الموانئ كالإسكندرية ودمياط وتينيس والفرما وأشتوم والبرلس وبلبيس والسويس وشبه جزيرة سيناء وغيرها⁽¹⁾، هذا وقد اهتم المسلمون بأمور التحصينات الحربية على مر العصور الإسلامية، نظرًا لتعرض الأماكن الإسلامية في مصر مثل دمياط وتينيس والفرما وغيرها من الأماكن الحساسة التي يمكن أن تتعرض لهجوم الروم، ولكن يبدو أن الإجراءات الدفاعية التي اتخذت في ثغور مصر (دمياط، تينيس، الفرما وغيرها) كانت مؤقتة وليست دائمة، إذ كانت تقل العناية بها بمجرد زوال خطر الروم الذين هاجموا دمياط وتينيس أكثر من مرة، كان آخرها في عام 357هـ/967م⁽²⁾، وتعد البداية الحقيقية لتحصين عواصم مصر الإسلامية هي في العصر الفاطمي 358هـ/968م⁽³⁾، وعندما تولى «صلاح الدين» حكم البلاد، بدأت القاهرة تشهد مظاهر من الرقي والتقدم، وقد امتد حكم الأيوبيين لمصر ثمانين عامًا فقط، ورغم هذه المدة القصيرة، إلا أن القاهرة شهدت تطورًا معماريًا هائلًا في المنشآت الحربية والمدنية على السواء⁽⁴⁾.

- (1) عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب جامعة جنوب الوادي بقنا، العدد الرابع 1995م، ص 245.
- (2) علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج 11، ص 37، المقرزي، الخطط، ج 1، ص 176، 182.
- (3) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن في العصور الإسلامية، الطبعة الأولى 1989م، ص 93.
- (4) أحمد فكري، خصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب، 1970م، ص 163.

إلا أن أهم ما اشتهرت به فترة حكم الأيوبيين هي التحصينات الحربية⁽¹⁾ من قلاع حصينة وأسوار ذات أبراج مستديرة⁽²⁾.

المقومات المعمارية في التحصينات الحربية

في بداية تناولي الحديث عن التحصينات الحربية لا بد من معرفة الفرق بين كل من الحصن والقلعة والبرج، نظرًا لأن معظم المراجع العربية لا تفرق من الناحية اللغوية أو المعمارية بين القلعة والحصن والبرج وقد حذت المراجع الأجنبية حذو المصادر العربية، فأطلقت على معظم العماير الحربية لفظ Fortress أو Fort، ويندر أن تذكر كلمة Citadel على القلعة، وTower على البرج أو Curtain أو Walls على الأسوار الحربية⁽³⁾.

الحصن⁽⁴⁾

الحصن هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أي اعتداء من داخل البلاد أو خارجها، ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف في العصور الوسطى باسم «الحصون»، مثال ذلك أسوار مدينة بغداد والقيروان والقاهرة وغيرها الكثير⁽⁵⁾. والحصن هو مركز الحكم التقليدي، مهما كانت قيمة الحاكم من القوة أو الضعف، وكان يحيط بهذا المقر المباني التي تحصن المدن أو القرى، والتي يجب أن تتميز عن الأسوار العادية وذلك باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة القصد منها الحماية والتحصين والمراقبة، وهذه المباني هي الأبراج والسقاطات والمراقب، التي يجب أن يتواجد

(1) سعاد ماهر محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، الطبعة الأولى، الناشر دار البيان العربي، 1985م، ص917، توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة العصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية، الجزء الثاني، يوليو 1969م، ص235-236.

(2) عبد الرحمن فهمي، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، حسن الباشا وآخرون، ص230.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص819.

(4) حصن المكان يحصن حصانة فهو حصين منيع والحصن كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه والجمع حصون، وحصن حصين من الحصانة، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج16، ص275.

وقيل إن الحصن نوعان، واحد يشكل بناء منفصلاً قائماً بذاته يبنى على السواحل أو طرق القوافل أو في المراكز العسكرية الحساسة المشرفة أو على حدود البلدان وثغورها، وآخر تابع لبناء سور أو خان أو قصر أو مدينة يسيطر على البوابات أو يحتل الأركان، انظر عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية 1408هـ / 1988م، ص133.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص819.

فيها باستمرار حامية من العسكر والجنود، بل كثيرًا ما يوجد بداخلها عدد كبير من المدنيين الذين يقومون بالخدمات العامة وخاصة داخل أسوار المدن⁽¹⁾.

القلعة⁽²⁾

هي استحكام حربي يبنى في منطقة إستراتيجية، كالجبل أو التل أو الروابي الصخرية أو على سواحل البحار، ومهمة هذه المباني قاصرة على المراقبة والدفاع ضد أى اعتداء خارجي، ومن ثم فهي بالضرورة لا بد أن تتكون من مجموعة من الأبراج والمراقب والمزاغل وما إلى ذلك من المباني الحربية⁽³⁾، كما تمتاز القلعة بأن ساكنيها من العسكر والجنود فقط، ولم يقم المدنيون بها، وعلى ذلك نستطيع القول بأن الحصن يمكن أن يشتمل على قلعة أو أكثر ضمن مبانيه، أما القلعة فهي وحدة معمارية قائمة بذاتها، قد تكون منفصلة عن الحصن أو بداخله شريطة أن يكون الموقع المقامة عليه موقعًا إستراتيجيًا⁽⁴⁾.

البرج⁽⁵⁾ Tower

هو عبارة عن بناء حربي مربع أو مستدير الشكل يبرز عن الجدار والأسوار، ويحتوى البرج على مساقط Machicoullis ومراقب Glacis ومزاغل Arrow - Slits لرمى السهام، ولذلك فإنه يتحتم أن تزود أسوار القلاع والحصون بعدد مناسب من الأبراج، ومن ثم فإن حجمها يكون عادة صغيرًا لتعدددها⁽⁶⁾، فقد كانت الأبراج تقوم بدور رئيسي في الدفاع⁽⁷⁾،

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، على مر العصور، ج2، ص820 - 821.

(2) القلعة صخرة عظيمة تتقلع عن الجبل، والقلعة الحصن المتمتع في الجبل وجمعه قلاع، وهي بسكون اللام حصن مشرف وجمعه قلوع، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص164.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص821.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(5) البرج في اللغة تباعد ما بين الحاجبين، وكل ظاهر مرتفع برج، وإنما قيل للبرج بروج لظهورها وبيانها وارتفاعها، والبرج هنا الحصون واحدها برج، وبروج سور المدينة، والحصن بيوت تبنى على السور، وبروج الحصن ركن والجمع بروج وأبراج، وقد تبنى الأبراج مستقلة كخطوط أمامية للمراقبة وإرسال الإشارات، انظر ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص211 - 212، (بيج) جون بيرتون، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1402هـ / 1981م، ص57، عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت 1408هـ / 1988م، ص79، محمد أمين، المصطلحات المعمارية، ص21.

(6) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص821.

(7) أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة سنة 1992م.

فهى من العناصر المعمارية المهمة⁽¹⁾ والتي تكون خارجة عن الأسوار الملتصقة بها وبارزة عنها ومتباعدة بعضها عن بعض بمسافات مقدره بالنسبة إلى مرمى الأسلحة التي كانت تستعمل في ذلك الوقت⁽²⁾.

الخندق

يعد الخندق من العناصر الدفاعية المهمة لأى قلعة أو حصن أو مدينة يتم تحصينها ضد الغزاة، فهو عبارة عن حفر عميق في أرض سور حصن أو قلعة في أسفل تكسيه مجسم الدروة، ويصنع من أجل زيادة ارتفاع هذا الجسم وحفظه من تسلق الأعداء⁽³⁾.

التحصينات الحربية في غضون الحملات الصليبية

مع مجيء الصليبيين إلى الشرق خاصة الحملة الصليبية الأولى 491هـ/1097م، كانت ظاهرة بناء القلاع والحصون في غرب أوروبا أخذت تنمو وتتطور في ظل النظام الإقطاعي حتى أطلق على ذلك العصر اسم «عصر القلاع»⁽⁴⁾، وقد شيد «بلدوين» أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية (494هـ/1100م - 511هـ/1117م)، قلعة حصينة في أيلة للتحكم في الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام، هذا بالإضافة إلى تشييد قلعة أخرى في جزيرة «فرعون» أمام قلعة أيلة في خليج العقبة، ولذلك تمكن من الإشراف على شبه جزيرة سيناء، ثم هاجم مصر⁽⁵⁾، وقد شهدت هذه المرحلة تقدمًا كبيرًا في تشييد الحصون والقلاع في الحروب الصليبية خاصة بعد سقوط بيت المقدس للمحافظة على المملكة اللاتينية⁽⁶⁾.

هذا وقد هاجم الصليبيون مصر وغزوها عدة مرات، فقد كان لنشاطهم البحرى دور كبير في البحر المتوسط، من هنا صار ولا بد من الاهتمام والعناية بالتحصينات الحربية

(1) أمل محفوظ جمعة، العماثر الحربية في عصر محمد على بالقاهرة، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة 1999م، ص 333.

(2) أمل محفوظ، العماثر الحربية، ص 333.

(3) يوجد خندق أمام قلعة صلاح الدين الأيوبي وهو خندق اصطناعى قام بحفره عمال صلاح الدين الأيوبي، لمزيد من التفاصيل انظر أمل محفوظ أحمد جمعة، العماثر الحربية، ص 342.

(4) عبد الرحمن زكى، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، القاهرة 1969م، ص 51.

(5) عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية، ص 252.

(6) عبد الرحمن زكى، القلاع في الحروب الصليبية، ص 66 - 67، سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس عشر 1969م، ص 35 - 36.

والثغور المصرية، ففي عهد الخليفة «الأمير» الفاطمي (517هـ / 1123م)، حدثت تجديدات في سور الإسكندرية، بالإضافة إلى التجديدات التي حدثت في عهد «الصالح طلائع» في مدينة بليس 554هـ / 1159م، وقد أورد «المقريزي» ما نصه «وفي سنة أربعة وخمسين وخمسمائة بنى الملك «الصالح طلائع بن رزيك» على بليس حصن من لبن»⁽¹⁾.

ونظرًا لقوة تحصين هذه المدينة وصمود «شيركوه» الذي تحصن بها في خلال مهاجمة الصليبيين لمصر، فقد صمدت المدينة ثلاثة شهور أمام حصار الصليبيين لها، حتى اضطر الصليبيون إلى فك الحصار والعودة إلى بلادهم⁽²⁾.

سور القاهرة وأبوابها

تاريخ بناء سور القاهرة

ذكرنا سابقًا أن سبب حرص «صلاح الدين» على إقامة التحصينات الحربية القوية بمصر تخوفه من هجمات الشيعة الفاطميين⁽³⁾ بمصر⁽⁴⁾، وقيل تخوفه من الصليبيين⁽⁵⁾، وقيل أيضًا تخوفه من شيعة الفاطميين والصليبيين معًا⁽⁶⁾، ويبدو بل من الواضح أن «صلاح الدين» كان يخشى مهاجمة الصليبيين للقاهرة بعد هجومهم عليها في عام 564هـ / 1168م، ومن المؤكد أن الصليبيين هاجموا القاهرة بعد أن تبينوا ضعف تحصيناتها الحربية⁽⁷⁾.

فعندما تولى «صلاح الدين» الوزارة كانت أولى الحملات الصليبية على مصر في وزارته عام (566هـ / 1169م)، من هنا أسرع «صلاح الدين» بالاهتمام بالتحصينات الحربية بمصر، بعد أن أدرك صعوبة الدفاع عن القاهرة والفسطاط في وقت واحد، أضف إلى ذلك أن

(1) عن بليس انظر، المقريزي، الخطط، ج2، ص 183 - 184، مزيد من التفاصيل عن بليس انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج9، ص 70 - 75 (أن مادة البناء الرئيسية في بليس سواء الحربية أو غيرها كانت من اللبن).

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 131 - 132، جمال الدين الشيال، المجلد في تاريخ دمياط، ص 216، 218.

(3) على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص 22، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص 89، حسنى نوبصر، دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة 1996م، ص 9.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص 203، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص 87، مجلة العمارة العدد 7، 8، المجلد الثانى 1940م، ص 393.

(5) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص 90.

(6) بول كازانوف، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة وتقديم د/ أحمد دراج، مراجعة د/ جمال محرز، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974م، ص 32، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص 5.

(7) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 256.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

«صلاح الدين» أدرك صعوبة تشييد سور لكل واحدة منهما؛ لأنه لو شيّد لكل واحدة منهما سوراً مستقلاً⁽¹⁾ لاحتاجت كل منهما إلى قوات منفردة للدفاع عنها⁽²⁾.

ذكر «المقريزي» في كتابه «أنه في عام 572هـ أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر، ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بذراع العمل، فتولى ذلك الأمير «بهاء الدين قراقوش الأسدي»، وشرع في بناء القلعة، وحفر حول السور خندقاً عميقاً، وحفر واديه وضيق طريقه⁽³⁾، هذا وقد ذكر «المقريزي» في خططه «اعلم أن القاهرة مذ أسست عمل سورها ثلاث مرات، الأولى وضعه القائد «جوهر»، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش «بدر الجمالي» في أيام الخليفة المستنصر، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى «بهاء الدين قراقوش الأسدي» في سلطنة الملك «الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب» أول ملوك القاهرة⁽⁴⁾.

والسور الأول كان من لبن وضعه «جوهر» القائد فأدار السور، وسماه المنصورية إلى قدم «المعز لدين الله» من بلاد المغرب إلى مصر ونزل بها فسماها القاهرة⁽⁵⁾، أما السور الثاني الذي بناه أمير الجيوش «بدر الجمالي» في سنة ثمانين وأربعمائة وجعل السور من لبن، وأقام الأبواب من حجارة⁽⁶⁾، أما السور الثالث ابتداءً في عمارته السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» في سنة ستة وستين وخمسمائة فهو يومئذ على وزارة «العاقد لدين الله»، فلما كانت سنة تسعة وستين وقد استولى على المملكة انتدب لعمل السور الطواشي «بهاء الدين قراقوش الأسدي» فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن، وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة

(1) الشافعي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي، الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، طبعة جديدة بمطبعة وادي النيل، القاهرة 1287م، ص268، عبد الرحمن زكي، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس - إبريل 1969م، ج2، مطبعة دار الكتب، 1971م، ص624 - 625.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص268، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص85 - 86. هذا ويذكر الدكتور أسامة طلعت في رسالته للماجستير أنه يمكن تحديد تاريخ صدور الأمر ببناء السور ليحيط بالقاهرة والفسطاط بالفترة ما بين 16 ربيع الأول سنة 572هـ / 23 سبتمبر 1176م - 22 شعبان 572هـ / 25 فبراير 1177م، لمزيد من التفاصيل انظر أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص42. انظر Lane-pool(s), A history of Egypt in the Middle Age, London 1901, p195.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص63.

(4) المقريزي، الخطط، ج1، ص377.

(5) المقريزي، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(6) المقريزي، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

سورًا واحدًا فزاد في سور القاهرة، أما عن الخندق الذي يحيط بسور القاهرة فقد انظم أثره⁽¹⁾.

وفي عام 577هـ / 1181م شرع الأمير «بهاء الدين قراقوش» في حفر خندق حول السور حتى لا يسهل مهاجمته من الخارج⁽²⁾، غير أن سور القاهرة لم يكتمل بناؤه في عهد السلطان «صلاح الدين»، وكل ما اكتمل هو السور الشمالي والذي كان يبدأ من غرب باب الفتوح ويتجه حتى شاطئ النيل الشرقى عند حصن المقس ثم يتوجه جنوبًا ليدور حول الفسطاط⁽³⁾.

ويعلق «أبو شامة» على عدم اكتمال بناء السور في عهد السلطان «صلاح الدين» بقوله «وتوفي السلطان وقد تبقى من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة ووظائف نفقاتها مستدرة»، وهذا يعنى أن البناء استمر في السور بعد وفاة السلطان «صلاح الدين»⁽⁴⁾.

ويبدو أن عدم اكتمال بناء السور في عهد «صلاح الدين» يرجع إلى أن الحروب التي خاضها السلطان «صلاح الدين» ضد الصليبيين قد استنزفت أموالاً طائلة من ميزانية الدولة مما أضر عليه بناء بعض المنشآت⁽⁵⁾. وفي عام (596هـ / 1199م) صدرت الأوامر من الملك «الأفضل على بن صلاح الدين» إلى الأمير «بهاء الدين قراقوش» بأن يكمل ما تبقى من سور القاهرة، حيث كان «الأفضل» يستعد في القاهرة لمواجهة السلطان «العاذل» الذي كان قد خرج من دمشق قاصدًا الديار المصرية للاستيلاء على الحكم⁽⁶⁾، غير أن بعض أمراء القاهرة تركوا الملك «الأفضل» وفتحوا أبواب القاهرة أمام السلطان «العاذل» فدخل وسيطر على زمام الحكم فيها، وقد شرع السلطان «الكاامل» في إقامة سور حول القاهرة على أن يكون أساسه من الأحجار وباقيه من الطوب، غير أن هذا السور لم يرد في كتابات المؤرخين مثل «أبي شامة» و«المقريزي» وغيرهما⁽⁷⁾.

(1) المقريزي، المصدر السابق، الجزء نفسه، ص 380.

(2) المقريزي، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 78.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 350، المقريزي، الخطط، ج 1، ص 380، الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد 1923م، ص 230.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 688، عيد محمد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، دكتوراه، جامعة الزقازيق فرع بها كلية الآداب 1993م، ص 287.

(5) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 291.

(6) المقريزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 181.

(7) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 292.

إن ما شرع فيه السلطان «الكامل» كان يتمثل في إتمام السور الذي بدأه السلطان «صلاح الدين» على يد وزيره «بهاء الدين قراقوش» ومن الأسوار الأخرى التي بنيت في العصر الأيوبي السور الذي أقامه الملك «الصالح نجم الدين أيوب» حول قلعة جزيرة الروضة، وكان محكم البناء⁽¹⁾.

وبنظرة عامة للعمارة الحربية في القاهرة زمن الأيوبيين، نجد أن القاهرة كانت محصنة بشكل كامل في تلك الفترة من خلال أسوارها وقلعتها وأبوابها المتبقية من العصر الفاطمي⁽²⁾.

حدود أسوار «صلاح الدين»⁽³⁾

لا تزال أجزاء كبيرة باقية من أسوار «صلاح الدين» على الرغم مما تعرضت له هذه الأسوار من إزالة وتخريبات، وتشبه الأجزاء الباقية من السور الآن في مخططها العام مثلثاً قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب، وبضلعه الشرقي قلعة الجبل، فالسور من الجهة الشمالية أولاً يقع فيه باب الفتوح حتى ينتهي عند برج المقس (باب الحديد أو ميدان رمسيس)⁽⁴⁾، ومن الشرق باب النصر حتى ينتهي عند برج الظفر في الركن الشمالي؛ أما السور الشرقي فيبدأ من باب الظفر في الشمال ويمتد جنوباً حتى ينقطع عند منطقة باب الوزير وكان يتقدمه خندق كبير وعميق.

السور الجنوبي ويبدأ من قلعة الجبل، وبدايته حالياً من ميدان السيدة عائشة، ويمتد جنوباً حتى يخترق تلال عين الصيرة وحفائر الفسطاط، وينتهي عند باب القنطرة على النيل.

أما عن السور الغربي فقد أراد «بهاء الدين قراقوش» أن يبني السور الغربي للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة، ولكن وفاة «صلاح الدين» حالت دون ذلك⁽⁵⁾.

هذا وتحتوي أسوار «صلاح الدين» هذه على مجموعة من الأبراج والأبواب⁽⁶⁾ اتخذت من

(1) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 292.

(2) حسنى نوبصر، دراسات في عمائر الأيوبيين والمماليك، ص 8، سعاد ماهر وآخرون، القاهرة في ألف عام، ص 36.

(3) عن أسوار صلاح الدين انظر أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص 199، 218.

(4) آمال العمرى، على الطائش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 29-30.

(5) آمال العمرى، على الطائش، المرجع السابق، ص 30.

(6) عن الأبراج والأبواب انظر أيضاً أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين.

الحجر، ويتكون كل برج من طابقين وسطح علوي مكشوف محاطة حافته، والسور أيضًا بمجموعة من الشرفات، واحتوت هذه الأبراج والأبواب على عناصر معمارية مختلفة، فهي في تخطيطها العام المعمارى تكون مثمثة المسقط ومغطاة بقبة حجرية وفتح بكل ضلع من أضلاع المثلث دخله معقودة مقبية، وبكل منه فتحة مزغل (برج الظفر، و برج درب المحروق)⁽¹⁾، أو قاعدة متعامدة غطت المساحة المربعة الوسطى (الدرقاعة)، إما بقبة حجرية (أول برج غرب الظفر، وأول برج جنوب الظفر، وأول برج جنوب الباب الجديد) أو بقبو متقاطع (برج الزاوية، وأول برج شرق باب النصر، وثانى برج جنوب الباب الجديد، و باب المحروق)، هذا ويتعامد على المساحة الوسطى المربعة (الدرقاعة) ثلاثة أذرع (حجرات رماية) بكل منها فتحة مزغل، وغطت هذه الأذرع إما بأقبية طولية (أول برج غرب برج الظفر، برج درب المحروق، برج الظفر، أول برج جنوب برج الظفر، والباب الجديد، وأول برج جنوب الباب الجديد) أو بقباب ضحلة (الطابق العلوى لأول برج جنوب برج الظفر).

أما الأبواب، (الباب الجديد، والباب المحروق، و باب القرافة) فتميزت بأنها ذات مداخل منكسرة، كما انفرد الباب الجديد بظهور عنصر معمارى حربي جديد وهو القنطرة المتحركة التى تصل بين الباب و ضفة الخندق الذى يتقدمه بحيث ترفع عند التهديد بالهجوم، وتعتبر هذه القنطرة أقدم مثل إسلامى، كما كان يغلق على هذا الباب أيضًا متاريس حديدية، وهى عبارة عن قضبان حديدية قوية تنتهى من أسفلها بسنان حادة الحراب، وتنزلق بثقلها الكبير رأسياً لتسد فتحة الباب عند الضرورة، بالإضافة إلى السقاطات التى توجد فى المساحة المحصورة بين امتداد فتحة الباب والدخلة المعقودة.

بالإضافة إلى هذه العناصر المعمارية ذات الصفة الحربية السابقة، وجدت أيضًا عناصر أخرى مثل الخندق الذى يتقدم السور الشرقى، والأبواب السرية التى تقع على جانبي كل من برج الظفر و برج درب المحروق، والهدف منها هو أن يخرج الجنود منها لشن هجمات مضادة على الأعداء عند تعرض القلاع والأسوار للحصار⁽²⁾.

«ابن تغرى بردى» يتحدث عن سور القاهرة

ذكر «ابن تغرى بردى» فقال تحدث «المقريزى» فى خططه على ذكر سور القاهرة فقال إن

(1) آمال العمرى، على الطائش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص 42.

(2) لمزيد من التفاصيل، انظر آمال العمرى، على الطائش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص 42 - 43، أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين، ص 199، 235.

السور الثالث ابتداءً في عمارته السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» في عام (566هـ / 1170م)، وهو يومئذ على وزارة «العاضد لدين الله»، فلما كانت (569هـ / 1173م)، وهو سلطان مصر انتدب لعمل السور «الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي» فبناه بالحجارة وقصد أن يجعل على القاهرة القطعة التي من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر، وبنا قلعة المقس وعندها انقطع السور وكان في أمه مد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة)، وزاد في السور (سور القاهرة) قطعة عما يلي باب النصر إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة، وكذلك لم يتهياً له أن يصل إلى سور قلعة الجبل بسور مصر (مصر القديمة).

وأقول - أي «المقریزی» - «إن السور الذي أنشأه «صلاح الدين» حول مدينة القاهرة لا تزال بعض أجزائه قائمة إلى اليوم في الجهات الآتي بيانها:

أولاً: في المسافة بين باب الشعرية (باب العدوى) وبين باب البحر (ميدان باب الحديد)، توجد أجزاء قائمة من السور البحري وسط المباني المشرفة من الجهة البحرية على شوارع بين الحارات والشنكي والطبلية.

ثانياً: يمتد بناء السور البحري من شارع الأمير «فاروق» تجاه حارة المسطاحي متجهاً إلى الشرق حتى يتقابل مع باب الفتوح ثم باب النصر، وبعد هذا الباب يتجه السور أيضاً إلى الشرق في مسافة طولها 300 متر، وينقطع في نهاية تلك المسافة عند شارع برج الظفر.

ثالثاً: جزء من السور الشرقي يبدأ من برج الظفر، ويسير إلى الجنوب 400 متر، ثم ينقطع تجاه شارع الفواطم بقسم الجمالية.

رابعاً: جزء من السور الشرقي قائم في المسافة من درب المحروق إلى قرب تربة الأمير «طراباي الشريف» التي بباب الوزير الخارجي.

خامساً: جزء من السور الشرقي قائم بين مكان الخانقاة النظامية، وبين جامع السبع سلاطين إلى أن يتصل بسور القلعة.

أما عن سور مدينة مصر الآن (الفسطاط) فلم يبق منه إلا بعض أجزاء متقطعة تبدأ من مجرى العيون (عند انعطافها نحو الشرق إلى القلعة) ثم تتجه نحو الجنوب شرقي تلؤل عين الصيرة وشرقي الموقع القديم لمدينة الفسطاط ثم تميل إلى الغرب، حيث تنقطع أجزاء من السور في الجنوب الشرقي لقصر الشمع تجاه كوم غراب⁽¹⁾ بمصر القديمة.

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص176-177، هامش 7.

أبواب القاهرة

للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من جوانبها الأربعة بابان، ففي الجنوب باب زويلة⁽¹⁾ وباب الفرج، وباب النصر، وباب الفتوح، أما من الجهة الشرقية من القاهرة وهي الجهة التي يسلك منها الجبل فيوجد بها بابان هما باب القراطين (الباب المحروق)، وباب البرقية، أما من الجهة الغربية من القاهرة وهي المطة على الخليج الكبير فقد كان هناك باب السعادة⁽²⁾، وباب القنطرة⁽³⁾.

قلعة «صلاح الدين» بالقاهرة (قلعة الجبل)

تعددت الآراء واختلفت حول أسباب بناء قلعة الجبل بالقاهرة، ومن أهم تلك الآراء والأسباب ما يلي:

أولاً: يُرجع البعض السبب الحقيقي في بناء تلك القلعة إلى نشأة «صلاح الدين» وسط البيت الزنكي⁽⁴⁾، فقد كان ملهماً ومسترشداً بما شهده منذ حدوثه في سوريا، حيث استقر

(1) أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالي بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم، وتسميه العامة «بوابة المتولى»، حيث كان يجلس في مدخله متولى الحسبة (القاهرة)، عبد الرحمن زكي، عواصم مصر الإسلامية، ص 19.

(2) هو أول أبواب السور الغربي وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله، وأحد قواده لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج «جوهر» إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة، عبد الرحمن زكي، عواصم مصر الإسلامية، ص 19.

(3) كان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية، وقد عرف بذلك الاسم لأن «جوهر الصقلي» بنى قنطرة فوق الخليج الذي بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقص عند مسيرة القرامطة إلى سنة 365هـ / 975م، وتسمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية، لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن زكي، عواصم مصر الإسلامية، ص 19، يمكن معرفة مزيد من التفاصيل عن أبواب القاهرة انظر د/ مصطفى عبد الله شبيحة، الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي وحتى نهاية العصر الأيوبي، كلية الآثار جامعة القاهرة، ص 89، 95، انظر د/ آمال العمري ود/ علي الطائش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 15، 26.

(4) آمال العمري، علي الطائش، العمارة في مصر الإسلامية (العصر القاطمي والأيوبي)، القاهرة 1996م، ص 44. انظر أيضاً:

Casanova, P., Histoie et description de la citadelle du caier, Mmaf VI (1891-1892), pp 509-781.

نقله إلى العربية أحمد دراج وراجعه جمال محمد محرز، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب سنة 1974م. انظر أيضاً:

Creswell, K.A.C., Archeological researches at citadel of cairo, Bifao(23) XXIII, (1924), pp 89-158.

Creswell, K.A.C., The Muslim Architecture of Egypt, Ayybids and early Bahrit Mamluks 1171-1326, Oxford 1959, p1-40.

الصليبيون بعيدين عن أوطانهم الأولى فأحاطوا كل مدينة ذات أهمية بسور خارجي، وبنوا داخله قلعة تأويهم وجنودهم وأهلهم إذا هددتهم ثورة داخلية في المدينة، أو طراً عليهم غزو خارجي يتمثل في الخطر الصليبي⁽¹⁾، هذا فضلاً عما شهده من قلاع حصص وحماة وحلب وقلاع الإسماعيلية⁽²⁾.

هذا بالإضافة إلى أن التجارب دلت أكثر من مرة على ما تقوم به القلاع من دور حاسم وفاصل في المعارك الحربية، حين تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة⁽³⁾ حتى يئس المحاصرون لها ويرفعوا عنها الحصار⁽⁴⁾.

ثانياً: كانت القلعة جزءاً من المشروع الكبير لـ «صلاح الدين»، وهذا المشروع يهدف إلى إحاطة مصر والقاهرة بسور لتحصين القاهرة ضد أي غزو خارجي متوقع من الصليبيين، أو من منافسيه⁽⁵⁾، سيده «نور الدين محمود بن زنكي» سلطان الشام⁽⁶⁾ أو غيره.

ثالثاً: بنى «صلاح الدين» هذه القلعة لتكون مقراً ومركزاً للجنود، وتخزين السلاح، والتدريب على القتال، وهو الغرض الأساسي من بناء القلاع⁽⁷⁾.

رابعاً: تتجه بعض الآراء الأخرى إلى أن سبب البناء يرجع لرغبة السلطان «صلاح الدين» في اتخاذ القلعة مقراً للإدارة والسكن بعيداً عن قصور الفاطميين التي ترمز للشيعة، وما كان يصاحبهم من فساد في الحكم؛ لأن القلعة كانت تشتمل على قسمين رئيسيين أحدهما على هيئة حصن في شمال القلعة، والآخر للسكن في جنوبها⁽⁸⁾.

(1) عيد محمد أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، ص 287.

(2) نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص 89، نفس الكلام عند عبد الرحمن زكي، قلعة مصر في عهد صلاح الدين إلى عهد فاروق الأول، ص 4، أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الطبعة الأولى، القاهرة 1997م، ص 29.

(3) أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني، ص 29.

(4) حسنى نوبصر، دراسات في عمائر الأيوبيين والمماليك، ص 9، نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص 87، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، سلسلة الألف الكتاب الثاني 1969م، ص 81، أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني، ص 29، عبد الرحمن فهمي، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها أثرها، حسن الباشا وآخرون، ص 481.

(5) آمال العمري، على الطائش، المرجع السابق، ص 44.

(6) المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 203، لمزيد من التفاصيل عن قلعة الجبل انظر جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد سيد، الناشر مطبعة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ / 1988م، ص 227، 237.

(7) آمال العمري، على الطائش، المرجع السابق، ص 44.

(8) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 287، عن هذا السبب انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج 1، ص 22.

اختار «صلاح الدين» لبناء القلعة موقعًا متميزًا على نشز عال⁽¹⁾ من جبل المقطم⁽²⁾، أى أن القلعة بنيت على إحدى الهضاب العالية التى على امتداد الجهة الشرقية من القاهرة، ويفصل بينها وبين جبل المقطم حاليًا شارع صلاح سالم⁽³⁾. وفى ذلك يذكر «المقريزى»: «وأنشأ السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» قلعة الجبل على رأس الشرف المطل على القلعة⁽⁴⁾، وكان موضع القلعة قبل ذلك يشغله بناء يعرف بـ«قبة الهواء»⁽⁵⁾، وأسفله ميدان «أحمد بن طولون»⁽⁶⁾ الذى كان يضم قبل بناء القلعة عددًا من الأبنية السكنية، والمساجد الصغيرة⁽⁷⁾.

وبوجه عام، فإن القلعة كانت تشرف على ميدان «صلاح الدين» بالقاهرة⁽⁸⁾ من الجهة الجنوبية، بينما كانت الفسطاط والقرافة تقع فى الجانب الجنوبي الغربى من القلعة، ويقع جبل المقطم فى الناحية الشرقية⁽⁹⁾، أما النيل فيقع فى الجهة الغربية منها.

اختلاف الآراء حول موقع القلعة

اختلفت الآراء حول اختيار «صلاح الدين» لموقع قلعة الجبل، فبعض الآراء ترى أن

(1) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، حققه د/ أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ص 79، جرجس فام ميخائيل، مملكة بيت المقدس، ص 40، حسنى نويصر، ص 9.

(2) تطل قلعة الجبل على ميدان صلاح الدين وقد عرف بميدان الرميطة السلطاني أو ميدان القلعة، وسمى أيضًا قره ميدان أى الميدان الأسود، وكان فى الجزء الشمالى من سوق الخيل تجاه مدرسة السلطان حسن وتعرف الرميطة اليوم بالمنشية، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج 2، ص 204، المقريزى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 63، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار، المقدمة.

(3) آمال العمرى، على الطائش، المرجع السابق، ص 45، عن قلعة الجبل، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 368، المقريزى، الخطط، ج 2، ص 201، 232، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 54، حاشية 1.

(4) المقريزى، الخطط، ج 1، ص 124، ج 2، ص 204.

(5) المقريزى، الخطط، ج 2، ص 202، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وما حولها من آثار، ص 32، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص 1، سعاد ماهر وآخرون، القاهرة فى ألف عام، ص 19.

(6) ميدان أحمد بن طولون أقامه الأمير أحمد بن طولون وخصصه للعبة الصوالة، وقد كان للميدان الطولونى شهرة القصر الطولونى، لمزيد من التفاصيل انظر عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبي، ص 286.

(7) المقريزى، الخطط، ج 2، ص 201.

(8) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 53-54، حاشية 1.

(9) المقريزى، الخطط، ج 2، ص 201.

السلطان «صلاح الدين» اختار مكانًا مرتفعًا للقلعة لا يقل عن 250 قدمًا، وهو اختيار يتوافق مع الطابع العسكري للقلعة الذي وفر الحماية والأمن للبناء، ومما هو جدير بالملاحظة أن «صلاح الدين» وفق في اختيار الموقع الذي بنيت عليه القلعة⁽¹⁾. ويرى فريق آخر أن اختيار مكان القلعة لم يكن موفقًا؛ لأن جبل المقطم كان يشرف على القلعة من ناحية الشرق، الأمر الذي يجعل مهاجمة القلعة من هذه الجهة أمرًا ميسورًا⁽²⁾، ولكن هذا الرأي لم يأخذ في اعتباره أن الوصول للمنحدرات الصخرية التي كانت شرق القلعة لم يكن سهلًا في تلك الفترات⁽³⁾. وورد قول آخر إن اختيار «صلاح الدين» لموقع القلعة كان اختيارًا صحيحًا بدليل أن القلعة اتخذت بعد ذلك مكانًا للإدارة والحكم ليس في العصر الأيوبي فحسب، بل في العصور التالية، وهذا ما يؤكد حكمة «صلاح الدين» في اختيار المكان الذي بنيت عليه القلعة⁽⁴⁾.

هذا ويمكن القول بلا شك إن «صلاح الدين» وفق تمامًا في اختيار مكان القلعة، إذ أنها بوضعها الحالي المرتفع حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافًا تامًا، بحيث كانت حاميتها تستطيع أن تقوم بعمليتين حرييتين في وقت واحد، هما إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها عن طاعة السلطان، ومقاومة ما عساه أن يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة، ولذا لا يمكن الاعتراض على «صلاح الدين» بأنه أساء اختيار مكان القلعة لتسلط المقطم عليها، إذ في الواقع لم تكن هناك أسلحة معروفة في هذا الوقت قادرة على قذف شحناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما أن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم في قيظ الحر وصعوبة توفر الماء في هذا المكان، وإذا افترضنا نجاح المهاجمين في الاقتراب من أسوار القلعة فإن الخندق حولها كان يمنع من اقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقمة المقطم لا تيسر للمهاجمين أن يقوموا بحركات تكتيكية بشيء من الحرية⁽⁵⁾.

والواقع أن قلعة القاهرة تعتبر ظاهرة غير عادية في أسوار القلاع؛ لأننا لا نلاحظ لها سورًا كاملاً يضمها بأبراجه واستحكاماته الحربية البارزة، والدليل على ذلك ما ذكره «المقريزي»

(1) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 286، القاهرة في ألف عام، ص 19 - 20.

(2) كريزول، وصف قلعة الجبل، ترجمة جمال محرز وعبد الرحمن زكي، ص 18 - 19.

(3) عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة، ص 287.

(4) عيد محمد على أبو زيد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) عبد الرحمن فهمي، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، ص 481.

قائلاً «وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر، بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج الغلال»⁽¹⁾، ويُدخل إلى القلعة من باين أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له «الباب المدرج»، والباب الثانى باب القرافة⁽²⁾.

تخطيط القلعة

تكون قلعة «صلاح الدين الأيوبي» (قلعة الجبل) من قسمين مستقلين: القسم الشمالى الشرقى، وهو مستطيل غير منتظم الشكل (القسم الحربى)، ويبلغ طول ضلعه من الشرق إلى الغرب 650 مترًا تقريبًا، ومن الشمال إلى الجنوب 317 مترًا تقريبًا، ويتعامد على هذا القسم (القسم الجنوبى الغربى)، وهو المقر السكنى (المدنى)، ويفصل بين القسمين حائط سميك يتوسطه برجان مستديران بينهما باب هو باب القلعة، ويطلق على القسمين معًا اسم «القلعة»⁽³⁾، ولا شك أن تخطيط القلعة تطلب هندسة معمارية دقيقة أثبت فيها مهندسو القلعة القدرة الإسلامية الفائقة فى الهندسة المعمارية، هذا وقد ساعدهم على ذلك موقع القلعة فوق جبل المقطم⁽⁴⁾.

وقد بنيت القلعة على مساحة شاسعة، وأحيطت بعدد من الأبراج التى وزعت على ثلاث جهات من القلعة، تتمثل فى الجهة الجنوبية التى اشتملت على ثمانية أبراج⁽⁵⁾، والجهة الشرقية

(1) المقرزى، الخطط، ج2، ص204.

(2) المقرزى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(3) آمال العمرى، على الطائش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص49.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق1، ص687.

(5) وهم على التوالى:

(1) برج المقطم (أسطوانى).

(2) برج الصفة (مستطيل).

(3) برج العلوة (نصف دائرى).

(4) برج الكركيليان (مربع).

(5) برج غير مسمى (نصف دائرى).

(6) برج الطرفة (مربع).

(7) برج باب المطار (نصف دائرى).

(8) برج المبلط (ثلاثة أرباع دائرة).

التي اشتملت على أربعة أبراج⁽¹⁾، والجهة الشمالية التي اشتملت على خمسة أبراج⁽²⁾، أما الجهة الغربية فلم يكن بها أية أبراج، هذا وقد كان الباب الرئيسي للقلعة يُعرف بـ«الباب المدرج»⁽³⁾.

هذا ويمكن القول إنه لتأمين القلعة من الناحية الشرقية قام السلطان «صلاح الدين» بحفر بهو أو خندق بين جبل المقطم وسور القلعة لمنع الأعداء من السيطرة على هذا الجانب، كما كانت مداخل القلعة منكسرة من أجل زيادة حصانة أبنيتها⁽⁴⁾، هذا وقد تم بناء القسم الأكبر من القلعة عام (579هـ/ 1183م). على يد «بهاء الدين قراقوش»⁽⁵⁾، وقد استخدم حجارة بعض الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة، كما أنه هدم المساجد وأزال القبور،

(1) ذكرت الدكتورة آمال العمري والدكتور على الطايش في كتابهما العمارة في مصر الإسلامية أنها ستة أبراج اثنان منها غير مسميان فتبدأ هذه الأبراج بـ:

(1) برج المبلط الذي يشغله ناحية القلعة ويطل على الجهتين الجنوبية والشرقية.

(2) برج الكوثر (نصف دائري).

(3) برج غير مسمى (نصف دائري).

(4) برج الأمام أو القرافة (نصف دائري).

(5) برج غير مسمى (نصف دائري).

(6) برج الرملة (ثلاثة أرباع دائري).

(2) وهم:

(1) برج الحداد (ثلاثة أرباع دائرة).

(2) برج غير مسمى (نصف دائري).

(3) برج الصحراء (ثلاثة أرباع من الخارج ومستطيل من الداخل).

(4) برج غير مسمى (نصف دائري).

(5) البرج المربع (مربع).

أما عن وصف هذه الأبراج وتخطيطها المعماري انظر آمال العمري، على الطايش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 50، 64.

(3) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، ص 288، سمي الباب المدرج بهذا الاسم اشتقاقاً من درجاته المنحوتة في الصخر ويعرف أيضاً بباب الدرفيل، كما عرف قديماً بباب سارية الجبل الموجود إلى اليوم بداخل القلعة، لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن فهمي، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، ص 483.

(4) عبد الرحمن زكي، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، ص 5.

(5) أيمن فؤاد سيد، التطور العمراني، ص 29، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج 1، ص 22.

واستخدم أحجارها في عملية البناء⁽¹⁾، وظل العمل مستمرًا في البناء حتى توفي «صلاح الدين» عام 589هـ / 1193م⁽²⁾.

هذا وينسب إلى «صلاح الدين» بناء الأبراج النصف دائرية بالقسم الشمالي الشرقي (الحربي) للقلعة، وهي بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية، بالإضافة إلى السور الذي يربط بينهما، كما يشير إليها النص التأسيسي الذي وجد على لوحة رخامية أعلى الباب المدرج، هذا وقد قيل إن السلطان «صلاح الدين» بنى دارًا له في القلعة، وذكر «المقريزي» ذلك، وأضاف أن السلطان «صلاح الدين» كان يقيم بها بعض الأيام، وسكنها الملك «العزیز» في أيام أبيه ثم انتقل إلى دار الوزارة⁽³⁾.

الأعمال المعمارية في عهد «الكامل»

عندما تولى الملك «الكامل» الأيوبي⁽⁴⁾ الحكم أكمل بناء القلعة 604هـ / 1207م⁽⁵⁾، وتحول إليها من دار الوزارة الفاطمية⁽⁶⁾، يمكن القول إن الأعمال المعمارية التي تمت في عهد السلطان «الكامل» هي استراحة الأمراء التي كانت تقع بين باب القرافة والباب المدرج، وهي عبارة

(1) آمال العمرى، على الطائش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 47، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص 29، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج 1، ص 22، أبو الحمد محمود فرغلي، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، القاهرة 1409هـ / 1989م، ص 90.

(2) قام بأعمال النحت والبناء أسرى الفرنج الذين وقعوا في يد صلاح الدين في المعارك التي دارت بينه وبين الصليبيين، انظر عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية ص 26، عبد الرحمن زكى، المجلة التاريخية، المجلد السابع، ص 115.

(3) المقريزي، الخطط، ج 2، ص 203، المقريزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 85.

(4) حكم السلطان الكامل مصر من سنة 596هـ / 1199م - 615هـ / 1218م باسم السلطان العادل ثم من سنة 615هـ / 1218م - 635هـ / 1238م باسمه الشخصي، انظر آمال العمرى، على الطائش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 48.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 53 - 54، حاشية 1، المقريزي، الخطط، ج 2، ص 201، حسنين ربيع، النظم المالية، ص 69، عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، القاهرة 1950م، ص 3، 8، عبد الرحمن زكى، عواصم مصر الإسلامية، ص 27، أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى، ص 29، سعاد ماهر، القاهرة في ألف عام، ص 19.

(6) آمال العمرى، على الطائش، العمارة في مصر الإسلامية، ص 48، جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، نقله إلى العربية أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى 1408هـ / 1988م، ص 29 - 30، انظر أيضًا المقريزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 169.

عن دركاة كان يجلس عليها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول على السلطان⁽¹⁾، وإيوان القلعة⁽²⁾، والميدان السلطاني، وقاعة الصاحب، والإسطبل السلطاني⁽³⁾، وجامع القلعة، وأضيفت إلى القلعة أبواب أخرى، بالإضافة إلى الباب المدرج وهو باب القرافة وباب السر وغيرهما⁽⁴⁾، ويلاحظ أن هذه الأعمال قد تمت أثناء نيابة الملك «الكامل» عن أبيه في حكم مصر⁽⁵⁾، وقد أحاط الملك «الكامل» القلعة بسور أقل ارتفاعاً من سورها الأول ثم أعدها للحكم عام 604هـ / 1207م⁽⁶⁾، وكان الملك «الكامل» محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب هو أول من سكنها⁽⁷⁾.

هذا بالإضافة إلى الأبراج الثلاثة الكبيرة التي تقع في الجانب القبلي (الجهة الجنوبية) وهي برج الصفة، برج كركليان، برج الطرفة، والجزء الداخلي ببرج الصحراء بالجهة الشمالية والزيادة التي أضيفت لباب القرافة، هذا بالإضافة إلى الجزء الخارجي ببرج الرملة وبرج الحداد والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور⁽⁸⁾، وفي عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب» بنى القاعة الصالحية بالقلعة إلى أن احترقت 648هـ / 1250م⁽⁹⁾.

وبصفة عامة يمكن القول إن حركة العمران التي شهدتها القلعة طوال العصر الأيوبي قد أدت إلى زيادة حركة العمران في المناطق المجاورة للقلعة⁽¹⁰⁾.

(1) المقریزی، الخطط، ج2، ص204 - 205.

(2) المقریزی، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(3) المقریزی، الخطط، ج2، ص204 - 205.

(4) كریزول، وصف قلعة الجبل، ترجمة جمال محرز وعبد الرحمن زكي، ص89، حسنى نوبصر، دراسات في عمائر الأيوبيين والمماليك، كلية الآثار جامعة القاهرة، ص9.

(5) المقریزی، الخطط، ج2، ص203، المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص202، أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص688.

(6) المقریزی، الخطط، ج2، ص212، 220، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية، ص129.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص368، المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص167، 169، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص29، 41، أحمد فكري، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - إبريل 1969م)، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب 1970م، ص163.

(8) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص151.

(9) المقریزی، الخطط، ج2، ص236.

(10) عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، ص289.

الباقي من قلعة الجبل

لم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بأبراجها وبعض الأبواب، وأهمها الباب المدرج إلى جانب كونه المدخل الرئيسي للقلعة فهو يحتوى على اللوحة التأسيسية لبناء القلعة في عهد «صلاح الدين»، وتوجد هذه اللوحة بأعلى واجهة عقد الدهليز الموصل من الدركاة، وهى مكتوبة بالحفر البارز بالخط النسخى الأيوبي، ونصها «أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهر (الحرف الأخير غير موجود) بالعرمة (?) التى جمعت نفعاً وتحصيناً (أو تحسيناً) وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينات (أو تحصينا) مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين «أبى المظفر يوسف بن أيوب» محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك «العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل» أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته «قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى» فى سنة تسعة وسبعين وخمسةائة»⁽¹⁾.

بئر القلعة

البئر المعروف بالحلزون الموجود بالقلعة من عمل «بهاء الدين قراقوش»، الذى حفر بئر ماء عميقة فى باطن الصخر وتقع حالياً خلف جامع «الناصر محمد» وتتكون من طابقين، العلوى عمقه 50 متراً والسفلى 40 متراً، تستخرج المياه منها⁽²⁾، قيل إن هذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنتقل الماء من نقالة فى وسطها وتدور البقر فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك حجر منحوت، ليس فيه بناء وقيل إن أرضها مسامتة أرض بركة الفيل وماؤها كان عذبة⁽³⁾ فى أول الأمر، فلما أراد «قراقوش» تعميقها تداخلت معها عين مالحة أفسدت عذوبتها⁽⁴⁾، وهذه البئر وجدت فى

(1) حسنى نوبصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص24، مجلة العمارة، العدد 7، 8، المجلد الثانى، ص394، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، 969هـ / 1969م، ص82.

(2) آمال العمرى، على الطائش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص47-48.

(3) المقرئى، الخطط، ج2، ص204، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج1، ص22، حسنى نوبصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص25، أبو الحمد فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، ص91-92، حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1420هـ / 1999م، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع.

(4) حسنى نوبصر، دراسات فى عمائر الأيوبيين والمماليك، ص25.

القلعة حتى إذا حدث للقلعة حصار من عدو في وقت ما وجد الماء في داخل القلعة وأخذ منه المسلمون ما احتاجوا منه.

ملخص أعمال البناء في القلعة عبر العصور

بنيت القلعة في العصر الأيوبي بنوعين من الأحجار

أولها:

مصقول الوجه وهو النوع الذي يرجع إلى فترة حكم «صلاح الدين الأيوبي»، وقد بنيت بهذه الأحجار جميع الأبراج النصف دائرية بالجهة الجنوبية والشرقية والشالية بالإضافة إلى السور الذي يربط بينها، وقد تمت هذه الأعمال حتى 579هـ / 1183م.

ثانيها:

حجر مسنم السطح ويرجع إلى فترة حكم السلطان «العادل» الذي ينسب إليه برج الصفة وبرج كركليان وبرج الطرفة، والزيادة التي أضيفت إلى باب القرافة وبرج الرملية وبرج الحداد والبرج الكبير الذي لم يبق منه سوى قاعدته والبرج المربع في الركن الشمالي الغربي، وكل هذا في (604هـ / 1207م)⁽¹⁾، وغيرها من الزيادات والإضافات كما سبق أن ذكرنا، وهذه الأحجار بعضها مسنمة والبعض الآخر منها مصقول.

ومما يجب الإشارة إليه أن الأبراج التي بنيت في عصر «صلاح الدين» كانت معظمها على شكل نصف مستدير، إذ كانت كبيرة وشبه مستديرة وصغيرة، أما التي أقيمت في عهد الملك «العادل» فكانت مربعة القاعدة وتحتوي على ثلاثة طوابق، اثنان مسقوفان والثالث مكشوف، ولما كانت الأبراج المربعة كبيرة المساحة، لذلك فإن فتحات رمى السهام أكثر منها في الأبراج المستديرة⁽²⁾.

أبواب قلعة «صلاح الدين»

يحدثنا المؤرخ «المقريزي» عن أبواب قلعة «صلاح الدين»، فللقلعة بابان أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج ويدخله مجلس والى القلعة، والباب الثاني باب القرافة، وبين البابين ساحة فسيحة في جانبها بيوت، وبجانبها القبلى سوق للمأكـل

(1) أسامة طلعت أسوار صلاح الدين، ص 208 كرزويل، وصف قلعة الجبل، ص 100، عبد الرحمن زكى، العمارة العسكرية، ص 116-117.

(2) محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، ص 108.

ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، وفي وسط الدركاة باب القلعة ويدخل منه في دهليز فسيح يؤدي إلى الجامع الذي تقام به الجمعة ويمشى من دهليز باب القلعة في مداخل أبواب رحبة فسيحة في صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس السلطان في يوم المواكب وإقامة دار العدل، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ويمر منها إلى باب القصر الأبلق، ومن بدء باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الخدمة الدائمة بالقصر، وكان بجانب هذه الرحبة محاذياً لباب القصر خزانة القصر⁽¹⁾.

أسلوب الدفاع في السور وسور القلعة

يمكن القول إن أسلوب الدفاع كان يقوم على أساس استخدام الأبراج وحجرات الرماية الملحقة بها وحجرات الرماية المستقلة والممشى العلوى للسور، وإذا ما تمكن العدو المهاجم من تسلق السور والسيطرة على الممشى العلوى، فإنه يمكن انسحاب المدافعين إلى داخل الأبراج وعزلها عن الممشى العلوى بخلق أبوابها المطلة عليه، وبالتالي يصبح أمام العدو المهاجم أن يعبر من خلال الأبراج أو أحد أبواب السور لكي ينفذ إلى داخل المدينة، وهو أمر صعب مع تكتل المدافعين بالأبراج بعد غلق أبوابها، ويشبه الأسلوب الدفاعي في سور «صلاح الدين» الأسلوب الدفاعي بأسوار قلعة الجبل، أي أن الأسلوب الدفاعي في السور يشبه الأسلوب الدفاعي في القلعة⁽²⁾.

هذا وقد كان لقلعة الجبل لسور القلعة حجرات الرماية، وهذا المصطلح للتعبير عن حجرات مربعة أو مستطيلة، وكان الغرض من هذه الحجرات زيادة عدد مرامي السهام، وبالتالي تدعيم القوة الدفاعية للسور، ويمكن القول بأن بعض هذه الحجرات كانت تعمل على تقوية النقاط الميتة⁽³⁾ في السور عندما تكون المسافة بين البرجين طويلة نسبياً، أو بمعنى آخر أنها تعمل على تقوية المناطق التي قد لا يصل إليها المدى المؤثر للسهم المقذوفة من الأبراج⁽⁴⁾.

(1) المقریزی، الخطط، ج2، ص204 - 205.

(2) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص215.

(3) النقطة الميتة في المصطلح العسكري هي النقطة التي ينتهي قبلها مباشرة المدى المؤثر للقذيفة، وتنتهي عندها

فعاليتها، انظر أسامة طلعت، هامش 2، ص216.

(4) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص216.

المدخل المنكسر

الباشورة والمدخل المنكسر والمدخل ذو المرفق والمدخل ذو العطف كلها مسميات لنوع واحد من المداخل، وهي التي ينصرف الداخل فيها يمينًا ويسارًا مرة أو عدة مرات، واستخدمت في العمارة الحربية بغرض عرقلة اندفاع المهاجمين⁽¹⁾، هذا وقد انتشر استخدام المداخل المنكسرة في قلاع الشام عندما استعرت نيران الحروب الصليبية⁽²⁾.

ويعتبر استخدام المدخل المنكسر في أبواب سور «صلاح الدين» وكذلك أبواب قلعة الجبل أقدم الأمثلة الباقية لاستخدام هذا النوع من المداخل في العمارة الحربية الإسلامية في مصر، ويعد استخدامها مواكبًا لما كان مستخدمًا وشائعًا في قلاع شرق العالم الإسلامي وغربه أيضًا في ذلك الوقت⁽³⁾.

الخنديق

استخدم الخندق كعنصر دفاعي في سور «صلاح الدين» وفي قلعة الجبل بالقاهرة، وكان حفر الخندق يزيد من مناعة التحصينات سواء كانت سورًا أم قلعة؛ لأنه يحول دون وصول الأعداء إلى المكان المحصن ويعوق الخندق أسلحة هدم وتسلق الأسوار المعروفة في ذلك الوقت مثل الدبابات والأبراج الخشبية ذات العجلات من الاقتراب من السور⁽⁴⁾، هذا وقد كان يحيط بقلعة دمشق خندق كان يغمر بالماء إذا دعت الحاجة إلى ذلك⁽⁵⁾، هذا وقد شاع استخدام الخندق في القلاع والأسوار فترة الحروب الصليبية لما يؤديه من دور دفاعي مهم⁽⁶⁾.

المزاغل

هي فتحات رمى السهام، وتتكون من شقوق رأسية ضيقة من الخارج ومنتسعة من الداخل لتسهيل حركة المدافعين بداخلها، ونظرًا لكونها أحد العناصر الدفاعية الرئيسية فقد زودت بها أسوار «صلاح الدين»، هذا إلى جانب أبراج قلعة الجبل، كما زودت حجرات

(1) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص 219.

(2) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص 220.

(3) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص 221.

(4) لمزيد من التفاصيل عن الأبراج والدبابات انظر الفصل الرابع من الرسالة.

(5) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص 227.

(6) أسامة طلعت، المرجع السابق، ص 228.

الرماية المستقلة بمزاغل، ويختلف عدد المزاغل من برج لآخر تبعاً لموقعه في السور وتخطيطه الداخلي⁽¹⁾.

السقاطات

هي فتحات بأعلى الأسوار أو البوابات يستخدمها المدافعون في إلقاء المواد الحارقة والأحجار والسهام وما شابه ذلك على من يحاول اقتحام تلك الأسوار أو البوابات هذا من حيث الوظيفة، أما من حيث وضعها في البناء فهناك شكلان أو نوعان منها، الأول عبارة عن شرفة تبرز عن سمت جدار السور أو الباب وترتكز على كوابيل غالباً حجرية تفتح بينها السقاطات في أرضية الشرفة، والنوع الثاني منها عبارة عن شقوق رأسية توجد في سقف الباب محصورة بين عقدى واجهته الخارجية ولا تبرز عنها وتصل إلى أرضية سطح الباب، وتوجد مثل هذه الشقوق أحياناً في أرضيات الممرات الداخلية بالأسوار، ويتميز هذا النوع من السقاطات بأنه لا يمكن ملاحظته أو مشاهدته من خارج الأسوار إلا في حالة الاقتراب منها، أي أنها مخفية وفي ذلك تدعيم لوظيفتها⁽²⁾.

قلعة البرلس

يطلق اسم البرلس على المنطقة الساحلية المعروفة بإقليم البرلس الممتدة بين البحر المتوسط وبين بحيرة البرلس، وتعتبر البرلس من الثغور المصرية القديمة الواقعة في شمالي مديرية الغربية (يمكنك معرفة مواضع الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية في عصر الحروب الصليبية).

الموقع

شيدت هذه القلعة بقرية البرلس، وهي تقع على شاطئ البحر، وقد اشتهرت بين الأهالي بالبرج⁽³⁾ ومن ذلك الوقت عرفت قرية البرلس باسم «البرج»، وهي لا تزال علماً على إقليم البرلس⁽⁴⁾، وقد كانت البرلس من الثغور المصرية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة في شمال مديرية الغربية، اسمها الرومي «بارالوس»⁽⁵⁾.

(1) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص 229.

(2) أسامة طلعت، أسوار صلاح الدين، ص 233.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، حاشية 1، ص 248.

(4) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر، 1960م، ص 122.

(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، حاشية 1، ص 248.

بنت الدولة الأيوبية قلعة بقرية البرلس على شاطئ البحر، فبعد ذلك عرفت قرية البرلس باسم «البرج»، واختفى اسمها الأصلي، إلا أن البرلس لا تزال علمًا على إقليم البرلس⁽¹⁾ ولا تزال البحيرة تحمل اسمها.

قلعة المقس

ذكر «المقریزی» أن «صلاح الدين» أمر «بهاء الدين قراقوش» ببناء برج كبير⁽²⁾ على النيل عام 570هـ / 1174م، وكان يقع في محل قنطرة الخلفاء بجوار جامع المقس في نهاية سور القاهرة عند باب البحر، ويقال له قلعة المقس⁽³⁾، لكن هذا البرج نشف في سنة نيف وثمانين وستمائة، ومحل اليوم المكان القائم عليه عمارات الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان⁽⁴⁾ من الجهة البحرية الشرقية بميدان رمسيس (باب الحديد)⁽⁵⁾.

تحصين مدينة تنيس⁽⁶⁾

شهدت مدينة تنيس عام 577هـ / 1181م عمارة حربية في عهد السلطان «صلاح الدين»، حيث أمر السلطان «صلاح الدين» بعمارة قلعة تنيس⁽⁷⁾ وتجديد الآلات، وقد قيل إن سبب هذه العمارة هو خوف أهل تنيس من الإقامة بها⁽⁸⁾، نظرًا لضعف تحصيناتها الحربية، هذا وقد تم نقل أهل تنيس إلى دمياط، فقد ذكر «المقریزی» أنه كتب بإخلاء مدينة تنيس ونقل أهلها إلى دمياط، وقطع أشجار بساتين دمياط وإخراج النساء منها، فخلت تنيس إلا من المقاتلين وذلك في عام 588هـ / 1192م⁽⁹⁾.

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29، هامش1، ص101، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية1، ص248

(2) المقریزی، الخطط، ج1، ص380، النجوم الزاهرة، ج4، حاشية4، ص39.

(3) النجوم الزاهرة، ج4، ص39 حاشية4، المقریزی، الخطط، ج1، ص380.

(4) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص41-42، النجوم الزاهرة، ج4، حاشية4، ص39.

(5) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص123.

(6) بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة، جزيرة في بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقها، وقيل إن سور تنيس ابتداء بنيانه في شهر ربيع الأول 230هـ / 844م، وكان والي مصر يومئذ عيسى بن منصور بن عيسى الخراساني المعروف بالرافعي، وفرغ منه في 239هـ في ولاية عنيسة بن إسحاق بن شمر الضبي الهروي في أيام المتوكل، لمزيد من التفاصيل عن تنيس انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص50، ص54.

(7) المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص72، المقریزی، الخطط، ج1، ص181.

(8) المقریزی، الخطط، ج1، ص181.

(9) المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص111، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37، انظر المقریزی، الخطط، ج1، ص181، يمكنك معرفة مزيد من التفاصيل عن تنيس انظر المقریزی، الخطط، ج1، ص176، ص181.

هذا وفي عهد الملك «الكامل» أمر بتخريب مدينة تنيس خوفاً من مجيء الصليبيين إليها⁽¹⁾، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكيئة، ولم يكن بديار مصر أحسن منها، واستمرت من حينئذ خراباً⁽²⁾.

التحصينات الحربية للمنصورة

لا شك أنه ترتب على الحملة الصليبية الخامسة (614هـ / 1217م - 618هـ / 1221م)، أن اهتم سلاطين الأيوبيين بإنشاء الحصون، ففي عهد الملك «الكامل» تم إنشاء حصن المنصورة⁽³⁾ الذي شيده الملك (616هـ / 1219م)، حيث نزل في هذه البلدة وتحصن بها، وكان أن أمر من معه من العساكر والأمراء بتعميرها، فشيّدت المباني وبنيت الفنادق والحمامات، هذا بالإضافة إلى أنه أدار عليها سوراً مما يلي البحر وستره بالآلات الحربية والستائر⁽⁴⁾، هذا وقد شهدت أسوار المنصورة إهمالاً كبيراً في عام (618هـ / 1221م) وعندما تولى «الصالح نجم الدين أيوب» الحكم، اهتم بمدينة المنصورة، وشرع عساكره في تجديد أبنيتها وإصلاح سورها، وتوافد إليها الجند والعساكر والعربان، فعمرت المنصورة وغدت رباطاً جهادياً مهماً ضد الصليبيين⁽⁵⁾ بعد أن شهدت إهمالاً كبيراً⁽⁶⁾، هذا بالإضافة إلى إنشاء الملك «الصالح» مدينة الصالحية (644هـ / 1247م)⁽⁷⁾ لتكون حماية لمصر ودرعا لها، وفي عام (647هـ / 1249م) أمر السلطان بإصلاح السور الذي على البحر وستره بالستائر⁽⁸⁾.

(1) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 264.

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 224.

(3) سمي هذا الحصن بـ«المنصورة» نتيجة انتصار الملك الكامل على الصليبيين على حد قول المقرئزي تيمناً بانتصاره على الصليبيين، المقرئزي، الخطط، ج 1، ص 231، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 231، هامش 1.

(4) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 261، حسنين ربيع، النظم المالية، ص 70.

(5) حسنين ربيع، النظم المالية، ص 70.

(6) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 337.

(7) شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب مدينة الصالحية سنة 644هـ / 1246م في أول الصحراء التي تفصل بين مصر والشام، لتكون نقطة أمامية للدفاع عن الأطراف المصرية ضد ما شاع وقتذاك من قرب وصول حملة صليبية إلى مصر عن طريق البر، حيث تكون في مواجهة أي هجوم صليبي يفد من الجهات الشرقية، هذا بالإضافة إلى أنه غدا للصالحية أهمية كبيرة خاصة للطريق البري الذي يربط القاهرة ودمشق ويسلكه المسافرون، لمزيد من التفاصيل عن مدينة الصالحية انظر د/ محمد محمد أمين على، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة 1968م، ص 185، نقلا عن عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 261، انظر أيضاً حسنين ربيع، النظم المالية، ص 70، في عام 646هـ ذكر المقرئزي في كتابه السلوك، ج 1، ق 2، ص 330، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بنى مدينة سماها بـ«الصالحية».

(8) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 337.

قلعة جزيرة الروضة

عرفت هذه القلعة بجزيرة الروضة⁽¹⁾ نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش «بدر الجمالى» (490هـ / 1079م) وسماه «الروضة»⁽²⁾، وظلت جزيرة الروضة متنزهًا ملكيًا إلى أن ولى الملك «الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل» سلطنة مصر عام 638هـ / 1240م⁽³⁾ فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وقلعة الروضة⁽⁴⁾، وقلعة الجزيرة⁽⁵⁾، وقلعة الصالحية⁽⁶⁾، وقلعة جزيرة الفسطاط⁽⁷⁾، وقلعة الجيزة كما ذكرها المؤرخ «أبو الفدا»⁽⁸⁾.

ويذكر المؤرخ «المقريزى» أنه فى يوم الأربعاء خامس شعبان عام 638هـ / 1240م، شرع فى حفر أساس القلعة، وابتدأ فى بنائها فى أواخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة السادس عشر، وفى العاشر من ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة⁽⁹⁾ وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب

(1) فى نهاية العصر الأيوبي انتقل مقر الحكم مؤقتًا من القلعة إلى مكان آخر حصين فى أقصى الغرب أقامه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة، انتقل إليه هو وخواصه وحرمه سنة 638هـ / 1241م، وقد أحاط الملك الصالح القصر الذى بناه بالروضة بسور مزود بستين برجًا استخدم فى بنائه عددًا كبيرًا من الأسرى الصليبيين الذين أسروا بالشام، وكون الملك الصالح فرقة من المماليك نشأهم فى قلعة الروضة هذه، وهم الذين خلفوا الدولة الأيوبية باسم «المماليك البحرية»، انظر جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، أيمن فؤاد سيد، ص 31، المقريزى، الخطط، ج 2، ص 177، 186، عيد أبو زيد، مجتمع القاهرة فى العصر الأيوبي، ص 200.

(2) الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ثم قيل لها جزيرة الحصن وعرفت اليوم بالروضة وإلى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح الله - تعالى - على المسلمين القصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط، وبها أيضًا بنى أحمد بن طولون الحصن، وبها كانت الصناعة يعنى صناعة السفن الحربية أى كانت بها دار الصناعة وبها كان الجنان والمختار، وبها كان الهودج الذى بناه الخليفة الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية، وبها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية وبها إلى اليوم مقياس النيل، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزى، الخطط، ج 2، ص 177 - 179، عبد الرحمن زكى قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر 1960م، ص 126.

(3) النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج 29، ص 277.

(4) المقريزى، السلوك، ج 1، ق 2، ص 301، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 105.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 320، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 80.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، هامش 3، ص 320 - 321، المقريزى، السلوك، ج 1، ق 2، ص 301 - 302.

(7) النجوم الزاهرة، ج 6، ص 320، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص 153.

(8) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ص 119.

(9) المقريزى، السلوك، ج 1، ق 2، ص 301.

المقياس وإدخالها في القلعة، وأنفقت أموال جمة⁽¹⁾ في عمارة القلعة وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجًا⁽²⁾.

وفي ذلك يذكر «ابن كثير»: «بنى «الصالح أيوب» قلعة بالجزيرة غرم عليها شيئًا كثيرًا من بيت المال»⁽³⁾، وقد استمر العمل في بناء القلعة من عام 638هـ / 1240م - 641هـ / 1242م⁽⁴⁾.

هذا وقد ذكر «المقريزي» أيضًا أن مباني القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية، وتبين أيضًا أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن 65 فدانًا واقعة في الجزء الجنوبي من جزيرة الروضة⁽⁵⁾.

وبعد العمل وإتمام البناء في قلعة جزيرة الروضة اتخذها الملك «الصالح» سكنًا له، كما أسكن فيها مماليكه البحرية وعدتهم ألف مملوك⁽⁶⁾ وقيل ثمانمائة ساهم البحرية، فجاءت هذه القلعة من أجل مباني المملوك⁽⁷⁾، فبعد أن ترك قلعة الجبل وأقام بقلعة جزيرة الروضة، وحتى يستطيع تأمين القلعة من الخارج فقد أحاطها الملك «الصالح» بعدد من المراكب الحربية للدفاع عنها في حالة تعرض القلعة للهجوم⁽⁸⁾.

هذا وقد ظلت قلعة الروضة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب عام 648هـ / 1250م، فقد خربت قلعة الروضة ولم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها وبقي أيضًا عقد باب من جهة الغرب يقال له الإسطبل⁽⁹⁾، وقيل إن الملك «الناصر محمد بن قلاوون» أخذ أحجارها

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص183، حسنين ربيع، النظم المالية، ص70، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص126.

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص183.

(3) البداية والنهاية، ج13، ص301.

(4) اشتملت قلعة جزيرة الروضة على عدد كبير من الدور السكنية والقصور، كما أنشأ الملك الصالح بها جامعًا لإقامة الصلاة وشحنها بالأسلحة والعتاد والمؤن حتى إنها كانت تسر كل الناظرين إليها من حسن منظرها وزخرفها المتمثل في أعمدة الرخام الجميلة والأسقف الخشبية المزينة بالزخارف البديعة، لمزيد من التفاصيل عن جزيرة الروضة وقلعتها انظر محمد عبد العزيز السيد، جزيرة الروضة وآثارها الدارسة حتى نهاية العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة 1977م، ص56، 60.

(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، حاشية3، ص320.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص341، النجوم الزاهرة، ج6، ص320 - 321، هامش 3، وعرفوا بالممالك البحرية لسكناهم هذه الجزيرة الواقعة في بحر النيل.

(7) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص341.

(8) المقريزي، المرجع السابق، ج2، ص183.

(9) المقريزي، المرجع السابق، ج2، ص185.

وبنى جامعته الشهير بقلعة الجبل والذي يعرف إلى الآن بجامع «الناصر محمد بن قلاوون»⁽¹⁾.

تحصين دمياط⁽²⁾

لا شك أنه في عهد «صلاح الدين» شهدت معظم المدن المصرية الرعاية والاهتمام خاصة المدن الواقعة على البحر المتوسط، ففي عام 572هـ / 1176م، توجه «صلاح الدين» إلى دمياط لتفقد تحصيناتها الحربية⁽³⁾. وفي عام 577هـ / 1181م، أمر «صلاح الدين» بترميم سور مدينة دمياط، وأتقنت السلسلة التي بين البرجين⁽⁴⁾، حيث كتب «صلاح الدين» إلى واليها بترتيب المقاتلين على البرجين وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها، وفي أواخر حكم «صلاح الدين» شهدت دمياط إجراءات دفاعية جديدة وذلك في عام 588هـ / 1192م، حيث تم حفر خندق دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(2) دمياط مدينة قديمة بين تينس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصصة بالهواء الطيب، وهي ثغر من ثغور الإسلام، جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا عمر أنه سيفتح على يديك بمصر ثغرا الإسكندرية ودمياط، فأما الإسكندرية فخراها من البربر، وأما دمياط فهم صفوة من شهداء من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس مع النبيين والشهداء، ومن شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يقال له الأشتوم، عرض النيل هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يخرج مركب إلى البحر الملح أو يدخل إلا بإذن ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تينس وعلى سورها محارس ورباطات، لمزيد من التفاصيل انظر الحموي، الشيخ الأمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت 1955م، ج2، ص472-473، هذا وقد كانت مدينة دمياط عندما فتحها عمرو بن العاص مدينة محصنة ذات أسوار منيعة شأنها شأن المدن الأخرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، انظر عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص249.

(3) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص258.

(4) قيل إن هذا البرج كان قفل الديار المصرية وهو برج عال في وسط النيل ودمياط بحذائه من شرقيه والجزيرة بحذائه من غربيه، وهو برج منيع في غاية القوة والامتناع فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة ويعرف اليوم مكانها في دمياط بين البرجين، لمزيد منه التفاصيل انظر النجوم الزاهرة، ج6، هامش 5، ص170، المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص188-189، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

(5) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص260، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

دمياط في عهد خلفاء «صلاح الدين»

في ذى الحجة عام 592هـ / 1195م، عزم «العزیز» على نقض الأهرام، ونقل حجارتها إلى سور دمياط، فقبل إن المئونة تعظم في هدمها والفائدة تقل من حجرها⁽¹⁾.

هذا وقد أدرك الصليبيون بعد وفاة «صلاح الدين» أن مصر هي مركز المقاومة، وأنها الطريق المؤدى إلى بلاد الشام، ومن هنا جاءت الحملة الصليبية الخامسة، وكان الهدف من هذه الحملة السيطرة على ميناء دمياط بسبب رغبة المدن التجارية الإيطالية في السيطرة على تجارة البحر المتوسط⁽²⁾، هذا وتعتبر مشاهدة «أبي شامة» المؤرخ الذي عاصر حكم «صلاح الدين الأيوبي» لدمياط متأخرة؛ لأنها ترجع إلى سنة 628هـ / 1230م، إلا أنها تعطي المؤرخ الحربى صورة حقيقية عن تحصينات دمياط كلها بعد ترميمها على عهد «صلاح الدين».

فيذكر أن «برجها كان عاليًا مبنياً بين دمياط والبر الغربى في الوسط، ومن ناحيته سلسلتان إحداهما على النيل إلى دمياط والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل الديار المصرية، فإذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وقوص وأسوان»⁽³⁾.

هذا وقد لعب برج دمياط دورًا فعالاً بل مهمًا جدًا في حصار دمياط أثناء الحملة الصليبية الخامسة (615هـ / 1218م - 616هـ / 1219م)، عندما قصد الصليبيون مدينة دمياط فضموا على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط⁽⁴⁾ وحفروا حول معسكرهم خندقًا وأقاموا عليه سورًا وشرعوا في قتال برج دمياط (السلسلة)، وكان برجًا منيعًا يمتد على النيل ليمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول إلى ديار مصر في النيل⁽⁵⁾، وكان البر الذى نزل

(1) اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين في هدم الأهرام واستخدم أحجارها في بناء الأسوار، ففي أيام صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجيزة على يد بهاء الدين قراقوش، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل، والسور المحيط بالقاهرة ومصر، وكذلك فعل العزيز لبناء سور دمياط، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص138 - 139، هامش 5.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص729، 730، عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص261، هامش 3، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315.

(3) نقلًا عن عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص259، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى في عهد صلاح الدين، ص128.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص924.

(5) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص170، هامش 5.

عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من جهة أخرى يقال لها جزيرة دمياط.

هذا وقد كان المسلمون في دمياط محاصرين حصارًا منيعًا من البر والبحر، والسلسلة ممتدة بين البرج والسور، فحاول الصليبيون امتلاك تلك البرج⁽¹⁾؛ لأنهم إذا ملكوها تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة، أضف إلى ذلك بناء مدينة العادلية التي شيدها السلطان «العادل» (614هـ / 1217م)، جنوب دمياط وشحنها بالمقاتلين استعدادًا لمقدم الصليبيين إلى مصر من ناحية البحر، فأصبحت منذ ذلك الحين مدينة جهادية عسكر فيها السلطان «الكامل» (615هـ / 1218م)، ليعبر عساكره منها إلى دمياط لمنع الصليبيين من دخولها⁽²⁾، لكن هذه الحملة فشلت في تحقيق غرضها بسبب قوة التحصينات وشدة المقاومة⁽³⁾.

أما عن دمياط في عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب»

عندما علم «الصالح نجم الدين أيوب» بقدوم حملة صليبية جديدة ضد مصر، وكانت هذه هي الحملة الصليبية السابعة التي نزلت على دمياط 647هـ / 1249م⁽⁴⁾، لكن «الصالح نجم الدين أيوب» قام بإصلاحات عديدة في دمياط ألا وهي: إصلاح أسوارها وتدعيمها وجعل الستائر على السور، هذا بالإضافة إلى أنه شرع في تجديد عمائر المنصورة التي شهدت أسوارها هي الأخرى إهمالاً كبيراً⁽⁵⁾ في الفترة (618هـ / 1221م - 647هـ / 1249م)، وما حدث من الصليبيين هو أنهم ملئوا أسوار دمياط بالمقاتلين والآلات، وخرج الصليبيون من دمياط إلى فارسكور ووصلوا تجاه المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم، وخذقوا عليهم وأداروا على خندقهم سورًا ستروه بكثير من الستائر⁽⁶⁾ ونصبوا المجانيق، والتحم الفريقان في القتال براءً وبحرًا حتى انهزم الصليبيون، وبانهزام الصليبيين ومقتل «توران شاه» انتهت الدولة الأيوبية، ومنذ خيبة «لويس التاسع» وانهزامه في معركة المنصورة أهملت حصون دمياط وتحولت إلى خرائب⁽⁷⁾ وما كان من دولة المماليك البحرية الناشئة أن

(1) سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص 232.

(2) حسنين ربيع، النظم المالية، ص 69.

(3) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 261.

(4) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 961، 963.

(5) المقرئ، الخطط، ج 1، ص 220، المقرئ، السلوك، ج 1، ص 337.

(6) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 263.

(7) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 159.

فكر زعماؤها في هدم دمياط وتخريب المدينة خوفاً من مجيء الصليبيين إليها مرة أخرى⁽¹⁾.

التحصين الحربي للإسكندرية

أما عن تحصين مدينة الإسكندرية⁽²⁾ فقد تحصن بها «صلاح الدين» في عام 562هـ / 1166م عندما حاصرته الجيوش الصليبية، فكان على علم ودراية بأحوالها فأدرك مدى حاجتها إلى التحصين والعمارة حتى تستطيع الصمود في وجه الحملات الصليبية، فقد زارها «صلاح الدين» في 566هـ / 1170م، ففقد أحوالها عندما كان وزيراً لـ«العاقد» وفيها أمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها⁽³⁾ فعمر ما تهدم منها⁽⁴⁾، وفي عام 572هـ / 1176م قام «صلاح الدين» بزيارته الثانية إلى الإسكندرية⁽⁵⁾ ليتفقد تحصيناتها الحربية فذكر «أبو شامة»: «شاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر»⁽⁶⁾، وظلت الإسكندرية موضع رعاية واهتمام «صلاح الدين» حتى توجه إليها في عام 577هـ / 1181م، وتعتبر هذه الزيارة الثالثة لـ«صلاح الدين» ليتفقد أحوالها وتحصيناتها⁽⁷⁾ ويشاهد ما تم من أعمال البناء والتجديد، وقد ذكر «أبو شامة» ما نصه «وشاهد الأسوار التي جردها والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام»⁽⁸⁾.

(1) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص 264.

(2) كانت الإسكندرية في عهدها القديمة منيعة بأسوارها وأبراجها وحصونها، ولقد عانى المسلمون في فتحها الشدائد وظلوا في حصارها أربعة عشر شهراً حتى استطاعوا التغلب عليها، انظر عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 142.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 199، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 486، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص 65 - 66، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص 577.

(4) المقرئزي، اتعاظ الخنفا، ج 3، ص 315.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 296.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 296، حوادث سنة 572هـ المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 63، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 689، محسن حسين، الجيش الأيوبي، ص 336، الباز العريني، مصر في عصر الأيوبيين، ص 171.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 305، نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص 128.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 689، جمال الدين الشيال، المجلد في تاريخ دمياط، ص 18، السيد سالم، تاريخ الإسكندرية، ص 66، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص 577.

يمكنك معرفة المزيد من التفاصيل عن مدينة الإسكندرية، انظر جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

وفي أحداث عام (581هـ / 1185م) خرج «المظفر تقي الدين عمر» إلى كشف أحوال الإسكندرية وشرع في عمل سور على مدينة مصر بالحجر، فلم يبق فقير ولا ضعيف إلا خط فيه ساحة⁽¹⁾.

أما الإسكندرية في عهد خلفاء «صلاح الدين»، فقد اهتم خلفاؤه بها أشد اهتمام، فقد اهتم «العادل» بها حيث شهد عام (608هـ / 1211م) زيارته إلى الإسكندرية لتفقد أحوالها، وهذا الأمر يوضح العناية والرعاية بها⁽²⁾، أضف إلى ذلك أن «العادل» اهتم بحصون المدينة وأسوارها في 612هـ / 1215م، فقد زار المدينة في السنة التالية ليشرّف على شئونها وترتيب أمورها، فقد روى خبر هذه الزيارة الثالثة «المقريزي» في «السلوك» قائلاً «وفيها 613هـ / 1216م، سار الملك «العادل» من القاهرة إلى الإسكندرية فرتب أمورها وعاد»⁽³⁾.

هذا الأمر يوضح العناية والرعاية التي أولاها «صلاح الدين» للإسكندرية بصفة خاصة واستمرت خلال حكم السلطان «العادل»⁽⁴⁾.

برج السويس في دمياط

في عام 577هـ / 1181م أكمل السلطان «صلاح الدين» بناء برج السويس، الذي يسع عشرين فارساً، ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج (الصليبيين)⁽⁵⁾.

التحصينات الحربية في شبه جزيرة سيناء

لا شك أن شبه جزيرة سيناء اكتسبت أهمية خاصة على مر العصور التاريخية لكونها المدخل الشرقي لمصر، وعن طريقها دخلت معظم الغزوات الخارجية، فكانت مسرحاً لمعظم

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص90.

(2) المقريزي، المرجع السابق، ج1، ق1، ص208.

(3) نقلاً عن جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، ص76.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص90.

(5) الشب من محتكرات الدولة المصرية يستخرج من أسوان والواحات ويحمل إلى سواحل قوص وإخميم وأسيوط لينقل إلى الإسكندرية فيباع أكثره لتجار الفرنج.

انظر المقريزي، السلوك، ج1، ق1، حاشية 7، ص72، نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص128، عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية، ص259، علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج11، ص37.

العمليات الحربية التي خاضتها مصر، وهي تعتبر أحد المنافذ المهمة لقوافل التجار والحجاج⁽¹⁾.

قلعة «صلاح الدين» بجزيرة فرعون

الموقع

بنت قلعة «صلاح الدين» على جزيرة فرعون على بعد ستين كيلومتراً من مدينة نويبع جنوب طابا بحوالى ثمانية كيلومترات⁽²⁾، وكان قد أمر ببنائها «صلاح الدين الأيوبي»⁽³⁾.

أسباب بناء القلعة

بنى «صلاح الدين» هذه القلعة لتكون نقطة حصينة لحماية الطرق البرية والبحرية بين مصر والشام والحجاز⁽⁴⁾ وقاعدة بحرية متقدمة لتأمين خليج العقبة والبحر الأحمر من الغزوات الصليبية ومقاومة الصليبيين⁽⁵⁾، استمرت قلعة «صلاح الدين» بهذه الجزيرة طوال هذا العصر تمثل دوراً مهماً في الصراع الإسلامى والصليبي، كأهم نقط الإنذار المتقدمة وواحدة من القلاع القليلة التي دخلت ضد الصليبيين في حرب بشكل مباشر، حيث لعبت هذه القلعة الشاخصة دور الحارس الأمين للشواطئ العربية في مصر والحجاز والأردن وفلسطين على حد سواء⁽⁶⁾، إذ أنها بالإضافة إلى ذلك أسهمت في درء الأخطار العسكرية أثناء الصراع الصليبي العربي⁽⁷⁾، والدليل على ذلك أن «أرناط» صاحب حصن الكرك حاصر تلك الجزيرة بسفنه في حملته البحرية التي أراد من خلالها الاستيلاء على شواطئ البلاد الحجازية 578هـ / 1182م⁽⁸⁾.

إلا أنه لم يتمكن من ذلك وظلت الجزيرة صامدة أمام ضراوة الحصار البحرى، المضروب

(1) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية 1986م، ص 2.

(2) مجلة عالم الآثار، العدد الثامن والعشرون، يونيو 1986م، ص 4.

(3) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 123.

(4) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ص 2-3.

(5) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 123، أحمد قدرى، آثار سيناء، ص 2-3.

(6) أحمد قدرى، المرجع السابق، ص 4.

(7) أحمد قدرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 123، مجلة عالم الآثار، العدد 28، ص 5.

أحمد قدرى، آثار سيناء، ص 4.

حولها من السفن الصليبية والتي بقي جزء منها لحصار القلعة، والجزء الآخر أبحر في اتجاه الجنوب للوصول إلى شواطئ بلاد الحجاز⁽¹⁾.

تخطيط قلعة جزيرة فرعون

الحقيقة أن هذه القلعة عبارة عن تحصينات، تنقسم إلى قسمين شمالية وجنوبية، وكل منهما عبارة عن قلعة مستقلة تستطيع أن تقاوم العدو بمفردها إذا ما حوصرت، وأتاحت تضاريس الجزيرة الفرصة بشكل واضح بحيث تم بناء القلعتين على تلين، التل الشمالي أكبر حجمًا، بينها فرجة ضيقة، وبينها وبين شاطئ سيناء نحو 250 مترًا، على قمة التلين (الأكمتين) نجد خرائب قلعة قديمة لم يبق منها سوى صهاريج الماء ومخزن الغلال والذخائر ومنازل الجنود، وفي جدرانها وأسوارها المزاغل لضرب النار وهي الآن خربة لا يسكنها أحد، بالإضافة إلى أنه كان يحيط بها سور منيع له باب إلى جهة سيناء⁽²⁾.

هذا بالإضافة إلى أنها تحتوي على برج للحمام الزاجل الذي كان يستخدم في نقل الرسائل بين القلعة وبين القاهرة، أو بين القلعة والشام، أضف إلى ذلك مباني القلعة التي تتكون من مجموعة من الغرف لإيواء العسكر وغرف لحفظ المؤن والعتاد، وحول هذه الحجرات والغرف سور سميك يتخلله عدة أبراج للمراقبة، وقد فتحت في السور والأبراج فتحات لرمي السهام (مزاغل) كما يحتوي كل مبنى على صهريج كبير، هذا وقد عرفت هاتان القلعتان عند البدو باسم القلعة أو القليعة أو القرية⁽³⁾، وكان للقلعة باب نقش عليه اسم باني القلعة وتاريخ بنائها، ولكن هذا الباب قد تهدم الآن وتهدم السور إلى الأرض، إلا أن ما يبدو من أساسه يدل على متانته، والأرجح أنها من بناء «صلاح الدين الأيوبي» وأنه بناها لمقاومة الصليبيين وهي تشبه في بنائها قلعة «صلاح الدين» بجوار عين سدر (قلعة الجندي)⁽⁴⁾.

(1) مجلة عالم الآثار، ص 5.

(2) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 123، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، 1977م، ص 166.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 166.

(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 167.

قلعة الجندی⁽¹⁾ (رأس الجندی)

إذا كان الحديث عن الحصون والقلاع التي أقيمت في العصر الأيوبي بسيناء قليلاً، وذلك أن معظمها قد اندثر والقليل منها هو الذي نتحدث عنه، فالأمر بالنسبة لمنطقة العريش واضح، ذلك لأن قلاعها وحصونها ما تزال قائمة وبحالة جيدة، ولعل أهم قلاع المنطقة في العصر الأيوبي هي قلعة الجندی⁽²⁾.

سبب بناء قلعة الجندی

تعددت الأسباب التي عجلت ببناء قلعة الجندی، فبعد الأحداث المثيرة التي قام بها «أرناط» عام (578هـ / 1182م) ومشاركة البدو له في أعماله الإجرامية عند محاولة البدو الخروج على السلطان «صلاح الدين» وممالة الصليبيين⁽³⁾ التي كاد أن يرتكبها في حق مكة المكرمة والمسلمين، في الوقت الذي كان «صلاح الدين» مشغولاً بحروبه في فلسطين⁽⁴⁾، هذا وقد رأى «صلاح الدين» أن يتخذ خطوة إيجابية بعد أن حقق انتصاراً على الصليبيين وقتل «ريجنالد دي شاتيون» (أرناط) زعيمهم، ففكر في تأمين حدود مصر الشرقية، وتأديب البدو الخائنين وذلك بتشيد قلعته المسماة بقلعة «صلاح الدين»، وأمر بالبدء في بنائها حوالي عام 579هـ / 1183م - 580هـ / 1184م، وكان الانتهاء من العمل فيها عام 583هـ / 1187م، كما هو ثابت ومنقوش أعلى باب القلعة⁽⁵⁾، وفي ذلك الوقت كان «صلاح الدين» قد نقل مقره من القاهرة إلى دمشق وخلف أخاه «العاذل» لينوب عنه في حكم الديار المصرية، ولما توفي

(1) يطلق عليها أحياناً قلعة الباشا وهي على نحو ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقي من (عين سدر) وتعرف أيضاً بمعصاة الجندی، أما تسميتها بالجندی فذلك لوقوعها برأس الجندی، ورأس الجندی عبارة عن تل صغير يرتفع حوالي 2150 قدماً فوق سطح البحر ويرتفع حوالي 500 قدم فوق السهل المستوي المجاور له، وتعتبر رأس الجندی من الناحية الجيولوجية أكمة منفصلة عن جبال واحة الكلسية التي تؤلف حاجزاً منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس، لمزيد من التفاصيل انظر د/ أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، 1397هـ / 1977م، ص 147، عنه انظر أيضاً.

Hassan sadik, Bulletin de l' Institut, d'Egypt, tomeII, 1920, pp111-119.

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 147.

(3) سعد المومني، القلاع في الأردن، في الفترة الأيوبية المملوكية، دراسة تاريخية إستراتيجية، دار البشير سنه 1987م، ص 322.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 153.

(5) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة 1970م، ص 108 - 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 153.

«صلاح الدين» وتولى الحكم السلطان «العاذل» 589هـ / 1193م، زادت عناية «العاذل» بحدوده الشرقية⁽¹⁾ في سيناء ومراقبة البدو بها فزار القلعة سنة 598هـ / 1202م، وأمر ببناء مسجد ثان وصهريج بالقلعة⁽²⁾.

موقع قلعة رأس الجندي

تقع رأس الجندي على رأس وادي البروك أحد الأفرع الرئيسية لوادي العريش الذي يشغل سهلاً فسيحاً يمتد إلى جميع المنطقة الوسطى لسيناء الشمالية⁽³⁾ وإلى جنوب وادي سدر الذي تخترقه سلسلة جبل راحا ويفتح له سبيلاً نحو السهل الساحلي لخليج السويس، وعلى بعد خمسة كيلومترات من قلعة الجندي يوجد وادي سدر الذي قيل إنه ينشأ من جبل أبي ذبابة من جبال التيه ويسير متعرجاً مسافة نحو 30 ميلاً فيمر بين جبال الراحا، وجبال سن البشر ثم يخترق سهل الراحا ويصب في الخليج على نحو تسعة أميال وفيه ثلاث عيون، وأهم هذه العيون بالنسبة لقلعة الجندي عين سدر، وعلى نحو ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقي منها تقع قلعة الجندي⁽⁴⁾.

وقلعة الجندي لا تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً عن طريق الحج القديم الذي يبدأ من السويس وينتهي إلى العقبة ماراً بنخل، وهو الطريق الوحيد الموصل بين خليج السويس إلى شمال سيناء وبلاد العرب⁽⁵⁾.

ويعلق «حسن صادق» على موقع القلعة فيقول «وقد اشتمل تل رأس الجندي لذلك على أهم العناصر التي يتطلبها الموقع العسكري، أولها القرب من المياه، وثانيها الإشراف التام على الطرق المهمة وسهولة المواصلات»⁽⁶⁾.

(1) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 153.

(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 117، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 109، أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 147.

(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 148.

(5) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 117، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 148.

(6) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 117، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 148، انظر أيضاً:

تخطيط قلعة رأس الجندي

وتخطيط قلعة «صلاح الدين» هو عبارة عن شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وينتهي طرفه الجنوبي الغربي بشكل نصف سداسي الأضلاع، ويتراوح طول القلعة ما بين 150 و200 متر، ويبلغ أوسع عرض لها 100 متر، ويحيط بالقلعة سور سميك خارجي يبلغ عرضه 2 متر ما يزال جزؤه الأسفل باقياً، وقد قويت أركان القلعة المتعددة الأضلاع بأبراج مربعة ومستديرة، تسند كل منها وتقويها دعائم سائدة، ومن الأرجح أن تكون الأبراج المستديرة من أعمال «صلاح الدين»، أما المربعة فترجع إلى أعمال السلطان «العادل»⁽¹⁾، وكما هو الحال دائماً في أسوار المدن والقلاع في مصر الإسلامية⁽²⁾ في العصور الوسطى نجد أن سور قلعة الجندي يحتوي على مجموعة كبيرة من الغرف والحجرات منها ما استعمل لرجال حاميتها⁽³⁾، ومنها ما استعمل لحفظ العتاد والمؤن أو للأغراض اليومية الأخرى كالمطابخ وما إليها من الساقطات التي تستعمل في الاستحكامات الحربية كدورات للمياه⁽⁴⁾.

هذا ويتوسط القلعة حصن كبير متسع يشتمل على عدة مستويات، على كل مستوى توجد بناية مخصصة لغرض معين من أغراض القلعة الحربية والمدنية والدينية، وقد تهدم معظم تلك المباني ولم يبق منها إلا خمسة مبان⁽⁵⁾.

أولها: ردهة مستطيلة تبلغ مساحتها من 5 إلى 6 أمتار وتقع تحت مستوى الأرض الطبيعية بنحو 5 أمتار، وقد كان يغطي هذه الردهة قبو ذو عقد مدبب سقط معظمه الآن، كما اندثر المدخل، ومن المحتمل أن تكون هذه الردهة مخصصة لحفظ العتاد والمؤن أو مكاناً للاجتماع في فصل الشتاء⁽⁶⁾.

ثانيها: مسجد بدون سقف وفي ضلعه الشرقي توجد قبلة قد أشير إليها بطبقة من الجص

(1) انظر: Creswell: citadel of Cairo, p37، نقلاً عن أحمد رمضان، جزيرة سيناء، ص 148.

(2) انظر: Creswell: The old wall of cairo, p221، نقلاً عن أحمد رمضان، جزيرة سيناء، ص 148.

(3) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 119.

(4) انظر: Creswell: Muslim Architecture in Egypt, Vol. 1, P235، نقلاً عن أحمد رمضان، جزيرة سيناء، ص 148.

(5) عن أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 149، انظر أيضاً، Hassan sadik, p113.

(6) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 119، انظر أيضاً، Hassan sadik, p113.

وفوقها ذكر اسم الجلالة (بسم الله)، وفي داخل المحراب كتابة متآكلة باق منها هذه العبارة «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلّ على محمد»⁽¹⁾.

ثالثها: صهريج تحت الأرض لخزن المياه يبلغ حجمه 5.5×10×6 أمتار ما زالت جدرانها بحالة جيدة وتحتفظ بطبقة سميكة من الملاط، ويحتوى الصهريج على فتحتين إحداهما مربعة وتوجد في الضلع الشرقى ووظيفتها توصيل المياه إلى داخل القلعة، والفتحة الثانية توجد في الضلع الغربى وهى ضيقة ومستديرة بالقرب من سقف الصهريج وكانت تستعمل لصب المياه منها، ويوجد فوق الفتحة الأولى لوحة نقش عليها كتابات زال بعضها وبقيت منها البسمة وكلمة صهريج واسم صلاح الدنيا والدين⁽²⁾.

رابعها: مسجد ثان بالقلعة وهو أكمل أجزاء القلعة التى لا تزال تحتفظ برونقها القديم⁽³⁾.

خامسها: ردهة كبيرة طول ضلعها 15 مترًا بنيت تحت مستوى الأرض الطبيعية ومغطاة بأقباء متقاطعة، ومن المرجح أنها كانت تستعمل كمطعم أو ناد للحامية⁽⁴⁾.

أجزاء القلعة التى ثبت نسبتها إلى «صلاح الدين»

لعل من أهم أجزاء القلعة التى ثبت نسبتها إلى «صلاح الدين»، تلك الكتابة المنقوشة على عقد الباب المسطح، ففى وسط النصف العلوى للعقد نجد لوحة عليها كتابات منقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذين اتخذهما السلطان «صلاح الدين» شعارًا لدولته، وعلى الجزء الأسفل من المربع الأوسط نقشت نجمة ذات ستة رؤوس، اتخذها «صلاح الدين» أيضًا شارة له⁽⁵⁾، ولما كانت مسألة المياه من العناصر الرئيسية لبناء أى حصن أو قلعة، لذلك كان على القائد قبل أن يختار الموقع الحربى المنيع ليجعل من قلعة حصينة، لا بد أن يدرس مسألة المياه التى تمد قلعته بالحياة، لذلك نجد «صلاح الدين» قد أقام قلعته على بعد 5 كيلومترات من مياه عين سدر التى أمده بالمياه التى احتاجها⁽⁶⁾.

(1) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، ط1، 1991م، ص109.

(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص149.

(3) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص151.

(5) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص152.

وصف القلعة

رأس الجندى عبارة عن أكمة منفصلة عن جبال واحة الكلسية التي تؤلف حاجزاً منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس⁽¹⁾، فعندما تقترب من رأس الجندى، نجد تلا على شكل مخروطى له قمة مسطحة وجوانب صخرية حادة جداً والجزء الأصلي من التل ذو طبيعة طباشيرية التكوين، فإن وصلنا إلى نهاية قمة التل وجدنا أنفسنا أمام جدار يتراوح سمكه بين مترين وثلاثة أمتار مبنى بالحجارة الجافة ووراءه خندق كان يمتلئ بالمياه يبلغ اتساعه خمسة أو ستة أمتار، ويدور الخندق حول الأكمة من ناحيتها الشمالية والشمالية الغربية فيزيد في منعتها ووقايتها، وإذا عبرنا الخندق صعدنا فوق كتل من الحجارة المبعثرة بدلاً عن درجات السلم التي وجدت في الأيام السابقة والتي بقى منها القليل، ولا تزال موجودة في محالها الأصلية، ولو صعدنا إلى عشرة أمتار أخرى لوصلنا إلى الجدار الأصلي وباب القلعة⁽²⁾.

باب القلعة

عقد الباب مسطح نقرأ عليه نصاً مهماً «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد، خلد الله ملك مولانا الناصر «صلاح الدين والدين» سلطان الإسلام والمسلمين والملك «يوسف بدر... العادل الناصري» في جمادى الآخر سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة⁽³⁾ (أغسطس 1187م)»، وفي وسط النصف العلوي للعقد تشاهد اللوحة المنقوشة وعلى جانبيها رسم السيف والدرع اللذان اتخذهما «صلاح الدين» شعاراً لدولته⁽⁴⁾، وعلى الجزء الأسفل في المربع الأوسط نشاهد النجمة المسدسة الأضلاع التي كان على ما يبدو شارة «صلاح الدين» والتي نراها على المباني التي شيدها بالإضافة إلى وجودها على عملته⁽⁵⁾، وبقيت اللوحات التي من الحجر الجيري حسنة الشكل ومزررة ببعضها على الطريقة الإسلامية المستعملة إلى اليوم⁽⁶⁾.

(1) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجليل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى 1411هـ / 1991م، ص 109.

(2) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 110.

(3) نعوم شقير، تاريخ سيناء، ص 109، عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 117-118.

(4) عبد الرحمن زكى، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، ص 117-118.

(5) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 111-112.

قلعة أيلة

كما يقول «الحموي»: «مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، وقيل إن أيلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زروع يسيره وهي على ساحل بحر القلزم وعليها طريق حجاج مصر، وهي في زماننا (أى القرن الثالث عشر الميلادى) برج به وال من مصر وليس بها زروع وكان بها قلعة في البحر فعطلت ونقل الوالى البرج إلى الساحل»⁽¹⁾. هذا وتشتهر قلعة أيلة في حوادث سنة ستة وستين وخمسةائة (1170م)، فقد أنشأ «صلاح الدين يوسف» بن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجبال وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها فنازلها في ربيع الأول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها بالمقاتلين والأسلحة وقاتل قلعة أيلة في البر والبحر حتى فتحها في العشرين من شهر ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج وأسرههم وأسكن بها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، وعاد إلى القاهرة في أواخر جمادى الأول، هذا ما ذكره «القاضى الفاضل».

ويهم من هذه الأحداث التى ذكرها «القاضى الفاضل» أن قلعة أيلة كانت مملوكة للفرنج قبل استيلاء «صلاح الدين» عليها، وعلى ذلك فإننا لا نستطيع أن ندلى برأى قاطع فى هذا الموضوع هل قلعة أيلة كانت موجودة قبل استيلاء الصليبيين على المدينة؟ أم هم الذين أقاموها بعد استيلائهم على أيلة؟ والذي نرجحه فى هذا الموضوع أن مدينة أيلة وهى مدينة حدود فلا بد أن يكون بها مسلحة أو قلعة قبل استيلاء الفرنج عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ضراوة الحروب الصليبية بين المسلمين والفرنج فى منطقة متغلغلة فى الصحراء بعيدة عن ساحل البحر الأبيض وعن مركز تجمع الفرنج فى بيت المقدس لم يكن يسمح للصليبيين بإقامة قلعة فى منطقة كمدينة أيلة، ولكننى لا أستبعد فى الوقت نفسه أن يكون الصليبيون قد أضافوا إليها بعض المباني والتحصينات التى تتفق وأسلوبهم الحربى⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر قلعة أيلة فالذى يمكن تأكيده فى هذا الموضوع هو أنه منذ استرداد «صلاح الدين» لمدينة أيلة 566هـ / 1170م ظلت تابعة لمصر، هذا وقد ذكر «الدوادارى» فى أحداث سنة سبع وسبعين وخمسةائة (سنة 1181م)، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة أن

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 167.

(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج⁽¹⁾، ثم وصل «الإدريس أرناط» لعنه الله إلى أيلة وربط العقبة وسير عسكره إلى تبوك وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر، فلما كان في شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة حتى صارت بها مياه استغنى أهل القلعة بها عن ورود العين مدة شهرين، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ووهنت لضعف أثائها فتداركها أصحابها وأصلحوها⁽²⁾.



(1) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 168.

(2) أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص 168 - 169.



■ الفصل الثالث

التحصينات الحربية في بلاد الشام

مقدمة

لا شك أن التحصينات الحربية من قلاع وحصون وأبراج وأسوار من أبرز الآثار التي خلفها الإنسان، نظرًا لكونها مرتبطة بحاجة أساسية من حاجات المجتمع والدول، وهي درء الخطر وضمان العيش في أمن واستقرار، إذ أن الدول لا تعيش في أمان إلا إذا ضمنت جيشًا قويًا في حصون منيعة يحميها من غارات المغيرين واعتداءات المعتدين⁽¹⁾.

ومما هو جدير بالذكر، أن القلاع ظهرت لافتة للنظر في عصر الحروب الصليبية بشكل لم تعهده بلاد الشام من قبل، فصحيح أنها عرفت عالميًا وفي التاريخ القديم، وفي بلاد الشام قبل فترة الحروب الصليبية ووجد العديد منها مبنياً بحصانة غربية⁽²⁾.

ومما هو مثير للدهشة أن بلاد الشام خاصة في العصر الأيوبي والمملوكي من أكثر البلاد بناءً للحصون والقلاع الحربية، نظرًا لتوافقها مع حاجة ذلك العصر في تلك البلاد من صراعات مستمرة مع الصليبيين، ونظرًا للظروف التي مر بها المجتمع الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين والخطر الصليبي الذي داهمها، فنستطيع القول إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعًا عسكريًا من الدرجة الأولى، يدور في فلكه ويعمل لإنجاز متطلباته كل الفئات غير العاملة في العسكر، ومن ثم فإن التحصينات والاستحكامات الحربية كانت أهم ما يتجه إليه أنظار حكام بلاد الشام، والتي ما تزال بقايا الكثير منها تشهد بفخامة تلك العماثر الحربية من أسوار وقلاع وحصون⁽³⁾.

فالقلاع لها صدئ عجيب في النفس لما فيها من عظمة عمرانية وما تحتوى عليه من معان مميزة كالقوة والشموخ والصمود، هذا بالإضافة إلى أن القلاع أدت دورًا مهمًا في الناحية

(1) سعاد ماهر، العبارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ط1، 1405هـ / 1985م، ص859.

(2) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة دمشق 1416هـ / 1995م، ص5.

(3) سعاد ماهر، العبارة الإسلامية، ج2، ص859.

السياسية والعسكرية في مهاجمة العدو، فبنيت قلاع وهدمت أخرى في خضم الصراعات بين المسلمين والصليبيين⁽¹⁾.

هذا ويمكن القول إن الاستحكامات (التحصينات الحربية)⁽²⁾ انتشرت ما بين جزيرة فرعون في شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابا والعقبة)، وسلسلة جبال أمانوس في شمال سوريا، وعلى الرغم من أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبي بمئات السنين، فإن ما بنى منها في أثناء الحروب الطويلة كان الكثير والكثير وقد شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع سواء على الجبال أو التلال أو الوديان أو حتى تشرف على الأنهار، حتى المدن فهم لم يتركوا مكانًا إلا وشيدوا عليه قلعة (حصنًا منيعًا)، هذا بالإضافة إلى أنهم أحاطوا المدن بتحصينات منيعة وقوية سواء بالأسوار المتينة، أو الأبراج العالية الحصينة، منها الصغير والكبير والتي شيدت لأغراض الحراسة والمراقبة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن طبيعة البلاد وجغرافيتها قد أفادت المهاجمين إفادة حقيقية؛ لأن بلاد الشام وأرضها تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة، وما أكثر النماذج الرائعة لأساليب العمارة الحربية التي تميز بها ذلك العصر الذي يمكن أن نطلق عليه عصر الاستحكامات (التحصينات الحربية).

الدوافع التي أدت إلى تشييد الحصون

لعل الذي يخطر بذهننا والذي يجول في خاطرنا هو أنه لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون والقلاع؟، فبداية يمكن القول إن بناء القلاع والحصون كان ضرورة مهمة وملحة حتى يثبت الأطراف المحاربون سواء البيزنطيون أو المسلمون أو الصليبيون وجودهم في المنطقة⁽³⁾، هذا وقد تعددت الأسباب المختلفة لبناء

(1) أجفان الصغير، القلاع، ص4.

(2) الاستحكامات (التحصينات) هي عبارة عن تنظيم وضع جميع أسوار أو سور مدينة أو قلعة أو حصن أو غير ذلك من الأماكن المحصنة التي يراد حفظها، وجعل هذه الأجزاء على وجه بحيث يتيسر لعدد يسير من المحافظين المقيمين بأحد هذه المواضع مقاومة عدد عظيم من العساكر الذين يريدون محاصرة هذا الموضع والتغلب عليه، مزيد من التفاصيل عن الاستحكامات الحربية انظر صالح أفندي مجدى، مبادئ الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والمقلاع، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية، أوائل شهر ربيع الأول احد شهور السنة الخامسة والسبعين من القرن الثالث، ص14، هذا وقد قيل إن الغرض الأصلي من هذه الاستحكامات هو تقوية مواضع للدولة وفيها منفعة عظيمة ومصالحة جسيمة وحفظها على الدوام، لمزيد من التفاصيل انظر صالح أفندي مجدى، المطالب المنيفة في الاستحكامات الخفيفة، 1278هـ / ص8.

(3) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى، 1994م، ص68.

القلاع، فقد كان لكل دولة أسبابها الخاصة لبناء قلاعها، كما كان لكل قلعة ظروفها المحيطة بها⁽¹⁾، فقد كان كثير من الولاة والحكام والقادة يرون في تشييد القلاع والحصون رمزاً لتخليد أسمائهم وذكراهم، وعنواناً لبعض منجزاتهم وانتصاراتهم وفتوحاتهم وصمودهم، ومن المعروف أن ولاة الأمور في التاريخ غالباً ما تتميز مراكز حكمهم ومساكنهم بالمناعة والتحصين، ووضع بصمات ونقوش تدل على عهودهم وتخليدهم فيما بعد، هذا بالإضافة إلى أن طرق المواصلات بما تحتويه من عبارات وجسور ومراكز تموين، ومحطات قوافل، وبنائيع ماء، وأسواق تجارة وموانئ ملاحية كلها ذات أهمية خاصة في حياة الإنسان، فكان لا بد من توفير الحماية لها بمختلف الوسائل والإمكانات بما في ذلك بناء القلاع ومراكز المراقبة والدوريات، مع مراعاة تأمين الاتصال بين القلاع، بالإضافة إلى أن إدارة الأقاليم المفتوحة وإحكام السيطرة عليها وجمع الضرائب من سكانها، كانت من الأسباب الموجبة لبناء القلاع فيها، في الوقت نفسه فإن القلعة سرعان ما كانت تتغير وظيفتها تبعاً للحالة الأمنية، فقد تكون قلعة دفاعية ضد قوى خارجية، ثم تتحول إلى مركز إداري مدني بعد زوال الخطر الخارجي أو انتقال الحدود⁽²⁾، أضف إلى ذلك بعض الأحداث الطارئة التي كانت تلعب دوراً في بناء القلاع فعندما واصل أمراء بني عوف قتالهم مع بعضهم وخروجهم على نواب «صلاح الدين»، قام بإقطاع ناحيتهم جبال عوف إلى الأمير «عز الدين أسامة»، فشرع في بناء قلعة عجلون تحت غطاء توفير الحماية لهم من الصليبيين، كذلك فإنه عندما تمكن «ريجنالد دي شاتيون» أمير الكرك من الاتصال بيدو سيناء لمساعدته في نقل قطع أسطوله عبر الصحراء من الكرك إلى خليج العقبة عندها ارتأى «صلاح الدين» بناء قلعته في رأس الجندی سنة 579هـ / 1183م، والتي تشكل حاجزاً منيعاً بين الجزء المتوسط لسيناء الشمالية وخليج السويس لتتمكن من السيطرة على أولئك السكان⁽³⁾.

كما كان بناء قلعة في موقع معين سبباً في بناء قلعة مضادة على الطرف الآخر، لكن اختيار المكان تمليه من الناحية الجغرافية، والمتطلبات الإستراتيجية للسياسة المحلية سواء كان الهدف من إقامتها الاحتفاظ بمناطق معينة، أو الحصول على مواقع حصينة متقدمة أو السيطرة على طريق أو مخاضة أو معبر جبلي، أو استخدام القلاع كملاجئ عند الضرورة.

وكان للناحية الاقتصادية دور كبير في بناء القلاع، فقد كانت تبنى للحفاظ على ثروات البلاد وجمع الضرائب، وقطف المحاصيل وتخزينها، كما كانت تستخدم للتموين والإمداد

(1) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 83.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، ص 82.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 83.

والتجهيز، ويستعمل جزء من مبانيها لصناعة الأسلحة والملابس⁽¹⁾، وعلماء الآثار والتاريخ الذين كتبوا عن القلاع الصليبية أوردوا أسباب بناء الصليبيين لقلاعهم، وتلك الأسباب لا تخرج في الإطار العام عن مجمل الأسباب لدى المسلمين أو غيرهم من الأقوام الأخرى كالرومان والبيزنطيين وغيرهم، فقد تمكنوا خلال قرنين من الزمن من بناء العديد من القلاع في الشرق بالرغم من الظروف الصعبة التي عاشوها.

هكذا يمكن القول إن مجمل الأسباب التي كانت وراء بناء القلاع عند جميع الأقوام والأمم كانت أسباباً دفاعية، وأخرى هجومية باعتبار أن القلعة هي المكان الذي تكمن فيه الحرب، كانت القلاع مكاناً لفرض القانون والسيطرة على المدن وإدارة الأقاليم، وبالتالي ترتب على بنائها عدة وظائف مدنية وعسكرية كانت تشكل فصلاً كبيراً من تاريخها⁽²⁾.

تقسيم القلاع حسب الأهمية العسكرية

(1) حصون لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان.

(2) حصون لتأمين المدن الساحلية.

(3) القلاع الإستراتيجية.

أولاً: الحصون التي كانت لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان، فقد كانت أهم تلك الحصون والمعازل هي حصن شقيف أرنون (أرنول) أو بلفورت، ويعرف عند العرب بقلعة الشقيف، أما الحصون والمعازل الأخرى في هذه المجموعة فلم تكن شيئاً كبيراً من الضخامة⁽³⁾.

ثانياً: أما عن الحصون الموجودة على المدن الساحلية، فقد كان أهمها حصن طرطوس وجبيل وبيروت وقلعة البحر في صيدا، وقلعة صور والتي كان يمكن عزلها بغمر خندقها بمياه البحر ولم يبق اليوم من منشآت اللاتين الحربية في صور أو أسوار يافا ذات الـ 24 برجاً حتى قلعة طرابلس لم يبق منها شيء مهم، وقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية في قلعة عكا، أما قلعة البحر في صيدا فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية⁽⁴⁾.

ثالثاً: أما عن القلاع الإستراتيجية فقد شيدت لحماية مدينة مهمة أو موقع رئيسي، وقد

(1) سعد المومني، المرجع نفسه، ص 83.

(2) سعد المومني، المرجع نفسه، ص 86.

(3) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية، العدد 15، 16، القاهرة 1969م، ص 62-63.

(4) عبد الرحمن زكي، القلاع، المجلة التاريخية، ص 64.

كانت هذه القلاع تبنى في مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب، هذا بالإضافة إلى أن القلاع الإستراتيجية تعتبر خير تعبير للعمارة العسكرية الصليبية في القرون الوسطى، ومن أمثلة تلك القلاع، حصن الأكراد، المرقب، كرك مؤاب، صهيون، الشقيف (بوفورت)، قلعة الحاج أو عتليث، الصبيبة، هذا بالإضافة إلى قلعتين ذات طراز كبير ألا وهما صافيتا وتورون، لكن المسلمين كانوا قد خربوهما⁽¹⁾ له، أي أن هناك قلاعاً عديدة كان منها على الساحل الشامي وعلى المنحدرات الغربية للجبال المتاخمة له، وفي المناطق الداخلية أيضاً، والمناطق الداخلية كانوا يبنون فيها مواقع حصينة في الغالب مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب⁽²⁾.

قلعة حلب⁽³⁾

الموقع

تقع قلعة حلب فوق مرتفع مستدير⁽⁴⁾ أعلى من مستوى المدينة بثمانية وثلاثين متراً، ويحيط بها خندق عظيم⁽⁵⁾.

(1) عبد الرحمن زكي، القلاع، المجلة التاريخية، ص 64.

(2) مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 18.

(3) حلب مدينة عظيمة قديمة، أم أقاليم وبلاد وأغوار وأنجاد، وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه وثغوره، وتسمى بحلب الشهباء، وسميت بحلب لأن الخليل - عليه السلام - يجلب غنمه بها ويتصدق بلبنها يوم الجمعة فيقول الفقراء: حلب فسميت بذلك، وحلب ذات القلعة البديعة العلية المنار، وهي وسط وطأة حمراء ممتدة، والقلعة على تل على، كانت قد عظمت أيام بني حمدان، ثم جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخاراً واتخذت لها من بروج السماء منطقة وأسواراً، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 116، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص 183، العمرى، مسالك الإيبصار في ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص 127 - 128، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 55، قال عنها ابن بطوطة في رحلته: حلب لها قلعة شهيرة الامتناع بائة الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأجزاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء وقد طاولت الأيام والأعوام وبداخل القلعة جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظماً، ويظيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار، شرحه وكتبه هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 88، هذا وذكر أبو الفدا: حلب بلد عظيمة قديمة ذات قلعة مرتفعة حصينة... عليها سور من حجر وفي وسطها قلعة لا ترام وبينها وبين معرة النعمان 36 ميلاً، وبينها وبين مدينة بالس 15 فرسخاً، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، طبع باريس المحروسة 1840م، ص 267، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 59.

(4) عبد الرحمن زكي، بين قلاع العرب وقصورهم، المجلة، العدد الخامس، 1376هـ / 1957م، ص 63 - 64.

(5) محمد كرد علي، خطط الشام، ج 5، ص 291.

تاريخ قلعة حلب

أما عن تاريخ القلعة التي يضرب بها المثل في الحصن والحصانة⁽¹⁾ وسورها الشهير، فقد ظل على ما كان عليه قبل الإسلام⁽²⁾، إذ لم يقم خلفاء بني أمية ولا خلفاء العباسيين إلا بتجديد وترميم ما تلف من أبراجها⁽³⁾.

ولعل أول عمل يعتد به في العصر الإسلامي هو التجديد الذي حدث في عهد «سيف الدولة الحمداني» سنة (353هـ / 964م)⁽⁴⁾ بعد أن خربها «نقفور» إمبراطور الدولة البيزنطية، فقد جدد ورمم ما لحق بسورها وأبراجها⁽⁵⁾ وما يزال البرج الذي يقع إلى جانب باب قنسرين من جهة الغرب يحمل اسمه كما يحمل تاريخ التجديد، كذلك بنى بنو مرداس لما ملكوا حلب عدة أبراج بالسور وذلك 420هـ / 1029م⁽⁶⁾.

هذا وقد سجلت لنا قلعة وأسوار مدينة حلب كل من قام بتجديد أو ترميم فيها، فقد سجل اسم «نور الدين محمود بن زنكى»، واسم الملك «الظاهر غياث الدين غازى»، كما سجل اسم حفيده الملك «الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الظاهر غياث الدين غازى»، الذي قام بأكبر عمارة في سور وأبراج مدينة حلب وذلك عام (642هـ / 1262م)⁽⁷⁾، فقد جدد الأبراج⁽⁸⁾ وزاد في مساحتها على غرار عمه «العادل» في سور مدينة دمشق، وعندما آلت القلعة إلى «نور الدين بن عماد الدين زنكى» شيّد فيها أبنية كثيرة⁽⁹⁾،

(1) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص283.

(2) يذكر ابن شداد في الأعلام الخطيرة، أن أول من بنى قلعة حلب سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية بإنطاكية، وقد بناها على تل مشرف على المدينة، لمزيد من التفاصيل انظر د/ شوقي شعث، قلعة حلب، دار القلم العربي حلب، ص55، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق1، ص79.

(3) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق1، ص60، يقال إن حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة، تعاورتها الأيدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة إلى 1822م، أيام خربت بالزلازل، لمزيد من التفاصيل انظر محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص291.

(4) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق1، ص80.

(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق1، ص60، شوقي شعث، قلعة حلب، ص55.

(6) ابن العديم، زبدة الخلب من تاريخ حلب، تحقيق د/ سامى الدهان، الجزء الأول، دمشق 1951م، ص27، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق1، ص81، شوقي شعث، قلعة حلب، ص56.

(7) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص283.

(8) محمد كرد على، خطط الشام، ج5، ص292.

(9) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، الطبعة الأولى دمشق 1960م، هامش 1، ص70.

فابتنى «نور الدين» سور القلعة⁽¹⁾ واهتم بتحسين أجهزة الدفاع عن المدخل⁽²⁾، وقد كانت حلب قد تقدمت في آفاق التاريخ، كمدينة من أكبر عواصم الإسلام في ذلك الحين³، هذا بالإضافة إلى أن «نور الدين» بنى أمام سور حلب فصيلاً⁽⁴⁾.

أبواب حلب

باب النصر

باب النصر كان يعرف قديماً بباب اليهود؛ لأنهم تجاوزوه وكانوا يخرجون منه إلى مقابرهم، فاستقبح الملك «الظاهر» هذا الاسم فسماه «باب النصر» وجعل عليه أربعة أبواب، وبنى عليه أبراجاً محكمة البناء⁽⁵⁾.

باب إنطاكية

بنى في عهد «الناصر الثاني يوسف بن العزيز» (634هـ / 1236م - 658هـ / 1260م)، ثم جدد في عهد «المؤيد شيخ»⁽⁶⁾، هذا وبنى على هذا الباب برجان عظيمان⁽⁷⁾.

باب قنسرين

يرجع إلى العهد الأيوبي، فقد جدد في عهد الملك «الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب» في سنة أربع وخمسين وستمائة⁽⁸⁾.

باب المقام

بدأ به «الظاهر غازي» ثم أكمله ابنه الملك «العزيز محمد»، ثم جدد بناؤه «برسباي» (825هـ / 1422م - 841هـ / 1438م)، ويتميز بوجود دهليز إلى يمينه⁽⁹⁾.

(1) فيصل الصيرفي، نادر العطار، قلعة حلب 1954م، مطبعة الشرق، ص 14.

(2) فيصل الصيرفي، المرجع السابق، ص 14.

(3) فيصل الصيرفي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) الفصيل هو سور إضافي أمام السور الأصلي ليكون خط الدفاع الأول، لمزيد من التفاصيل انظر أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 72، هامش 1.

(5) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 73-74.

(6) ابن شداد، المرجع السابق، ج 1، ق 1، ص 75.

(7) ابن شداد، المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسها.

(8) ابن شداد، المرجع السابق، ج 1، ق 1، ص 69-70.

(9) ابن شداد، المرجع السابق، ص 75.

باب الفراديس

أنشأه الملك «الظاهر غياث الدين غازي»، وبني عليه أبراجاً حصينة ثم سد بعد وفاته، ولم يزل مسدوداً إلى أن فتحه الملك «الناصر»⁽¹⁾.

باب دار العدل

بناه الملك «الظاهر غياث الدين غازي» وكان لا يركب منه أحد إلا هو⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى أبواب أخرى كباب الحديد، وباب الضبان، والباب الصغير، وباب الفرج.

مداخل القلعة

أولاً: المدخل الرئيسي

هو بناء يعود قسمه السفلي إلى فاتحة القرن 7هـ / 13م وقسمه العلوي إلى القرن 9هـ / 15م، ويتكون من فتحة باب مستطيلة الشكل يغلق عليها مصراعان من الخشب المصفح بالحديد، وبأعلى كتلة المدخل سقاطات لإلقاء المواد السائلة على الأعداء.

المدخل الثاني

وهو مستطيل الشكل تعلوه فتحة لقذف السوائل الحارقة بغية الدفاع، وفي برج الباب كوى عديدة لرمى السهام ويبلغ ارتفاعه تقريباً عشرين متراً، ويرجع تجديد هذا الباب إلى عهد «قنصوة الغوري»، وهذا الباب له مصراعان مصنوعان من الحديد المطرق يرجعان إلى القرن 7هـ / 13م، أعلاه كتابة بارزة تقرأ «أمر بعمله مولانا الملك «الظاهر غازي يوسف» في سنة ثمانية وستائة، 1211م»⁽³⁾.

المدخل الثالث

ويقع في الجهة الشرقية، وهو مدخل صغير له باب من الخشب الغليظ المصفح بالحديد، يعود تاريخه إلى عهد «قنصوة الغوري»⁽⁴⁾.

(1) ابن شداد، المرجع السابق، ص74.

(2) ابن شداد، المرجع السابق، ص71.

(3) Saouaf, Aleppo past and present, Aleppo, 1965, p26.

(4) صبحي صواف، قلعة حلب، ص30.

المدخل الرابع

للقلعة باب رابع صنع من الخشب الغليظ المصفح بالحديد تعلوه كوة مستديرة للإنارة ولقذف السوائل الحارقة، ويعلوه حجر كبير نحت عليه أسدان متقابلان بينهما شجرة نخيل، ويؤدي هذا الباب إلى دهليز ينعطف يميناً توجد جنوبيه قاعة مستطيلة تقريباً بها ثلاث مزاغل لرمى السهام وفي وسطها بئر عميقة، وقد أنشئت هذه القاعة بغية الدفاع عن المدخل⁽¹⁾.

المدخل الخامس

ويدعى باسم باب الأسد الضاحك والأسد الباكي⁽²⁾، وقد صنع أيضاً من الحديد المطرق تزين أعلاه كتابة بارزة تشير إلى أنه من عمل الملك «الظاهر غازي الأيوبي» نصها «أمر بعمله مولانا الملك «الظاهر غازي بن يوسف» في سنة ستة وستمائة»⁽³⁾، ويقابل هذا الباب مصطبة مرتفعة⁽⁴⁾.

قلعة حلب في العهد الأيوبي

بعد موت الملك «الصالح نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي» تولى الحكم على حلب «الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي»، وجدد في قلعتها يعمل باشورة وكتب عليها اسمه، وظلت القلعة موضع رعاية الأسرة الزنكية إلى أن ملكتها الأسرة الأيوبية⁽⁵⁾.

هذا وقد دخلت حلب في جوزة «صلاح الدين» بعد موت «الصالح إسماعيل بن نور

(1) صبحى صواف، المرجع السابق، ص 30.

(2) شوقي شعث، المرجع السابق، ص 109.

(3) صبحى صواف، المرجع السابق، ص 39.

(4) تزدان هذه المصطبة بثوابت خشبية مغطاة بقماش أخضر اللون وهو مقام الخضر - عليه السلام - ويدعى الخضر عند المسيحيين بهارجاورجيوس وهو عند المسلمين نبي وتقى كبير، وقد شاع لدى عدد من الناس بعض البدع المرتبطة به، ولذا وضعوا شموعاً كثيرة على جدران المقام وما وجود هذا المقام عند آخر أبواب القلعة إلا من قبل الحماية للرمزية الدينية له، لمزيد من التفاصيل انظر، Saouaf: Op.cit, p

(5) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، هامش 1، ص 70.

الدين»⁽¹⁾، وأسرع «صلاح الدين» لضمها إلى ممتلكاته⁽²⁾، فقد ذكر «ابن كثير»: «سار السلطان إلى حلب وحاصرها وقاتله أهلها قتالاً شديداً، ثم إن القلعة وقعت منه بموقع عظيم، ثم قال: سررت بفتح قلعة حلب أعظم سروراً من فتح مدينة حلب»⁽³⁾، وهذا الحدث وقع في عام 579هـ / 1183م، هذا وقد اعتبر الصليبيون تسليم حلب لـ «صلاح الدين» أعظم نكبة حلت بهم؛ لأنها أكدت الروابط الإستراتيجية والعسكرية بين محور مصر وسورية⁽⁴⁾.

حلب في عهد «الظاهر غازي»

أما حلب في عهد الملك «الظاهر غازي» (582هـ / 1186م - 613هـ / 1216م)، فقد استفاد من الأحداث القائمة ليوسع مملكته ويقوم بالاستعداد العسكري الكامل، فكان من الطبيعي أن يقوم بتجهيزات واستعدادات واسعة النطاق لتجهيز القلعة حتى تتلاءم أجهزتها الدفاعية مع تقدم فن التحصين العسكري من جهة ولتقوم بمتطلبات أخرى، هذا وقد أسس «الظاهر غازي» سلالة أيوية بحلب كان هو على رأسها، وخلف ولده الملك «العزیز محمد» ثم جاء بعده ولده (أي ولد العزیز) «صلاح الدين يوسف الثاني» وبه انتهت السلالة الأيوية⁽⁵⁾.

أضاف «الظاهر غازي» إلى القلعة أبنية جديدة، وحفر بها الصهاريج، وأنشأ فيها حماماً وحديقة وجوامع ومدارس وغيرها⁽⁶⁾، وابتنى حجرات للإدارة وشيّد جامعاً كبيراً مكان أحد المقامين، استعمل في بنائه شتى أنواع القطع الحجرية⁽⁷⁾، وجهره بمئذنة شاهقة يمكن

(1) أبو الفرج العشي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) أخذ صلاح الدين الأيوبي حلب من عماد الدين بن سيف الدين غازي بن عم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وعوض عنها سنجار بواسطة رجل يدعى طمان، ولم يقبل أهل حلب في البداية بهذا الاتفاق، وقالوا الكثير مما لا يليق بحق عماد الدين، فأضحت حلب من أهم الممالك الأيوية، لمزيد من التفاصيل انظر شوقي شعث، قلعة حلب، ط1، 1416هـ / 1996م، هامش 2، ص45.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص313، تسلم صلاح الدين قلعة حلب سنة 579هـ، وجعل فيها ولده الملك الظاهر، وولى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسدي، وجعله يرتب مصالح ولده، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص29.

(4) نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص147.

(5) شوقي شعث، قلعة حلب، ص45-46.

(6) شوقي شعث، المرجع السابق، ص45.

(7) فيصل الصيرفي، نادر العطار، المرجع السابق، ص14.

استخدامها كمركز للمراقبة على مدى بعيد، وأنشأ للقلعة مدخلاً جديداً عدا عن المدخلين القديمين بصورة أعطت التل شكلاً هندسياً جميلاً شكل جذع هرم ذي وجوه شديدة الانحدار، واحتفر بحذاها خندقاً⁽¹⁾ تغرقه بالمياه عند الهجوم قنوات جديدة تتصل به، ويقوم عليه جسر تحمله أقواس ثمانية يسده باب حديدي كبير، ورصف سفح القلعة من أسفل الخندق حتى أسفل السور بقطع الأحجار بشكل أصبحت تتعذر بل تكاد تستحيل معه محاولات تسلق ذلك السفح أو الحفر فيه من جهة، كما أنشأ في أسفل كل ذلك عمريين خفيين يسمحان للقلعة بالاتصال مع المدينة، وأعمال الظاهر في القلعة ذات أهمية؛ لأنه تبرز أهم ما كان يتميز به البناء العسكري في العصور الوسطى⁽²⁾، ويعود تاريخ الخندق وسور السفح إلى القرن 7هـ / 13م⁽³⁾، وذلك سنة اثنتين وتسعين وخمسة⁽⁴⁾.

هذا وقد أورد «ابن شداد» أعمال الملك «الظاهر غياث الدين غازي»: «ولما ملك «الظاهر غياث الدين غازي» حصنها وحسنها وبنى بها مصنعاً كبيراً وسفح تل القلعة وبناه بالحجر وأعلى بابها فوق الباب سنة ستمائة، وكان الملك قد عمل لهذا الباب جسراً ممتداً منه إلى البلد وبنى على الباب برجين لم يبين مثلها قط، وعمل للقلعة خمسة دركاوات بإزاج معقود، وجعل لها ثلاثة أبواب حديدية، وفتح في سور القلعة باباً يسمى «باب الجبل» شرقي باب القلعة وعمل له دركاة، وانتهت العمارة في هذا الباب وما قبله في سنة إحدى عشرة وستمائة⁽⁵⁾.

خلف الملك «الظاهر غازي» ولده الملك «العزيز»، وفي عام 622هـ / 1225م سقط جزء من

(1) تؤلف الخنادق عناصر دفاعية ضرورية في المدن والقلاع، ويبدو أنها تستمد جذورها من تقاليد قديمة فهناك خنادق في مدينة أريحا بفلسطين وغيرها من مدن بلاد الشام من العصور البرونزية، وفي الغالب كانت تلك الخنادق تحيط بسفوح طينية أو صخرية مصفحة بالحجارة كما هو الحال في قلعة حلب نقلاً عن الريحاوي، دمشق، ص 236، هامش 1، ص 99، ونجد الخندق في جميع القلاع في سوريا، وهو يحيط بقلعة حلب من جميع الجهات، وكان يملأ بالماء وقت الحصار مكوناً بذلك جزءاً مائياً بين المدافعين والمهاجمين وترتبط التحصينات المائلة بالخندق فهي تشاركه في الوظيفة في عرقلة تقدم المهاجمين صعوداً في حالة تمكنهم من اجتياز الخندق، وفي قلعة حلب جرى تسفيح سطح التل الذي تقوم عليه القلعة بحجارة ملساء يصعب تسلقها وخاصة في حال وجود الماء في الخندق وتساعد هذه الإعاقة التي تقوم بها التحصينات المائلة لجهة إعطاء الفرصة للمدافعين لاقتناص الأعداء وردهم، انظر شوقي شعث، قلعة حلب، ص 102، ونلاحظ أن هذه التحصينات المائلة في كثير من القلاع العربية الإسلامية في سوريا ومصر، من ذلك ما نلاحظه في قلعة نجم مثلاً على الفرات وغيرها، انظر شوقي شعث، قلعة حلب، ص 104، هامش 1.

(2) فيصل الصيرفي، نادر العطار، المرجع السابق، ص 16 - 17.

(3) Saouaf, op.cit, p24

(4) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 62.

(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج 1، ق 1، ص 82 - 83.

سور قلعة حلب وعشرة أبراج من أبراجه مما يلي باب الجبل الذي أنشأه الملك «الظاهر»، فقام «الأتابك شهاب الدين طغرل» بعمارتها وتحصين آلاتها دون أن يستعين في ذلك بأحد، وأشرف بنفسه على ذلك وأتمه في السنة نفسها⁽¹⁾، لكن التتار خربوا قلعة حلب ونهبوها وخربوا أسوارها وأحرقوا ما بها من الذخائر والمنجنيقات⁽²⁾.

أسوار وأبراج قلعة حلب

عنى الأيوبيون بتقوية أسوار وأبراج حلب بالإضافة إلى قلعتها السابق الحديث عنها، فهناك السور الذي يحيط بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم، وقد زود ذلك السور بأبراج بارزة قليلاً نحو الأمام وقد بلغ عددها 44 برجاً⁽³⁾، وهي مختلفة في الحجم والشكل، وزودت بعناصر الدفاع الأخرى مثل فتحات السهام المختلفة، يرتبط بعضها إلى بعض بواسطة بدنات⁽⁴⁾.

ومخطط سور القلعة الحالى غير منتظم الشكل ويقدر علوه باثنى عشر متراً⁽⁵⁾، هذا بالإضافة إلى أن السور بنى بشكل محكم يقاوم رشقات المنجنيقات، حيث نجده أحياناً وكأنه سور مزدوج رغبة في المناعة وحسن الأداء، كما سهر أصحاب القلعة باستمرار على هذه الأسوار وأبراجها، وبناء هذه الأسوار والأبراج يعود إلى عهود تاريخية مختلفة، وخلف هذا السور الأبراج والبدنات كانت توجد ممرات دفاعية لتسهيل الوصول إلى المرمى الموجود في الأبراج وتزويد الرماة بالعتاد والسلاح والمواد التموينية⁽⁶⁾.

(1) ابن العديم، زبدة حلب، ج3، ص196، شوقى شعث، قلعة حلب، ص60.

(2) شوقى شعث، المرجع السابق، ص60.

(3) ذكرت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها العمارة الإسلامية أن عدد أبراج القلعة 49 برجاً، سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على أمر العصور، ج2، ص862، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق1، ص66.

(4) البدن تطلق على جزء السور الواقع بين برجين، ويذكر الريحاوى أن هذا التعبير يستخدم في المصادر العربية القديمة وفي النصوص الكتابية الموجودة على القلاع، وهي تعتبر عنصرًا مهمًا من عناصر الدفاع عن القلاع، ومن أمثلتها بدنات قلعة دمشق، إلا أنه فيما يظهر أن بدنات قلعة حلب قليلة الأهمية بسبب التحصينات الطبيعية التي تتمتع بها القلعة لذلك جاءت خالية من الرواشن على عكس قلعة دمشق، شوقى شعث، قلعة حلب، ص112، هامش 2، نقلا عن الريحاوى، قلعة دمشق، ص250-251.

(5) صبحى صواف، قلعة حلب، ص26.

(6) عبد القادر الريحاوى، قلعة دمشق، ص113.

الأبراج

يمكن للباحث إذا أمعن النظر في أبراج القلعة وأسوارها أن يخلص إلى أن الأبراج التي أقيمت للدفاع عن القلعة إما مفردة وإما مزدوجة، ومنها ما هو مرتبط بالأسوار الذي يحيط بالقلعة وهي في أغلبها أبراج مربعة أو ذات أضلاع⁽¹⁾، فالبرج الأول هو برج المدخل المتقدم يبلغ ارتفاعه نحو 20 مترًا مستطيل الشكل، وزود هذا البرج بفتحات كثيرة لرمى السهام كما حصن بسقاية ذات ثلاث فتحات لصب الزيت المحروق أو الكلس الحار وفتحة أخرى للسهام، وفي الأعلى توجد سواتير بينها فجوات يمكن استعمالها كمرامى للسهام، ولهذا البرج بابان الأول صنع من الحديد المطروق السميك وهو ذو مصراعين، وجدد في عهد الملك «الظاهر غازي الأيوبي»، أما الباب الثاني فقد صنع في عهد السلطان «قنصوة الغوري»⁽²⁾، أما البرج الرئيسي فيتألف من برجين تفصل بينهما فجوة يُدخل منها إلى القلعة تقوم على هذا البرج قاعة العرش، وأغلب الظن أن البرجين من عمل الأيوبيين زمن «الملك الظاهر غازي» (589هـ/1186م - 613هـ / 1216م)، زود هذا البرج بمدخل ملتوٍ من النوع المعروف في العمارة الإسلامية بالمدخل المنكسر أو الباشورة⁽³⁾، وذلك للمساعدة على امتصاص قوة الدفع والتي يتقدم بها العدو.

ملحقات قلعة حلب

يشتمل داخل قلعة حلب على بقايا القصر الملكي الذي يعود في تاريخه إلى عهد السلطان «يوسف الثاني» حفيد الملك «الظاهر»، وعلى بعد خمسين مترًا منه توجد قاعة كبرى تسمى

- (1) شوقي شعث، قلعة حلب، ص 105.
 - (2) شوقي شعث، المرجع السابق، ص 109.
 - (3) يعتقد البعض أن أقدم مثال للمداخل المنكسرة (الباشورة) Bent Entrance في العمارة العربية الإسلامية وكان يوجد في مداخل مدينة بغداد المدورة التي اختفت الآن، وقد انتقل هذا النموذج إلى مصر والشام في العصر الأتابكي - الأيوبي أي في حوالي القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ويعرف المؤرخون العرب القدامى مدخل الباشورة بأنه المدخل الذي ينعطف يمينًا ويسارًا مرة أو عدة مرات. هذا وقد استخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي هذا النموذج في تحصين الباب الحديد في قلعة القاهرة الفاطمية يوم كان وزيرًا للخليفة العاضد، ثم استخدمها في العصر الأيوبي في تحصين أبواب مدينة القاهرة، وأبواب قلعة الجبل في مصر وفي قلاع بلاد الشام مثل قلعة حارم وقلعة عجلون وقلعة النجم وغيرها، وهذا النموذج قد انتقل إلى القصور والنازل فيما بعد.
- انظر شوقي شعث، قلعة حلب، ص 105، فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية 1970م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص 272، ص 274 - 437.

قاعة «حبس الدم» تبدأ بغرفة مستطيلة ثم ينزل إلى القاعة منه والقاعة موجودة أسفل مستوى سطح الأرض وينزل إليها عن طريق درج، وكانت هذه القاعة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء مسقفة بأقبية، وكانت هذه القاعة بقلعة حلب تستخدم كسجن رهيب في العصور الوسطى، ومن ثم أطلق عليها اسم قاعة «حبس الدم»⁽¹⁾.

هذا بالإضافة إلى أنه يوجد مسجد صغير يعرف باسم مسجد «إبراهيم الخليل»⁽²⁾، وقد بنى على أنقاض كنيسة لا يزال أحد أعمدتها فيه قائمة، ومن خلال النص التأسيسي الموجود فوق المدخل تبين أن مُنشئ هذا المسجد هو الأمير «نور الدين محمود بن زنكى»، حيث نجد على حجر مستطيل فوق المدخل كتابة نصها «أمر بعمارتها الملك «الصالح نور الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمود بن زنكى بن أفسنقر ناصر» أمير المؤمنين بتولى «العبد شاد بخت» في سنة خمسة وسبعين وخمسة (1179م)»⁽³⁾.

هذا بالإضافة إلى قاعة العرش، وهى قاعة كبرى أمامها مساحة مستطيلة تزين جدرانها نقوش هندسية بارزة وفيها درج يؤدي إلى طريقين تدور حولها وتصل إلى سطح القاعة الذى كان بدوره محصناً ويتوسط الباحة فوهة مستديرة تطل على الطريق العام لمدخل القلعة، ولها سقطة مزدوجة لقذف الوسائل الحارقة على الغزاة الداخلين⁽⁴⁾.

هذا بالإضافة إلى أنه كان يتوسط القلعة بناء كبير ينزل إليه بدرج كان يستخدم كحمام ولكن الخراب لحق به، وعلى عتب مدخله عليه كتابة ترقى إلى عهد الملك «يوسف الثانى» حفيد الملك «الظاهر»⁽⁵⁾.

(1) حبس في هذا السجن في العهد الإسلامى الكثير من رؤساء الصليبيين ومنهم جوسلان كونت أوروبا الذى مات فيه ويودوان دى بوج ملك بيت المقدس ورينو دى شاتيون أمير إنطاكية الذى ظل سجيناً به 16 عاماً، انظر صبحى صواف، قلعة حلب، ص 42.

(2) يقال فى سبب تسميته بمسجد إبراهيم - عليه السلام - عندما غادر (أور) متجهاً إلى حران، وصل إلى حلب واستقر مع جماعة فيما يسمى اليوم بالقلعة وكان كل مساء يجلب قطيعه وبقرته الشهباء ويأتيه جيرانه قائلين عند رؤيته حلب الشهباء إشارة إلى لون بقرته ثم يأخذون بالمجان نصيبهم من الحليب، ومن هنا جاء حسب هذه الأسطورة اسم حلب الشهباء وسمى الموضع الذى نزل فيه سيدنا إبراهيم باسم مسجد إبراهيم، انظر ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 53 - 54، Saouaf, op.cit, p32.

(3) Saouaf, Ibid , p 3.

(4) Saouaf , Op.cit, p42 .

(5) صبحى صواف، قلعة حلب، ص 58.

ملاحظات مهمة على قلعة حلب وأسوارها

(1) تعتبر قلعة حلب مدينة محصنة داخل سور عال⁽¹⁾، فقلعة حلب تعد من أجمل وأعظم التحصينات العسكرية التي وصلت إلينا من العصور الوسطى، وهي تنطق بمدى ما بلغه المسلمون في العمارة الحربية من تفوق ومهارة⁽²⁾.

(2) تتميز القلعة بأنها نموذج فريد من نماذج العمارة العسكرية في سوريا بل في الشام كلها، وقد أدت وظيفتها الدفاعية ضد الغزاة، وبفضل قلعة حلب ظلت حلب مرفوعة الجبين، وحافظت على هيبتها وقوتها عبر السنين، من هنا أصبح على السلاطين والولاة أن يبذلوا قصارى جهدهم في سبيل أن تظل قلعتهم قوية ومنيعة وفي قوتها وجبروتها قوة ومناعة لهم، فقلعة حلب تاج المدينة بحق ورمز سلطانها، وقد لا يكون هناك مغزى كبير لاحتلال المدينة دون احتلال قلعتها، وفي المرات القليلة جداً التي تم اقتحامها أو الدخول إليها صلحاً أو يبذل الأمان تكبد العدو ضحايا كثيرة لمناعتها وتعدد عناصرها الدفاعية المعمارية واستشهد الكثيرون من المدافعين عنها⁽³⁾.

(3) إذا أردنا عقد مقارنة بين العناصر التحصينية في قلعة حلب وبعض القلاع العربية المعاصرة نجدتها متشابهة، مما يدل على شيوع ذلك النمط التحصيني في بلاد الشام وحتى في مصر، ويمكن مقارنة العناصر التحصينية ووجودها في بعض القلاع العربية المعاصرة لقلعة حلب مثل قلعة دمشق وقلعة بصرى وقلعة شيزر وقلعة القدس وقلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة النجم، وغيرها من القلاع المنتشرة فوق التلال والسهول وبالقرب من الأنهار وتقاطع الطرق، ونظرًا لأن معظم القلاع تعود في معظم عناصرها التحصينية الظاهرة من أسوار وأبراج ومداخل إلى العهدين الأيوبي والمملوكي، ويعزو «سوفاجيه» التشابه الموجود بين القلاع وخاصة بين قلعتي دمشق وحلب إلى أنه جاء عن طريق استخدام الفنين والعمال من أهل حلب الذين اشتهروا بصناعة البناء الحجري وما زالوا حتى الآن⁽⁴⁾.

(4) عنى الأيوبيون بتقوية أسوار المدينة، ويمكن أن نميز الآثار الأيوبية في أماكن عديدة من السور وفي أجزاء معينة من أبواب المدينة كباب إنطاكية وباب قنسرين وباب النصر، وفي

(1) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن في العصور الإسلامية، العمارة وزخارفها، الطبعة الأولى 1989م، مكتبة الفكر، ص 110.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق، بين الآثار الإسلامية في العالم، الإسكندرية 1372هـ / 1953م، ص 42.

(3) شوقي شعث، قلعة حلب، ص 98.

(4) نقلاً عن شوقي شعث، المرجع السابق، ص 115.

الأقسام السفلية من أبراج القلعة، ولا سيما أبراج المدخل الرئيسي ومجموعة الأبواب المفتوحة في دهليز المدخل، والباب الأول يمتاز بالنحتية المنقوش عليها ثعابين ملتفة، أما الباب الثالث فنجد عليه أسدين بارزين، ومن الآثار الأيوبية أيضاً مصاريع الأبواب الثلاثة الجديدة التي تحمل اسم «الظاهر غازي» وتاريخ صنعها عام (606هـ / 1209م - 608هـ / 1211م⁽¹⁾).

(5) قامت مديرية آثار حلب عام 1983م بالتنقيب الأثري في منطقة باب الفرج بحلب وأسفرت الأعمال عن كشف جزء مهم من سور المدينة القديمة وعن برج الثعابين، وأكدت النتائج أن هذه الأجزاء ترجع إلى العهدين الزنكي والأيوبي⁽²⁾.

قلعة «صلاح الدين» (صهيون)⁽³⁾

الموقع

تقع قلعة صهيون إلى الشرق من اللاذقية⁽⁴⁾ على جبل العلويين مباشرة⁽⁵⁾ وهي في التقاء

(1) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية وخصائصها وآثارها في سوريا، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية مزيّدة ومنتحة، 1419هـ / 1999م، ص 156.

(2) الحوليات الأثرية العربية، مجلة تبحث في آثار الوطن العربي، المجلد 33، الجزء الأول، 1983م، ص 135.

(3) صهيون، هي حصن من أعمال حمص بالقرب من ساحل البحر، المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 100.

قلعة صهيون قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد وهو تفر في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون ريبضها وسور دون القلعة وسور القلعة، سيد علي الحريري، الحروب الصليبية، ص 164، ذكر عنها ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار هي مدينة حسنة ولها قلعة جيدة، ج 1، ص 61، ذكر عنها أبو الفدا «مدينة صهيون بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام، من مشاهير معاقل الشام وبقلعتها المياه كثيرة ومتيسرة من الأمطار، وهي على صخر أصم، وبالقرب منها أودية من الحمضات ما لا يوجد مثله في تلك البلاد وهي في ذيل الجبل من غربيه وتظهر من عند اللاذقية وبينهما مرحلة في الشرق بميله إلى الجنوب عند اللاذقية»، انظر أبو الفدا، السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن جمال الدين عمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة، تقويم البلدان، طبعه ولصححه، رينو مدرس العربية، والبارون مارك كوين دبسلان، طبع في مدينة بالاس المحروسة بدار الطباعة السلطانية سنة 1840م، ص 257، ابن بطوطة، الرحلة، ص 94.

(4) فولفغانغ مولر - فينر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلاد، مراجعة اللواء ركن سعيد طنان، مركز الدراسات العسكرية، دمشق 1982م، ص 50، أجفان، القلاع في فترة الحروب الصليبية في بلاد الشام، ص 142.

(5) أسامة سيد علي، الظهير الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي، دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس 1996م، ص 189، عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، العدد 15، 16، القاهرة 1969م، ص 55.

واديين من الماء عميقين شديدي الانحدار⁽¹⁾، قيل إنه حصن حصين⁽²⁾ مبنى على حجر أصم⁽³⁾ فهو من أشهر قلاع الشام⁽⁴⁾، وأهمها⁽⁵⁾، وهو في الأصل قلعة بيزنطية الأصل تجسدت أهميتها في الميزة البارزة لها والمتمثلة في المناعة الطبيعية لموقعها⁽⁶⁾، إذ أن حصن صهيون يفوق الحصون⁽⁷⁾ بقوته ومناعته وارتفاعه على الجبال⁽⁸⁾ على حد قول «ابن الأثير»: «فهو قلعة منيعة وشاهقة صعبة المرتقى»⁽⁹⁾، وعليه خمسة أسوار وله فرضة على الساحل في طرفه دخلة من الأرض كالجزيرة من البحر⁽¹⁰⁾.

وتعتبر قلعة صهيون⁽¹¹⁾ من القلاع الإستراتيجية التي تعبر خير تعبير عن العمارة العسكرية الصليبية في القرون الوسطى⁽¹²⁾، إذ أن الفرنج عملوا على تقوية هذا الحصن وجعلوا منه قلعة منيعة، نظرًا لما أضافوه إليه من أبراج حصينة⁽¹³⁾ وضخمة وأسوار ملاصقة لها⁽¹⁴⁾، بحيث تصبح منيعة على أدوات الحصار المحسنة التي أخذ المسلمون يستخدمونها بالإضافة إلى الخنادق⁽¹⁵⁾.

(1) ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، دمشق 1982م، ص341، أسامة سيد، الظهير الشامي، ص190.

(2) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، هامش 1، ص40، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص436 - 437.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص145، أجفان الصغير، القلاع، ص142.

(4) أجفان الصغير، القلاع في فترة الحروب الصليبية، ص142.

(5) أسامة سيد، الظهير الشامي.

(6) أسامة سيد، المرجع السابق، الصفحة نفسها، ص189.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص241.

(8) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص192، الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص208 - 209.

يمكنك معرفة المزيد من التفاصيل عن قرية صهيون انظر: Max van Bercham, Voyage en syrie,

pp267 - 278

(10) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص208 - 209، ابن خلدون، العبر، ج5، ص313 - 314.

(11) استولى الصليبيون على القلعة الصغيرة صهيون (Soan) في جبل النصيرية التي كانت تحمي المناطق الجنوبية

الشرقية القريبة من إنطاكية، ولأهمية قلعة صهيون حولت إلى قلعة جبلية واسعة، لمزيد من التفاصيل انظر

كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها في الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب

جامعة عين شمس 1991م، ص189.

(12) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص64.

(13) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص50، عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص55.

(14) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص55.

(15) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص64.

الوصف

أحيطت القلعة بالأسوار الحاجزة، ويحيط بمدخلها نتوءان كل منهما على شكل دائرة تمثل وسيلة دفاع أخرى خلف السور، ومن الجنوب والجنوب الشرقي كانت هناك الأبراج المستطيلة كوسيلة دفاع أخرى⁽¹⁾، ومن المحتمل أن وسائل الدفاع في قلعة صهيون كانت ترمى إلى عزل وإبعاد العدو المهاجم للقلعة إذا كسب موطن قدم في أحد الأبراج أو في جزء من السور الحاجز⁽²⁾، وكان من السهل إبقاؤه في ذلك الموضع ومن ثم عزل الخطر عن الحامية، ويأتي بعد ذلك الخندق لإتمام عملية العزل، وعلى الرغم من حصانة ومناعة هذا النوع من القلاع⁽³⁾، إلا أنه سلاح ذو حدين، ذلك أنه يسبب صعوبة في الإمداد السريع للجزء المعرض لهجوم العدو⁽⁴⁾.

تتكون القلعة من طابقين وشرقة، وهي صرح شامخ من المتانة⁽⁵⁾ التي لم يسبقها مثيل في العمارة العسكرية، وشيدت فيها الأبراج المستطيلة سميكة الجدران خاصة في الواجهة الجنوبية، هذا بالإضافة إلى سور متين⁽⁶⁾.

ومن الجدير بالذكر، أن الفرنج عملوا على تقوية الواجهة الشمالية الشرقية، وللطابق السفلي أي القلعة السفلية بوابتان خاصتان بها كل واحدة على جانب⁽⁷⁾، وتعود الآثار المعمارية الموجودة داخل القلعة العلوية في تاريخها إلى العهد البيزنطي⁽⁸⁾، وجزئياً إلى

(1) Fedden, The Crusades Castles, p84.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 190.

(3) قيل إنها اشتهرت بتميزها وتفردا بطراز معماري خاص فرنسي وقيل إنه يندر وجودها، انظر القلاع في الحروب الصليبية، ماجستير، ص 142، أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 190.

(4) Benvenisti, The Crusades in the holy land Jerusalem, p173

(5) قيل إنها من المتانة لوقوعها فوق الصخر الأصم، انظر أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 142.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 50.

(7) فولفغانغ مولر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) إن قلعة صهيون التي هجرت في أواخر العصور الوسطى، وهي تمثل أشكال التحصين التي كانت شائعة في أوائل القرن الثاني عشر ومتصفه بوضوح أكثر من معظم القلاع السورية الأخرى، انظر فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 50.

العهد الفرنجي⁽¹⁾، وقد كانت مهمة القلعة هي ستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى إنطاكية⁽²⁾.

تاريخ القلعة

استولى البيزنطيون على موقع هذه القلعة من الحمدانيين في حلب خلال حملة قاموا بها في شمال سوريا⁽³⁾، وفي أوائل القرن الثاني عشر استولى الفرنج على القلعة ريباً بعد أن استولوا على اللاذقية عام 502هـ / 1108م⁽⁴⁾.

وفي عام 584هـ / 1188م، سار السلطان «صلاح الدين» إلى قلعة صهيون⁽⁵⁾ وحاصرها وضايقها فطلب أهلها الأمان، وتسلم السلطان قلعة صهيون واسترجعها من يد الفرنج⁽⁶⁾، وسلمها إلى أمير من أصحابه هو «ناصر الدين منكورس»⁽⁷⁾، وعندما أعاد «صلاح الدين» القلعة⁽⁸⁾ من أيدي الصليبيين عرفت باسمه أيضاً⁽⁹⁾، ونتيجة لأن محيط القلعة كان كبيراً جداً على حاميتها الصغيرة، فإنها كانت لا تستطيع الدفاع عنها⁽¹⁰⁾، بعد ذلك تسلمها السلطان «الظاهر بيبرس»⁽¹¹⁾، وهي الآن مهدامة⁽¹²⁾.

- (1) ر.س. سميل، القلاع في الحروب الصليبية، ص 344.
- (2) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 189، عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 55.
- (3) من المرجح أن التحصينات والقلعة وريبا السورين الخارجيين أقيمت جميعاً منذ ذلك الحين فما بعد، انظر فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 51.
- (4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 51.
- (5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 192، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 40، هامش 1، الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 346-347، ر.س. سميل، القلاع في الحروب الصليبية، ص 344، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 74، سيد على الحريري، الحروب الصليبية، ص 164، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 100.
- (6) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 192، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 40، هامش 1، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع في بيروت في المطبعة العمومية الكاثوليكية 1983م، ج 6، ص 114-115.
- (7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 74.
- (8) أبو الفداء، المرجع السابق، ص 172، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 591، أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 93-94.
- (9) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 51.
- (10) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (11) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (12) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

قلعة عجلون (الريض)⁽¹⁾

الموقع

تقع هذه القلعة في شمال غرب الأردن على جبل مطل على الغور يعرف بجبل عوف⁽²⁾، على بُعد حوالي ثلاثين ميلاً غرب العاصمة عمان، في الشعاب البعيدة للكتلة الجبلية المتاخمة لوادي نهر الأردن من جهة الشرق⁽³⁾ وعلى وجه التحديد فوق نهد صخرى على ارتفاع 3000 قدم من سطح البحر⁽⁴⁾.

سبب بناء قلعة عجلون

لقد كان هناك من الأسباب التي جعلت «صلاح الدين» يصدر أمره ببناء قلعة عجلون، وهي الحفاظ على خطوط المواصلات بين دمشق وساحة العمليات «الحربية ببيت المقدس»، نظراً لما تمثله الطرق من شريان حيوي بالنسبة للجيش، كذلك لا بد من مراقبة تحركات الصليبيين في الجزء الشمالي⁽⁵⁾ في فلسطين بعد أن قاموا ببناء قلعة كوكب الهوى من بيسان وطبرية، ومنع أي حركة توسع لهم في المنطقة، كما أن الحفاظ على طريق المواصلات (أرض السواد) يتطلب استتباب الأمن وطاعة نواب السلطان وقطع دابر حركات العصيان

(1) عجلون، حصن وريض يسمى «الباعوثة» والحصن عن البلد على شوط فرس في جبل الغور الشرقي قبالة بيسان، وحصن عجلون حصن منيع مشهور يظهر من بيسان وله بساتين ومياه جارية وهي شرقي بيسان وهو حصن محدث بناه عز الدين أسامة من أكبر أمراء السلطان صلاح الدين، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 245، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 304، هامش 5.

عجلون، هي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة، مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وقف على تهذيبه أحمد العوامري بك، ومحمد أحمد جاد المولى بك، جزءان، القاهرة، طبع المطبعة الأميرية ببولاق 1938م، ج 1، ص 50، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 105، النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 59.

قيل إن مكان القلعة يعرف باسم راهب اسمه عجلون وهو حصن جليل على صخرة وله حصانة ومنعة منيعة.

(2) العمري، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، ص 118 - 119، أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 17.

(3) أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 143.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 74.

(5) اختلف الوضع في الجنوب الشرقي للأردن عن الوضع في الشمال، فقد سيطرت القوات الصليبية على قلاع متباعدة المسافات وهي الشوبك والعقبة والكرك، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ص 10.

والتمرد، لا سيما تلك التي كان يتزعمها بنو عوف في عجلون في عهد الدولة الأيوبية، من أجل ذلك كله أصدر السلطان «صلاح الدين الأيوبي» عام 580هـ / 1184م أمره إلى عامله في عجلون الأمير «عز الدين أسامة بن منقذ» بالشروع في بناء قلعة هناك⁽¹⁾.

وبعين ثاقبة وقع اختيار «أسامة بن منقذ» على قمة جبل عوف لما له من خصائص إستراتيجية تمهد الطريق لتحقيق ما يهدف إليه سيده السلطان، فمنه يمكن مراقبة المنطقة الممتدة على طول وادي الأردن من طبرية حتى البحر الميت، كما أنه يشرف على سلسلة جبال فلسطين الممتدة من القدس إلى صفد، هذا بالإضافة إلى إشرافه على الممرات الثلاثة التي تؤدي مباشرة إلى المناطق المرتفعة في الجانب الشرقي من نهر الأردن وهي وادي كفرنج في الجنوب ووادي راجب ووادي اليبس في الشمال، وعلى قمة هذا الجبل شرع «أسامة» ببناء قلعة عجلون سنة 580هـ / 1184م وحاول بنو عوف منعه، فأقنعهم أنه إنما يبنها لحمايتهم من الفرنج، عندئذ أعانوه على البناء، فلما استدعى مشايخهم ومد لهم سباطاً، فلما أكلوا أمر غلبانهم بالقبض عليهم وحبسهم⁽²⁾.

تاريخ القلعة

عندما أقطع الملك «العادل أبو بكر بن أيوب» جبل عوف إلى الأمير «عز الدين أسامة بن منقذ»⁽³⁾ أسس «ابن منقذ» القلعة في (580هـ/1184م - 581هـ / 1185م)، لحماية الجناح الغربي لمنطقة دمشق⁽⁴⁾ وطريق المواصلات الحيوى بين دمشق والقاهرة ويسمى «درب الحج»، وكان ضعيف الحماية في ذلك الوقت، وبينائها دخل بنو عوف تحت طاعة السلطان، وارتفع خصم عنيد لقلعة كوكب الهوى، أصبحت معه حركات الصليبيين مرصودة وبدأت القلعة تلعب دوراً كبيراً في تحقيق أهداف الدولة الإسلامية، وكان بناؤها على خط مواز مع قلاع الكرك والشوبك وكان إيذاناً بقرب سقوط هذه القلاع بيد المسلمين.

(1) إلى الغرب من عجلون وعلى بُعد 4كم ترتفع القلعة فوق قمة الجبل الذي حمل اسم قبيلة بنو عوف من جرم قضاة الذين نزلوا في بداية الدولة الفاطمية، وكانوا أمراء أولى بأس لا يدخلون تحت طاعة ولم يزالوا كذلك إلى أيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، شقيق صلاح الدين وواليه يومئذ على حلب، فأقطع ناصيتهم للأمير عز الدين أسامة بن منقذ، أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي، سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 114، القلقشندي، ج 4، ص 86، 105 سنة 1914م، ابن شداد، النوادر، ص 86، 1962م.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، 1962م، ص 87، سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 115.

(3) عز الدين أسامة بن منقذ، أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة 508هـ انظر مسالك الإبصار في عمالك الأمصار، هامش 1، ص 119.

(4) قولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 75، أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 143.

فبعد سنوات ثلاث فقط من إقامتها تحقق النصر للسلطان «صلاح الدين الأيوبي» على جيوش الصليبيين في معركة حطين 583هـ / 1187م، ثم توالى الانتصارات على أرض فلسطين واستسلمت قلاع الكرك والشوبك، وكانت قلعة عجلون خلال تلك الفتوحات قاعدة للتخزين والإمداد والتجهيز، ومحطة للإنذار المبكر ومركزاً للاتصالات وحلقة وصل بين دمشق وفلسطين ومصر⁽¹⁾.

وبقيت عجلون إقطاعاً للأمير «عز الدين أسامة» حتى (608هـ / 1211م)، إذ انتزعها منه الملك «المعظم عيسى» (592هـ / 1196م - 624هـ / 1227م)، وأقطعها الأمير «عز الدين أيك المعظمي»⁽²⁾.

هذا وفي عام 611هـ / 1214م، قام الأمير «عز الدين أيك المعظمي» بإضافة برج آخر إلى القلعة في الجهة الجنوبية⁽³⁾ من الجدار الشرقي لهذا البرج، وبعد الملك «المعظم عيسى» دخلت قلعة عجلون ضمن الصراع الذي كان قائماً بين الملك «الناصر داود» (624هـ / 1127م - 647هـ / 1249م)، صاحب الكرك وبين الملك «الأشرف» صاحب دمشق وبقيت تابعة إلى مملكة دمشق حتى وفاة الملك «الأشرف» عام 635هـ / 1237، حيث استعادها «الناصر داود»⁽⁴⁾. وفي عام (643هـ / 1245م)، أصبحت القلعة تحت سيطرة الملك «الصالح نجم الدين أيوب» صاحب مصر⁽⁵⁾، وبعد وفاته سنة (648هـ / 1250م) استولى عليها الملك «صلاح الدين يوسف محمد بن الظاهر أيوب» صاحب حلب ودمشق، فقام بتجديد البرج الثاني فيها، والواقع في الزاوية الشمالية الشرقية منها وثبت ذلك في نقش مثبت في الواجهة الجنوبية من هذا البرج، وتعرضت القلعة لغزو المغول، وفي عهد المماليك تم القضاء على المغول في معركة عين جالوت فدخلت قلعة عجلون ضمن منطقة نفوذ المماليك⁽⁶⁾.

وصف الحصن

المدخل

يقع المدخل في الجهة الشرقية من القلعة ويعد المدخل نموذجاً متقدماً للمدخل المنكسر،

(1) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 116.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، ص 117.

(3) عبد الرحمن زكي، بين قلاع العرب وقصورهم، ص 68.

(4) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 175.

(5) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 326.

(6) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 116 - 117.

هذا ويشير «كريزول» بأن مثل هذا المدخل وجد في مدينة بغداد عند تأسيسها⁽¹⁾، ولم يعثر على أمثلة حية من العهد الإسلامي قبل العصر الأتابكي والأيوبي في مصر والشام، وقد وجد مثل هذا المدخل في قلعة حلب وحصن الأكراد في سوريا، كما استخدمه «صلاح الدين» للبواب الجديد أحد أبواب حصن القاهرة الفاطمية أيام وزارته، ثم استعملها في العصر الأيوبي في أسوار القاهرة وأبواب القلعة التي شيدها هناك 572هـ / 1176م⁽²⁾.

الأبراج

على يمين المدخل يقوم برج مبنى فوق الصخرة من الملاحظ فيها أن حجم الأحجار التي بنى بها هذا البرج كانت ذات أحجام مختلفة⁽³⁾، هذا البرج يحتوي على عدة طوابق بها العديد من النوافذ وفتحات السهام، هذا بالإضافة إلى أن هناك برجاً آخر في الداخل محاذياً للمدخل. بالإضافة إلى برج مبنى في الجهة الشمالية الشرقية⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى وجود برج آخر في الناحية الجنوبية للحصن، ويمكن وصف الأبراج من خلال مبنى القلعة المستطيل الشكل مساحته تقريباً 70 متراً شمال جنوب $50 \times$ ، فهي يتوزع بين جدرانها ستة جدران منها ثلاثة أصابها الدمار هي الأبراج الثالث والرابع والرابع

أما البرجان الأول والثاني فمن خلال التماثل بين طراز بنائهما في النقش المثبت على الجدار الجنوبي للبرج الثاني يتضح أنه تم تجديدها في عهد السلطان «صلاح الدين يوسف بن محمد بن الظاهر أيوب» (648هـ / 1250م - 659هـ / 1260م)، والبرج السادس الواقع في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة، فبناء على النقش المثبت في جداره الشرقي يتضح أنه أضيف إلى المبنى سنة (611هـ / 1214م)، وإضافته إلى المبنى ألغت الوظيفة الدفاعية

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 197.

(2) سعد المومنى، القلاع في الأردن، ص 138.

(3) سعد أبو دية، المتحف العربي، السنة الثانية العدد الثالث، جامعة اليرموك الأردن 1407هـ / 1987م، ص 53،

محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربي، العدد الثاني 1407هـ / 1986م، ص 16-17.

(4) كان الغرض الأساسي من هذا البرج هو خدمة الحمام الزاجل فقد كانت القلعة تستخدم كمحطة للحمام الزاجل، وكان هذا الحمام يخرج من القاهرة إلى غزة إلى جنين ثم إلى قلعة الربيض ومنها إلى أربد ثم إلى دمشق، وكان هذا الخط البريدي على قدر كبير من الانتظام والسرعة في نقل الأخبار بين أجزاء المملكة الواسعة الأرجاء، انظر سعد أبو دية، قلعة الربيض (عجلون)، المتحف العربي، السنة الثانية، العدد الثالث، جامعة اليرموك، الأردن 1987م، ص 53، ومحمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربي 1986م، ص 16-17.

للبرج السابع الذى أصبح ضمن مباني القلعة الداخلية، وبحكم توزيع الأبراج على هذا النحو الذى أشرنا إليه أصبح مبنى القلعة مؤلفاً من فناءين مسورين، جنوبى غربى تحميه الأبراج الخامس والسادس والسابع وشمالى شرقى تحميه الأبراج الأول والثانى والثالث والسادس والسابع⁽¹⁾.

الخنندق

تتمتع قلعة عجلون بموقع إستراتيجى يصعب تسلقه من الجهة الجنوبية، أما من الجهات الثلاث الأخرى فيسهل الوصول إليها، نظراً لقلّة الميل فى المنحدرات حوله، فقد تم حفر خندق أحاط بالقلعة مما أضفى على الموقع مزيداً من القوة والمناعة، ونتيجة لدقة الاختيار وسلامة التخطيط فى البناء، فقد فشل أى غازٍ فى دخول القلعة عنوة⁽²⁾.

إن إحاطة القلعة بالخنندق استوجب وجود جسر لربطها بالمحيط الخارجى وكان تصميمه كجسر متحرك قد ضاعف من قيمة الخندق كخط دفاعى متقدم بالنسبة للقلعة، وفى ذلك دلالة على تقدم إستراتيجية القتال والبناء عند المسلمين، إذ انتشر استعمال الجسر فى معظم القلاع الإسلامية فقد رأيناه فى قلعة دمشق التى كانت مقر القيادة للسلطان «صلاح الدين»، وفى قلعة «صلاح الدين» (صهيون) 33 كم شرق اللاذقية⁽³⁾.

وفى قلعة حلب ارتكز الجسر على ثمانية أقواس متفاوتة فى الارتفاع، أما فى قلعة شيزر على نهر العاصى فى سوريا فقد استعمل جسر حجري مؤلف من طابقين تحملها قناطر حجرية، وكذلك فى قلعة بصرى فى حوران حيث بنى على الجسر القناطر الحجرية، هذا ويوجد أقدم مثل إسلامى منها فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده «صلاح الدين» عندما كان وزيراً للخليفة «العاقد الفاطمى» بين سنتى (564هـ / 1168م و567هـ / 1171م)، وعندما دخل الصليبيون إلى البلاد استعملوا مثل هذه الجسور فى بعض القلاع التى احتلوها مثل حصن الأكراد فى سوريا والكرك فى الأردن⁽⁴⁾، وتعود أهمية الخندق فى أنه يشكل عاملاً دفاعياً كبيراً ضد من يريد الوصول إلى الحصن ومهاجمته للاستيلاء عليه، كما يعتبر عاملاً إستراتيجياً من ناحية أخرى، أى أنه عند امتلائه بالماء يساعد المدافعين على مواجهة أى

(1) سعد المومنى، المرجع السابق، ص 134.

(2) سعد المومنى، المرجع السابق، ص 121.

(3) سعد المومنى، المرجع السابق، ص 135.

(4) سعد المومنى، المرجع السابق، ص 135 - 136.

حصار من قبل المهاجمين⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى وجود خزان للمياه في الجهة الجنوبية الشرقية خارج أسوار الحصن⁽²⁾.

أهمية حصن عجلون

يعتبر حصن عجلون من أهم الحصون الإسلامية التي أنشئت في الفترة الأيوبية سواء من حيث إحكام البناء أو من حيث الموقع الإستراتيجي الذي شغله هذا الحصن، هذا وتقع أهمية حصن عجلون في أنه يمثل نقطة حراسة تسيطر وتراقب مساحة كبيرة تطل عليها، هذا بالإضافة إلى أنه مرقب حربي إقليمي⁽³⁾، أضف إلى ذلك أن القلعة اعتبرت ثقلاً موازناً لقلعة كوكب الهوى الصليبية على المرتفعات بين طبرية وبيسان⁽⁴⁾، والقلعة ما تزال محفوظة في حالة جيدة إلى حد ما.

بيت المقدس وأسواره

احتل الصليبيون القدس عام 493هـ / 1099م، ووقفوا أمام أسوار بيت المقدس من جهاتها الأربع، ولم تكن البلاد في هذا الوقت قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعف الحكم السلجوقي والخلافات في التنافس على العرش، فانهارت مقاومة المسلمين بعد أن نفذ ما لديهم من العدة والمؤن.

ويمكن القول إن البطل «الناصر صلاح الدين» ما كاد ينتهي من معركة حطين⁽⁵⁾ سنة 583هـ / 1187م⁽⁶⁾، حتى راح يفكر في الاستيلاء على بيت المقدس التي حصنت غاية التحصين⁽⁷⁾ فحاصرها من الناحية الغربية⁽⁸⁾، ولكن سرعان ما أدرك أن تلك الناحية لا تصلح

(1) محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون، ص 16.

(2) محمود إبراهيم حسين، المرجع السابق، ص 17.

(3) محمود إبراهيم حسين، المرجع السابق، ص 36.

(4) سعد أبو دية، قلعة الريض، المتحف العربي، العدد الثالث، ص 54.

(5) أبو شامة، الروضتين، ص 260.

(6) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 36.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، أحداث سنة 583هـ، ص 323، ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن

هارون، الطيب الملقى، تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه الأب أنطون صالحى اليسوعى، المطبعة

الكاثوليكي للآباء اليسوعيين في بيروت 1890م، ص 384.

(8) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 36.

للهجوم⁽¹⁾، فنقل جيشه إلى الناحية الشمالية⁽²⁾ وعسكر في البطحاء التي تقوم عليها الأحياء المعروفة اليوم بالمسكوبية وباب العمود وباب الساهرة، وقضى هناك عشرين يوماً قبل أن يتمكن من فتح المدينة، فقضاها في تهيئة وسائل القتال، وكانت قوة الدفاع في داخل المدينة مؤلفة من ستين ألف مقاتل، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع⁽³⁾.

هكذا تم لـ«صلاح الدين» فتح بيت المقدس، وتم ذلك في يوم الجمعة الموافق 27 رجب عام 583هـ / 2 أكتوبر عام 1187م⁽⁴⁾، وبعد أن غادر «صلاح الدين» القدس، عاد فزارها في السنة التالية 584هـ / 1188م وفيها اهتم بعمارة سور المدينة⁽⁵⁾ فعمره وجدد ما تهدم منه وأنشأ عددًا من الأبراج الحربية في الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل، وحفر حول السور الخنادق⁽⁶⁾، لئلا يسهل على الصليبيين الدنو من المدينة، وكثيرًا ما رآه الناس وهو يشارك العمال في نقل الحجارة وأعمال البناء⁽⁷⁾.

وقيل في تعمیر القدس «سار السلطان إلى القدس لسبع بقين⁽⁸⁾ من ذى القعدة ونزل داخل البلد وارتاحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمیر القدس وتحصينها وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر، فكان

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص212.

(2) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص36، غريغوريوس، أبو الفرج الملقب، تاريخ مختصر الدول، ص384، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، أحداث سنة 583هـ، ص323، النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص403-405.

(3) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص77، وقيل عن المدينة، فأما مدينة القدس فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها السور المحيط على الصخرة، لمزيد من التفاصيل انظر، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص137.

(4) العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، ص274-275، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص96.

(5) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص100، سيد على الحريرى، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص201، عمر الصالح البرغوثى، واخليل طوطح، تاريخ فلسطين، عنى بنشره بولس وديع سعيد، مطبعة بيت المقدس 1923م، ص199.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص217.

(7) ابن الأثير، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص348.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص217، عمر الصالح البرغوثى، تاريخ فلسطين، ص199، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى في عهد صلاح الدين، ص283، سيد على الحريرى، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، تحقيق د/ عصام شبارو، ص201.

يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام⁽¹⁾، وكذلك قيل عن أولاده وأمرائه⁽²⁾ وعن أخيه «العاذل»⁽³⁾.

هذا وقد ذكر «العماد الأصفهاني»: «صمم السلطان على حفر خندق عميق، وإنشاء سور ونيق، وأحضر من آثار الفرنج قرب ألفين ورتبهم في العمارتين، وجدد أبراجاً حربية من باب العمود إلى باب المحراب، وقسم بناء السور في مواضعه على أولاده وأخيه الملك «العاذل» وأمرائه، فسار يركب كل يوم ويمحض على بنائه ويخرج لموافقته على حمل الحجر إلى مواضع البناء ويتولى ذلك بنفسه... وبيجماعة خواصه والأمراء»⁽⁴⁾.

وقد كان السبب في هذا الاهتمام الواسع من جانب «صلاح الدين الأيوبي» بتجديد عماريت المقدس الحربية هو النشاط الصليبي المتمثل في الحملة الصليبية الثالثة⁽⁵⁾، والدليل على حصانة أسوار بيت المقدس أنه حينما جاءت الحملة الصليبية الثالثة يقودها ملوك أوروبا وقف «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا عاجزاً عن الزحف على بيت المقدس أمام حصانة أسوارها التي عزز من مناعتها الخندق الذي حفره «صلاح الدين» حولها⁽⁶⁾، كما سبق أن ذكرنا.

وفي عهد خلفاء «صلاح الدين» وبالتحديد في مستهل عام 616هـ / 1219م، خرب «المعظم عيسى» سور بيت المقدس خوفاً من استيلاء الفرنج عليه⁽⁷⁾، وذلك بعد مشورة من أشار عليه بذلك فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه⁽⁸⁾، فشرع في تخريب السور في أول يوم من المحرم عام (616هـ / 1219م) فهرب من الشام أهله خوفاً من الفرنج أن يهجموا عليه ليلاً أو نهاراً⁽⁹⁾.

- (1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص80، سيد على الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص201، انظر أيضاً، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص126.
- (2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص346، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص375، سيد على الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص201.
- (3) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص80.
- (4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص565.
- (5) سوسن سليمان، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، تجديد صلاح الدين الأيوبي للعمائر الإسلامية في بيت المقدس، العدد الخامس 1991م، ص295.
- (6) سوسن سليمان، المرجع السابق، ص297.
- (7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص122، المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص176، العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص65 - 66.
- (8) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج7، ص202.
- (9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص80.

وفي عام (628هـ / 1230م)، وصّى الملك «الكامل» بثلاثمائة ألف دينار يدفعها لعمارة القدس وغيرها⁽¹⁾. وفي عام (645هـ / 1247م) كانت عودة السلطان «الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل» من الشام إلى الديار المصرية، وزار في طريقه بيت المقدس وفرق في أهله أموالاً كثيرة وأمر بإعادة سوره⁽²⁾، كما كان في أيام عم أبيه الملك «الناصر صلاح الدين» فاتح القدس⁽³⁾.

القلعة في بيت المقدس

كان لبيت المقدس قلعة مستطيلة مبنية بالحجر شاهداها الرحالة والجغرافيون العرب وأشاروا إليها، وقالوا إن القادم إلى القدس من جهة الرملة تكون القلعة أول بناء يقع نظره عليه فهي مرتفعة شاذخة على كتلة صخرية تشرف على القسم الغربي والجنوبي من مروج القدس⁽⁴⁾.

وتقع القلعة في الجهة الغربية ضمن أسوار المدينة وفوق باب الخليل مباشرة، وهي قلعة حصينة كبيرة كانت تؤدي دورها في الدفاع عن أحد المداخل الرئيسية للمدينة المقدسة، وكانت مقر إقامة والي بيت المقدس، وظلت تقوم بدورها العسكري في الدفاع عن المدينة أثناء الاحتلال الصليبي، وعندما استرد «صلاح الدين الأيوبي» بيت المقدس عام (583هـ / 1187م) قام بترميم القلعة وزودها بالرجال والعتاد وعين فيها والياً يساعده بعض الأجناد⁽⁵⁾.

وفي عام (610هـ / 1213م)، قام الملك «المعظم عيسى» صاحب دمشق بإعادة ترميم القلعة وزاد في أبراجها برجاً وسجل على لوحة تأسيسية نقش عليها ما يلي «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، خير نصر المؤمنين، عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين «أبي المظفر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي» وتولى عمارته «عز الدين عمر بن يغمر المعظمي» في شهر سنة

(1) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص209.

(2) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م، ص86، نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص211، المقرزي، السلوك، ج1، ق2، ص327.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص173.

(4) كنوز القدس، ص128، عبد العليم عبد الرحمن خضر، التطور العمراني لمدينة القدس (دراسة في جغرافية المدن) السعودية 1981م، ص171.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص171.

عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين وبشر الفقير إلى رحمة الله «خطلخ المعظم»⁽¹⁾، غير أنه نتيجة للحملة الصليبية الخامسة على دمياط تخوف «المعظم عيسى» من نتيجة هذه الحملة، لذلك أسرع «المعظم» إلى تدمير عدة حصون قوية في فلسطين خشية سقوطها في أيدي الصليبيين، بل أكثر من هذا كله، فقد فكر «المعظم» في هدم مدينة بيت المقدس⁽²⁾، وشرع فعلاً في هدم أبراجها وسورها لئلا يحصل منها الصليبيون على أية فائدة ولم يبق إلا على برج داود أحد أبراج القلعة⁽³⁾. وفي عام (626هـ / 1239م)، عقدت اتفاقية يافا بين السلطان «الكامل محمد» سلطان مصر والإمبراطور «فريدريك الثاني» قائد الحملة الصليبية السادسة، والتي بمقتضاها أخذ الصليبيون بيت المقدس بشرط أن يبقى على ما هو عليه من الخراب ولا يحدد سوره⁽⁴⁾، إلا أن الفرنج انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بخلافاتهم الداخلية فعمدوا إلى بناء القلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وعندما قام «الناصر داود» أمير الكرك بتحرير بيت المقدس من سيطرة الصليبيين (637هـ / 1239م) تحصن الصليبيون ببرج داود، فحاصره «الناصر داود» حتى تمكن منه فأمر بهدمه وسواه بالأرض⁽⁵⁾. أما القلعة نفسها، فقد أرسل للخليفة في بغداد يستشيريه أيهدمها أم يبقيها لتكون معقلاً لبيت المقدس وموئلاً للمجاورين فيه.

ويبدو أن «الناصر داود» أبقى القلعة ولكنه بنى مكان برج داود مسجداً وجعل فيه القوام والمؤذنين⁽⁶⁾، وهكذا طهر الملك «الناصر» القدس الشريف من أيدي الفرنج⁽⁷⁾.

(1) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 172، عبد العليم خضر، التطور العمراني لمدينة القدس، ص 171.

Van Bercham, Corpus Inscription (un Jerusalem ville) Le caire, 1922, p132.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 928.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ص 172.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص 967.

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 165، عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 73، عمر الصالح البرغوثي، تاريخ فلسطين، ص 206، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 246، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص 247.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، بيت المقدس، ص 173.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 247، أحداث سنة 637هـ، عندما دخلت سنة 637هـ قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضاً فإنه لما خربت القدس أولاً لم يخرب برج داود فخربه من هذه المرة، انظر أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 165.

أبواب القدس

باب الناظر (تجديد)

هو باب قديم، جددت عمارته في عام 600هـ / 1203م في عهد الملك «المعظم عيسى» في العصر الأيوبي، وقد كان هذا الباب يعرف بـ«باب ميكائيل»، ثم بـ«باب علاء الدين البصير»، ثم بـ«باب الحبس»، حيث كان بابًا ضخماً محكم البنيان، وتوجد في أعلاه صنج معشقة، ويغطي فتحته مصراعان من الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس⁽¹⁾.

باب الغنم

وهو من أبواب القدس القديمة، وقد دخل الخليفة «عمر بن الخطاب» القدس منه، ويسمى هذا الباب «باب شرف الأنبياء» و«باب الدوادية»، و«باب الملك فيصل»، وكان المجلس الإسلامي الأعلى قد سماه «باب الملك فيصل» تخليداً لذكرى تبرعه لعمارة المسجد الأقصى، وقد جدد هذا الباب في عهد الملك «المعظم عيسى» في عام 610هـ / 1213م في العصر الأيوبي⁽²⁾.

باب حطة

هو من أقدم أبواب الحرم الشريف، جدد عدة مرات وآخرها تم تجديده في عهد الملك «المعظم عيسى» في سنة 617هـ / 1220م في العصر الأيوبي، ويتكون هذا الباب من مدخل عالٍ الارتفاع يغطيه مصراعان من الخشب القوي وتحف جانبيه مصطبتان حجريتان جميلتا الشكل، وقد فرشت أرضيته بالبلاط الحجري القديم⁽³⁾.

باب السلسلة وباب السكينة

وهما بابان من الأبواب الرئيسية للحرم الشريف، الباب الجنوبي منهما مفتوح، وهو باب السلسلة والباب الشمالي منهما مغلق، ويسمى «الباب المغلق»، أو «باب السكينة»، أو «باب السحرة»، وكان يعرف قديماً بـ«باب داود»، ويعود هذان البابان في إنشائهما أو تجديدهما إلى العصر الأيوبي، ويتكونان من مدخلين عاليي الارتفاع، تعلوهما صنج حجرية معشقة،

(1) كنوز القدس، ص 118.

(2) المرجع السابق، ص 132.

(3) المرجع السابق، ص 136.

ويغطي فتحة المدخل في كل منها مصراعان من الخشب القوي، وقبل المدخلين من الخارج منطقة أقيمت عليها قبتان ترتكزان على أربعة عقود مدببة مربعة تقوم بدورها على جدارى البابين والدعامات المقابلة لهما، وذلك بعد ملء أماكن التقاء رجلى كل عقدين بحشوات بنائية لإيجاد قاعدة مثمثة، وإقامة القبة عليها⁽¹⁾.

قلعة حمص⁽²⁾

تشرف قلعة حمص على سهلها من أعلى تل، جزء منه طبيعي وجزء آخر اصطناعي، وتتخذ شكلاً مستديرًا في ذروته ويبلغ قطرها نحو 275 مترًا، وتحاط بمنحدر ينحط بسرعة نحو خندق كان يحدق به، وقد ملأ اليوم بالأنقاض، وزالت كل منشآت القلعة الداخلية ولم يبق منها شيء⁽³⁾.

تاريخ القلعة

تولى «صلاح الدين» قيادة الحروب الصليبية، ووضع يده على حمص في مستهل جمادى الأولى 570هـ / 1174م⁽⁴⁾، فقبل إنه نازل المدينة فملكها ولم يشتغل بالقلعة⁽⁵⁾، أما القلعة فكان ملكه لها في الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة أى عام (570هـ / 1174م)⁽⁶⁾ ومنحها بعد أربع سنوات إلى «محمد بن شيركوه»، وفي عهد ابنه «أسد الدين شيركوه» الثانى

(1) المرجع السابق، ص 115.

(2) حمص مدينة قديمة جليلة اسمها القديم سورية كانت معظمة عند ملوك الروم، وهى قاعدة من قواعد الشام العظام وقيل إنها كانت دار ملك البيت الأسدى يعنى أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقيل لم يزل لملكها فى الدولة الأيوبية سطوة تخاف، وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعه، ويحيط بها وبالبلد سور حصين هو أمنع من القلعة وأسمح من أبراجها فى الرفعة، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 4، ص 112، ابن جبير، أبو الحسين محمد أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى، الرحلة، كتاب رحلة بن جبير، الشركة العالمية للكتاب، ش.م.ل، ص 182، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص 124 - 125، هذا وقد ذكر عنه أيضًا أنه بلد مشهور قديم كبير مسور، وفى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال كبيرة، وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق، قيل إنه بناه رجل يقال له حمص بن المهرب بن جان بن مكثف، حمص الجرح يحمص حموصا انحمص ينحمص انحصا إذا ذهب ورمه، ويحمص من المزارات والمشاهد منها مشهد على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فيه عمود موضع إصبغه، وبها دار خالد بن الوليد - رضى الله عنه - وقبره فيما يقال، انظر الحموى، معجم البلدان، ج 2، ص 302 - 303.

(3) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر 1960م، ص 27.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 130، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 24.

(5) النويرى، نهاية الأرب، ج 28، ص 375.

(6) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 58، النويرى، نهاية الأرب، ج 28، ص 376.

وخاصة في عام 604هـ / 1207م، وفي عهده نازل الفرنج حمص فلم يقدر على دفعهم ومنعهم فلم ينجده إلا «الظاهر غازي» صاحب حلب⁽¹⁾.

هذا وقد كانت حمص مركزاً مهماً من مراكز الجهاد الممتدة على طول خط داخلي في سوريا الداخلية ماراً على حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وبصرى وصلخد وغيرها⁽²⁾، هذا وقد تعاقب على حمص خمسة ملوك من الأيوبيين، قاموا بأعباء الدفاع عنها ودعموا أسوارها وأصلحوا قلعتها⁽³⁾، وقد قيل عن قلعة حمص إنها من أشهر القلاع التي تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها⁽⁴⁾، وهذه القلعة بها برجان من العهد الأيوبي يقع أحدهما في الزاوية الشمالية الشرقية، والثاني في الجهة الشمالية الغربية⁽⁵⁾، والقلعة اليوم متهدمة⁽⁶⁾ ولم يبق منها سوى آثار ضئيلة⁽⁷⁾.

أبواب حمص

ما يزال منها الباب المسدود الواقع إلى الشمال الغربي من القلعة⁽⁸⁾، وهو الذي كانت عليه كتابة تشير إلى أن بانيه هو الملك «المنصور محمد بن شيركوه بن محمد»، وما يزال قائماً من هذا الباب برجان، ويرى فوقها المزاغل التي كان الرماة حماة المدينة يستخدمونها في دفاعهم عنها⁽⁹⁾، ومن الواضح أن الأحجار التي بنى منها هذا الباب استخدمت بعد انتزاعها من أبنية عهدها أقدم من هذا العهد، أما الأبواب الأخرى فلم تصل أسماؤها كباب هود، وباب التركمان، وباب السباع، وباب الدريب، وباب السوق، وباب تدمر⁽¹⁰⁾.

هذا وقد كانت قلعة حمص على شاكلة القلاع الأيوبية والمملوكية التي بنيت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهناك نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر

- (1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص196.
- (2) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج10، ص27.
- (3) سليم عادل عبد الحق، المرجع السابق، مج10، ص25.
- (4) محمد كرد علي، خطط الشام، ج5، ص293-294.
- (5) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص99-100.
- (6) عبد الغنى النابلسي، الحقيقة والمجاز في الحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد د/ أحمد عبد المجيد الجوهري، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986م، ص32.
- (7) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص168.
- (8) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص100.
- (9) سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج10، ص26.
- (10) سليم عادل عبد الحق، المرجع السابق، مج10، ص26.

ودمشق والنمرود وغيرها، وأكثر من عنى بتحسينها الملك المجاهد «شيركوه بن محمد» الذي ترك فيها كتابتين الأولى من سنة 594هـ والثانية من سنة 599هـ⁽¹⁾.

قلعة الكرك⁽²⁾

الكرك مدينة وقلعة حصينة جداً⁽³⁾ في جنوب الأردن⁽⁴⁾ فوق مرتفع صخري⁽⁵⁾، تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك، وإلى الجنوب من المدينة تماماً تنتصب القلعة⁽⁶⁾، وهي عبارة عن نتوء صخري مستطيل الشكل، ولقد شيدت القلعة فوق مصطبتين تفصلها عن المدينة قناة عميقة، كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحف بها ويتماشى مع حواف الصخور⁽⁷⁾، وتمتاز القلعة بموقع حصين مشرف إذ يحيط بها الأودية من كل جانب فهناك إلى الغرب والجنوب وادي الكرك وإلى الشمال مدينة الكرك التي يفصلها عن القلعة خندق

(1) تقع الكتابة الأولى في أعلى البرج الشمالي من منطقة سداسية الشكل على أربعة سطور عمقها بالخط النسخي الأيوبي الجميل، وهي كما يلي «أمر بعمارة شيركوه بن محمد في سنة أربعة وتسعين وخمسة، أما الكتابة الثانية فهي كما يلي «بسم الله.... أمر بعمارة هذا البرج الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ناصر أمير المؤمنين أعز الله أنصاره تولى عبده موافق في سنة تسعة وتسعين وخمسة»، انظر سليم عادل عبد الحق، الحوليات الأثرية السورية، مج 10، ص 27.

(2) الكرك ورد ذكرها في التوراة وهي مكونة من مقطعين كير (Kir) يعني الحصن أو القلعة والثاني (حارس) يعني تلا يعلوه بناء، وتفسير معنى القلعة المحصنة على تل، الكرك كلمة آرامية الأصل أو سريانية تحريفاً لكلمة كرخا (Karkha) ثم حرفت حتى أصبحت كرك وهذه الكلمة معناها مدينة مسورة أو مدينة حصينة، انظر، الظهير الشامي، دكتوراه ص 253-254، سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 157.

ذكر الأنصاري الدمشقي عن حصن الكرك أنه حصن منيع عال على قمة جبل خندقه أودية بعيدة، يقال إنه كان ديراً للروم فبنى حصناً، انظر الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 213، قال عنها أبو الفدا «هو بلد مشهور وله حصن عال المكان وهو أحد المعامل بالشام والتي لا ترام،.... وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز وبين الكرك والشويك نحو ثلث مراحل»، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 247، ذكر عنها الحموي أيضاً قائلاً «أيم لقلعة حصينة جداً في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الرض، وقيل إنها تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها» لمزيد من التفاصيل انظر الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 453، ابن بطوطة، الرحلة، هامش 82، ص 101، انظر أيضاً محمد كرد علي، خطط الشام، ج 5، ص 293 - 294.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 14، هامش 2، النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 61، هامش 2.

(4) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 254، سعد المومني، المرجع السابق، ص 156.

(5) ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 318.

(6) القلاع، مقال بدائرة المعارف السعودية، الفيصل، مجلة ثقافية شهرية العدد 152، صفر 1410هـ / سبتمبر 1989م، السنة الثالثة عشرة، ص 109.

(7) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 55.

عميق قطع في الصخر وتم تحصينه في الجهة الشرقية⁽¹⁾، هذا الموقع الفريد الإستراتيجي الذي تمتاز به قلعة الكرك، حيث تقع في قلب العالم العربي، والمنطقة التي تحيط بالكرك وتمتد من البحر الميت حتى البحر المتوسط مشتملة على الجزء الجنوبي من الأردن وفلسطين، وتعتبر من الوجهة الإستراتيجية أخطر مناطق الشرق الأدنى، لا سيما في فترة الحروب في العصر الوسيط⁽²⁾ وقد كان لإستراتيجية الموقع انعكاس على مدى حصانة القلعة⁽³⁾.

تاريخ القلعة

عندما احتل الصليبيون بيت المقدس عام (493هـ / 1099م)، كان أول ما احتاجوا إليه من الأماكن والمعالم ما يتعلق بأسباب الدفاع عن النفس، لجئوا إلى السيطرة على المناطق المحيطة ببيت المقدس والتي تشكل أهمية إستراتيجية في الدفاع عنها، واستفادوا من القلاع والحصون الموجودة فيها، باعتبارها معالم تشد الأنظار، وتوفر الجهد والوقت في إعادة الترميم والإضافة على البناء، خاصة أن الصليبيين كانوا يعانون من نقص في القوى البشرية⁽⁴⁾، هذا وفي أوائل القرن الثاني عشر كانت الكرك تحتل مكانة مهمة لفترة طويلة من الزمن، فقد استولى الفرنج عليها أثناء حملاتهم الأولى في عهد الملك «بلدوين الأول» على الأرجح، والذي قام بإعادة بناء القلعة سنة (509هـ / 1115م)، وربما كانت تحصينات المدينة قد خضعت للتحسين في ذلك الحين⁽⁵⁾.

ويرجع تاريخ البناء والتجديد في القلعة إلى عام 537هـ / 1142م، حين أمر الملك «فولك»⁽⁶⁾ ملك بيت المقدس الحاكم الإقطاعي «بيان لوبوتيه»، ببناء قلعة الكرك⁽⁷⁾ وإدخال تحصينات إلى المدينة ودفاعاتها⁽⁸⁾ وتحصينها وتوسيعها⁽⁹⁾.

(1) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 156، تمتاز قلعة الكرك بموقعها العسكري وتعد نموذجا طيبا في أسلوب التحصين، محمود محمد الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 191.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامى، ص 254-255.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 156.

(4) سعد المومني، المرجع السابق، ص 161.

(5) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 55.

(6) ر.س. سميل، المرجع السابق، ص 318.

(7) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 871.

(8) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 55.

(9) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 162، وصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال «هو شجا في الحناجر، وقذى في المحاجر، وقد أخذ من الآمال بمخنتها، وقد قام بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج، وهو وحصن الشويك يسران من الآخر كبيت الواصف للأسدين

ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما،

انظر محمد كرد علي، خطط الشام، ج 5، ص 293.

هذا وقد حوصرت القلعة عام 566هـ / 1170م من قبل «نور الدين محمود» صاحب دمشق لتأمين مرور قافلة كانت منطلقة إلى مصر⁽¹⁾، واستمر الحصار أربعة أيام ضيق فيها على المدينة وفيها حاصر الكرك مدة ثم رحل عنها⁽²⁾، وفي عام 569هـ / 1173م، حاصر «صلاح الدين الأيوبي» القلعة لفترة قصيرة⁽³⁾، ولكنه لم يفتحها⁽⁴⁾ بسبب مرض والده الذي جعله يعود إلى مصر⁽⁵⁾، وفي عام 573هـ / 1177م، انتقلت القلعة والإقطاعية إلى «رينو دي شاتيون» (أرناط)، وكان رجلاً باسلاً ولكنه متهور أحمق، دفعت غاراته المتواصلة «صلاح الدين» إلى شن هجومه الشامل على مناطق الفرنج، ذكر «العماد الأصفهاني»: «وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز وقد نصب إشراك إشراكه منه على طريق الاجتياز... وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به»⁽⁶⁾، وفي عام (579هـ / 1183م - 580هـ / 1184م)، كان أول حصار للكرك قطعه وصول الملك «بلدوين الرابع» وحاصره وما حصل على المطلوب⁽⁷⁾.

وذكر «ابن الأثير» في ذلك «سار المسلمون نحو الكرك وحاصرها السلطان «صلاح الدين» وذلك أنه رأى إن فتحها أنفع للمسلمين من غيرها⁽⁸⁾ لكنه لم يفتحها فرحل عنها»⁽⁹⁾، وفي عام (583هـ / 1187م - 584هـ / 1188م)، حاصر «صلاح الدين» الكرك⁽¹⁰⁾ واستولى عليها عام (584هـ / 1188م)⁽¹¹⁾ بعد حصار استمر ثمانية أشهر⁽¹²⁾، وعندما رأى «صلاح الدين» خلو الساحل من العساكر الصليبية سير الجموع إلى نواحي نابلس⁽¹³⁾، ومنح «صلاح الدين» هذا المعقل المهم إلى أخيه الملك «العادل»⁽¹⁴⁾ الذي قام بترميمه وتقوية دفاعاته.

- (1) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 55، القلاع، مجلة الفيصل، ص 109.
- (2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 49.
- (3) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 55، القلاع، مجلة الفيصل، ص 37.
- (4) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من خبر، ج 3، ص 53، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 224.
- (5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 121.
- (6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 266، 277.
- (7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 151.
- (8) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 165، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 315.
- (9) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 68، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، تحقيق عصام شبارو، ص 144 - 145.
- (10) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 176.
- (11) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص 196، ر. س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 318.
- (12) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 272.
- (13) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 107 - 108.
- (14) العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 4، ص 279.

ونظرًا للشهرة التي حازتها القلعة بسبب مناعتها فقد استخدمها «صلاح الدين» مقرًا لحفظ خزائن وأموال الدولة، وبعد وفاة الملك «العاذل» ورث عنه ابنه الملك «المعظم» محتويات خزينته، هذا وقد لعبت الكرك دورًا مهمًا في المفاوضات التي دارت من أجل إعادة القدس؛ لأن الفرنج كانوا يعتقدون أنهم لن يستطيعوا المحافظة على المدينة المقدسة بدونها، ورغم ذلك فقد ثبتت الكرك ضمن الممتلكات العربية واعترف بها على هذا النحو عندما أعيدت القدس إلى الإمبراطور «فريدريك الثاني» عام 616هـ/1219م، وفي عام 633هـ/1264م، قام السلطان «بيبرس» بتقوية القلعة والدفاعات عن المدينة بعد أن استولى على الكرك من آخر الأمراء الأيوبيين، شيد الحصن الشمالي من سوريا، وفقدت القلعة أهميتها بعد الفتح العثماني لسوريا⁽¹⁾.

مخطط القلعة (ووصفها): (المسقط الأفقى)

تعد عمارة هذه القلعة من الأمثلة الكاملة لفن العمارة الحربية عند الصليبيين⁽²⁾، هذا ويتخذ مخطط القلعة شكلًا هندسيًا وهو شكل المنحرف، حيث إن أضلاعه الكبرى متساوية تقريبًا في الطول، فطول الضلع الشرقى 220 مترًا وطول الضلع الغربى 240 مترًا، أما الواجهة الشمالية 135 مترًا فهي أطول من الواجهة بحوالى 85 مترًا، ويواجه المدينة الجدار الشمالى للقلعة، حيث يطل على الخندق الذى يفصله عن المدينة والخندق ذو ارتفاع حوالى ثلاثين مترًا، وينتهى الجدار فى الحالتين أى فى الزاويتين الشرقية والغربية بأجزاء بارزة يمكن أن يطلق عليها اسم «أبراج مربعة الشكل»، وهناك فى البرج الشرقى منها فتحة باب خفر يعلوه قوس مكسور حاليًا لا يكاد يرى اليوم، ومن المحتمل أن هذا الباب هو المدخل الرئيسى للقلعة⁽³⁾، أما فى الجهة الشرقية من القلعة فترى أثرًا صليبيًا ما زال ماثلاً حتى الآن، وهو عبارة عن أبراج مستطيلة يصل ما بينها السور الخارجى⁽⁴⁾، ويبدو مخطط القلعة واضحًا بعد أن سقط الحائط الأمامى لأحد أبراجها، وهو عبارة عن ثلاثة طوابق يعلو بعضها الآخر، وهى ذات عقود أو سقوف مستديرة برميلية الشكل، وقد قام المسلمون بترميم الأجزاء العالية من هذه الأبراج بعد احتلال القلعة، ويمكن معرفة هذه الأجزاء عن طريق الحجارة

(1) فولغانغ مولر، القلاع فى الحروب الصليبية، ص 55-56.

(2) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، ص 68.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص 872.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسها.

المستعملة في القلعة⁽¹⁾، ولزيادة تحصين القلعة فقد استعملت الألواح الحجرية الملساء لتبليط أجزاء من المنحدر الشرقي أي (glaas)، حيث نرى أثرها عند البرج وتغطي حوالي 70 مترًا من المنحدر، ونلاحظ أن بقايا هذه التحصينات التي قام بها الصليبيون وبإنشائها في الجزء الجنوبي السفلي من الخزنة، ويلى هذه التحصينات في أسفل المنحدر حوض مستطيل الشكل لتجميع المياه، يحيط به من جهات ثلاث جدران منخفضة ذات طابع صليبي، ويلاحظ أن خزانات الماء الصليبية كانت تنشأ أحيانًا داخل القلاع كما في قلعة حصن الفرسان (الأكراد) في سوريا⁽²⁾.

الأجزاء الداخلية بالقلعة

أما الآن فنتقل إلى الأجزاء الداخلية من القلعة، حيث يمكننا القول بتميز جزأين رئيسيين وهما الساحة العليا والساحة السفلى⁽³⁾، ويبلغ طول الساحة العليا 180 مترًا وعرضها من الناحية الشمالية 75 مترًا التي تنتهي بقاعة فسيحة تطل على الخندق والمدينة، وفي الناحية الجنوبية عرضها 36 مترًا نجد ما يسمى «الخنزنة»، أما في الجهة الشرقية، فهناك الأبراج الأربعة السابق ذكرها... وفي الغرب يمتد جدار يفصل الساحة العليا عن السفلى يتخلله نتوءات أو أبراج مستطيلة الشكل، والساحة العليا بها آثار كنيسة لم يبق منها سوى عقد برميلي، عن الأسوار والأبراج.

سور القلعة

أما عن سور القلعة فيمتد بطول 250 مترًا ويتراوح عرضه ما بين 80 و 135 مترًا، ويفصلها عن مدينة الكرك في الجهة الشمالية خندق بعرض 20 مترًا، وكذلك الأمر في الجهة الجنوبية حيث يوجد خندق عرضه 30 مترًا، وقد أقيمت فوق المرتفع في هذه المنطقة ما يعرف في أكثر أجزاء القلعة تحصينًا وهو الخنزنة⁽⁴⁾، وسور المدينة هذا يحيط بها وأنها والحصن يقومان على جبل مرتفع وبها خندق كان يفصل المدينة عن الحصن⁽⁵⁾، وتعتبر قلعة الكرك من القلاع ذات الأسوار المزدوجة، فبالإضافة إلى أسوارها هناك سور المدينة⁽⁶⁾.

(1) سعاد ماهر، المرجع نفسه، الجزء والصفحة أنفسهما.

(2) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص 872 - 873.

(3) ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 318.

(4) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ص 871.

(5) سعاد ماهر، المرجع السابق، الجزء والصفحة أنفسهما.

(6) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 172.

ملاحظة

من الجدير بالذكر أن إعادة استعمال القلعة من قبل العرب المسلمين بعد استخلاصها من الصليبيين أخفى المعالم الصليبية بالقلعة ولم يترك إلا بعضها، فالخزنة الحالية مثلاً والمنشآت المقامة على الحافة الغربية للقلعة هي إسلامية بحتة، لكن أساساتها الصليبية واضحة، مما يؤكد أنها بنيت زمن الصليبيين ثم استعملت وجددت زمن المسلمين.

ويمكن تمييز الفترتين الصليبية والإسلامية في مباني القلعة⁽¹⁾، وذلك عن طريق معرفة نوع الحجارة المستعملة، فقد استعمل الصليبيون الحجارة الصوانية الصلبة غير المشذبة والمشبعة باللون الأحمر والأسود، وعلى العكس منهم المسلمون استعملوا حجارة كلسية خشنة منتظمة رمادية أو صفراء اللون، وتحمل بروزاً، وقد أتوا بهذه الحجارة من إحدى المحاجر الغربية من القلعة في الجهة الغربية، أما الصليبيون فأخذوا حجارتهم من المنطقة التي تقوم عليها القلعة⁽²⁾، وقد كانت الكرك آخر الحصون الشرقية التي شيدها الصليبيون في الأردن⁽³⁾.

قلعة الشوبك⁽⁴⁾

الموقع

تقع قلعة الشوبك على قمة التل المرتفع الذي يشرف على بلدة الشوبك الحالية⁽⁵⁾، وهي في صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة⁽⁶⁾، وتبعد الشوبك 214 ميلاً إلى الجنوب من مدينة عمان وهي بلدة صغيرة ترتفع حوالي 1330 متراً عن سطح البحر، وتمتاز بجوها المعتدل صيفاً والبارد شتاءً، بالإضافة إلى أن القلعة ذات موقع متميز وطبيعي وحصين، بالإضافة إلى

(1) ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 318-319.

(2) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص 872.

(3) عبد الرحمن زكي، بين قلاع العرب وقصورهم، ص 68.

(4) قيل إنها قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك والشوبك قلعة منيعة بالحجر الأبيض على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقيه، وينبع من تحت قلعتها عينان إحداهما يميناً والأخرى عن يسارها، ميرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1992م، هامش 3، ص 41، انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 247، المقریزی، السلوك، ج 1، ق 1، ص 93.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص 875.

(6) مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 65، محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 183.

الخنديق العميق الذي كان وما زال يحيطها مؤمناً لها الحماية التامة⁽¹⁾، وتعتبر قلعة الشوبك متممة للكرك من الناحية الإستراتيجية في الأهمية⁽²⁾.

تاريخ القلعة

قام بإرساء دعائم وأساسات هذه القلعة «بلدوين الأول» حاكم مدينة الرها وكذلك حاكم مملكة بيت المقدس⁽³⁾، حيث استقر به المقام في منطقة بها بقايا وآثار قلعة قديمة تتميز بموقع طبوغرافي ممتاز على جبل شاهق الارتفاع لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق واحد، وذلك في عام 509هـ / 1115م فبادر بإعادة بنائها فأصبحت قلعة لا ترام ذات أبراج عالية ضخمة البنيان⁽⁴⁾.

هذا وقد وجه «بلدوين الأول»⁽⁵⁾ جهوده للاستيلاء على الشاطئ السوري فاحتل أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت وصيدا، وبعد أن اطمأن على مركز قوة الساحل اتجه نحو الداخل، إذ أن المصريين عندما حرموا من الاتصال العسكري بسوريا نتيجة نشاط «بلدوين» على الساحل، أخذوا يعتمدون على الطريق البري عبر الأردن للاتصال بسوريا، وقد فطن «بلدوين» إلى ذلك فقام ببناء قلعة الشوبك جنوب البحر الميت، وقد قصد بالإضافة إلى ما سبق الزحف نحو الجنوب والاستيلاء على تجارة البحر الأحمر، وأطلق على القلعة اسم «مونتريال»⁽⁶⁾.

أهمية قلعة الشوبك بالنسبة للأيوبيين

ظهرت أهمية قلعة الشوبك عندما حدث صراع بين «شاور» و«ضرغام» وتدخل «صلاح الدين» مع عمه «شيركوه» لإنقاذ مصر من الصليبيين وعندما ذهبوا بهم إلى مصر سلكوا طريقاً بمحاذاة الشوبك سنة 563هـ / 1167م، ولم ينس «صلاح الدين» ذلك الدور الذي

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص875.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص262-263.

(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص875.

(4) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص262-263.

(5) ذكر صاحب الأعلام الخطيرة أن حصن الشوبك كان ديراً للنصارى دأبوا على توسيعه وتحصينه إلى أن صار حصناً واستدعوا إليه طائفة من الفرنج المجاورين له فزاده الفرنج تحصيناً وجعلوا يشنون منه الغارات على ما دناهم من القرى والضياع ولم يزل في أيديهم إلى أن ملكه بلدوين، انظر، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ص42.

(6) سعاد ماهر، المرجع السابق، ج2، ص876.

كانت تلعبه قلعة الشوبك في قطع الطريق على الجيش الإسلامي، وتعرضت حاميتها له فتوجه إليها سنة (567هـ / 1171م)، وفرض حصارًا محكمًا عليها أذعنت معه حاميتها إلى الاستسلام، وطلبت مهلة عشرة أيام فأعطاهم المهلة، وعندما علم «صلاح الدين» بمسيرة «نور الدين» إلى الشوبك قفل عائداً إلى مصر⁽¹⁾.

وعندما تولى «صلاح الدين» الحكم كان عليه أن يتردد ما بين مصر والشام لتفقد أحوال رعيته وأمور ملكه، وتأمين الاتصال بين شطري دولته من خلال الطريق البري الوحيد عبر الشوبك، والتي لم ترتدع حاميتها من التعرض للقوافل التجارية وقوافل الحجاج والجيوش الإسلامية، وفي عام 572هـ / 1177م تم زواج «ريجنالد دي شاتيون» من الأميرة صاحبة الكرك والشوبك، وحمل لقب أمير الشوبك والخليل، ووصلت به الجراة أنه قام في سنة 577هـ / 1181م بغزو الحجاز ووصل فيها إلى تيماء واستولى على إحدى القوافل التجارية، ثم عاد في السنة التالية فغزا الحجاز بحملة برية بحرية، تصدى لها الأسطول المصري⁽²⁾، بقيادة «لؤلؤ حسام الدين لؤلؤ» وتمكن من إفشالها، وبسبب هذه الأفعال من حامية الشوبك رأى «صلاح الدين» أن يقف أمام الصليبيين في معركة فاصلة فجمع جيشه سنة 583هـ / 1187م واستدرج الصليبيين إلى سهل حطين في الوقت الذي أبقى فيه جزءاً منه بقيادة أخيه «العادل» لمحاصرة قلعة الشوبك⁽³⁾، وتحقق النصر له في حطين واستسلمت القلعة في عام 584هـ - 585هـ / 1189م⁽⁴⁾ وبسقوطها انتهى الوجود الصليبي في الأردن⁽⁵⁾، بعد ذلك أقطع السلطان «صلاح الدين» القلعة لأخيه الملك «العادل»⁽⁶⁾ فبقيت بيده إلى أن أعطاها لابنه الملك «المعظم عيسى»، وفي عام 608هـ / 1211م حدث زلزال في قلعة الشوبك فمات تحت الهدم خلق كثير وسقطت عدة أبراج من قلعتها⁽⁷⁾، إلا أن «المعظم» قام بتحسينها وتجميلها، وجلب إليها غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساطتها⁽⁸⁾.

(1) سعد المومني، المرجع السابق، ص 248.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، ص 250.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 196، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 272.

(5) سعد المومني، المرجع السابق، ص 250.

(6) ذكر العمري في المسالك «الشوبك فتح وقت فتوح الكرك بعد أن دام الحصار سنتين على الكرك وأقطعها الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزالا في يده حتى أعطاها لولده الملك المعظم عيسى فصرف إليهما العناية حتى ترك الكرك مدينة تعنى بنفسها وزادها تحصينا وتحسينا وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار»، انظر العمري، المسالك والممالك، أيمن فؤاد، ص 141.

(7) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 175.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 157.

وقد ذكر «سعد المومني» أن تشار عندما زارها بعد ثماني وعشرين سنة من سقوطها بيد المسلمين أي في سنة 614هـ / 1217م وجد القلعة وأسوارها الثلاثة المتتابعة على درجة من القوة والمنعة بحيث لم ير أحصن منها⁽¹⁾.

ومثال على أهمية الشوبك ومعها الكرك أيضًا بالنسبة للصليبيين والمسلمين على السواء هو أنه عندما قامت محادثات الصلح بين الملك «الكامل» والصليبيين أثناء حصار الصليبيين لمدينة دمياط بقيادة «حنا دي برين» عام 615هـ / 1218م، رأى الملك «الكامل» أن يتنازل للصليبيين عن بعض المواقع الشامية أفضل من فقدان القاهرة والديار المصرية بعد احتلال دمياط، فعرض على الصليبيين عرضًا سخياً يقضي بأن يتنازل لهم عن القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية وجميع ما فتحه «صلاح الدين الأيوبي» من الفرنج بالساحل الشامي ما عدا الكرك والشوبك، ولكن هذا العرض السخي لم يلق قبولا من الصليبيين فبالغوا في الطلب وأصرروا على إضافة الكرك والشوبك لكن المسلمين لم يقبلوا ذلك⁽²⁾ لإدراكهم ما تعنيه القلعتان بالنسبة لوجودهم في بلاد الشام ومصر⁽³⁾، فالشوبك كانت أكثر مناطق بلاد الشام حيوية، ولو أحكم الصليبيون قبضتهم فيها لهددوا طرق المواصلات بين دمشق والقاهرة ولاستطاعوا تمزيق الوحدة الإسلامية، ولعادت الأمور كما كانت عليه قبل أن يجر «صلاح الدين» إمارة الكرك، وهو أمر كانوا يهدفون إليه، ويسعون إلى تحقيقه⁽⁴⁾، كما أن قلعة الشوبك كانت من جملة الأسباب التي أدت إلى الخلاف الذي نشب بين الملك «الناصر داود» وعمه الملك «الكامل محمد»، اضطر معه «الناصر» إلى التنازل عنها لعمه سنة (626هـ / 1228م)⁽⁵⁾، هذا وقد اهتم الملك «الكامل» بها باعتبارها على حد قوله الحصن الذي يحمي رأسه فيه، ويلجأ إليه عند الشدائد، كما اهتم بها من بعده الملك «الصلاح نجم الدين أيوب» (637هـ / 1239-647هـ / 1249)، فقد عثر على نقش محفور على حجر ملقا اليوم داخل الكنيسة في القلعة يتألف من ستة أسطر يعود لسنة (646هـ / 1248م)، بعد وفاة الملك «الصلاح نجم الدين أيوب» عام 647هـ / 1249م، آلت القلعة إلى المماليك وحدثت

(1) سعد المومني، المرجع السابق، ص 250.

(2) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 262-263، سعد المومني، المرجع السابق، ص 251.

(3) الدواداري، كنز الدرر، ج 7، ص 209، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 95.

(4) الظهير الشامي، المرجع السابق، ص 262-263.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج 7، ص 295، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 256-257.

بعض أعمال البناء فيها⁽¹⁾، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر وفي القرن الرابع عشر الميلاديين⁽²⁾.

وصف القلعة

تعلو القلعة المرتفع كما ذكرنا سابقًا ويؤدي إليها في الجهة الغربية من القلعة وقد تم تسويته، بالإضافة إلى تحصين البناء بسور ضخمة تتخلله أبراج مربعة وأخرى مستديرة، بلغ عددها أربعة، بالإضافة إلى الوادي العميق الذي كان يشكل خندقًا يعمل على حماية القلعة وسكانها، ومخطط القلعة غير واضح نظرًا لتراكم الحجارة المتساقطة والترميمات والإضافات التي تم إنجازها خلال العصور المتعاقبة⁽³⁾، أما عن أسوار القلعة فتشير المصادر التاريخية إلى أنه كان لقلعة الشوبك ثلاثة أسوار متتالية، وذلك بعد أن ذكرها الرحالة «تشار» ووصفها بأنها من القوة والمتانة والحصانة، فالأسوار الثلاثة هي السور الخارجي ويرتكز على صخر كبير تخرج منه ثلاث عيون ماء، والسور الثاني وهو كان مزروعًا بالقمح الذي يكفي القلعة سنة، وأخيرًا السور الداخلي وهو السور الرئيسي، ويبدو أن الدمار قد أصاب هذه الأسوار مع مرور الأيام، وقد كانت حجارة هذه الأسوار حجارة صلبة رمادية اللون منحوتة نحتًا ناعمًا، ونوعية حجارتها مشابهة لحجارة الأبراج الشمالية في القلعة والتي تعود للفترة الإسلامية، أما السور الداخلي فهو السور الرئيسي للقلعة، ويعتبر أكثر المعالم وضوحًا إلى اليوم بالرغم من الدمار الذي أصابه⁽⁴⁾.

مدخل القلعة

ذكر «سعد المومني» أن الرحالة في القرن التاسع عشر الذين زاروا قلعة الشوبك قد أجمعوا على وجود مدخل واحد للقلعة في الجهة الشمالية الشرقية منها، وأن هذا المدخل متعرج من النوع المنكسر أو غير المباشر يتخلله درج غليظ نحت في الصخر، ينتهي عند القلعة ببوابة يعلوها قوس تشبه أبواب النصر⁽⁵⁾.

(1) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 251.

(2) سعد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص 876.

(3) سعد ماهر، المرجع السابق، ج 2، ص 876.

(4) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 254.

(5) سعد المومني، المرجع السابق، ص 256.

الحجارة المستعملة في القلعة

هذا وقد استعمل في بناء القلعة عدة أنواع من الحجارة منها الحجارة الكلسية البيضاء ومنها الحجارة الكلسية الصفراء، وهذه بدورها نوعان منها الصلب ومنها الطرى، كما استعملت أيضاً حجارة صوانية مائلة إلى اللون الأسود، إلا أن أكثر أنواع الحجر استعمالاً هي الحجارة الرمادية الصلبة، وهي مميّزة في نصها وحجمها ومنها بنى معظم السور والأبراج في القلعة⁽¹⁾.

قلعة حارم⁽²⁾

الموقع :

هي قلعة حصينة⁽³⁾ تقع في شمال سوريا غرب حلب بالقرب من إنطاكية⁽⁴⁾، وهي في الشعاب الغربية من جبل باريشا، وتطل على السهل المحيط ببحيرة العمق، وتسيطر على الطريق الرئيسي بين إنطاكية وحلب⁽⁵⁾.

تاريخ القلعة

شيدت في منتصف القرن العاشر قلعة صغيرة مشيدة قرب حارم أعقبها غزو بيزنطى بشمال سوريا بقيادة الإمبراطور «نقفور فوكاس» وسقوط إنطاكية عام (352هـ / 963م - 359هـ / 969م)، هذا وقد استعيدت إنطاكية وحارم على يد الجيش السلجوقي بقيادة «سليمان بن قطلمش» سنة 478هـ / 1085م، وفي عام (491هـ / 1097-492هـ / 1098)

(1) سعد المومني، المرجع السابق، ص 292.

(2) حارم بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وعيون ونهر صغير... وهي على مرحلتين من حلب في جهة الغرب وبين حارم وإنطاكية وحلب، انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 259. هذا وقد كانت حارم قبل الفتح صيرة (حظيرة غنم)، وهي الحظيرة التي تحوط بالمواشي ودامت على ذلك في صدر الإسلام إلى أن ملكت الروم إنطاكية سنة تسعة وخمسين وثلاثمائة، فبنوها حصناً ليحمي مواشيهم من غارات العرب ثم صاروا يجددون فيه ويوسعون ويشيدونه، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 55.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 124.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136، النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 385، هامش 3، أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 136.

(5) الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 205.

هددت بموقعها الجيش الصليبي الذي كان يحاصرها في هذا العام، مما اضطر الفرنج أن يعملوا على الاستيلاء عليها، بعد ذلك احتل «نور الدين محمود» سلطان حلب حارم عام (577هـ / 1161م) ولمدة قصيرة، فقد كان فتحًا عظيمًا ومغنيًا جسيمًا⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى فتحه مرة أخرى عام (559هـ / 1164م)⁽²⁾، وعلى الرغم من استعادة «نور الدين» لحارم مرة أخرى إلا أنها هوجمت مهاجمة شديدة من جانب الفرنج فقبل «جد في قتلها فامتعت بحصانتها وكثر من بها من فرسان الفرنج»⁽³⁾، وقيل إنه في شهر ربيع الأول عام (579هـ / 1183م) استولى «صلاح الدين» على القلعة وولى فيها خادماً يقال له «سربك»، ولم تنزل في يد «صلاح الدين» إلى أن مات⁽⁴⁾، هذا وقد استقل بعده ولده الملك «الظاهر» بحلب وأعمالها في صفر سنة 589هـ، ثم تسلم حارم⁽⁵⁾، وفي عام (596هـ / 1199م)، حدثت تقوية للدفاعات القلعة على يد الملك «الظاهر» غازي حاكم حلب والذي شيّد أبراجاً جديدة، ربما كانت القليعة من بينها، وجدراناً استنادية للمنحدرات⁽⁶⁾، ومن هنا ذكر «ابن شداد»: «صار حصن حارم بما جددته فيه الملك «الظاهر» حصناً منيعاً، بعضه على جبل وبعضه على رصيف مبنى بالحجارة والكلس»⁽⁷⁾، وتابع خلفاؤه العمل من بعده⁽⁸⁾، ورممت حارم بعد هجوم المغول عليها سنة (659هـ / 1260م - 670هـ / 1271م) ولكنها لم تحتل مكانة مهمة منذ أواخر العصور الوسطى⁽⁹⁾.

وصف القلعة

هي قلعة حصينة تابعة لحلب، اشتهرت بأنها أقوى الحصون، إذ تقع القلعة فوق مرتفع صخري، ازداد ارتفاعه صناعياً على مر العصور بالاستيطان السكاني، وربما كان محميًا من جميع جهاته بقناة مائية، وثمة مناطق واسعة في السفح المتجانس المحيط بها رفدت أو كسيت بالحجارة ولقد كفت التحصينات جيداً مع الأرض⁽¹⁰⁾، وتحصينات القلعة تتألف من سور

(1) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص58.

(2) سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص95.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص79.

(4) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص66-67.

(5) ابن شداد، المرجع السابق، ج1، ق2، ص67.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص84.

(7) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص56.

(8) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص84.

(9) فولفغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(10) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص136.

حاجز متداع حالياً ولكنه مقوى بأبراج متينة، وتوجد إلى الشرق من ذلك الموقع البيضوى الشكل تقريباً قلعة مستطيلة كبيرة الحجم لم يبق منها سوى أثر ضئيل⁽¹⁾.

قلعة بعلبك

الموقع

تقع هذه القلعة بלבنا على أرض المعبد الكبير الذى يعود تاريخه إلى حقبة مختلفة من عصر الإمبراطورية الرومانية⁽²⁾.

تاريخ القلعة

استولى السلاجقة على قلعة بعلبك وحصونها، وفي عام (531هـ / 1136م - 534هـ / 1139م) سقطت بعلبك بيد «زنكى» أتاك حلب بعد النزاع الذى دب بين أبناء البيت السلجوقى، وعين الأمير «نجم الدين أيوب» والد «صلاح الدين» حاكماً عليها، وقد جرت في ذلك الوقت تحسينات كبيرة على دفاعات القلعة في هذه الفترة⁽³⁾، وقيل في عام (552هـ / 1157م) ملك «نور الدين محمود» بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له «ضحاك البقاعى» منسوب إلى بقاع بعلبك وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق، فلما ملك «نور الدين» امتنع «ضحاك» بها، فلم يمكن «نور الدين» محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى أن لان فملكها واستولى عليها⁽⁴⁾، وفي عام (570هـ / 1174م) حاصر «صلاح الدين» هذه القلعة⁽⁵⁾ واحتلها⁽⁶⁾، قيل إن بناء القلعة انتهى في عهد «صلاح الدين» وخلفائه من الأيوبيين، إذ عليها نقوش لـ «صلاح الدين» و«الظاهر برقوق»⁽⁷⁾، وفي عام (610هـ / 1213م - 621هـ / 1224م) انتقلت القلعة إلى حوزة «بهرام شاه» ابن أخى «صلاح الدين» الذى أجرى العديد من التحسينات الدفاعية بأن أضاف عددًا من الأبراج إليها⁽⁸⁾، وفي عام

(1) فولغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(2) القلاع، دائرة المعارف، الفيصل، ص 107.

(3) القلاع، دائرة المعارف، الفيصل، ص 107.

(4) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 22، هامش 22.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 132، المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 59.

(6) فولغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 67 ص 68.

(7) مجلة الهلال، ج 2، السنة 36 أول ديسمبر 1927م، جمادى الثانى 1346هـ، ص 237.

(8) فولغانغ مولر، المرجع السابق، ص 67 - 68.

(627هـ / 1229م) بعث الملك «الأشرف» صاحب دمشق أخاه الملك «الصالح إسماعيل» إلى بعلبك، فحاصرها ونصب عليها المجانيق ورمها بأحجارها⁽¹⁾.

وتسلم «الأشرف» قلعة بعلبك من الملك «الأبجد بهرام شاه» بعد حصار طويل⁽²⁾. وفي عام 644هـ / 1246م نازل السلطان «نجم الدين أيوب» بعلبك وحاصر قلعتها وضايقها فسلمها أهلها بالأمان⁽³⁾، وفي عام 659هـ / 1260م استولى المغول على بعلبك وخربوها ولكنها سرعان ما رمت في العصر المملوكي⁽⁴⁾.

وصف القلعة

«هي قلعة عظيمة من القلاع المشهورة⁽⁵⁾ مرجلة على وجه الأرض مثل قلعة دمشق، يستدير بها وبالمدينة سور منيع محصن عظيم البناء بالحجارة الثقيل الكبار من الصخر الشديد المانع وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج ويدنتين كوامل ذوات أطوال وعروض وسمك مرتفع كأفلاق الجبال، وفي القلعة عمد عظيمة شواحق وسبعة الدور منيفة العلو، وفي هذه القلعة من عمائر تفرد بها من الملوك الأيوبيية آثار ملوكية جلييلة القدر جلية الحسن كالدار الأجمدية والبحيرة⁽⁶⁾»، قال عنها «أبو الفدا»: «بعلبك بلدة قديمة ذات أسوار ولها قلعة حصينة عظيمة البناء⁽⁷⁾»، وذكر عنها «القلقشندي»: «هي قلعة حصينة جلييلة المقدار من أجل البنيان وأعظمه، وهي مرجلة على وجه الأرض كقلعة دمشق، وقيل إنما بنيت قلعة دمشق على مثالها، وهيئات لا تعد من أمثالها، وأين قلعة دمشق منها وحجارتها تلك الجبال الثوابت وعمدها تلك الصخور النوابت، وبهذه القلعة من عمارة من نزل بها من الملوك الأيوبيية آثار ملوكية جلييلة، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعاً سور عظيم البناء مبنى بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصلابة، ويحف بذلك غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار الفائقة والفواكه المختلفة⁽⁸⁾».

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، أحداث سنة 627هـ.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص127، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص145، المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص237-238.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص361.

(4) فولغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص67-68.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص167.

(6) العمري، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص123.

(7) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص255.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص109-110، قيل عن مدينة بعلبك إنها مدينة حسنة وقديمة من أطيب مدن الشام وهي تضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، انظر بن جبير، الرحلة، ص102.

قلعة بصرى⁽¹⁾

استخدم المدرج الروماني منذ وقت مبكر كحصن وزود بأبراج وأسوار في العهدين الفاطمي والسلجوقي⁽²⁾، ولكن عندما جاء الأيوبيون إلى بصرى أدركوا أهمية تحويله إلى قلعة منيعة وذلك بتشيد عدد كبير من الأبراج حوله⁽³⁾، وزودت القلعة في داخلها بالمنشآت العديدة⁽⁴⁾، وقد جرى في السنوات الأخيرة هدمها، وذلك من أجل الكشف عن معالم المدرج الأثري (المسرح)، وبقي سور القلعة وأبراجها كاملة، تحيط بالمدرج وتحمل أسماء بُنائتها⁽⁵⁾، ومنهم الملك «العادل أبو بكر أيوب» الذي سلمت بصرى إليه في عام 589هـ / 1193م⁽⁶⁾، والملك «الصالح إسماعيل» و«الصالح نجم الدين أيوب»⁽⁷⁾ وتواريخها (599هـ - 1202م / 1203م) و(608هـ / 1211م) و(609هـ / 1212م) و(610هـ / 1213م) و(612هـ / 1215م) و(615هـ / 1218م)⁽⁸⁾، كما أن هناك نقشًا آخر باسم الملك «الصالح» تاريخه (625هـ / 1228م)⁽⁹⁾، وأحد تلك الأبراج يشبه من الداخل ما في قلعة الجبل يشتمل على قاعدة كبيرة يعلوها قبو شيدت على نسق الأسلوب المتعامد⁽¹⁰⁾، هذا وقد كانت قلعة بصرى من القلاع المهمة التي بنيت على مثال قلعة دمشق، وهي أقدم من الإسلام، جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة⁽¹¹⁾.

(1) بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف في الآخر، وهي مدينة بحوران من أعمال دمشق وهي مدينة أزية مبنية بالحجارة السود، ولها قلعة ذات بناء متين شبيه ببناء قلعة دمشق، وكانت دار ملك لبني أيوب، هذا وقد ذكر من حديث الخندق أنه - صلى الله عليه وسلم - قال «ثم ضربت الضربة الثالثة فلاحت لي منها قصور بصرى كأنها أنياب الكلاب» وهي التي وجد النبي - صلى الله عليه وسلم - بها بحيرى الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خويلد قبل البعثة وقبر بحيرى هناك مشهور يزار، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 107 - 108، قيل أيضًا إن بصرى بالشام من أعمال دمشق كورة حوران مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 741، النويري، نهاية الأرب، ج29، ص 71، هامش 4، المقرزي، السلوك، ج1، ق1، ص 92.

(2) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 151.

(3) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 119.

(4) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 63.

(5) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 151.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص 125.

(7) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص 167.

(8) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 151.

(9) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 151، عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 119.

(10) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 119.

(11) محمد كرد علي، خطط الشام، ج5، ص 293.

قلعة نمرود (الصبيبة - بانياس)⁽¹⁾

الموقع

قلعة في الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية تسمى قديمًا «جبل حرمون» وحاليًا «جبل الشيخ»⁽²⁾، وهي تقع إلى الشمال مباشرة من مدينة بانياس الصغيرة⁽³⁾ على الحدود بين سوريا وفلسطين المحتلة قرب منابع نهر الأردن، وهي تحتل جرفًا صخريًا متطاولاً يطل على هضبة عالية ترتفع تدريجيًا نحو الشمال وتواجه دفاعاتها الرئيسية الجبال في الشمال⁽⁴⁾، أي أنها تتمتع بحصانة طبيعية من جهة الشمال⁽⁵⁾، أما في الجنوب فدرجة الميل المتواضعة على السفوح الجنوبية تطلبت تحصينات أقوى على هذا الجانب الذي كانت تحميه ثمانية أبراج مربعة مستطيلة الشكل⁽⁶⁾ وحصون بارزة من أحجام مختلفة وتصميم مختلف، ومن فوق أبراج القلعة يمكن مراقبة الطرق الإستراتيجية الممتدة من دمشق في الشام إلى قاعدة صور على الساحل، ويمكن أيضًا مراقبة وادي الأردن والحولة، فكانت القلعة بموقعها هذا تمثل خطرًا على دمشق وبيت المقدس، إذ عن طريقها يمكن ضربها في وقت واحد، ومن ثم جاءت خطورة الدور الذي لعبته في الحروب الصليبية⁽⁷⁾، ذكرنا سابقًا أن الناحية الشمالية من القلعة تتمتع بحماية طبيعية؛ لأنها على سفح صخري شديد الانحدار ولم يكن يحميه سوى سور بسيط مضلع السطوح، بينما كان الجناح الغربي مع الظروف الطبوغرافية وهو محمي بعدة أبراج قوية مثل الجناح الجنوبي⁽⁸⁾، هذا وقد ذكر عن هندسة القلعة وأبراجها أنها عربية صرفة ومثال نافع في إنشاء القلاع⁽⁹⁾.

(1) بانياس، اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار حمضيات وغيرها وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميله إلى الجنوب، والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون المنيعة، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 249، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 281، هامش 2، هذا وقد ذكر العزيزي «ومدينة بانياس في لجف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمام لا يعدم منه صيفًا ولا شتاء»، انظر، أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 148.

(2) أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 141.

(3) ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 322.

(4) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 52.

(5) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 244.

(6) ر.س. سميل، المرجع السابق، ص 323.

(7) أسامة سيد، الظهير الشامي، ص 245، نفس الكلام عند مولر، القلاع في الحروب الصليبية.

(8) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 52.

(9) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 57-58.

هذا وقد قيل إن قلعة صبيبة تشبه الكثير من القلاع الغربية ذات البرج المحصن والفناء المسور الداخلى والخارجى، وكانت أكثر شهرة من القلاع الأوروبية المعاصرة لها بسبب كبر حجمها، ولأن دفاعاتها الخارجية مبنية من الحجارة لندرة الأخشاب في سوريا وشيوع استخدام الحجر في البناء، ولكن لم يكن هناك تفنن كبير في وسائل دفاعها⁽¹⁾.

تاريخ القلعة

لقد كان في موضع هذه القلعة حصن للإسماعيلية سنة 520هـ / 1126م⁽²⁾ استولى عليه الصليبيون سنة 525هـ / 1130م، لكن الأتابك «عماد الدين زنكى» استطاع أن يستخلصه من أيديهم (527هـ / 1132م) وأقام فيه نائباً عنه، لكن الصليبيون استطاعوا أن يستولوا على الحصن مرة أخرى وأقاموا فيه بعض المنشآت⁽³⁾، حاول «نور الدين محمود» استعادة الحصن وذلك عام (552هـ / 1157م) بعد عدة محاولات باءت بالفشل، ولكنه كرر هجومه على القلعة سنة (560هـ / 1164م) وأجبرها على الاستسلام لتصبح بعد حصار طويل بيد العرب⁽⁴⁾، ظلت القلعة ضمن الأملاك العربية، لكن نظراً لنجاح الفرنج في الحملة الصليبية الخامسة في الاستيلاء على دمياط جردت القلعة من وسائل دفاعها على يد «المعظم» أمير دمشق لمنع الفرنج من استخدامها كقاعدة لهجماتهم الخطيرة ضد دمشق⁽⁵⁾، هذا وقد ملك «المعظم عيسى» بانياس في عام (630هـ / 1232م)، وقيل إنه هو الذى بنى قلعة الصبيبة⁽⁶⁾، هذا وقد تسلم نواب السلطان «نجم الدين أيوب» قلعة الصبيبة في عام (645هـ / 1247م)⁽⁷⁾، هذا وقد فقدت القلعة أهميتها بعد العصور الوسطى، وألت تدريجياً إلى السقوط⁽⁸⁾ بعد أن كانت من أجل قلاع الشام وأمنها⁽⁹⁾.

(1) ر.س. سميل، المرجع السابق، ص 323.

(2) فولغانغ مولر، المرجع السابق، ص 53.

(3) أبو الفرج العس، المرجع السابق، ص 57-58.

(4) فولغانغ مولر، المرجع السابق، ص 53.

(5) فولغانغ مولر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) ذكر الحنبلى قائلاً «وفيهما أى سنة 630هـ وفيها الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب شقيق المعظم

وهو صاحب بانياس وتين، وهو الذى بنى قلعة الصبيبة بين هؤلاء البلدان، العماد الحنبلى، ج 5، ص 36.

(7) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 2، ص 329، هامش 1.

(8) فولغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 53.

(9) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 281، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 4، ص 104، النويرى، نهاية

الأرب، ج 29، ص 21.

قلعة شقيف آرنون⁽¹⁾

الموقع

قلعة في جنوب لبنان⁽²⁾ تقع فوق جرف جبلي شديد الانحدار⁽³⁾ ارتفاعه 2200 قدم⁽⁴⁾ مقابل نهر الليطاني، وقيل إنها مثل قلعة صبيبة (بانياس)⁽⁵⁾ التي تقع على اتصال بالنظر معها، تتحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة⁽⁶⁾.

تاريخ حصن الشقيف

كان حصن الشقيف تحت السيطرة الفاطمية حتى عام 470هـ / 1177م عندما استولى عليه السلاجقة بقيادة «تتش»⁽⁷⁾، وظل تحت الحكم السلجوقي⁽⁸⁾ إلى أن استولى الملك

(1) قال عنها أبو الفدا في المشترك «شقيف آرنون بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس، وآرنون باسم رجل والشقيف المذكور والشقيف أيضًا شقيف تيرون بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ونون قال وهي قلعة بقرب صور الساحل»، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 245، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 154، وذكر عنها الحموي، «أنا كالكهف أضيف إلى آرنون اسم رجل إما رومي وإما إفرنجي، وهو قلعة حصينة جدًا في كهف من الجبل، الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 356، هذا وتعرف قلعة الشقيف عند الغربيين باسم بلفورت (Bolfort)، وسماها العرب شقيف عرنون نسبة إلى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون، وتقوم هذه القلعة وكأنها عش نسر على شاهق يشرف على نهر الليطاني على ارتفاع 2199 قدمًا فوق سطح البحر، وهي بمنزلة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبي الذي يربط صيدا وصور بالبقاع فدمشق، لمزيد من التفاصيل انظر محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 186، هامش 3، هذا وقد قيل إن الشقيف كلمة آرامية الأصل والبعض الآخر يذكر أنها من أصل سرياني وفي كلتا الحالتين معناها الصخر الشاهق المشرف على المغارة والكهف، أنيس فريجة، أسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها دراسة لغوية، بيروت 1956م، ص 16، ذكر المقرئزي «أن الشقيف إليها اسم آرنون تميزا لها من شقيف دركوش وشقيف دين، وكلها بالشام»، انظر المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 77، هامش 1.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 356، مجلة الفيصل، دائرة المعارف، ص 108.
(3) أجفان الصغير، القلاع في الحروب الصليبية، ص 140، ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 321، كمال بن مارس، مملكة بيت المقدس، ص 44.
(4) مجلة الفيصل، دائرة المعارف، ص 108، سرور على عبد النعيم، الدور السياسي لحصن شقيف آرنون في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة طنطا، 1997م، ص 42.
(5) تسمى اليوم قلعة النمروذ، ولهذه القلعة موقع، لمزيد من التفاصيل انظر قلعة الصبيبة (بانياس) من الفصل نفسه.

(6) فولغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 80.
(7) هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن السلطان ألب أرسلان، حضر إلى بلاد الشام؛ لأن أخاه ملك شاه أقطعه الشام وما يفتحه في تلك البلاد، ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 175، سرور على، حصن الشقيف، ص 90-91.

(8) سرور على عبد النعيم، حصن الشقيف، ص 90.

«فولك» على معقل الشقيف⁽¹⁾ عام (534هـ / 1139م)، ووهبها إلى صاحب صيدا الإقطاعي «أرناط»، هذا وقد جرت تقوية القلعة بإضافة برج محصن إليها مع سور خارجي متين، وظلت قلعة شقيف آرنون في حوزة «أرناط»، فقد كانت هذه القلعة من أهم القلاع التي تشرف على مدخل صيدا⁽²⁾، إلى أن عزم «صلاح الدين» على فتح شقيف آرنون وهو من أمنع الحصون⁽³⁾ فسار إليها من دمشق عام 585هـ / 1189م⁽⁴⁾، وأقام بمرج برغوت ثم رحل إلى بانياس، ثم إلى مرج عيون، فخيم بالقرب من شقيف آرنون بضعة أيام⁽⁵⁾، وكان صاحب هذه القلعة «أرناط» من أشد الناس دهاء ومكرًا، فقد طلب هدنة من «صلاح الدين» حتى يسلم إليه الحصن ولكنه كان يباطل واستغل «أرناط» هذه المدة التي منحه إياها «صلاح الدين» في تقوية حصنه، وتدعيم استحكاماته⁽⁶⁾، وترميم أسواره، بالإضافة إلى تزويد الحصن بالأقوات والمؤن والسلاح الوافر، فيبلغ السلطان فلا ينكره بحسن ظنه⁽⁷⁾، ولكن عندما أحس «صلاح الدين» بالخدعة، قرر محاصرة الشقيف والاستيلاء عليه سنة (586هـ / 1190م) بعد عام، فحاصره وضيق عليه وقبض على «أرناط» وسيره إلى دمشق وسجنه هناك وجعل على الشقيف من يحفظه⁽⁸⁾، ويذكر «العماد الأصفهاني» في ذلك «فسامه على أن يسلم صاحبه، وتخلص في النجاة مذاهبه، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه، وتركه للإسلام بما يحويه، وأفرج عن صاحب صيدا وسار إلى صور»⁽⁹⁾.

بدأ حصن الشقيف مرحلة جديدة في تاريخه بعد أن ضمه «صلاح الدين» إلى ممتلكاته، كما كان حصن الشقيف مركزًا من مراكز الانطلاق للهجوم على الممتلكات الصليبية المجاورة لاستردادها ومركزًا للدفاع عن المنطقة المجاورة⁽¹⁰⁾، وكان «صلاح الدين» قد

(1) محمود محمد الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 186، هامش 1.

(2) السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي، الإسكندرية 1970م طبع في دار الأحد (البصيري إخوان) بيروت، ص 118.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 197.

(4) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 102.

(5) سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص 168.

(6) مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 80.

(7) النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 413.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 199.

(9) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 359.

(10) انظر:

Dechamp (p), la defense du Royaume de Jerusalem etude historique, geographique et Monument, les chateaux des croises en terre saint, II, Paris, 1939, p160.

منح هذا الحصن كإقطاع لـ «عز الدين سياروخ»⁽¹⁾ ثم عزله ومنح حكمه لـ «فخر الدين جهاركس»⁽²⁾ فانتزعه منه وعين بدلاً منه «شمس الدين سنقر»⁽³⁾، هذا ويرى أن تعيين ثلاثة قواد من أمهر قواده وأكفأهم يرجع إلى اهتمام «صلاح الدين» بحصن الشقيف بحيث يضمن صموده أمام الأعداء، وبعد وفاة «صلاح الدين» عام 589هـ / 1193م أصبح حصن الشقيف خاضعاً لنفوذ الملك «الأفضل» تحت حكم «شمس الدين سنقر»، هذا وقد كان صاحب الشقيف «فخر الدين جهاركس» يحافظ بصفة دائمة على متانة أسوار الحصن وأبراجه، فقام بترميمات عديدة لحصن شقيف آرنون نتيجة لإصابته ببعض التشققات إثر الزلزال الذي أصاب بلاد الشام (597هـ / 1201م)، خشية أن يتعرض لهجوم من جانب الصليبيين⁽⁴⁾، فقام بعملية إصلاح وترميم لدخل الحصن وترميم الجهة الشمالية، بالإضافة إلى ترميم وإصلاح جهته الجنوبية، كما قام ببناء البرج السادس للمراقبة ومناوشة الصليبيين، والبرج السادس أكثر أهمية وهو دائري الشكل وله ميزة مختلفة؛ لأنه يستند إلى منحدر مدور بإفريز مزين ببعض الحجارة التي تؤدي إلى إعاقة المهاجم على الحصن⁽⁵⁾، وقد ظل حصن الشقيف بأيدي المسلمين حتى عام 638هـ / 1240م، عندما سلم الملك «الصالح إسماعيل» قلعة الشقيف للفرنجة⁽⁶⁾، وذلك لغرض في نفسه فمقته المسلمون، وأنكروا عليه ذلك⁽⁷⁾.

(1) عز الدين سياروخ من عماليك صلاح الدين توفي في خامس رجب 607هـ، انظر المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص173، سرور على حصن الشقيف، ص90.

(2) فخر الدين جهاركس، كان من أمراء الدولة الصلاحية بن عبد الله الناصري الصلاحى الملقب بفخر الدين، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص331، سرور على، حصن الشقيف، ص91.

(3) شمس الدين سنقر: هو أحد الأمراء الصلاحية وكان مقرَّباً من صلاح الدين الأيوبي، والى ابنه الملك العزيز عثمان حاكم مصر بعد وفاة أبيه، تولى حكم الشقيف بعد عزل جهاركس، وتوفي 594هـ، انظر أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، القاهرة 1906م، نقلاً عن سرور على حصن الشقيف، ص99.

(4) سرور على، الدور السياسي حصن شقيف آرنون، ص99.

(5) سرور على، الدور السياسي لحصن الشقيف، ص100.

Dechamp, Les chateaux des croisses, p202.

(6) المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص303، النجوم الزاهرة، ج6، ص338، أحداث 638هـ.

(7) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج3، ص232، العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص189.

وصف القلعة

يأخذ حصن الشقيف شكل مثلث الزوايا وقياسه 160 مترًا طولاً و100 متر عرضاً، ويوجد فيه فناء في الجبهة الشرقية، وهذا الفناء ترسو أسواره على الصخر لتشكل جبهة منيعة؛ لأنها تسيطر على 300 متر كحائط واحد، فيصعب على العدو أن يغزو الحصن من ناحية الشرق، وكان الحصن يحاط من الناحية الجنوبية بخنادق واسعة، وفي الشمال يحاط بحوض واسع، وقد راعى الصليبيون ذلك عندما بدءوا يطورون تحصين الحصن بما يتناسب مع آلات الحصار الخاصة بالمسلمين وأسلحتهم، وكانت هذه الخنادق مهمة إلى حد كبير؛ لأنها تمثل عقبة كبيرة للعدو⁽¹⁾، ولا يستطيع أن يحقق انتصاراً إلا بعد أعمال تمهيدية عالية جداً وهجمات انتحارية⁽²⁾، هذا وقد كان القسم الرئيسي من الحصن منصّباً كما لو كان بروزاً من صخر ويرتفع بضعة أقدام فوق الأرض المحيطة به، ورغم ذلك فكان الهجوم عليه من جميع الجهات أمراً وارداً وسهلاً باستثناء الجهة الشمالية، فكان يوجد من جهة الشرق رف صخري مسطح يبلغ عرضه حوالي 50 ياردة يفصل موقع الحصن الطبيعي عند حافة جرف شبه قائم يرتفع حوالي 100 قدم عند وادي الليطاني، وبعد تسوير هذا الرف داخل رقعة الحصن يشكل فناءً سفلياً مسوراً⁽³⁾، ويتبين أن حصن الشقيف⁽⁴⁾ مثل حصن الكرك؛ لأنها يشكّلان خطوطاً دفاعية متعاقبة⁽⁵⁾، وتعتبر هذه القلعة ذات مركز إستراتيجي مهم⁽⁶⁾، بالإضافة إلى أنها أقوى الحصون التي شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت المقدس⁽⁷⁾.

(1) سرور على، حصن الشقيف، ص 51.

(2) Ray, (G) Etudes sur les Monuments de L'architecture militaire de croises, en Syrie Paris, 1871, p132

(3) سرور على، حصن الشقيف، ص 51.

(4) ذكر في موضع آخر لوصف قلعة الشقيف أنها تتكون من قلعتين متصلتين الأولى لها برج محصن وسور، هذا السور في غاية الحصانة بالإضافة إلى أنه ضخيم وهو من الحجارة المتداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة، أما القلعة الأخرى فتصل عن طريق عم صخري ضيق بالقلعة الأولى من جهة الشرق وهي محصنة بأبراج مع سور خارجي متين، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 154، فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 80.

(5) سرور على، حصن شقيف، ص 52.

(6) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، ص 134.

(7) عبد الرحمن زكى، القلاع فى الحروب الصليبية، ص 55.

قلعة كوكب⁽¹⁾

الموقع

قلعة كوكب من القلاع المهمة التي أقامها الصليبيون في منطقة الجليل، والتي كان لها شأن في عهد الحروب الصليبية⁽²⁾، والقلعة تقع على ارتفاع 500 متر فوق سطح البحر، كما أنها تطل على مجرى نهر الأردن⁽³⁾، كما تشرف على المخاضة المهمة إلى الجنوب من طبرية⁽⁴⁾، والجليل والجلولان عن بعد، أي أنها تحكمت في جنوب بيسان⁽⁵⁾، وتحكمت في مخاضة نهر الأردن⁽⁶⁾.

الهدف من بناء قلعة كوكب

كان الهدف من بناء قلعة كوكب هو حماية الطرق المحلية، كما كانت تتصل بقلعة صفد عن طريق استخدام الإشارات النارية (Fire - Signals)، وكانت هذه القلعة مؤسسة على مساحة 380 قدمًا طولاً و320 قدمًا عرضاً، ولها سبعة أبراج مربعة الشكل⁽⁷⁾، هذا بالإضافة إلى أنها كان لها تحصين طبيعي من جانب سورها الشرقي، إذ يقع في هذا المكان منحدر تلال وادي الأردن، ولذلك لم تكن القلعة في حاجة إلى تحصينات إضافية⁽⁸⁾، ومن هنا يمكننا القول إن قلعة كوكب الهوى (Bolvoir) التي شيّدت⁽⁹⁾ على الأسلوب البيزنطي، إذ يحيط بها سور

(1) قلعة كوكب تشبه قلعة بيت جبرين في بنائها، فقد كان لها عدة أسماء وردت في المصادر العربية باسم كوكب الهوى، وحصن كوكب، أما المصادر الأجنبية فقد أشارت إليها Beauvoir و Belvoir و Coquet، وذلك لأنها كانت تطل على منظر جميل، انظر، الظهير الشامي، رسالة دكتوراه، ص 214، نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص 79، هذا وقد كانت قلعة كوكب قلعة حصينة رصينة تشرف على الأردن، فيه من الرجال والأقوات، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، حاشية 3، ص 36.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 60، هامش 2.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 188، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 38، ر.س. سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 333.

(4) المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 1، ص 99، محمود الخويري، المرجع السابق، ص 184.

(5) ر.س. سميل، المرجع السابق، ص 333.

(6) محمود محمد الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 208.

(7) انظر: Smail, Crusading warfare p231.

(8) نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص 79.

(9) لا تذكر المصادر شيئاً عن تاريخ قلعة كوكب، ومن المحتمل أن ذلك حدث فيما بين سنتي (533هـ / 1138م و535هـ / 1140م) في عهد الملك فولك، وقد كانت قلعة كوكب في بدايتها عبارة عن مبنى صغير يمتلكه فرنسي يدعى إيفوفيلوس Ivoelos، وقد باع هذا النبيل القلعة لهيئة الاستبارية 564هـ / 1168م، لمزيد من التفاصيل انظر نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص 79، عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 59.

خارجي يكاد يكون مربع الشكل تقريباً، وتدعمه الأبراج ويقوم في وسطها حصن عال كان يؤلف في الواقع قلب الدفاع⁽¹⁾.

وقد كانت قلعة كوكب من الحصانة والقوة والمناعة حتى إن «العماد الكاتب» قال عنها «كوكب في سمائها كأنها الكوكب»⁽²⁾، قيل أيضاً إنها راسية راسخة شاء شائخة⁽³⁾، وربما قصد «العماد» من قوله هذا أنها كانت ملكاً لقوم أشداء شكلوا خطورة على المسلمين فهي من المصاعب التي لا تبرك ولا تتركب⁽⁴⁾، فهي نجم في سهاب، وعقاب في عقاب وهامة لها الغمامة وعمامة⁽⁵⁾، فقد كان حصناً قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة⁽⁶⁾، هذا وقد جاء في قول «ابن كثير»: «إنه في المحرم من هذه السنة (584هـ / 1189م) حاصر «صلاح الدين» حصن كوكب فرآه منيعاً صعباً فوكل به الأمير «قايماز النجمي»⁽⁷⁾ لمحاصرتها وفعلا جاء له النصر وظفر بفتح القلعة»⁽⁸⁾، وتم فتح الحصن بعد عناء⁽⁹⁾، وتسلم القلعة سنة (584هـ / 1189م)⁽¹⁰⁾، وفي عام (608هـ / 1211م - 609هـ / 1212م) ضرب الملك «العاذل» حصن كوكب⁽¹¹⁾ ومحا أثره وبنى حصناً على جبل الطور، ثم ضربه الملك «المعظم» عام 614هـ / 1217م⁽¹²⁾ مخافة أن يملكه الفرنج⁽¹³⁾؛ لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا في البلاد، لكن المماليك استولوا على القلعة في عام 662هـ / 1263م⁽¹⁴⁾.

(1) محمود محمد الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 191.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 204.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 155، العمري، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص 136.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 204.

(5) محمد كرد علي، خطط الشام، ج 5، ص 293 - 294.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 134.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 190، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 247، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 63، نفس الكلام عند يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع في بيروت في المطبعة العمومية الكاثوليكية 1893، 8 أجزاء، ج 6، ص 112.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 190.

(9) عمر صالح البرغوثي و خليل طوطح، المرجع السابق، ص 193.

(10) سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص 167، نفس الكلام عند النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 411 ص 412.

(11) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 63.

(12) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 174.

(13) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 78، عمر صالح البرغوثي، تاريخ فلسطين، ص 204.

(14) نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص 80.

قلعة شيزر

الموقع⁽¹⁾

حصن أو قلعة شيزر قريبة من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة⁽²⁾، هذا وقد أفاض «فيليب حتى» في تحريره لكتاب «الاعتبار» عن هذه القلعة قائلاً «على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من حماة أكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصي الغربية يكللها حصن لم يزل قائماً لليوم معروفًا باسم «سيجر» تحريف شيزر وشيزر هو المرشح (المسرح) الذي تمثلت عليه معظم الحوادث المدونة في الكتاب، والتي جرت وقائعها في أيام «أسامة الفتى»، والهضبة لتوثها سماها مؤلفو العرب «عرف الديك»⁽³⁾، ونهر العاصي يلتف حول الأكمة من جهاتها الثلاث، فهي إذن شبه جزيرة بوضعيتها الجغرافية، غير أن الإنسان أكمل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر مما زاد في مناعة الحصن وتعذر الوصول إليه، وشيزر اثنان: قسم واقع ضمن القلعة على الراية وهو البلد، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو المدينة، وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها يفتح نحو الجسر، وعلى الجسر حصن أطلق عليه «حصن الجسر»، أما إذا غزا غاز البلاد السورية من الشمال فأمامه طريقان: طريق بحرية تمر في اللاذقية، فالساحل الفينيقي وهي الطريق التي اختارها «الإسكندر» وكثير من الغزاة الآشوريين، وطريق داخلية تماشى العاصي إلى حماة فحمص، ثم تنعطف غرباً مع وادي النهر الكبير حتى البحر شمال طرابلس، أو أنها تستمر من حمص في سهل البقاع، وتتصل أخيراً بالساحل الغربي جنوباً عند أقدام سلسلة جبال لبنان، والطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريين والبابليين مثل «رعمسيس»، و«نبوخذ نصر» وهي التي آثرها أكثر الصليبيين⁽⁴⁾، ولا بد لمن طرق هذه الطريق

(1) بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الزاي المعجمة وفي آخرها راء مهملة، وهي قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان، وهي مدينة أيضاً ذات أشجار وفواكه كثيرة وبينها وبين حماة تسعة أميال، انظر الحموي، معجم البلدان، ج3، ص383، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص123.

هذا وقد ذكر عن موقعها أيضاً أنها تقع على صخرة متصلة بالهضبة الشرقية المشرفة على سهل الغاب إلى جنوبي قلعة المضيق، لمزيد من التفاصيل انظر أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص105.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص53، 55.

(3) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد، ص205.

(4) أسامة بن منقذ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزري، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى د.ف، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة 1930م، ص(ت المقدمة).

الثانية من الاجتياز بأفامية (قلعة المضيق) وبأختها الجنوبية شيزر المسلمنة على وادي العاصي، هذا ما يجعل لموقع شيزر خطورة حربية⁽¹⁾، ونظرا لأهمية موقع شيزر الجغرافي وباعتبارها مفتاح سورية الداخلية بقيت مطمع أبصار البيزنطيين الذين استخلصوها مرارًا من أيدي العرب وخسروها، هذا وقد حاول الفرنج تكرار الاستيلاء عليها، ولكن من غير جدوى، لمناعتها الطبيعية، وحصونها المتينة، وزعامتها المنقذية أنقذتها كل مرة من السقوط، هذا وفي عهد تاج الدولة «ناصر الدين محمد» وهو آخر الأمراء المنقذين، حدثت في أيامه مأساة مفرجة قضت على بني منقذ بأسرهم، بمناسبة اختتان ولد لتاج الدولة، أولم الوالد وليمة حضرها جميع آلهم، وفي أثناءها حدث الزلزال الشهير عام 552هـ / 1157م⁽²⁾ الذي هلك فيه ما لا يحصى، والذي خرب بالمرّة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وحمص، وحصن الأكراد، ولم ينج من بني منقذ أحد سوى زوجة تاج الدولة التي انتشلت من تحت الردم إلا أن «نور الدين» صاحب دمشق عاد فعمر شيزر⁽³⁾ حين ملكها وعمّر أيضًا أسوارها ودورها وأعادها جديدة⁽⁴⁾ سنة 564هـ / 1168م، وأقام عليها «مجد الدين أبا بكر بن الداية»، وهو أخوه من الرضاة ولذلك سمي «ابن الداية»⁽⁵⁾.

وأهم ما في هذه القلعة اليوم هو: برجها الجنوبي المطل على خندق يملؤه نهر العاصي جدد في العصر الأيوبي، وعليه كتابة في واجهته تنسب بناؤه إلى الملك «العزیز محمد بن الظاهر غازي» 630هـ / 1232م، والبرج الثاني هو برج باب القلعة، ويبدو أنه جدد في العصر الأيوبي، ثم طرأ عليه ترميم بسيط في العصر المملوكي، ونقشت عليه كتابة تنسب تجديده إلى السلطان «قلاوون» 689هـ / 1290م⁽⁶⁾، وهذه القلعة حازت شهرة كبيرة في التاريخ⁽⁷⁾ نظرًا للأحداث والظروف السابقة التي مرت بها.

- (1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، ص 10.
- (2) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 125، هامش 4، أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 10، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 55.
- (3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 55، أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص (المقدمة).
- (4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 55.
- (5) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 125 - 126، هامش 4.
- (6) عبد القادر الريحاني، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سوريا، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1999م، ص 171 ص 172.
- (7) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، هامش 4، ص 125.

قلعة الطور⁽¹⁾

الموقع

تقع على قمة جبل طبرية الأردن⁽²⁾.

تاريخ بناء القلعة

في عام (607هـ / 1211م - 608هـ / 1212م) أنشأ الملك «العاذل» قلعة منيعة على الطور، حيث ذكر «المقريزي» في كتابه السلوك «في عام تسعة وستمائة نزل «العاذل» بعساكره حول قلعة الطور، وأحضر الصنائع من كل بلد واستعمل جميع أمراء العسكر في البناء ونقل الحجارة، فكان في البناء خمسمائة بناء سوى الفعلة والنحاتين»⁽³⁾، ولما تولى «المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب»⁽⁴⁾ أنفق عليها الأموال الجمة وأحكمها غاية الأحكام، وذكر «ابن الجوزي» في ذلك قائلاً «والمعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة «العاذل» فلا يحصي ما غرم عليه»⁽⁵⁾.

وفي عام 614هـ / 1218م⁽⁶⁾، ذكر «ابن الأثير»: «لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من بجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه فاتفق بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا، وكانت مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوماً، ولما فارقوا الطور أقاموا قريباً فتوجه «المعظم» إلى قلعة الطور فخرّبها إلى أن ألحقها بالأرض»⁽⁷⁾؛ لأنها بالقرب

(1) الطور بالضم ثم السكون وآخره راء والطور في كلام العرب الجبل، وقال بعض أهل اللغة لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ولا يقال للأجرد طور، والطور جبل بعينه مطلق على طبرية الأردن بينها أربعة فراسخ على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق، هذا وذكر القلقشندي أنها مفردة على جبل الطور، لمزيد من التفاصيل انظر الحموي، معجم البلدان، ج4، ص47، انظر أيضاً القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج4، ص155، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص231.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص215، النويري، نهاية الأرب، ج29، هامش 1، ص79.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص176، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص545.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص79، هامش 1، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص202.

(5) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص585.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص171، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص220.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص202، العمري، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص136،

القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص155، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص176، النويري، نهاية الأرب، ج

29، ص81، ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة 614هـ.

من عكا ويتعذر حفظها⁽¹⁾، وفي ذلك ذكر «صاحب النجوم الزاهرة» قائلاً «استدعى الملك «العادل» ابنه «المعظم»، وقال له قد بنيت هذا الطور وهو قد يكون سبباً لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين وسلاح الدنيا والذخائر، وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط وأنا أعوضك عنه بالمال ووعدته في مصر ببلاد، فأجاب «المعظم» ويعث ونقل من كان فيه⁽²⁾، هذا ولم يبق إلا شيء قليل من حصونه اليوم⁽³⁾، وفي برج خرب نلاحظ فتحة للسهم (مزغل) على شكل حربة، يشبه في تفاصيله المعمارية المزاغل الموجودة في قلعة الجبل التي تنسب إلى الملك «العادل» أيضاً⁽⁴⁾.

اللاذقية⁽⁵⁾ قلاعها وسورها

لا شك أن اللاذقية كانت تشبه باقي المدن السورية في بنائها، وتنظيمها في العصر الهلنستي والروماني، إذ كان يبني لكل مدينة سور ليساهم في صمود المدينة أمام غزو المعتدين، كما كانت كل مدينة تضم قلعة من شأنها زيادة قوة المدينة الدفاعية، وكانت القلعة تعتبر نقطة دفاعية يعتمد عليها الحاكم، فهي تحتل عادة منطقة عالية لها أهميتها الدفاعية، وتسمح بالإشراف والسيطرة على المدينة، وتكون القلعة غالباً ملتصقة بالسور نفسه، هذا وعندما خضعت سوريا للصليبيين، اهتم الصليبيون اهتماماً كبيراً ببناء القلاع وشحنها وتحصينها، وكان من بين القلاع العديدة التي بنوها في الساحل السوري قلاع اللاذقية⁽⁶⁾، وعلى الرغم

(1) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص220، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ.

(2) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص222، أحداث سنة 615هـ.

(3) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص152.

(4) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص119، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص152.

(5) هي مدينة من سواحل بحر الشام تعد في أعمال حمص وهي غربي جبله بينها ستة فراسخ وهي الآن من أعمال حلب، قيل إنها مدينة عتيقة رومية فيها أبنية قديمة مكينة وهي بلد حسن في وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الريض والبحر على غربيها وهي على ضفته، وكان قد ملكها الفرنج فيما ملكوه من بلاد الساحل في حدود سنة 500هـ لمزيد من التفاصيل انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص605، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص145، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص258 ص259، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، هذا وقد أضاف الدمشقي أن اللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث وهي أشبه بالإسكندرية في بنائها، انظر الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص209.

(6) يذكر العماد الأصفهاني أن عدد قلاع اللاذقية كان ثلاث قلاع حيث قال «إنها ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات كأنهن على رأس راس راسخ، وذروة أشم شامخ فسهل الله لنا فرعها وشرعنا نستأصل أصلها وقرعها وناوينا عليه القتال، وجاوبنا بالنصال النصال...».

العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص236، نفس الكلام عند ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص259. هذا وقد قيل إنه رأى قاطع بدليل أن العماد الأصفهاني كان شاهد عيان على الفتح الصلاحي ورافق صلاح الدين في جميع فتوحاته وحملاته وسجل الأحداث والوقائع بدقة، لمزيد من التفاصيل انظر هاشم عثمان، الأبنية والأماكن الأثرية في اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق 1996م، ص79 ص80.

من مناعة قلاع سوريا إلا أن «صلاح الدين» سار إلى اللاذقية فنزل عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى ولها قلعتان على اللاذقية متصلتان على تل مشرف على البلد واشتد القتال إلى آخر النهار فأخذ البلد دون القلعتين⁽¹⁾، وغنم المسلمون منه غنيمة عظيمة؛ لأنه كان بلد التجار ثم جدوا في أمر القلعتين بالنقوب حتى بلغ طول النقب 60 ذراعاً وعرضه 4 أذرع، فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة أنفسهم فأجابهم السلطان إلى مطلبهم⁽²⁾، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها لابن أخيه الملك «المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب» فعمرها وحصن قلعتها⁽³⁾ من جديد فصارت أحسن مما كانت، هذا وفي عام 593هـ / 1196م أصبحت القلاع في اللاذقية مصدر قلق بالغ للملك «الظاهر» و«الأشرف» من بعده، وخوفاً من أن تسقط قلعة اللاذقية بيد الفرنج عام 593هـ / 1196م، أرسل الملك «الظاهر» الحجارين والزرايين لهدم حصن جبلة وقلعة اللاذقية، وفعلاً ساروا لهدمها فنقبوا القلعة وعلقوها ورفعوا ذخائرها وهدموا المدينة، وبقي العسكر منتظراً قدوم الفرنج ليلقوا النار في الأخشاب المحشوة في الأنقاب، لكن لم يصل أحد⁽⁴⁾ فتراجع الملك «الظاهر» عن هدم القلعة⁽⁵⁾، وإذا كانت قلعة اللاذقية قد سلمت عام 593هـ / 1196م، إلا أن السلطان هدمها عام 600هـ / 1203م، ففي هذه السنة وصلت الأخبار بحركة الفرنج إلى اللاذقية، فخربت قلعة اللاذقية⁽⁶⁾، ولم تخرب قلعة اللاذقية تخريباً كاملاً وبصورة نهائية إلا في عام 620هـ / 1223م، ففي هذا العام اتفق «الأشرف بن العادل موسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي» مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرياً وهدموها إلى الأرض⁽⁷⁾ خوفاً من أن يجيء الفرنج فينزلوا عليها ويحولوا بين المسلمين وبينها فيملكوها على عادة لهم في ذلك⁽⁸⁾.

ومنذ ذلك التاريخ لم تقم لقلعة اللاذقية قائمة، وقيل ما بقي اليوم من قلاع اللاذقية هو

- (1) في موضع آخر ذكر أبو الفدا في المختصر «سار السلطان إلى اللاذقية ووصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى 584هـ / 1188م، ولها قلعتان فحصر السلطان القلعتين وزحف إليهما فطلب أهلها الأمان فأمّنهم وتسلم القلعتين»، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص74.
- (2) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص40، ابن خلدون، العبر، ج5، ص313.
- (3) ابن تغري بردى، المصدر السابق، الجزء والصفحة أنفسهما، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص74.
- (4) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج3، ص140.
- (5) هاشم عثمان، الأماكن الأثرية في اللاذقية، ص80.
- (6) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج3، ص140.
- (7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص140.
- (8) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص5 - 6.

بقايا قاعدة أحد الأبراج، وقيل يوجد نفق بين كتلتى تل القلعة، ولم يزل موجودًا إلى اليوم التل الذى كانت تقوم عليه قلاع اللاذقية⁽¹⁾.

سور اللاذقية

اهتم الصليبيون بسور اللاذقية؛ لأنه كان يعتبر من وجهة نظرهم خط الدفاع الأول عن المدينة، فقد كان سور اللاذقية ضخماً لدرجة لا مثيل لها⁽²⁾.

ويذكر «العماد الأصفهاني» ما يدل على ضخامة ومناعة سور اللاذقية أنه عند فتح «صلاح الدين» للمدينة 584هـ / 1188م واسترجعها⁽³⁾ فذكر أن النقاين والزرايين نقبوه من الشمال بطول ستين ذراعاً وفي العرض أربعة أذرع، ولم يتمكنوا منه⁽⁴⁾.

قلعة السلط أو الصلت⁽⁵⁾

الموقع

تقع السلط في شمال غرب عمان وتبعد عنها 30كم، وعلى إحدى قمم جبال البلقاء التى تشرف على وادى الأردن وأريحا غرباً، وعرفت قمة هذا الجبل باسم «رأس الأمير»⁽⁶⁾، هذا وقد قيل إن السلط من جند الكرك⁽⁷⁾، ويمكن القول إن هذه المنطقة ذات طبيعة جبلية، وتتمتع بأرض خصبة توفر لها المحاصيل اللازمة، وهذا ما تؤكد المصادر التاريخية، فقد ذكر «أبو الفدا» بأنها ذات بساتين كثيرة وينبع من تحت قلعتها عين كبيرة، وبالتالي فإنها توفر المنعة والسيطرة لمن يعتصم فيها⁽⁸⁾.

(1) هاشم عثمان، الأماكن الأثرية في اللاذقية، ص 82.

(2) هاشم عثمان، المرجع السابق، ص 80 - 89.

(3) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 258 - 259، سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، تحقيق عصام شبارو، ص 164.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج 3، ص 140، العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 236.

(5) الصلت بألف ولام لازمين في أوله وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مشناة، بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل الغور الشرقى في جنوب عجلون على مرحلة منها، وبها قلعة بناها المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، وتحت القلعة عين واسعة يجرى ماؤها حتى يدخل البلد وهي بلدة عامرة أهلة ذات بساتين وفواكه، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 106، هذا وقد ذكر هنرى فيلد نقلاً عن دوسو (Dussaud) أن هذه التسمية عربية قديمة وجدت في النقوش الصفوية، وأنها مشتقة من تسلط والسلطة (Soltan)، انظر سعد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن ص 318 - 319.

(6) العمري، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص 120.

(7) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، ص 213.

(8) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 319.

سبب بناء القلعة

ذكر صاحب مسالك الإبصار قائلًا «أما الصلت فإن قلعتها من بناء الملك «المعظم عيسى ابن العادل»، وكان السبب في بنائها أنه عبرت له جوارٍ هناك فخرج عليهن طائفة تعرف ببني دحمان من أهل قرية كفر يهودا فسبوهن وأخذوا جماعة منهن، فبناها على جبل قنة جبل يعرف برأس الأمير، وكان مكانها شعراء ملتفة»⁽¹⁾، أي أن حركة العصيان هي سبب بناء القلعة، فقام بتقطيع الأشجار التي كانت تملأ الموقع، وبينائه دخلوا في الطاعة⁽²⁾، هذا وقد كانت قلعة السلط محدثة البناء مثلها مثل قلعة عجلون، حيث إنها تشبهها أيضًا في سبب بنائها حيث إنها بنيت نتيجة لحالة من التمرد والعصيان⁽³⁾.

تاريخ القلعة

تاريخ قلعة السلط لا يتجزأ عن تاريخ شرق الأردن، ويعتبر العهدان الأيوبي والمملوكي من أزهى العصور التي عاشتها، حيث كانت تشكل العمل السابع من الصفقة القبلية التابعة إلى دمشق⁽⁴⁾، وهي الآن مندثرة معظم معالمها، وتم خلال عهد «المعظم عيسى» بناء القلعة، وعاشت بذلك مرحلة الصراع على السلطة بعد وفاة «المعظم عيسى»، فكانت تتبع تارة إلى الكرك وأخرى إلى مصر ومرة ثالثة إلى دمشق إلى أن تعرضت كسائر بلاد الشام للغزو المغولي فاستسلمت لهم، لكنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن البلاد بعد هزيمتهم في عين جالوت، ودخلت السلط تحت حكم المماليك⁽⁵⁾.

العناصر المعمارية المتبقية في قلعة السلط

الخندق

يعتبر الخندق من أبرز المعالم المتبقية من القلعة، وهو أوضح ما يكون في الجهتين الشمالية والغربية منها، وبالتقدير كان يحيط بالقلعة من الجهة الجنوبية الغربية أيضًا، ويمكن القول قياسًا على قلعة عجلون بأنه كان هناك جسر على هذا الخندق عند الزاوية الجنوبية الغربية من حيث وجود نتوءين صخريين متقابلين على حافتي الخندق⁽⁶⁾.

(1) العمرى، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، تحقيق د/ أيمن فؤاد سيد، ص 120.

(2) سعد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن، ص 319.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 322.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 106.

(5) سعد المومني، المرجع السابق، ص 322.

(6) سعد المومني، المرجع السابق، ص 323 - 324.

الأسوار

كانت أسوار قلعة الصلت ترتكز فوق القاعدة الصخرية الطبيعية لحافة الخندق الداخلية، ولم يبق منها اليوم غير جزء صغير في الجهة الجنوبية مؤلف من مدامكين، لا تختلف في طريقة نحتها عن حجارة قلعة عجلون.

الأبراج

لم يعد من أبراج القلعة التي كانت تتوزع على السور موجودًا إلى اليوم بل تهدمت جميعها، وأخذت حجارتها وحجارة الأسوار لاستعمالها في واجهات المنازل التي أقيمت حديثًا حول القلعة، وهي من الحجارة الكلسية الصفراء، وهي من النوع المسمم⁽¹⁾.

قلعة الأزرق⁽²⁾

الموقع

تبعد قلعة الأزرق عن عمان مسافة 115 كم، وتقع على رأس وادي السرحان الذي يمتد جنوبًا حتى الجزيرة العربية، ويحيط بها واحة غنية بالماء وأشجار النخيل تقبع على حافة الصحراء الشرقية مسيطرة على الطريق الصحراوي الممتد من الحجاز إلى العراق والشام⁽³⁾، وقيل إن الأزرق من جند الأردن⁽⁴⁾، هذا وقد كان موقع القلعة مشجعًا على إقامتها في هذا المكان نظرًا لوجود ينابيع المياه فيها⁽⁵⁾.

تاريخ القلعة

هناك من يشير إلى أن بناء القلعة روماني، ومن يذكر أنها نبطية والدليل على ذلك كسر الفخار النبطي المتميز بشفافيته ونقاء مادته، وأنها أدخلت عليها بعض التصليحات والترميمات في العهد الروماني لحماية تخومهم الشرقية من القبائل العربية، هذا وقد حظيت القلعة بعناية ورعاية الأمويين فحولوها إلى غابة استوحى منها الفنان تلك اللوحة التي نحتها

(1) سعد المومني، المرجع السابق، ص 325.

(2) إحدى القلاع الموجودة بالأردن تعرضت للتخريب، ولكن بقي منها أجزاء عديدة من الأسوار والأبراج التي تتخللها المزاغل والسقاطات أي أنها من القلاع المخربة، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، ص 7.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 327.

(4) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 213.

(5) سعد المومني، المرجع السابق، ص 328.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

على واجهات قصر المشتى الممتلئة بالأشجار النخيلية والمراوح وأنصاف المراوح التي انتزعها الألمان وحملوها معهم إلى برلين الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية⁽¹⁾.

القلعة في العصر الأيوبي .

لا شك أن قلعة الأزرق قد حظيت في العصر الأيوبي باهتمام الولاة⁽²⁾ الأيوبيين⁽³⁾ ورعايتهم، إذ قام «عز الدين أيبك» سنة 634هـ / 1236م ببناء مدخلها في الجهة الجنوبية الغربية، وثبت ذلك من خلال نقش قائم فوق عتبة المدخل، كما قاموا أيضًا ببناء مسجد في ساحتها الداخلية⁽⁴⁾.

هذا وقد استفاد الولاة المسلمون بالجزء الذي بناه «عز الدين أيبك» خاصة في العصر العثماني، فيبدو أن القلعة قد أهملت نتيجة لبعدها عن الخط الحديدي الحجازي باتجاه الشرق، ولهذا استطاع «الشريف علي بن الحسين الحارثي» أن يتخذها قاعدة له ضد الأتراك مستخدمًا الجزء الذي بناه «عز الدين أيبك»⁽⁵⁾.

وصف وتخطيط القلعة

قلعة الأزرق بناء مربع الشكل طول ضلعه حوالي 85 مترًا، يقوم في كل زاوية منه برج، كما يتوزع بين أسوارها عدد آخر من الأبراج المربعة والمستطيلة، وتضم أسوارها من الداخل عددًا من الغرف والمستودعات والإسطبلات وكلها بنيت من الحجر البازلتي الأسود الصلب، وليس لهذه المعالم تاريخ محدد، وأن ما يعنينا منها هو برج المدخل والمسجد باعتبارهما من العهد الأيوبي⁽⁶⁾.

(1) سعد المومني، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) من الملاحظ أن المرحلة الأيوبية تشكل بداية اهتمام واضح من الناحية الأمنية بمنطقة شرق الأردن، وذلك أن سلاطين الأيوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين أدركوا أهمية المنطقة، وتجلى هذا الاهتمام بالدفاع عنها والتصدي للحملات الصليبية عليها كما أنهم استطاعوا توفير قدر كبير من الاستقرار والأمن في ربوعها، وتعتبر هذه القلعة واحدة من سلسلة القلاع التي أنشأها الأيوبيون، والملك الناصر داوود هو منشئ هذه القلعة في عام 634هـ / 1236م، لمزيد من التفاصيل انظر محمود إبراهيم حسين، حصن عجلون مع قلعة الجبل بالقاهرة، ص 7.

(4) سعد المومني، المرجع السابق، ص 328.

(5) سعد المومني، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) سعد المومني، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مبنى المدخل

يقع المدخل في الجهة الجنوبية الغربية من القلعة، وهو على هيئة برج مستطيل الشكل طول ضلعه من الخارج 5.3×12 متر يعلو قنطرة المدخل بعد المدماك الثاني عشر لوحة نحت عليها نقش من أربعة أسطر نصه:

- (1) بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة.
 - (2) هذا القصر المبارك الفقير إلى الله.
 - (3) «عز الدين أيبك» أستاذ دار الملك «المعظم».
 - (4) بولاية «علي بن الحاجب».... في سنة أربعة وثلاثين وستمائة.
- ونفس نوعية هذا النقش توجد في البرج السادس من قلعة عجلون⁽¹⁾.

هذا وإن كانت كلمة القصر الواردة في هذا النقش لا تنفي عن المبنى صفة القلعة، إذ يعلو النقش طلاقة طولها متر وعرضها 12 سم يعلوها سقاية لها في أرضيتها فتحتان لصب المحروقات على الأعداء إذا ما اقتربوا من المدخل، والوصول اليوم إلى أعلى هذه السقاية يشكل خطرًا على الصاعد، وعلى جانبيها طلاقتان مرممتان، كذلك أقيم جدار استنادي مائل على شكل رصيف مؤلف من خمسة عشر مدماكًا لدعم الواجهة الجنوبية لهذا المدخل، وهذه صفة موجودة في قلاع عجلون والكرك والشوبك⁽²⁾، أما عن المسجد فيقع في منتصف الساحة الداخلية للقلعة وهو مستطيل الشكل⁽³⁾.

قلعة معرة النعمان⁽⁴⁾

الموقع

تقع قلعة معرة النعمان في شمال المدينة (معرة النعمان) جهة الشمال الشرقي من وادي الخطيب⁽⁵⁾.

(1) سعد المومني، المرجع السابق، ص 329 - 330.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، ص 330.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 331.

(4) معرة النعمان مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحمّاق، وهي مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار والخصب وشرب أهلها من الآبار ولها سبعة أبواب، باب حلب، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان، وباب حمص، وباب مسني، ولم يعلم الباب السابع، ويذكر أن قبر شيث ابن آدم - عليه السلام - عند الباب المنسوب إليه فيها، وداخلها قبر يوشع بن نون - عليه السلام - وعلى ميل منها دير سمعان الذي به قبر عمر بن عبد العزيز، لمزيد من التفاصيل أنظر الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 156، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 141.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 155، مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1998م، ص 232 - 233.

الظروف التي أدت إلى بناء القلعة

تعتبر فترة حكم الملك «المظفر محمود بن المنصور» صاحب حماة حيث صارت له المعرة في عام 626هـ / 1228م من أهم الفترات بعد استرداد المسلمين لها من أيدي الصليبيين، حيث تم في عهده بناء قلعة معرة النعمان التي كانت سبباً في تخريب المدينة على يد الصليبيين وتحولها من أملاك حماة إلى أملاك حلب، هذا وقد كان بناء القلعة في عام 631هـ / 1233م، وذلك بناء على ما قدمه «سيف الدين علي بن أبي الهذبانى» مدبر شئون حماة من قبل الملك «المظفر» من النصيح إلى الملك «المظفر» بضرورة بناء قلعة للمدينة، لما في ذلك من أهمية في حماية المدينة⁽¹⁾، وبالفعل قدم الملك «المظفر» إلى معرة النعمان وشرع في بناء القلعة الذي لم يستغرق أكثر من شهرين⁽²⁾.

سبب سرعة البناء

لعل السبب في سرعة بناء القلعة يرجع إلى توافر الأحجار المنحوتة في داخل المدينة وخارجها، بالإضافة إلى ما أوحى به «سيف الدين بن علي» إلى الملك «المظفر» من أهمية بناء هذه القلعة، ويرجع «ابن واصل» قصر مدة بناء القلعة إلى أن الملك «المظفر» سلم إلى كل أمير من أمراء الدولة برجا من أبراجها فأكمل بناؤها في هذه المدة اليسيرة⁽³⁾، وشيّد بها جامعاً، هذا بالإضافة إلى أن الملك «المظفر» شحن القلعة بالرجال والسلاح وأودعت من العدد والآلات ما جرت به العادة⁽⁴⁾، هذا ولم تلبث هذه القلعة أن كانت سبباً في استيلاء الصليبيين عليها وعلى مدينة المعرة وتخريبهم للمدينة⁽⁵⁾ حيث إنه بعد وفاة الملك «الكامل» بدمشق في 21 رجب سنة 635هـ / 9 مارس 1238م، وصل هذا الخبر إلى حلب، التي كانت تستعد لمواجهة قدوم الملك إليها من أجل الاستيلاء عليها، وقيل إن جدة الملك «الناصر» وهى الملكة «خاتون» الوصية عليه⁽⁶⁾ هى التى أصدرت الأوامر للجيش بالتحرك إلى معرة النعمان؛ لأن الملك «الناصر» في ذلك الوقت كان يبلغ من العمر ثمانى سنوات⁽⁷⁾، والذي يهمننا هو أنه سار الجيش

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص83، مها يسرى، معرة النعمان، ص232 - 233.

(2) مها يسرى، معرة النعمان، ص232 - 233، يمكنك معرفة الكثير عن معرة النعمان انظر ص220 - 238.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص83.

(4) مها يسرى، معرة النعمان، ص232 - 233.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص155.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص181، ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص236.

(7) مها يسرى، معرة النعمان، ص235.

الحلبى بقيادة الملك «المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين» عم الملك «العزیز» متجهاً إلى معرة النعمان واستولوا عليها، ثم حاصروا قلعتها، ونصب عليها المجانيق واستمروا في رميها بالحجارة مدة حتى سلمت إليهم بالأمان⁽¹⁾، وفي هذه الأثناء وصل إلى الملك «المعظم» رسول من الملك «المظفر» ليحسن الأمور، إلا أن الملك لم يلتفت إلى هذا الرسول واستمر في حصاره للقلعة حتى تمكن منها⁽²⁾، هكذا استولى الحلبيون على معرة النعمان وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لمدينة حلب، هذا وقد استمرت معرة النعمان تابعة لمدينة حلب حتى نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك.

وفي عام 658هـ / 1259م، تعرضت المعرة لهجوم التتار، حيث قاموا بتخريبها وتخريب أسوارها وهدم قلعتها التي ظلت مشيدة سبعة وعشرين عامًا، حيث كان قد تم بناؤها في عام 631هـ / 1233م، وهدمت في عام 658هـ / 1259م⁽³⁾.

أبواب معرة النعمان

اختلف المؤرخون في أسماء أبواب المعرة، فللمعرة سبعة أبواب، هي باب شيث وهو في الجهة الشمالية، وباب الجنان في الجهة الغربية يخرج منه إلى وادي الجنان، وباب حناك وهو في جهة الجنوب الغربي، وباب حمص في الجهة الجنوبية على الطريق المؤدى إلى مدينة حماة والذي أحرقه «سعد الدولة» سنة 364هـ / 975م، وباب حلب في الجهة الشرقية على الطريق المؤدى إلى مدينة حلب، أما الباب الكبير فهو في الجهة الشرقية، ولعله باب منسى الذى ذكره العامة من أهل المعرة، أما الباب السابع فلم يشر إليه أحد من المؤرخين⁽⁴⁾.

أبراج وحصون معرة النعمان

أما فيما يتعلق بأبراج وحصون معرة النعمان، فقد انفرد «ابن الوردي» بالإشارة إلى برجين فقط هما برج بنى الحجال، وبرج وحيدة، وبالإضافة إلى هذين البرجين، هناك العديد من الحصون سواء في المعرة أو في ضواحيها مثل حصن الكفر أو الكفير، وهو في الجهة الشمالية من المعرة، وحصن أسفونا الذى يوجد في قرية أسفونا إحدى قرى المعرة وقد خرب هذا الحصن، وهناك حصن حناك وهو حصن قوى يقع في جنوبى المعرة من جهة الغرب ولقد

(1) مها يسرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) مها يسرى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) مها يسرى، المرجع السابق، ص 237 - 238.

(4) مها يسرى، المرجع السابق، ص 68.

خرب هذا الحصن أيضا، ومن حصون المعرة أيضًا حصن كفر روما الذي يقع في قرية تحمل نفس الاسم، وقد خرب أيضًا هذا الحصن⁽¹⁾.

قلعة قيسارية⁽²⁾

الموقع

كانت قيسارية في السابق مرفأ مهماً من مرفأ فلسطين في العصور القديمة والقرون الوسطى، وقال عنها صاحب النجوم الزاهرة «قيسارية من أعمال فلسطين»⁽³⁾، وهي تقع في خليج طبيعي يشكله نتوءان صخريان كبيران داخل البحر ما بين حيفا ويافا، ولقد ظل الموقع مهجوراً منذ نهاية القرون الوسطى⁽⁴⁾.

الوصف

تم الكشف فعلاً عن أجزاء من تحصينات القرون الوسطى مع بعض المباني التي تعود إلى العهود القديمة والعصور الوسطى، وتحيط الدفاعات المتينة بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقريباً من جانب الخليج، وكانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة كانت تشغل حيزاً من الأرض عند الطرف الجنوبي للمرفأ ويحميها من جهة البر سور قوى⁽⁵⁾.

تاريخ القلعة

في عام 18هـ / 639م فتح العرب قيسارية وحصنوها تحصيناً قوياً لكنه بعد أن استولى «بلدوين الأول» على أرسوف اتجه وهاجم قيسارية واحتلها بعد صراع عنيف مع أهلها⁽⁶⁾، هذا وقد ذكر «المقریزی» أن السلطان «صلاح الدين» فتح حصوناً حول عكا ومنها قيسارية⁽⁷⁾، هذا وقد قيل إن «صلاح الدين» حرر قيسارية عام 583هـ / 1187م بعد أن هزم

(1) مها يسرى، المرجع السابق، ص 70.

(2) بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، انظر الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 421، وأضاف أبو الفدا في تقويم البلدان «كانت من أمهات المدن العظام وهي اليوم خراب...»، وقال «مدينة قيسارية مدينة جليلة ومنها إلى مدينة عكا ست وثلاثون ميلاً»، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 239.

(3) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 204، هامش 2.

(4) فولغانغ مولر، القلاع الحربية في الحروب الصليبية، ص 97.

(5) فولغانغ مولر، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(6) فولغانغ مولر، المرجع السابق، ص 97 - 98.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 179، حوادث سنة 583هـ، المقریزی، السلوك، ج 1، ق 1، ص 94.

الفرنج في حطين وخرب التحصينات القديمة فيها، وعندما جاء «ريتشارد قلب الأسد» احتل جيشه المدينة المهجورة عام 587هـ / 1191م وأعيد بناؤها ورمت تحصيناتها، ولكن شيدت بها قلعة جديدة، لكن قيسارية سقطت في عام 617هـ / 1220م في يد جيش السلطان الملك «المعظم» بسبب إهمال أو تهاون من قبل الحامية، ولكن نالها التخریب مرة أخرى وهى الآن مهجورة⁽¹⁾.

قلعة عكا⁽²⁾

هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام، انتزعها الفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه⁽³⁾، هذا وقد فتح السلطان «صلاح الدين الأيوبي» عكا⁽⁴⁾ في ثانی جمادى الأول عام 583هـ / 1187م⁽⁵⁾، وعندما أقام السلطان بعكا في أواخر عام 584هـ / 1189م، أمر بإحضار «بهاء الدين قراقوش» من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين وما يلزمهم لعمارة سور عكا⁽⁶⁾ لاستحكاماتها فوصلوا في شهر محرم عام 585هـ / 1189م، والسلطان مقيم بها فأقام «بهاء الدين قراقوش» واليا عليها، وأمر ببناء السور أمتن بناء⁽⁷⁾ وعمارة قصورها ودورها⁽⁸⁾، هذا وقد ذكر المؤرخون «وكان قد وكل

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 97-98.

(2) اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن، وهى من أحسن بلاد الساحل في أيامنا هذه وأعمرها، قيل إنها مدينة حصينة كبيرة بناها عبد الملك بن مروان، وزاد في حصانتها ابن طولون، وكان قد رأى صور واستدارة الحائط على مينائها فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكور وعرض عليهم ذلك فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، وفي موضع آخر قيل إن عكا فتحت في حدود سنة 15هـ على يد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان، ثم خربت فجددها هشام بن عبد الملك، وعمرت عكا أحسن عمارة وصارت بها الصناعة إلى يومنا هذا، وكانت قديما بيد المسلمين حتى أخذها الفرنج ومعدبهم بغدوين (بلدوين) صاحب بيت المقدس من زهر الدولة بناء الجيوش منسوب إلى أمير الجيوش بدر الجمالي وابنه، وكان بها من قبل المصريين، فقصدتها الإفرنج برا وبحرا في سنة 497هـ / 1103م، فقاتلهم أهل عكا حتى عجزوا عنهم لقصور المادة بهم، وكان أهل مصر لا يمدونهم بشيء فسلموها إليهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا جماعة أخرى حملوهم خلف البحر، وخرج زهر الدولة حتى وصل إلى دمشق ثم عاد إلى مصر، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 152، الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 144.

(3) ابن جبير، الرحلة، ص 211.

(4) الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 213.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 179، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 155، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 223.

(6) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 99.

(7) سيد على الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص 168.

(8) الدواداري، كنز الدرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 7، ص 98.

بعمارتها وتجديد محاسنها «بهاء الدين قراقوش»⁽¹⁾ فشرع في التعمير والتسوير وتسوية الأمور بحسن التدبير»⁽²⁾، وذكر العماد «الأصفهاني»: «فندب السلطان «قراقوش» لتولى عمارة عكا، وكوتب بالحضور لتولى الأمور وعمارة السور، وقد استصحب معه كل ما يفتقر إليه من أسباب العمارة وآلاتها، وأدويتها وأدواتها وأنفارها وأبقارها، ورجالها وعمالها وعمارها ومهندسيها ومؤسسيها، وحجاريها ومعماريها، والأسارى والصناع وغير ذلك»⁽³⁾، وقد خربت بعد أن استرجعها المسلمون من الفرنج في سنة تسعين وستمائة في الدولة الأشرفية (خليل بن قلاوون)⁽⁴⁾.

قلعة صيدا⁽⁵⁾ أو صيدون⁽⁶⁾

مدينة وقلعة على الساحل الجنوبي من لبنان في موقع صيدون سابقاً التي كانت مرفأً يحميه ريف صخري طبيعي ومكاسر صناعية، كما يحميه حصن بحري من الهجمات الخارجية القادمة من البحر، وقيل عنه إنه حصن صغير وجميل تناسب مع حجم بلدته الصغيرة على

(1) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص42، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص592.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص210.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع السابق، ص208.

(4) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص152.

(5) ذكر الحموى قائلاً «صيدا أظنه لفظة أعجمية إلا أن أصلها في كلام العرب على سبيل الاشتراك، قيل إن الصيذاء حجر أبيض يعمل منه البرام (جمع برمة)، وقيل أيضاً الأرض التي ترتبها أجزاء غليظة الحجارة مستوية الأرض»، الحموى، معجم البلدان، ج3، ص437، ذكر عنها أيضاً أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان «هى على ساحل البحر (بحر الشام) وهى بليدة صغيرة ذات حصن قال فى العزيرى: ومن مدين صيدا إلى مدينة مشغرا وهى من أتره بلد فى تلك واد.....، وجملة المسافة بين صيدا ودمشق ستة وستون ميلاً»، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، ص249، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص111، ذكر عنها أيضاً العماد الأصفهاني «هى مدينة لطيفة على الساحل مورودة المناهل ذات بساتين وأزهار ورياحين وأشجار النارج والإترنج»، العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص103.

(6) صيدون ذات حصن حصين، وقيل إنها سميت بصيدون بن صدقا بن كنعان ابن حام (سام) بن نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها وسكنها، وفى الأصل صيدون هكذا وردت فى العبرية وهو الابن الأكبر لكنعان حسب الأنساب المذكورة فى تكوين (10: 15)، ومن المرجح أن يكون صيد إله سامى قديم إله الصيد.

انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص111، انظر أيضاً أنيس فريجة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، دراسة لغوية، الجامعة الأمريكية فى بيروت، منشورات كلية العلوم والآداب، سلسلة العلوم الشرقية، الحلقة السابعة والعشرون 1956م، ص203.

ساحل البحر⁽¹⁾ عرف بحصانته وقوته⁽²⁾، وقد احتلت مدينة صيدا أهمية كبيرة، نظرًا لأنها كانت مسورة بأسوار قوية⁽³⁾. وتحرسها من جهة البر قلعة (قلعة المعز)⁽⁴⁾ التي تطل عليها من حافة تل قليل الارتفاع⁽⁵⁾، ولم يبق أى أثر من القلعة باستثناء برج واحد وأقسام منعزلة من جدارها، كما اختفت أيضًا أسوار المدينة، إلا أن هذا الحصن المسمى «حصن البحر» والذي خضع لتعديلات عديدة أثناء الحكم العثماني رمم في الآونة الأخيرة على نطاق واسع، لكن عناصر البناء فيه ليست كلها محددة المعالم تاريخيًا⁽⁶⁾.

تاريخ صيدا

في عام 504هـ / 1110م طوقت صيدا بأسطول نرويحي استولى عليها ولكن حدثت زلازل أصابت المدينة وتحصيناتها بأضرار بالغة⁽⁷⁾، وفي عام 583هـ / 1187م ذكر «ابن الأثير» في حوادث هذه السنة «أما صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة، فلما سمع صاحبها بمسيرة نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ولا مدافع فلما وصلها «صلاح الدين» تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأول⁽⁸⁾، أى أن «صلاح الدين» احتلها⁽⁹⁾ وأزيل قسم كبير من تحصيناتها⁽¹⁰⁾ فقد ذكر «العماد الأصفهاني»: «خيمنا على صيدا، وقد حصلنا على

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص5، نقلا عن أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا 1331هـ / 1913م، ص57 - 58.

(2) عبد الرحمن زكى، القلاع في الحروب الصليبية، ص54، أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص142.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص142.

(4) بصيدا قلعتان إحداهما معروفة بقلعة الفوقا المعروفة بقلعة المعز وهي في الجهة الجنوبية من المدينة، ولا يوجد آثار ذات أهمية إلا أنها من زمن قديم وهي مبنية على ربوة، وهناك قلعة أخرى تسمى «قلعة البحر» وهي تقع على الشمال الشرقى من المدينة على جزيرة صغيرة تتصل في المدينة بجسر مؤلف من ثمانية قناطر وفي شمال شرق الميناء يوجد جزيرة وفي وسط هذه الجزيرة قد بنى الصليبيون في شتاء عام 625هـ / 1227م - 626هـ / 1228م، حصنا كان يتألف من برجين متصلين ببعضهما بحائط ويسمونه «قلعة البحر» وقد أصبح الآن خرابا، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57 - 58، عبد الرحمن زكى، القلاع في الحروب الصليبية، ص54، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص130.

(5) مجلة المجمع العلمي العربى بدمشق، الجزء الأول والثانى من المجلد السادس، كانون الثانى وشباط 1926م، ص68.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص90 - 91.

(7) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص180، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص206، ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج3، دمشق 1968م، ص97، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص95.

(9) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.

(10) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص90 - 91.

صيدها وخلصنا من كيدها، وانطلقت هممنا من قيدها»⁽¹⁾، أسند «صلاح الدين» ولاية صيدا بعد أن فتحها عام 583هـ / 1187م إلى الأمير «سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب الهكاري»⁽²⁾، هذا وقد لعبت صيدا دورًا مهمًا في الحروب الصليبية، فقد أسهم «ابن المشطوب» في أثناء ولايته لصيدا في إمداد مسلمي عكا بالطعام والمؤن من صيدا، ذلك عندما اشتد عليهم الغلاء في شتاء عام 586هـ / 1190م⁽³⁾، وبعد أن فرغ «صلاح الدين» من فتح صيدا اهتم بتحصيناتها بقصد حمايتها من الأخطار المحيطة بها والمتمثلة في فرنج صور⁽⁴⁾.

ويعبر «العماد الأصفهاني» عن ذلك بقوله «ولما فرغ من شغل صيدا وتبين وجمع لهما التحصين والتحسين قال لعصمة الله: شيدى ما بصيدا وتبين تبنين، وألحفيها رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين، ولا يطرق ما تحمين»⁽⁵⁾، لكن هناك من العوامل ما جعلت «صلاح الدين» يقدم على هدم سور صيدا، فمنها أنه علم بنية الفرنج في استرجاع مدن الساحل خاصة عند اقتراب الألمان من حدود الشام في مائة فارس في البحر، بالإضافة إلى قرب وصول حملة صليبية جديدة، كل هذا من العوامل التي دفعت «صلاح الدين» إلى هدم سور صيدا وطبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وجليل، حتى لا يستخدمها الصليبيون في محاربة المسلمين ونقل أهالي هذه المدن إلى بيروت⁽⁶⁾، وفي عام 588هـ / 1192م أعاد «صلاح الدين» جزءًا من أملاك «رينو دي ساجيت»، ولم تجر أي إعادة بناء بها⁽⁷⁾، وفي عام 620هـ / 1223م كانت صيدا مناصفة بين المسلمين والفرنج وكان سورها خرابًا فعمروها واستولوا عليها وأنقذوها من حكم المسلمين، وإنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها⁽⁸⁾.

وفي عام 625هـ / 1227م كان سور صيدا خرابًا فعمروها الفرنج واستولوا عليها، ويذكر «ابن الأثير» في ذلك «لما توفى «المعظم» طمع الفرنج ووصلوا إلى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 102 - 103.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 242.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 104، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص 120.

(4) السيد سالم، تاريخ صيدا، ص 121.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 104.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 325، المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 104، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 850، السيد سالم، تاريخ صيدا في العصر الإسلامى 1970م، ص 122.

(7) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص 90 - 91.

(8) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص 60.

وإنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها⁽¹⁾، وفي عام (626هـ / 627هـ - 1228م - 1229م)، استعاد الفرنج قلعة صيدا⁽²⁾ وأعيد تحصينها وبدأ العمل في إقامة حصن البحر (قلعة البحر)، هذا وفي عام 647هـ / 1249م هدم المسلمون أسوارها⁽³⁾ وشغلها العرب مدة قصيرة، وخرب الحى السكنى مرة أخرى رغم أن حصن البحر ظل على ما يبدو في أيدي الفرنج⁽⁴⁾، وفي عام 651هـ / 1253م أعيد بناء دفاعات المدينة والقلعة على مستوى كبير على يد الملك «لويس التاسع» ملك فرنسا⁽⁵⁾، وفي عام 659هـ / 1260م امتلك الفرسان الداوية صيدا، ولم يكن لها سوى دور ضئيل في النزاع الفرنجى الداخلى في أواخر القرن الثالث عشر، وهاجم المدينة «بوهمند السابع» صاحب إنطاكية، ولكن نتيجة للهجوم العربى فر الداوية منها بحرًا إلى قبرص، فسقطت المدينة بفرارهم وخربت جميع تحصيناتها⁽⁶⁾.

قلعة حماة⁽⁷⁾

تقع هذه القلعة على مرتفع يشرف على مدينة حماة ووادى العاصى⁽⁸⁾، هذا وقد قيل إن موقعها بين حمص وقنسرين⁽⁹⁾، شهدت حماة في ظل «نور الدين محمود» حركة تعمير ما خرب بها، هذا إلى جانب إعادة تعمير قلعتها، وقد استمرت في تبعية «نور الدين محمود» إلى أن توفى

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص276، حوادث سنة 625هـ، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص229.

(2) السيد سالم، تاريخ صيدا، ص131.

(3) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.

(4) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص90 - 91.

(5) أحمد عارف زين الدين، تاريخ صيدا، ص57.

(6) فولفغانغ مولر، القلاع في الحروب الصليبية، ص90 - 91.

(7) حماة مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصى، عليه عدة نواعير تستقى الماء من العاصى فتسقى بساتينها وتصب إلى بركة جامعها ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل؛ لأنه منحط عن المدينة ويسمون المسور «السوق الأعلى»، وحماة مدينة قديمة جاهلية إلا أنها لم تكن قديما مثل ما هي اليوم من العظم بسلطان مفرد بل كانت من عمل حمص، وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة، وغالب مبانيها العلية وآثار الخير والبر الباقية فيها من فواضل نعم الدولة الأيوبية، ولم تزل بأيدي بقايا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر يقيم ملوكهم فيها ملكا بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون، الدمشقى، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص206، انظر الحموى، معجم البلدان، ج2، ص300، القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص139 - 140، العمرى، المسالك والممالك، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص126، ابن جبير، الرحلة، ص180 - 181.

(8) أبو الفرج العشى، آثارنا في الإقليم السورى، ص102.

(9) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص139 - 140.

في 569هـ / 1173م، فانتقلت حماة مع بقية مدن الشام إلى ابنه «الصالح إسماعيل» إلى أن تمكن «صلاح الدين الأيوبي» من تملك البلاد الشامية، فكانت حماة من ضمن البلاد التي تملكها «صلاح الدين» عام 570هـ / 1174م⁽¹⁾، وبذلك دخلت حماة تحت السيطرة الأيوبية⁽²⁾. هذا وعندما ملكها الملك «المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»، أعاد عمارتها وحصنها، وحفر خندقها نحو مائة ذراع وأكثر كانت للملك «المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب»⁽³⁾، قال عنها «العماد الأصفهاني»: «إن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا...، وكانت قلعة حماة لا تعد في القلاع المعدودة المحمية، ولا تذكر مع المعقل المرعية المرضية...، فلما تولاهما «تقي الدين»... حصنها وعلاها...، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة فاضلة في الشام كل مدينة، فطلع السلطان... إلى القلعة وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة»⁽⁴⁾.

هذا وقد أحيطت حماة بسور محكم⁽⁵⁾ كان له ثلاثة جوانب فقط، نظرا لمجاورتها لنهر العاصي، ويرجع تشييد تلك الأسوار إلى زمن الملك «المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي»⁽⁶⁾، وقد كان بهذا السور باب سمي «باب دمشق»⁽⁷⁾، وفي عام 626هـ / 1228م، أواخر شهر رمضان ملك «الكامل» مدينة حماة وسبب ذلك أن «الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر» وهو صاحب حماة توفي⁽⁸⁾.

قلعة شمميميس⁽⁹⁾

تقع شمميميس على بعد 3 أو 4 كيلومترات من غرب السالمية على طريق حماة على طرف من

- (1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص132، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص86.
- (2) منى فريد مصطفى عثمان، حماة في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، كلية البنات جامعة عين شمس 1995م، ص26.
- (3) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص300.
- (4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص121.
- (5) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص300.
- (6) منى فريد، حماة في العصر الأيوبي، ص3.
- (7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص182.
- (8) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص380.
- (9) شمميميس وهي بلدة من عمل حمص، على طرف البرية، وشمميميس اسم تل بجوارها وهي على تل عال، انظر الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص202، انظر النويري، نهاية الأرب، ج29، ص166.

مجرى النهر⁽¹⁾، أقامها ملك حمص الأيوبي «أسد الدين شيركوه الثاني»⁽²⁾ وكان صاحب حمص «أسد الدين شيركوه الثاني» قد شرع في عمارة قلعة شمميميس، وعندما سلم الملك الكامل له سلمية قد استأذنه في عمارة شمميميس فأذن له بذلك، ولما أراد «شيركوه» عمارتها أراد الملك «المظفر» صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه من ذلك لكونه بأمر الملك «الكامل»⁽³⁾، وقد ذكر «ابن واصل» عندما كان الملك «الكامل» نازلاً بحمص كان معسكره بالقرب من تل عال يقال له شمميميس فقال الملك «الكامل»: لو بنى فوق هذا التل قلعة، كانت تكون في غاية الحصانة فاستأذنه الملك «المجاهد» أن يبني لنفسه فوقها قلعة فأذن له فيه فشرع في هذه السنة وهي سنة سبعة وعشرين وستمئة 627هـ / 1229م في عمارة قلعة فوق التل. وأتم الملك «المجاهد شيركوه» القلعة، وجاءت في غاية الحصانة والعلو وسهاها ماردين الشام ومنع من تسميتها بغير هذا الاسم، ولزمها الاسم الأول⁽⁴⁾، والقلعة اليوم مهدمة وخربه وحالتها اليوم سيئة وبقيت آثار قليلة من أسوارها وأبراجها⁽⁵⁾.

قلعة الرحبة

تقع بالقرب من بلدة الميادين الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات، تبعد عنها مسافة 5 كيلومترات تقريبا نحو الجنوب، فقد كانت الرحبة تنقسم إلى قسمين، الرحبة القديمة والرحبة الحديثة، أما الرحبة القديمة فهي مدينة عربية أنشأها «مالك بن طوق» في خلافة «المأمون»، ومكانها - كما نرجح - عند بلدة الميادين على شاطئ الفرات تماما، أما الرحبة الحديثة فقد أنشأها ملك حمص الأيوبي «أسد الدين شيركوه الثاني»⁽⁶⁾، هذا وقد قيل إنها تهدمت بعد الغزوات المغولية وبقيت قلعتها وهي قائمة على مرتفع صخري، محاطة بخندق، ومبنية بالأجر والحجر⁽⁷⁾.

(1) Max Van Bercham, op.cit, pp171, 172

(2) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، دار البشائر، الطبعة الثانية، سنة 1419هـ - 1999م، ص 170.

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 145.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 282 - 283.

(5) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص 170.

(6) عبد القادر الريحاوي، المرجع السابق، ص 171.

(7) عبد القادر الريحاوي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

قلعة صرخد⁽¹⁾

بنى هذه القلعة «حسان بن مسمار الكلبى» 466هـ / 1073م، وكتب على بابها «أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب «عز الدين فخر الدولة» عدة أمير المؤمنين يعنى «المستنصر» صاحب مصر»، وذكر عليها اسمه ونسبه⁽²⁾، هذا وقد قيل إن قلعة صرخد محدثة بنيت قبل الشهيد «نور الدين محمود بن زنكى»⁽³⁾، هذا وقد جددت القلعة في العهد الأيوبي، وتشهد بذلك الكتابات المنقوشة على حجارتها التى تؤرخ أعمالهم⁽⁴⁾، هذا وقد ذكر أن الملك «المعظم عيسى» قد كان قد أخذ قلعة صرخد وذلك في عام 611هـ / 1214م⁽⁵⁾، هذا وعندما استولى المماليك على الحكم تم ترميم القلعة في عهد «الظاهر بيبرس» بسبب تهديم التار لها في آخر العهد الأيوبي⁽⁶⁾.

قلعة المضيق

تقع قلعة المضيق بجوار أفاميه على مرتفع مشرف مباشرة على سهل الغاب، أى أنها تقع شرق حماة قرب أفاميه، وقد كانت هذه القلعة لها أهميتها أثناء الحروب الصليبية، إذ استولى

(1) صرخد بلدة صغيرة ذات بساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر في الصهاريج والبرك، وليس وراءها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية، ومنها تسلك طريقا تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد في نحو عشرة أيام وبها قلعة وكان بها ملك من المماليك المعظمية، وهى محدثة البناء بدأت قبل نور الدين الشهيد ولما وصلت عساكر هولاءكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جدرانها فجددها الظاهر بيبرس وهى على ذلك إلى الآن، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص107، العمرى، مسالك الإبصار، أيمن فؤاد، ص120، هذا وقد قيل أيضًا إن صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة وولاية حسنة وواسعة، انظر ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج6، ص130، هامش2، الحموى، معجم البلدان، ج3، ص401، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص95، هامش5، وقيل إن صرخد من أعمال دمشق وقيل إن قلعة صرخد على جبل بنى هلال ويسمى هذا الجبل «الريان» لكثرة انصباب الماء منه، وهو من عمل مدينة أذرعات (مدينة بصرى وحوران)، انظر شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الدمشقى، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد، ص200، وقد ذكر عن قلعة صرخد أيضًا أن اسمها صلخد واسمها العربى صرخد وهى مشهورة بقلعتها الحصينة الرابضة فوق رايبتها المشرفة على السفوح الجنوبية وهى تعود إلى العهد الأيوبي، انظر أبو الفرج العشى، آثارنا في الإقليم السورى، الطبعة الأولى 1960م، دمشق، ص66.

(2) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج6، ص135، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص167.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص107، العمرى، مسالك الإبصار، أيمن فؤاد، ص120.

(4) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية، ص170.

(5) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص569.

(6) أبو الفرج العشى، آثارنا في الإقليم السورى، ص66.

عليها الصليبيون ولكن «نور الدين» استخلصها من أيديهم، إلى أن جاء العصر الأيوبي فأسهم الأيوبيون في تجديدها، هذا وقد قيل إن بعض أبراجها شيد في عهد «الظاهر غازي» 602هـ / 1205م⁽¹⁾.

قلعة نجم⁽²⁾

تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى الشرق من بلدة منبج⁽³⁾، وهي على جبل ربض عامر وعندها جسر يعبر عليه وهي المعروفة بجسر منبج⁽⁴⁾، هي قلعة عربية وضع يده عليها «العادل نور الدين محمود» وأصلحها⁽⁵⁾، لكن المنشآت المهمة الموجودة حالياً هي من عهد الملك «الظاهر غازي الأيوبي»⁽⁶⁾، حيث حصرها وتسلمها في عام 579هـ / 1200م⁽⁷⁾ هذا وقد جدها الظاهر غازي بن «صلاح الدين» ملك حلب بين سنتي 605هـ / 1208م و612هـ / 1215م⁽⁸⁾، وأكثر مبانيها اليوم ترجع إلى عهده وهي مبنية بالحجر الكلسي المنحوت جيدة البناء⁽⁹⁾ بالحجارة الجميلة⁽¹⁰⁾.

قال عنها «القاضي الفاضل» في بعض رسائله «ووافينا قلعة نجم، وهي نجم في سهاب وعقاب في العقاب وهامة لها الغمامة عمامة وأنمله إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة»⁽¹¹⁾، وهي قلعة حسنة حصينة لها ظاهر للطرف، قاصر عنها الوصف⁽¹²⁾، هذا ولم تزل

(1) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 104 - 105.

(2) نجم قلعة في محافظة حلب، وهي مركز ناحية في منطقة منبج، انظر ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 1، ص 10.

(3) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 473، أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 85، ابن جبير، ص 176.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 391، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 473، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 159، الأنصاري الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى ببغداد 1923م، ص 206.

(5) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 85.

(6) أبو الفرج العشي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 252، يوسف الدبس، تاريخ سوريا، ج 6، ص 215.

(8) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 153.

(9) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص 171.

(10) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 153.

(11) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 473.

(12) ابن شداد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

القلعة في يد نواب الملك «الظاهر» إلى سنة ثلاثة عشر وستمئة كان قد أقطعها لعتيقه الأمير «بدر الدين أيدير» المعروف بوالى قلعة حلب فزاد في عمارتها، ولم تزل في يده إلى سنة تسعة وعشرين وستمئة وذلك في أيام الملك «العزیز»، فأخذها منه وعوضه عنها اللاذقية، وتوفي الملك «العزیز» وصارت إلى ولده الملك «الناصر» فيها صار إليه من البلاد، وما زالت في ملكه إلى أن انقضت الدولة وأخربتها التتر⁽¹⁾.

قلعة دمشق⁽²⁾

الموقع

تقع قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية⁽³⁾ لسور دمشق القديم⁽⁴⁾، وتعد قلعة دمشق هي القلعة الوحيدة بسوريا التي بنيت على مستوى أرض المدينة عكس القلاع الأخرى التي بُنيت على مرتفعات وهضاب⁽⁵⁾ كقلاع حلب وشيزر وحماة وحمص التي شيدت على بعض المرتفعات⁽⁶⁾.

تاريخ القلعة

سميت قلعة دمشق بـ«الأسد الرابض»⁽⁷⁾، فقد كانت أقدم الاستحكامات الإسلامية بها، فقد أقيمت مكان دار الأمانة التي اتخذها بنو أمية في الخضراء ظاهر دمشق، فلها تولى بنو

- (1) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 475.
- (2) قلعة دمشق ذكرها ابن جبير في الرحلة «ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، انظر ابن جبير، الرحلة، ص 201، هذا وقد ذكر القزويني والقلقشندي «أنها مدينة عظيمة حصينة ذات سور شاهق وخذق»، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 91، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 189، قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1996م، ص 285.
- (3) سليم عادل عبد الحق، نزعات أثرية في سوريا، طبع في مطبعة الترقى بدمشق قيمرية 1947م، ص 9، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص 52.
- (4) قتيبة الشهابي، دمشق تاريخ وصور، ص 236، قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج 2، دمشق 1999م، ص 125، قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص 285.
- (5) عدنان الينى، قلعة دمشق، مقال بمجلة الحوليات الأثرية السورية 1985م، ص 30، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص 53، دمشق الشام أقدم مدينة في العالم، إعداد وتصوير أيوب سعيد، ص 53.
- (6) سليم عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، مطبعة الترقى بدمشق مطبوعات مديرية الآثار العامة في سوريا 1369 هـ - 1950م، ص 50.
- (7) محمد كرد على، خطط الشام، ج 5، ص 292.

العباس خربوا دور الأمويين وسور دمشق وبنوا دار إمارة أطلقوا عليها «القصر»⁽¹⁾، ولم يزل منزل الأمراء حتى أحرقه «بدر الجمالي» في عهد الخليفة «المستنصر بالله» الفاطمي ونقص أخشابه وشمله الخراب، ولم يبق بدمشق دار إمارة حتى ملكها «تاج الدولة تتش» 471هـ / 1079م⁽²⁾ فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار إمارة⁽³⁾، وسكنها وبنى لولده «رضوان» دارًا بالقلعة تعرف بـ«دار رضوان» ولم تزل يد الإصلاح والترميم تتوالى على القلعة ودار الإمارة طول عهد الأمراء السلاجقة حتى ملك دمشق «نور الدين محمود بن زنكي»⁽⁴⁾، فبنى بها دارًا أحسن ما تزال حتى الآن تعرف باسمه، كما أنشأ بها دارًا أخرى عرفت بـ«دار المسرة»، كانت في غاية الحسن وأنشأ إلى جوارها حمامًا⁽⁵⁾.

قلعة دمشق في العصر الأيوبي

من أهم آثار الأيوبيين في دمشق، بل أهم مثل على فن العمارة العسكرية في العصر الأيوبي فهي ما تزال بحالة جيدة محافظة تقريبًا على أصالتها⁽⁶⁾، فعندما أسس «صلاح الدين الأيوبي» الدولة الأيوبية ودخل دمشق سلماً عام 570هـ / 1174م⁽⁷⁾ نزل في دار أبيه المعروفة آنئذ بـ«دار العقيق» وعصيت عليه القلعة، وكان فيها من جهة الملك «الصالح بن نور الدين زنكي» خادم يسمى «ريحان» فراسله «صلاح الدين» واستماله إليه في طلب القلعة فجعل مقره فيها، وأصبحت بمنزلة مقر لأعماله العسكرية المظفرة التي قام بها⁽⁸⁾، وكان لـ «صلاح الدين»

(1) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج2، ص125.

(2) محمد كرد علي، خطط الشام، ج5، ص292، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص53، قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص285، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص152، أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص48 - 49.

(3) عبد الرحمن زكي، الجيش المصري، موسوعة الجيوش، القاهرة 1970م، ص119، مؤتمر الآثار في البلاد العربية المنعقدة في دمشق، صيف 1947م، مطبعة فؤاد الأول، ص60.

بدأ بناء القلعة بعد عام واحد من دخول الأمير (آتسز بن أوق التركماني) إلى مدينة دمشق التي انتزعها من أيدي الفاطميين سنة 496هـ / 1076م، وأعلن فيها سلطنة السلاجقة، ثم أكمل البناء الأمير السلجوقي تتش الذي كان أول من أقام فيها، وتعتبر هذه المرحلة (مرحلة القلعة السلجوقية)، قتيبة الشهابي، دمشق تاريخ وصور، الطبعة الثالثة دمشق 1994م، المطبعة الجديدة، ص236.

(4) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص152، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، القاهرة 1970م، ص119.

(5) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج2، ط1، 1405هـ / 1985م، ص859 - 860.

(6) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص140.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص130، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص24.

(8) عدنان النبي، قلعة دمشق، الحوليات الأثرية السورية، ص30 - 31.

برج يسهر فيه أحياناً، وقد كان للقلعة جسر عبره السلطان «صلاح الدين» آخر مرة قبل وفاته عام 589هـ / 1193م، هذا وقد كان «صلاح الدين» مهتماً بأعمال التحصين فيها وذلك مما يراه ماثلاً على قلعة دمشق إلى اليوم ونصه «جدد هذا البرج في أيام مولانا الملك الناصري صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب سنة 574هـ / 1178م»⁽¹⁾.

القلعة في عهد الملك «العاذل»

عندما تولى الملك «العاذل بن أيوب» الملك أمر بهدم القلعة القديمة دمشق⁽²⁾ القلعة السلجوقية⁽³⁾، وبدأ بتشيد قلعة أكثر تطوراً واستمر البناء حتى وفاته سنة 615هـ / 1218م⁽⁴⁾، وهذه القلعة تتألف من 12 برجاً بعضها بحالة كاملة⁽⁵⁾ ووزع بناءها على أمرائه⁽⁶⁾، كان كل برج منها تبلغ مساحته مساحة قلعة قائمة بذاتها⁽⁷⁾، هذا بالإضافة إلى أنه حفر حولها خندقاً وأجرى إليها الماء فجاءت عمارتها أحسن عمارة⁽⁸⁾ وأضخم بناياناً وأكثر تحصيناً⁽⁹⁾، ويذكر المؤرخون أن غاية الملك «العاذل» من عمله هذا هو جعل القلعة تنسجم مع تطور الفن العسكري ومتطلباته المحدثة⁽¹⁰⁾ آنذاك مثل اكتشاف النار اليونانية (الإغريقية)⁽¹¹⁾، هذا ونستطيع القول إن الملك «العاذل سيف الدين» عنى بالقلعة عناية تامة حتى إنه أعاد بناءها جميعاً وبنى أبراجها العالية، وحشد من أجل عمارتها عددًا كبيراً من العمال استمروا اثنتي

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص 114.

(2) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص 236، قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص 286، أيوب سعدية، دمشق الشام أقدم مدينة في العالم، ص 54، مشاهد دمشق الأثرية، ص 50.

(3) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص 286.

(4) قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص 236.

(5) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص 140، مشاهد دمشق الأثرية، ص 50.

(6) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 167، 169، أيوب سعدية، دمشق الشام، ص 54.

(7) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج 2، ص 860.

(8) عبد القادر الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص 140، سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، ج 2، ص 860.

(9) على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص 53.

(10) عدنان البنى، قلعة دمشق، الحوليات الأثرية السورية، ص 31.

(11) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 543، ج 2، ص 502.

اقتضت ظروف الحرب المستمرة واكتشاف النار اليونانية، أن تكون الأبراج أكبر مساحة وأكثر ضخامة حتى تستطيع المقاومة لفترة طويلة امتدت قرابة قرنين من الزمان، انظر سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، هامش 2، ص 860.

عشرة سنة حتى غدت القلعة مستوفية أحسن شروط الدفاع التي عرفت في ذلك العصر⁽¹⁾، هذا وقد أصبحت القلعة تشكل مستطيلاً أبعاده 220 × 160 متراً ودعمت مداخلها وبني في قسمها الغربي قصرًا اتخذ مقرًا لحكام دمشق حتى غزو المغول عام 658هـ / 1260م، وعندما تولى «الأشرف موسى بن العادل» عام 626هـ / 1222م، أقام بالقلعة الدور والقصور، وعندما تولى «الكامل»، دخل قلعة دمشق عام 635هـ / 1137م⁽²⁾ وبني بها دارًا سميت بـ«الدار الكاملية»، وتعتبر آخر إنشاءات الدولة الأيوبية في قلعة دمشق ما قام بها الملك «الصالح نجم الدين أيوب»، فقد بني بها برجًا ضخماً من جهتها الشرقية كان قد تهدم⁽³⁾.

مخطط القلعة

كان يحيط بالقلعة خندق عميق يملأ بالماء أثناء الحصار من فرع بردى المجاور، وكان هناك ما ييائل هذا الخندق في القلعة السلجوقية، ولكل زاوية من زوايا القلعة برج، وهناك برجان في الواجهة الشرقية يضم أحدهما المدخل الشرقي للقلعة، وثلاثة أبراج من كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية ويصطلح على تسمية الأبراج نسبة لمواقعها وكذلك ترقيمها بدءاً من برج الزاوية الشمالية الشرقية باتجاه، ويصل بين الأبراج جدران سميكة يطلق عليها اسم «البدنات» (مفردها بدنة)، وتأخذ كل بدنة رقمي البرجين المجاورين لها، وتتألف من طابقين وتنتهي في أعلاها بستائر مزودة بشراقات ذات مرامي صغيرة، وخلف الأبراج والبدنات هناك عمر مسقوف يطوف بجهات القلعة الأربع، ويؤمن الاتصال فيما بينها ويعرف بالممر الدفاعي، وإضافة إلى باب القلعة الذي يفتح على المدينة (الشرقي) هناك باب في الجهة الشمالية، إلا أنه تهدم مع البرج الذي يحويه وأدخلت عليه ترميمات وزالت آثار الباب الأيوبي، أما البابين الغربي والجنوبي فقد ضاعت معالمهما.

أبراج القلعة

لقلعة دمشق 12 برجاً، خمسة منها على كل من الجانبين الطويلين للقلعة واثنان على كل من الجانبين القصيرين⁽⁴⁾، أما الأبراج الباقية ليومنا هذا فبرج «نور الدين الشهيد» وبرج الملك «الصالح أيوب»، وقد نسبتا إلى بناتها، وبعض الأبراج الأخرى التي لا أسماء لها، فبرج نور

(1) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 48 - 49.

(2) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج 3، ص 222.

(3) سعاد ماهر، العمارة الإسلامية، ج 2، ص 860.

(4) الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسي الفارسي، دارفيو، ترجمة وتعليق أحمد أيّش، الطبعة الأولى، دمشق 1403هـ / 1982م، ص 31 - 32.

الدين» قاعدته مربعة تعلوها نصف دائرة ويقوم إلى الجنوب من جامع سنان باشا في حي السنانية اليوم، وعنده نص مؤرخ فيه «بسملة - أمر بإنشاء هذا البرج المبارك الفقير إلى رحمة ربه محمود بن زنكي بن أقسنقر» طلبًا للثواب سنة تسعة وستين وخمسةائة⁽¹⁾، هذا وقد كانت أقدم المنشآت الأيوبية في القلعة هو برج الزاوية الجنوبية الغربية.

برج الصالح أيوب

يقع عند الزاوية الشمالية الشرقية للسور⁽²⁾ شيده في العصر الأيوبي الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 646هـ / 1248م⁽³⁾، وهذا البرج شكله مربع ويعد نموذجًا من نماذج الأبراج الأيوبية الدمشقية، وقد استوحى في بنائه من أشكال وتخطيطات أبراج القلعة التي سبقته والوجهة الخارجية لأحجاره ملساء وغير بارزة، وهذه الأحجار منحوتة نحتًا جيدًا وما تزال محافظة تمامًا على شكلها القديم، وكانت توجد عليه شرفات متصلة لم يبق منه الآن إلا مساندها المعلقة فوق كواه الطابق المتوسط⁽⁴⁾، وعلى هذا البرج كتابة مؤرخة نصها «بسملة - عمل في أيام مولانا السلطان الملك «الصالح نجم الدنيا والدين أيوب» بتولى عبده الفقير «المبارك الأوحدي» وذلك في سنة ستة وأربعين وستمائة»⁽⁵⁾، وهناك أيضًا برج يلي برج الملك «الصالح أيوب»، وهو عبارة عن برج كله نصف مستدير، وهناك بقية من أبراج أخرى فيها أثر من طراز العمارة البيزنطية، لكنها بحالتها الراهنة تعود إلى العصور الإسلامية الوسطى أيام النوريين والأيوبيين والمماليك⁽⁶⁾، يمكن القول إن قلعة دمشق هي الوحيدة في سوريا التي شيدت على مستوى سطح الأرض⁽⁷⁾، ولهذا زودت بأبراج شاهقة الارتفاع يتألف البرج من

(1) قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، ص 77.

(2) يوجد في الجانب الشمالي الشرقي من القلعة برج بناه الملك العادل 606هـ / 1209م، وهو من أعظم الأبراج وما زال في حالة جيدة وشكله مستطيل، وارتفاعه الحالي 18 مترًا ويشتمل داخله على ثلاثة طوابق وفي كل منها ثلاث كوات لرمي السهام وسطح البرج الخارجي محاطة من أعلاه بشراريف للدفاع، وفوقها كلها كوات مستطيلة أخرى مستننة، لمزيد من التفاصيل انظر سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص 50.

(3) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج 1، دمشق 1999م، ص 31.

(4) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص 50.

(5) قتيبة الشهابي، أبواب دمشق، ص 77.

(6) قتيبة الشهابي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) يمكن القول إنه في حكم الأيوبيين صارت دمشق مركزًا نشطًا جدًا، حتى إنه أدخلت ترميمات عميقة على جميع القلاع والحصون العربية في سورية لتلك الحقبة بحيث أصبحت أبراجها تشرف على أسطح المدينة القديمة كلها، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد غسانو سبانو، دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، سلسلة دراسات ووثائق دمشق الشام، دار الكتاب العربي، بدون سنة، ص 179.

ثلاث طوابق مجهزة بمرام للنبال والقذائف الحجرية والمواد المشتعلة، وفي أعلى الأبراج أفاريز وشراريف مدرجة وأبواب متينة ومقرنصة، ولزيادة منعة القلعة أحيطت بخندق⁽¹⁾.

ملاحظات مهمة على قلعة دمشق

أولاً: دور القلعة السياسي والحربي

استمرت القلعة الأيوبية بالقيام بالدور السياسي الذي أدته القلعة السلجوقية فغدت مقر سلاطين بني أيوب وملوكهم وتجرى فيها استعراضات الجيوش، أما دورها الحربي في تلك الفترة فقد كان محصوراً في الصراعات بين الأمراء الأيوبيين⁽²⁾، إذ أنه يمكن القول إن لهذه القلعة قيمة خاصة بالنسبة إلى المدينة، فهي لا تكفي بكونها الملاذ الأخير للمحاصرين تلجأ إليه قوى الدفاع لكنها قبل كل شيء مقام السلطان⁽³⁾.

ثانياً: بناء القلعة بالأحجار

بنت القلعة بالحجارة الكلسية المتوفرة في ضواحي دمشق واستخدمت معها حجارة سوداء من البازلت بشكل محدود جداً، وكانت حجارة الإنشاءات الأصلية التي تمت في العهد الأيوبي ذات وجه بارز مقطوع قطعاً غير منتظم يحيط به إطار صقيل، ونجد نسبة ضئيلة من حجارة البناء التي نحتت وجوها بشكل منتظم، وقد استخدم هذا النوع من الحجارة بشكل خاص في الرواشن التي تتوج أبراج القلعة جميعاً⁽⁴⁾، هذا ويمثل باب القلعة الشرقي فخامة الأسلوب الأيوبي في العمارة، والقلعة بمجملها تعطينا فكرة عن الأساليب العسكرية الإسلامية في القرن 7هـ / 13م⁽⁵⁾، هذا ويقوم في جانبي القلعة الشرقي والشمالي مدخلان عظيمان من طراز الأبواب المنحنية على شكل زاوية قائمة، وتعلو جميع أبواب القلعة السقاطات الدفاعية⁽⁶⁾، يظهر من بعض تفاصيل العمارة والنحت في قلعة دمشق أن هذه

(1) على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص 53.

(2) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص 114.

(3) جان سوفاجيه، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، نقلها إلى العربية فؤاد أفرام البستاني، ظهرت في مجلة المشرق، ص 34.

(4) الرواشن عبارة عن شرفات حجرية مغلقة تبرز عن جدار القلعة وأبراجها وتحوى في أسفلها فتحات يصب منها الزيت المغلي على رؤوس المهاجمين إضافة إلى مرام ذات شق ضيق ترمى من خلالها النبال دون أن يتمكن العدو المحاصر من إصابة الرامي، انظر أيوب سعدية، دمشق الشام، ص 55.

(5) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 48 - 49.

(6) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 119.

القلعة قد احتذى في بنائها نماذج التحصينات العسكرية الأيوبية التي ظهرت في سوريا الشمالية، مما دعا المؤرخ «سوفاجيه» أن يقول إن الملك «العادل» استحضر بعض البنائين والمهندسين من حلب ليساهموا في تشييدها، ورمت بعض حصون هذه القلعة وأسوارها، وأعيد إنشاؤها عدة مرات منذ زمن بنائها حتى أول القرن السادس عشر الهجري⁽¹⁾.

أبواب دمشق

ذكر «القلقشندي» أن لدمشق سبعة أبواب هي باب كيسان وباب شرقي وباب توما وباب الصغير وباب الجابية وباب الفراديس وباب المسدود، وقيل إن بانيتها جعل كل باب من هذه لكوكب من الكواكب السبعة، وصور عليه صورته⁽²⁾.

باب النصر

يعود تاريخ تشييده إلى أواخر العهد الزنكي وبداية العهد الأيوبي⁽³⁾، هذا وقد قيل إن الذي أنشأه الملك الناصر «صلاح الدين الأيوبي» ولكنه لم يبق له أثر الآن، وأزيل عند بناء السوق في أيام السلطان «عبد الحميد الثاني»⁽⁴⁾.

باب الجابية

جدد هذا الباب أيام «نور الدين الشهيد» وعمل له باشورة عام 560هـ / 1164م، ثم أيام الملك «الناصر داود الأيوبي»⁽⁵⁾.

باب الفراديس

من أبواب دمشق الأصلية، في الجهة الشمالية للصور بين باب السلام فهو يشبه باب الفرج، فقواعده رومانية، وأعيد إنشاؤه في عام 639هـ / 1241م في عهد الملك «الصلاح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب»⁽⁶⁾، ويعرف أيضًا بـ«باب العمارة» و«باب الفراديس الكبير»⁽⁷⁾.

(1) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص 51.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 91، ذكر ابن بطوطة في الرحلة أن لها ثمانية أبواب.

(3) منى المؤذن، دمشق الشام أقدم مدينة في العالم، ص 60.

(4) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص 42.

(5) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج 1، ص 20.

(6) منى المؤذن، المرجع السابق، ص 60.

(7) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج 1، ص 20.

الباب الصغير

من أبواب دمشق الأصلية السبعة، وفي العهد الأيوبي قام الملك «المعظم عيسى» بتجديده عام 623هـ / 1226م، ومن أسمائه الأخرى، «الباب القبلي» و«باب الحديد»⁽¹⁾.

باب توما

يقع هذا الباب في الجبهة الشمالية الشرقية من سور مدينة دمشق مكان باب قديم يعود عهده إلى العصر الروماني، وقد أعيد بناؤه على شكل جديد في زمن الملك «الناصر داود بن الملك المعظم عيسى الأيوبي» عام 625هـ / 1228م، وهو نموذج من نماذج المنشآت العسكرية الأيوبية الذي تقدم صنعها تقدمًا مدهشًا⁽²⁾.

باب الفرج

فتحه «نور الدين زنكي» في السور الشمالي من ناحية الغرب وسماه «باب الخلاص»، وقد تم تجديده في عهد الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 638هـ / 1240م، ولا يزال باب الفرج الخارجي بحالة جيدة وبكامل عناصره⁽³⁾، وهناك أبواب أخرى مثل باب شرقي وباب كيسان⁽⁴⁾ وباب الجنان⁽⁵⁾.

باب السلامة

من الأبواب المحدثّة في الجهة الشمالية من سور دمشق بين باب توما وباب الفراديس، بناه السلطان «نور الدين محمود بن زنكي»⁽⁶⁾ في القرن السادس للهجرة، ويعتبر من أجمل أبواب المدينة، وجدده في العهد الأيوبي الملك «الصالح نجم الدين أيوب» عام 641هـ / 1243م، وسمى بذلك تفاؤلاً؛ لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار، ومن أسمائه الأخرى «باب الشريف» و«باب الفراديس الصغير»⁽⁷⁾.

(1) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج1، ص26.

لمزيد من التفاصيل، انظر قتيبة الشهابي، دمشق تاريخ وصور، ص329، 334، عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص140، قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1996م، ص50 - 51.

(2) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص52.

(3) علي حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص48 - 49.

(4) مزيد من التفاصيل انظر علي حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص48 - 49.

(5) مزيد من التفاصيل عن أبواب دمشق انظر قتيبة الشهابي، أبواب دمشق، ص51 - 52.

(6) أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، ص42.

(7) قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج1، ص25.

أسباب اهتمام «نور الدين» بأبواب دمشق كان اهتمام «نور الدين» بأبواب دمشق لغرضين الغرض الحربي

فقد أقام فوق كل باب مسجدًا ومنارة (مئذنة) بغية مراقبة العدو من مكان مرتفع عند اقترابه من دمشق إبان الحملات الصليبية⁽¹⁾.

الغرض الاقتصادي

وهو إقامة سوق صغيرة لتنشيط الحركة التجارية، هذا ويمكن القول عند ذكر الأبواب إن معظمه مجدد في عهد «نور الدين محمود بن زنكي» الملقب بالشهيد ومن تلاه من الأيوبيين، ونواب السلطنة من المماليك، أما السور الذي سوف نتحدث عنه في حينه والذي تقع فيه الأبراج والأبواب السابق الحديث عنها في حالته الراهنة فمجدد في عهد الدولة النورية ثم الأيوبية⁽²⁾، وقد كانت مدينة دمشق في حاجة إلى الحماية والدفاع ودعم الأسوار والأبواب وهي ضرورة مهمة بعد تهديد الصليبيين لها، فقد كانت هذه الأسوار دائمة الترميم في العهدين النوري والأيوبي⁽³⁾.

سور مدينة دمشق

سور دمشق كان يحيط بمدينة دمشق⁽⁴⁾ ولا يزال جزء كبير من هذا السور على حالته الأصلية⁽⁵⁾، وهذا السور مشيد بأحجار ضخمة، قيل إنه مشيد من الحجارة الكلسية

(1) زاد نور الدين محمود في تحصين مدينة دمشق بتجديد أسوارها بأبراجها وأبوابها وشيد مسجدا في شمال قلعتها، مزيد من التفاصيل انظر دائرة المعارف الإسلامية، ج16، ط1، ص4933.

(2) قتيبة الشهابي، دمشق تاريخ وصور، ص318.

(3) قتيبة الشهابي، أبواب دمشق، ص53.

(4) كان للاضطراب الذي شاع أيام الحروب الصليبية نصيب كبير في ازدياد نعة التعصب الديني في دمشق فأصبحت بذلك أعظم حصون الإسلام، انظر موجز دائرة المعارف الإسلامية، الجزء السادس عشر، الطبعة الأولى 1418هـ / 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ص4933.

(5) تواجد هذا السور حول المدينة في العهد الآرامي واليوناني ثم في العهد الروماني أوائل القرن الثالث الميلادي، لمزيد من التفاصيل انظر قتيبة الشهابي، دمشق تاريخ وصور، مؤسسة النوري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1994م، انظر أيضًا دمشق الشام أقدم مدينة في العالم، إعداد وتصوير أيوب سعدية، ص50، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص45.

الصلبة⁽¹⁾ وذو ارتفاع كبير، بالإضافة إلى أن هذا السور به أبراج عديدة (سبق ذكرها)، أهمها برجان يعرف أحدهما باسم برج «نور الدين زنكى»، ويرجع عهده إلى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى، هذا بالإضافة إلى أن هذا السور تقع به أبواب دمشق السابق ذكرها أيضًا.

تاريخ سور دمشق

عندما احتل العباسيون مدينة دمشق 132هـ / 749م قاموا بتخريب السور⁽²⁾، ولم يتركوا منه سوى قطعة صغيرة تمتد بين باب توما وباب السلام، إلا أن هذا السور أهمل طوال العصر العباسى وزاد إبان الثورات المتلاحقة والمتتالية أيام الإخشيديين والفاطميين والسلاجقة، إلى أن أعيد بناؤه فى عهد الدولة النورية أيام «نور الدين محمود بن زنكى» الملقب بـ«الشهيد» الذى دخل دمشق سنة 549هـ / 1154م، ثم استكمل البناء بعد ذلك فى العهد الأيوبي⁽³⁾ فرمموه وجددوا تحصيناته ووسعوه خاصة إلى جهة الشمال⁽⁴⁾.

هذا وقد ذكر «ابن كثير»: «فى عام 599هـ شرع «صلاح الدين» بعمارة سور دمشق، وابتدأ ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر»⁽⁵⁾، وقال «ابن تغرى بردى»: «دخل «صلاح الدين» دمشق وتسلم قلعتها وصعد القلعة»⁽⁶⁾.

مميزات العمارة الحربية فى العصر الأيوبي

لا شك أن العصر الأيوبي كان عصر جهاد، لذا نجد أن القلعة والسور الذى حولها هما

(1) قيل إن سور دمشق جدد فى العهود التالية للعهد الرومانى ولكن تجديده كان فوق أسسه الأولى لذلك اختلفت مواد البناء، هذا ويمكن تحديد أنواع الحجارة فى العصور المختلفة كالتالى، فصفوف أحجاره السفلية الضخمة التى أخذت من السور القديم، عهدها قبل القرن الثانى عشر، وصفوف الأحجار التى تليها والتى يتراوح ارتفاعها بين 50 و 60 سم من زمن نور الدين وزمن الأيوبيين، لمزيد من التفاصيل انظر مشاهد دمشق الأثرية، خالد معاذ، سليم عبد الحق، ص 55، هذا وقد ذكر ابن كثير انه فى عام 599هـ «شرع صلاح الدين بعمارة سور دمشق وابتدى ببرج الزاوية الغربية القبلية المجاور لباب النصر»، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 34.

(2) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص 55، على حسن موسى، دمشق مصايفها ومنتزهاتها، ص 45.

(3) عبد القادر الرجاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا، ص 140، قتيبة الشهابى، دمشق تاريخ وصور، ص 318.

(4) سليم عادل عبد الحق، خالد معاذ، مشاهد دمشق الأثرية، ص 55.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 34.

(6) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 24 - 25.

أبرز منشآت ذلك العصر⁽¹⁾ فقد غلب على العمائر بوجه عام طابع البساطة والتقشف، بسبب حالة الحرب ولكنها من ناحية أخرى تتميز بالمتانة والقوة وإتقان الخطط والبناء وكان من أهم مميزاتها ما يلي:

* التحصينات العديدة بما اشتملت عليه من أبواب وأبراج وشرفات حجرية بارزة عن حائط السور⁽²⁾.

* استخدام الحجر المنحوت لأول مرة بدلاً من الطوب، وتزيين الواجهات بالزخارف المحفورة على الحجر⁽³⁾، وقد كان الاعتماد كلياً على الحجر كمادة للبناء وحسن نحته واستخدامه بمقاييس كبيرة⁽⁴⁾، هذا وقد حدث تطور ملحوظ في فنون العمارة العسكرية، حيث فاقت الأبراج والأسوار بارتفاعها وحجمها الكبير وضخامة حجارتها التي يغلب عليها النوع البارز، كل ما هو معروف، وأحسن مثال على ذلك هو قلعة حلب، وقلعة دمشق، وقلعة بصرى، اللاتي ما زلن يحافظن على أصالتهن⁽⁵⁾.

* هذا وقد كان العرب يقيمون القلاع في وسط المدينة، فاجتنب الصليبيون إقامة القلعة أو الحصن في وسط المدينة فأقاموها في أحد أركان المدينة كي تستطيع القيام بواجبها كوحدة مستقلة فعالة محتفظة بحرية مواصلاتها، وإذا حدث أن سقطت المدينة استطاعت القلعة الحفاظ على مواصلاتها البحرية⁽⁶⁾.

التأثيرات التي تآثر بها «صلاح الدين» في تحصيناته الحربية

لا شك أن «صلاح الدين الأيوبي» تآثر إلى حد كبير في تحصيناته الحربية بقواعد الفن الحربي المعماري الصليبي المستمد من الفن الفرنسي بوجه خاص⁽⁷⁾.

(1) موسوعة العالم الإسلامي، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامي تصدر عن دار الرأي العام، إعداد مركز الأبحاث والدراسات الدولية في دار الرأي العام، الإشراف العام، عبد الحميد حجازي، المجلد الأول 1397هـ / 1977م، الطبعة الأولى، ص 90.

(2) موسوعة العالم الإسلامي، ص 90.

(3) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سورية، ص 132.

(5) عبد القادر الريحاوي، المرجع السابق ص 132 - 134.

(6) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 187.

(7) نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، ص 106.

أولاً: المدرسة الفرنسية

التي تتمثل في القصور، ويمكن مشاهدة الكثير من نماذج هذا الطراز المعماري في حصون الاستبارية في الشام⁽¹⁾.

ثانياً: المدرسة البيزنطية الشرقية

وهي المدرسة التي جمعت بين تقاليد العمارة الحربية عند العرب والرومان واليونان، والتي كانت تركز على قاعدتين أساسيتين، وهما مضاعفة خطوط التحصين والدفاع وذلك ببناء سورين أو ثلاثة حول قلب الحصن، ثم بعد ذلك إقامة الأبراج البارزة على مسافة معينة في تلك الأسوار وتزويدها بالسلاح والعتاد في ستائر، وقد كانت نماذج ذلك الطراز في البلاد الإسلامية قبل الحروب كثيرة مثل بيت المقدس وأضاليا وإنطاكية وكذلك في طرسوس وحلب وعتليت بشمال الشام، حيث أحيطت الأسوار بالخنادق العميقة والمحفورة في الصخر والمليئة بالمياه، وعندما جاءت الحروب الصليبية أتاحت الفرصة لمهندسي الغرب، وتبين لهم ضالة معلوماتهم عن قواعد التحصين فنقلوا الكثير والكثير، خاصة ما تميزت به العمارة الشرقية، ويمكن ملاحظة الكثير من تلك المميزات في حصون الداوية بالشرق، ويمكن ملاحظة أثر المدرسة الفرنسية⁽²⁾ في تحصينات «صلاح الدين»، حيث استخدم الأبراج المستديرة ذات الطبقة الواحدة أو الطبقتين، ومن حيث بناء القلعة على صخرة مرتفعة يستخدم بروزها للدفاع عن أسوار المدينة⁽³⁾.

التأثيرات المختلفة التي أخذها الصليبيون من العرب

لا شك أن أهم ما يميز طابع القلاع والحصون في أوائل القرن الثاني عشر استخدام الحصن النورمانى المربع على غرار القلاع الفرنسية، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة

(1) انظر:

Ray (G), op. cit, p12

(2) يمكن القول إن أثر المدرسة الشرقية كان واضحاً كل الوضوح في تحصينات بدر الجمالى بالقاهرة من حيث الشكل المربع وقلعة البروز الخارجى للبرج عن السور.

(3) Max Van Bercham, op. cit, pp 471 – 473, Lane Pool, The story of cairo, p175.

هذا بالإضافة إلى الطراز السلجوقى، حيث بنيت العمارة المتمثلة في قلعة الجبل وأسوار قلعة الجبل وفقاً لطراز العمارة الحربية السلجوقية المتمثلة في قلاع دمشق وغيرها.

لمزيد من التفاصيل انظر عيد محمد على أبو زيد، مجتمع القاهرة في العصر الأيوبي، ص 284.

الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات تنوعات واضحة، وقد استفاد الصليبيون في هذا الصدد بما وجدوه في البلاد من القلاع البيزنطية⁽¹⁾. فضلاً عما نقلوه معهم بصورة أمينة من أساليب البناء الحربية⁽²⁾.

* إذا كانت الشام مسرحاً للأحداث البيزنطية والعربية، والدولة البيزنطية ورثت الدولة الرومانية، من هنا يكون الصليبيون والمسلمون معا قد عرفوا الكثير عن التحصينات الدفاعية، التي ترجع إلى ما قبل القرن الثاني عشر بكثير⁽³⁾، وتأثر الصليبيون بما وجدوه يرجع إلى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم⁽⁴⁾.

* أخذ الصليبيون عن العرب ظاهرة المشربيات التي زودت بها الأبراج بغرض السيطرة على أسفل السور، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض، وتحمل فوقها حواجز بارزة، وبين كل دعائمين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منها إلى رءوس المحاصرين الذين يحاولوا أن يحفروا تحت الجدران أو يشعلوا النيران، كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رءوس المحاصرين⁽⁵⁾، ولندرة الأخشاب في الشام اضطر الفرنج لاستخدامها من الحجر⁽⁶⁾، فهناك مثلاً فوق باب النصر 480هـ / 1087م أحد أبواب القاهرة⁽⁷⁾، هذا وقد عمل الصليبيون على تطوير عنصر المشربية، وقد ظهرت هذه الظاهرة في الشرق قبل ظهورها في أوروبا⁽⁸⁾، ومن الجدير بالذكر أن المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية، كانوا قوة مهاجمة متحركة ذات تفوق عددي عظيم لديها القدرة على أخذ زمام المبادرة، ولهذا فإنهم في المقام الأول لم يهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية، وبالتالي فإن تأثيرهم على العمارة الحربية الفرنجية قليل الشأن، وعلى الرغم من ذلك فقد استفادوا من خبرة العرب في أساليب البناء الحربي وذلك عن طريق:

(1) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 188.

(2) Oman, A history of the art of war, vol. II, p29.

(3) Fedden, Crusader castles, pp 22- 23

(4) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 188.

(5) محمود الحويري، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6)

Fedden, op.cit, p29

(7) محمود الحويري، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) KAC Creswell, A short Account of early Muslim Architecture, Pelican, 1958, pp 121-122

المدخل

إنهم قاموا بإدخال منحدر ضخم إلى أساسات أسوارهم، مما أدى إلى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم، وتأكيد قوة دفاعها فقد اتبع المسلمون هذا الأسلوب دفعًا لأضرار الزلازل وإعاقة لزراع الألغام، هذا بالإضافة إلى أنهم عرفوا المدخل الملتوى للقلاع عند العرب، فإبان الحروب الصليبية أصبح المدخل الحربي من باب القلعة إلى داخلها متعرجًا أو على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو الذي يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلي⁽¹⁾ أو أن يصوب سهامه إلى من فيه، فالمدخل المستقيم هو الذي يؤدي مباشرة إلى فناء الحصن، وقد انتشر هذا الأسلوب في الشرق العربي في القرن الثاني عشر وتم استخدامه في مباني الحصون بطريقة جيدة، ولا سيما في قلعة حلب العظيمة التي يمتاز مدخلها بخمسة منشآت قائمة ومتتالية⁽²⁾، ومن الجدير بالذكر أن الأمير «بهاء الدين قراقوش» الذي ندبه السلطان «صلاح الدين الأيوبي» لبناء قلعة الجبل، استخدم ذلك الأسلوب من الداخل في القلعة ثلاث مرات (572هـ - 578هـ / 1176م - 1182م)، وفي قلعة الجندی بسيناء التي شيدها حوالي 578هـ / 1182م كما نلاحظ هذا الأسلوب في حصن الأكراد (الفرسان) في شمال سوريا⁽³⁾.

الأبراج

كانت الأبراج تشييدًا وهي شديدة الحصانة في القلاع الأكثر ضخامة لتناسب مع حجمها وشكلها مثل قلعة «صلاح الدين»، وقد وجدت أشكال مختلفة للشرفة المجهزة بكوى (فتحات) لرشق السهام وتحول بعد ذلك شكل الأبراج من المستطيل إلى نصف الدائري أحيانًا، بدءًا من أوائل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي مع تقويتها وتطويرها⁽⁴⁾.

المزاغل

المزغل إما أن يكون مصنوعًا لخصوص المدافع أو لخصوص البنادق، فالأول عبارة عن فتحة في الدروة انفراجها من الخارج أوسع من الداخل لأجل سهولة حركة المدافع والثاني عبارة عن فتحة تعمل في البنيان انفراجها الداخل أوسع من الخارج، فإن كان هذا المزغل مصنوعًا فوق الدروة فإنه يعمل بتفوق «الجالات»⁽⁵⁾.

(1) محمود الحويري، المرجع السابق، ص 196 ص 197.

(2) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 74.

(3) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 75.

(4) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 151.

(5) صالح أفندي مجدي، ميادين الحصون والقلاع ورمي القنابر باليد والمقلاع، ص 25 - 26.

السقاية

وهناك نظام معماري آخر ابتكره العرب هو السقاية التي انتقلت إلى الغرب باسم (Machicoli)، فهي عبارة عن دورة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بواسطة كوابيل، وتقام فوق أسوار الحصون أو في أعلى مداخلها، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القلعة، هذا وقد ظلت السقاية مجهولة مدة طويلة في الغرب حتى استعارها الصليبيون في القرن الثاني عشر، وقد استخدمت السقائات على نطاق واسع في شمال سوريا قبل ذلك بعدة سنوات، وقد استخدمت السقاية في جميع القلاع في بلاد الشام لما لها من أهمية كبيرة في عملية الدفاع عن القلعة، ويتضح من ذلك أن الصليبيين نقلوا فكرة السقاية عن المعمارين العرب⁽¹⁾.

المتراس (Portcullis)

يمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد مدبب الأطراف من أسفله، ينزلق عمودياً في جزأين جانبيين في كتفي باب الحصن أو القلعة، ويثبت في الإطار شبكة معدنية صلبة يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بواسطة حبال متينة أو سلاسل، وقد شاع استخدامه في الشرق قبل انتقاله إلى الغرب في أثناء الحملات الصليبية⁽²⁾.

البربخان (بريقان) - (Barbican)

هي كلمة عربية أو فارسية الأصل بربخان، تطلق هذه الكلمة على البرج الكبير الذي يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المحيط بالحصن⁽³⁾.

المقرنص (Squinch)

نظام معماري استخدمه العرب ونشأه في كثير من العمارات الإسلامية، وهي ذات طبقات مصفوفة من أعلى بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة لكنها ركن مهم في الهندسة المعمارية ولا سيما في بناء القباب، هذا وقد انتقل استخدام المقرنصات إلى أوروبا بواسطة

(1) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 74 - 75.

(2) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 197، عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 76.

(3) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 76.

الصلبيين⁽¹⁾، هذه هي العناصر المعمارية التي استخدمها العرب في حصونهم ثم نقلها الصليبيون إلى أوروبا.

الحمام الزاجل

تأثر الصليبيون أثناء وجودهم في الشرق بما وجدوه من نظم اتصال عند المسلمين، من ذلك استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل العاجلة أو طلباً لنجدة عند اقتراب جيوش المسلمين، والمعروف أن «نور الدين» استخدم الحمام الزاجل في نقل البريد عام 567هـ / 1171م⁽²⁾.

الإشارات

كذلك تأثر الصليبيون في الشرق باستخدام الإشارات كوسيلة من وسائل التخاطب أثناء الحروب، ففي الليل توقد النيران، وفي النهار يثار الدخان، وقد عرفت تلك الوسيلة باسم «المناور» أي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار وهي تأتي بالخبر أسرع من الحمام الزاجل، ومثال ذلك أنه من أعلى حواجز شرفات قلعة الشقيف استطاع رجال الإشارة الاتصال مع جنود الصبيبة أسفل منحدرات جبل الشيخ مع قلعة تورون إلى الجنوب، ومع حامية قلعة صيدا على بُعد 19 ميلاً على الساحل، وفي أقصى الجنوب عندما كان «صلاح الدين» يحاصر قلعة الكرك عام 579هـ / 1183م، فقد كانت تلك القلعة تتصل ليلاً بواسطة الشارات النارية عند البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التي تبعد عنها بمسافة خمسين ميلاً⁽³⁾، هذا وقد حدث تطور في أسلوب بناء القلاع الشامية التي جلبها الفرنج معهم مثل مخطط قلعة الحصن ذي الهندسة العسكرية الفرنسية، هذا والحروب الصليبية أدت إلى تأثير متبادل بين الصليبيين والمسلمين في مجال التحصينات الدفاعية، أي إلى تطور أساليب تخطيط وإنشاء هذه التحصينات بصور أكثر تقدماً عما كانت عليه قبل ذلك⁽⁴⁾، وعلى أية حال فإن الشام خلال فترة الحروب الصليبية كانت تمثل بيئة غنية بالتحصينات الحربية من الطراز الأول استفاد منها الفرنج أيما استفادة، فبعد أن عادوا إلى أوطانهم في الغرب الأوروبي ظهر تأثير الخبرة التي اكتسبوها في العمارة الحربية واضحة، فقد أدركوا الإنجازات العظيمة في

(1) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محمود الخويري، المرجع السابق، ص 198 - 199.

(3) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 198 - 199.

(4) أجفان الصغير، القلاع، ص 153.

آلات الحصار القوية، والتأثيرات الرهيبة لحفر الخنادق وزرع الألغام، فضلا عن ضرورة اختيار الموقع المناسب لتشييد القلعة أو الحصن⁽¹⁾، ولا ينبغي أن نغفل أن عمائر «صلاح الدين» الحربية في القاهرة تمثل قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية، والعربية البيزنطية أحسن تمثيل وتوضح مدى التفاعل الحاصل بين المدرستين⁽²⁾.

الخندق أو الجسر

لا شك أن استعمال الجسر انتشر فى معظم القلاع الإسلامية مثل قلعة دمشق وقلعة حلب وقلعة شيزر وكذلك فى قلعة بصرى، هذا ويوجد أقدم مثل إسلامى منها فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده «صلاح الدين» عندما كان وزيراً للخليفة «العاقد» الفاطمى، وعندما دخل الصليبيون إلى البلاد استعملوا مثل هذه الجسور فى بعض القلاع التى احتلوها مثل حصن الأكراد فى سوريا والكرك فى الأردن⁽³⁾، فالخندق له أهمية كبيرة فى الدفاع عن الحصن لمن يريد الوصول إليه، ويعتبر الخندق عاملاً إستراتيجياً، هذا وقد ذهب الفرنج أيضاً بتأثرهم بالعرب فى أنهم أخذوا يزيدون فى عدد العناصر الصنعية للمعالم المعمارية التقليدية أو يضخمون أبعادها، فاتجهوا إلى تقوية الجدران الساترة التى تعتبر العمود الفقرى لأية منظومة دفاعية، بحيث تقاوم القصف أو اللغم (حفر الأنفاق تحتها) أو الهزات الأرضية عن طريق زيادة سمك البناء وإقامة الأسوار التى تستدق تدريجياً بالارتفاع (جدران الحصون المنحدرة) على الطريقة العربية، واستخدام الأعمدة القديمة مداميك داخل الجدران، وفى الوقت نفسه كانوا يزيدون فى مناعة تلك الأبنية بزيادة عدد كوات الرمى فيها وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية متراكبة فوق بعضها بعضاً تحترقها فتحات الرمى، وبيناء شرفات بارزة ذات كوى⁽⁴⁾.

الأدوار التى كانت تقوم بها القلاع

الدور الاقتصادى

شغلت التجارة حيزاً أساسياً فى النشاط الاقتصادى عند المسلمين فى مختلف عصورهم التاريخية لا سيما فى فترات الاستقرار، وقد بلغ اهتمامهم بها حدّاً أبعد من غيرها لسبب

(1) محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، ص 212.

(2) محمود الحويرى، المرجع السابق، ص 213.

(3) سعد المومنى، القلاع الإسلامية فى الأردن، ص 135 - 136.

(4) فولفغانغ مولر، القلاع فى بلاد الشام ص 28.

مردودها المادى الأكبر، ومع أن العمليات التجارية تحتاج إلى أمن واستقرار فقد بلغت شأواً كبيراً في فترة الحروب الصليبية لحاجة المسلمين الماسة إلى الأرباح والأموال التجارية لدعم قواهم العسكرية في مجابهة الصليبيين ولطردهم من بلاد الشام، وقد ساعدت تلك الحروب على تنشيط الحركة التجارية من خلال تعامل واحتكاك المدن التجارية الأوروبية الغربية مع مدن موانئ الساحل الشامى ذات القلاع الشهيرة التى استطاعت أن تشكل مع قلاع المدن الكبرى والداخلية في بلاد الشام محطات تجارية⁽¹⁾.

القلاع بوصفها محطات تجارية

المقصود لمعنى المحطات التجارية هو أن أصحاب القلاع عملوا واهتموا بالتجارة وأن السلطات الإسلامية اهتمت بهذا النشاط الاقتصادى الفعّال، فأشركت القلاع به فتمت الاستفادة من المستودعات الضخمة التى كانت تتوفر في كل القلاع تقريباً عن طريق حصر الكثير من المواد التجارية المهمة فيها، وفي الوقت نفسه الاستفادة من مواقع القلاع التى تكون مختارة غالباً لتشرف على الطرق الحيوية والمنافذ الإستراتيجية للمناطق والمدن الواقعة فيها، والقلاع استطاعت أن تشكل بحصانيتها حماية للقوافل التجارية وبضاعتها فأشرفت على أمن الطرق وسير العمليات التجارية إدارياً، كما كان يتم بالدواوين المختصة داخل القلاع⁽²⁾، هذا وكلما كان موقع المدينة تجارياً شغلت قلعتها صفة المحطة التجارية أكثر من صفات أخرى في فترات الاستقرار، فقلعة بصرى جنوب مدينة دمشق في طرف حوران شغلت دوراً اقتصادياً مهماً؛ لأن بصرى بالأساس محطة للقوافل التجارية تصل بين شمال بلاد الشام وجنوبها فاشتهرت قلعتها بدورها التجارى على الرغم من أن الغاية الرئيسية من بنائها عسكرية صرفة⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى قلعة عجلون التى تعتبر محطة تجارية ضخمة ما تزال راسخة وقد التى بناها «صلاح الدين» عام 580هـ / 1184م، في موقع إستراتيجى وحيوى جداً على قمة جبل عوف المطل على مدينة عجلون⁽⁴⁾.

(1) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 14.

(2) أجفان الصغير، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) أحمد على إسماعيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس، دراسة سياسية عسكرية اجتماعية اقتصادية، ط 1، دمشق 1983م، ص 304، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 16.

(4) يوسف درويش غوانمة، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن من جنوب الشام في العصر المملوكى، مقال في مجلة دراسات تاريخية، العددان 23، 24، إصدار جامعة دمشق 1986م، ص 87، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 17.

القلاع بوصفها مستودعات لحفظ المواد التموينية والغذائية

لا شك أن حالة الحرب الدائمة التي عاشها المسلمون والصليبيون خلال قرنين من الزمن لزمها تأمين مستودعات اقتصادية دائمة واحتياطية لدعم جيوش كل طرف في تحركاته ضد الطرف الآخر، وتأمين القوات والغذاء ذخراً لحالات الحصار التي كانت تتعرض لها القلاع غالباً مددًا طويلة من الزمن لكلا الجانبين، الأمر الذي تطلب عدم خلو القلاع من المواد الغذائية والتموينية المتوفرة محلياً أو المجلوبة من المناطق المجاورة أو عبر التجارة الخارجية، لدرجة أن مستودعات المؤن داخل القلاع كانت هدفاً للنهب بأول سقوط القلعة⁽¹⁾، هذا وقد حوت مستودعات قلعة بصرى الضخمة مواد تموينية وغذائية متنوعة، وفي قلعة حلب بنى الملك «الظاهر غياث الدين غازي» مستودعات خاصة لحفظ المؤن والمواد الغذائية وبعض الغلات والمحاصيل الزراعية، علاوة على ذلك ميزة سعة المستودعات لتستوعب الكميات الكبرى من المواد التموينية⁽²⁾، هذا ومن القلاع التي خصص القسم الكبير من مستودعاتها لحفظ المواد التموينية والغذائية قلعة نجم الواقعة في شمال شرق منبج على ضفة الفرات اليمنى، فقد وجد فيها العديد من المستودعات الواسعة المسقوفة بالحجارة على شكل عقود تتخللها كوات موزعة ببراعة هندسية لدخول نور الشمس والهواء إليها⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى قلعة المعرة، بالإضافة إلى ذلك فإن تخزين المؤن في مستودعات القلاع ليس تحسباً للحروب والحصارات وإنما خشية السنين العجاف، كذلك الأمر حين تصل أخبار تحركات للقوات الفرنجية أو تجمعات مربية لها أو تصل تهديدات منها⁽⁴⁾.

ففي عام 614هـ / 1217م، نقلت الغلة والمحاصيل إلى مستودعات قلعة دمشق حين خشى السلطان «العادل» من الصليبيين الذين تكتلوا وتوجهوا صوب عين جالوت، وكان في بيسان فانتقل إلى عجلون وكتب إلى والي دمشق بضرورة إجراء الاستعدادات اللازمة والتأهب فكان في جملتها تخزين المحاصيل الزراعية بكثافة في قلعة دمشق⁽⁵⁾، كذلك استفاد

(1) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 28.

(2) زكية حنا، القلاع والمواقع الأثرية في محافظة طرسوس، دمشق، د.ت.، ص 93، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع، ص 31.

(3) أكرم ساطع، القلاع والحصون في سوريا؛ دمشق 1975، ص 15، 18، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 31.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 32.

(5) أبو شامة المقدسى، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، بيروت 1974م، ص 101، نقلاً عن أجفان الصغير، ص 33.

المسلمون من مؤن مستودعات قلعة صهيون وغيرها، هذا وبعد تنظيم المؤن في القلاع من ضمن الإجراءات الأمنية المهمة التي لا غنى عنها، بدليل أن إدارة شئونها من حيث الكمية والنوع وما هو جديدتها وعتيقها تبعت مباشرة للسلطان أو لنائب القلعة المتصل مباشرة بالسلطات العليا⁽¹⁾.

ولم تكن مستودعات المؤن وحفظ الأطعمة على شكل غرف كبيرة مربعة أو مستطيلة وواسعة في جميع القلاع الشامية، فأحياناً يتحكم الحجم الصغير لبعض القلاع بأماكن إقامتها فقد كان يضطر أصحابها إلى حفر آبار أو كهوف داخل أراضي القلعة لاستخدامها مواضع لخزن المؤن، وللإستفادة من الغرف والمستودعات المتوفرة بالإدارة والسكن وخزن الأسلحة، ولإسطبلات الخيول وزرائب المواشى، فمثلاً قلعة الشميميس في سلمية حفرت فيها عدة آبار لحفظ المؤن والمواد الغذائية، هذا وإذا لم تسقط القلاع المحاصرة لأسباب أخرى فإن خلو مستودعاتها من المؤن والأغذية كان يسقطها أو يجعلها تستسلم فمستودعات المثونة المخزونة كانت تطيل فترة الصمود ولكن إذا طال الحصار تستهلك فينتهى الأمر⁽²⁾.

القلاع ودورها في حفظ المياه في الخزانات والصهاريج

لقد ارتبطت حيوية القلاع وازدهارها وشغلها العديد من الأدوار بمدى توفر المياه فيها أو حوالها أو بمقربة منها، وكلما كانت المياه متوفرة للقلعة قل عدد الصهاريج فيها، وتزداد الصهاريج وتلقى عناية شديدة إذا كانت المياه تجلب بصعوبة إلى القلعة ويُحَرَّص عليها حرصاً مركزاً⁽³⁾، وقد أعار المسلمون صهاريج المياه أهمية كبيرة في القلاع التي شيدها، وأجروا التعديلات على الصهاريج التي كانت معمرة داخل القلاع التي استولوا عليها من الفرنج، وأنشئوا صهاريج داخل الأبنية القديمة والحصينة، فمثلاً وبرغم الأهمية التاريخية والحصارية للمسرح الروماني في بصرى فإنهم حاولوا الاستفادة قدر المستطاع من طريقة بنائه لتكوين أماكن فيه تفيدهم في حروبهم ضد الصليبيين فأنشئوا القلعة فيه وحاولوا تكوين أماكن تابعة لها لتفيدهم اقتصادياً ودفاعياً⁽⁴⁾، والدارس لموضوع حصر المياه في الخزانات والصهاريج داخل القلاع يلاحظ أنها ليست كلها حوت صهاريج ضخمة مثلها حوت جميعاً مستودعات أسلحة، ومستودعات مؤن ومواد غذائية؛ لأنه إذا كانت المياه متوفرة بغزارة في منطقة القلعة

(1) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 33.

(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 35.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 37.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

كوجود نهر أو عين ماء قريبة، ويمكن بسهولة إدخال الماء بشكل سرى إليها في أيام الحصارات خلا بعضها من الصهاريج الواسعة، ففي جنوب التل الذي أقيمت عليه قلعة حارم أمكن النزول عبر سرداب بعمق 150 درجة إلى مستوى أرض بلدة حارم، وهناك وجدت عين ماء متدفقة رفعت منها المياه ووزعت على القلعة والأرباض أيام الحصارات⁽¹⁾، هذا وقد نالت مسألة المياه قسطاً وافراً جداً من عناية السلاطين ونواب القلاع، فقد تم التركيز على أماكن تخزين الماء داخل معظم القلاع، فقلعة حلب مثلاً لاقت عناية كبيرة في شبكتها المائية منذ ما قبل الإسلام وظل الاهتمام بها إلى عهد «الظاهر غياث الدين غازي» لحكم حلب، فزاد في تحسيناتها وتحسيناتها، واهتم بشكل خاص بشئون المياه فيها فأمر ببناء شبكة لها بحيث تمرر المياه في كل دور القلعة وأماكنها المختلفة، وأحياناً إذا وجدت بئر غزيرة أو أكثر وافرة المياه داخل أراضي القلعة كان يمكن أن تغنى عن بناء صهاريج؛ لأن مياه الصهاريج يمكن أن تستهلك في حالات الحصار الطويلة⁽²⁾، هذا وقد كشفت التنقيبات الأثرية في قلعة حمص عن وجود صهريج ماء واسع وعميق فيها نفذ ببراعة هندسية وبأسلوب يساعد بسهولة على استخراج المياه منه⁽³⁾، هذا وقد ظهر واضحاً أن قلعة شميميس لم تشغل أدواراً مدنية ولم تتوفر فيها أسباب الحياة الحضارية، فلا مرافق فيها يستفيد منها العامة ولا ميزات جمالية تعبر عن حياة شبه هادئة ومدنية داخلها؛ لأن الهدف منها أساساً عسكري صرف⁽⁴⁾.

القلاع ودورها في حفظ الخيول والمواشي

حازت الخيول على أهمية بالغة جداً في نفس الإنسان العربي منذ القدم، ونالت التقدير الكبير في قلوب المسلمين لما مثلته من قوة لا غنى عنها في فتوحاتهم العسكرية الواسعة، وأعمالهم الجهادية الكبيرة في فترة الحروب الصليبية، فكانوا دائمى الاهتمام بأنواعها الأصلية الأصيلة فوفروا العلف الجيد لها والعناية الطبية اللازمة والأمكنة الصحية لإقامتها، وذلك لحاجتهم الماسة إليها لصراعاتهم الطويلة ضد الفرنج⁽⁵⁾، وكانت أعدادها ضمن الكتاب

(1) أحمد وصفي زكريا، جولة أثرية، دمشق 1984م، ص 82، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع، ص 38 - 39.

(2) أجفان الصغير، القلاع، ص 39.

(3) أكرم ساطع، (القلاع والحصون)، المرجع السابق، مجلد 3، ص 34، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 40.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 41.

(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 45.

العسكرية ترجح بنسبة كبيرة كفة الحرب، ولم تقتصر على دورها العسكري والتنقلات في الأسفار وحسب بل استخدمت بشكل رئيسي في ممارسة أنواع الرياضات، هذا ولم تخل القلاع الشامية في جانب من الجوانب من مراكز أساسية في تجميع الخيول ضمن إسطبلات خاصة داخلها، وقد أعيرت الإسطبلات عناية مشددة منذ تشييدها بما يوفر الظروف الصحية الجيدة، هذا ومن القلاع التي تشجعت على الإكثار من أعداد الخيول في إسطبلاتها قلعة حماة، خصوصاً أنها شكلت مركزاً للحكم الأيوبي ولحاميته العسكرية بحماة، هذا وقد شكلت قلعة حماة مركز ثقل عسكري واقتصادي وإداري ليس في حماة فحسب وإنما في المنطقة الوسطى لسوريا، نظراً لموقعها الحساس جداً وسط قلاع المنطقة الوسطى فقد تفوقت شأنها على قلعة حمص، أيضاً في قلعة شيزر، بالإضافة إلى قلعة الصبيبة العربية وقلعة نجم التي حوت أيضاً العديد من إسطبلات الخيول وحظائر المواشى ومستودعات تجميع العلف⁽¹⁾.

الدور الاجتماعي للقلاع

سكن الأهالي المحليون، وسواهم من المدنيين داخل القلاع، هذا ويمكن القول بأن القلاع لم تسكن بشكل دائم من قبل جماعات محلية وأسر مدنية كالتى خصصت للجنود فقط فإنها سكنت بشكل مؤقت وبفترات معينة حينها لجأ الناس من سكان محليين وسواهم إليها إبان صراعات المسلمين العنيفة ضد الفرنج، أما الضخمة من القلاع فمعظمها ظل أهلاً بجماعات من الناس فترات طويلة من الزمن، فقلعة صهيون مثلاً بقيت أهلة بالسكان حتى سقوط المماليك وكان قد فتحها «صلاح الدين» سنة 603هـ / 1188م⁽²⁾، ومما هو جدير بالذكر أن طبيعة الحروب الصليبية التي غلبت على نموذجها طابع الحضارات بين المسلمين والفرنج، فبلاد الشام بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام الكثير من القلاع والحصون وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع، لذا كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون، ولذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً، فأمست الحاجة إلى إقامة الأسر الحاكمة ضمن القلاع شبه عادة تطلباً للاعتصام، بالإضافة إلى كون القلاع بعظمتها تضيف نوعاً من الجلالة والفخامة على إقامة الأسر الحاكمة فيها⁽³⁾.

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 45، 47.

(2) جبرائيل سعادة، أبحاث تاريخية وأثرية، ترجمه عن الفرنسية سلمان حرفوس، ط1، دمشق 1987م، ص 321، نقلاً عن أجفان الصغير، القلاع، - 66.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 66 - 67.

أى أن القلاع كانت سكنى الأسر الحاكمة، والدليل على ذلك أنه بعد فراغ «صلاح الدين» من الاستيلاء على دمشق وقلعتها اتجه صوب المناطق الوسطى في سوريا فامتنع الأمير «عز الدين جورديك» من المماليك النورية عن تسليم قلعة حماة وكان يقيم فيها وتم تخليه عنها فيما بعد، أيضاً قلعة حارم كان يقيم فيها بعض مماليك الأسر النورية، وبعد وفاة «صلاح الدين» استقر ولده الملك «الأفضل نور الدين علي» في دمشق والملك «الظاهر غياث الدين غازي» في حلب، والملك «العادل سيف الدين عمر» في حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وغير ذلك من القلاع، وجميع أولئك سكنوا مع أسرهم وأقاربهم وأتباعهم داخل قلاع المدن والمناطق التي أضحت بحوزتهم، وكانت حصون وقلاع أخرى بأيدي جماعة من أمراء الدولة⁽¹⁾.

هذا وقد كانت بعض أسر الحكام والأمراء المحليين لم تكن تقيم بشكل دائم داخل القلاع حتى بعد أن جرت العادة على ذلك في فترة الحروب الصليبية، بل انتقلت بعض الأسر من القلاع إلى قصور خاصة داخل المدينة، والسبب كان بهدف التمويه بعد أن كانت القلاع معروفة كمقر للحكام وأسرهم، ولقلة حصانة بعضها بدليل أنه في قلاع المدن الكبرى وافرة الحصانة أقامت أسر سلطانية على الدوام، ف«العادل أبو بكر بن أيوب» أقام مع أسرته بشكل دائم في قلعة حلب، كذلك أسرة «شيركوه» التي ملكت حمص على يد خمسة ملوك منهم «شيركوه» ولقب ب«المنصور» وكانوا أقاموا مع أسرهم وخاصتهم داخل قلعتها⁽²⁾، أضف إلى ذلك أن القلاع عزلت داخلها بعض وحدات الجيش الإسلامي التي تكونت في معظمها من جنود غير عرب، الأمر الذي خفف من المشاحنات والشعور بالفوارق الاجتماعية والمادية والسلطوية بين فئات المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت⁽³⁾، وكانت العساكر التي تقيم بشكل دائم داخل القلاع تسمى «أجناد القلعة»؛ لأنهم ارتبطوا بها وكانوا المسؤولين بالدرجة الأولى في الدفاع عنها وعن أهلها فكانوا بمنزلة جيش داخل الجيش الإسلامي العام، ومعظم القلاع حوت ثكنات لإقامتهم، فقد شملت قلعة دمشق على العديد من ثكنات جنود الحرس وغيرهم، هذا وقد ظهرت أماكن إقامة الجنود في قلعة حلب وقلعة الصبية وفي قلعة بصرى أيضاً⁽⁴⁾، ومما هو جدير بالإضافة أنه اختلفت طبيعة حياة ومعاش أجناد القلاع عن نمط حياة

(1) أجنان الصغير، المرجع السابق، ص 67.

(2) أجنان الصغير، المرجع السابق، ص 70.

(3) أجنان الصغير، المرجع السابق، ص 71.

(4) أجنان الصغير، المرجع السابق، ص 72.

الجنود في التشكيلات الأخرى خارج القلاع من المشاة والفرسان والمجموعات المرابطة على الحدود، فقد عاش أجناد القلاع حياة رفاهية لقربهم من الأمراء والسلاطين وحراستهم لهم⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى أن القلاع كانت تضم داخلها المرافق العامة مثل المساجد والحمامات وحسب حجم القلعة كان يحدد نوع المسجد الذي ينبغي أن يقام فيها، فالواسعة أنشئ فيها مساجد جامعة، والصغيرة نسيباً عمرت فيها مساجد عادية، والمسجد الجامع كان غالباً أضخم مساحة من المسجد العادي، وكان لجامع القلعة أهمية خاصة عند المسلمين في فترة الحروب الصليبية؛ لأنه داخل مركز محصن⁽²⁾.

أما بالنسبة للحمامات فقد شغلت دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية عند المسلمين داخل وخارج القلاع، فقد بالغ المسلمون في تجميلها وتزيينها وإنشائها بكثرة والاهتمام بها⁽³⁾.

القلاع بوصفها محطات بريدية

لا شك أن القلاع لها أهمية كبرى بوصفها محطات بريدية سواء بالخيل السريعة أو بواسطة الحمام الزاجل، هذا وقد كانت أول إشارة تاريخية لاستخدام الحمام الزاجل في الحروب هي في عام 44 ق.م حين حاصر «أنطونيوس» مدينة بإيطاليا، والبداية هنا بالحمام الزاجل بهدف التركيز على البريد الجوي لارتباطه المباشر مع القلاع بجانب مهم من جوانب البحث، أما البريد البري فبرغم علاقته مع القلاع لم يرتبط بها كالجوي⁽⁴⁾، فالحمام البريدي كان يطير من القلعة إلى القلعة، هذا وقد تخطى الحمام الزاجل الأهمية بنسبة كبيرة، وذلك لسرعته الكبيرة أولاً ولقلة كلفته ثانياً، لم يستغرق بين القاهرة ودمشق سوى أربعة أيام، وأحياناً يمكن أن يصل في اليوم نفسه الذي يطلق فيه حسب المسافة والظروف، ويذكر عن «ابن الوردي» الذي يسميه «المناسيب» أو «الحمام الهوادي» في حديثه حول سنة 567هـ / 1171م أن «نور الدين» اتخذ كوسيلة سريعة لإيصال البريد فقد كان يأتيه في اليوم ذاته⁽⁵⁾، هذا وقد بلغت أهمية استخدام الحمام الزاجل في البريد بفترة الحروب الصليبية مكاناً بالغاً، فلم تكف تخلو قلعة من القلاع من برج أو أبراج خاصة لإرساله واستقباله، حتى إن بعض

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 72 - 73.

(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 81.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 85.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 124.

(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 125.

القلاع شكلت لطبيعة موقعها محطة خاصة للبريد الجوي بفضل الحمام الزاجل، كقلعة الربيض (قلعة عجلون) الواقعة فوق الجبال الشاهقة في شمال الأردن التي أمست محطة للهوادي بين بلاد الشام ومصر وأمست ربطة وصل إسلامية بين آسيا وغرب إفريقيا، ومما هو جدير بالإضافة أنه إذا أرادت دمشق أن تنقل خبراً إلى حمص ترسل من برج البريد في قلعتها حمامة زاجلة حمصية تزودها برسالة كما حصل عام 637هـ / 1239م، حينما أرسلت بطاقة مع الحمام الزاجل إلى قلعة حمص لإخبار صاحبها «أسد الدين شيركوه» بنياً وفاة «الكامل»⁽¹⁾، ومما هو جدير بالذكر أنه كان يوجد في برج البريد من كل قلعة مختلف أنواع حمام المدن الإسلامية⁽²⁾.

فإذا أريد إرسال الرسالة من قلعة دمشق مثلاً إلى قلعة حلب كانت تعلق بطاقة من قبل البراج على حمامة زاجلة من النوع الحمصي مثلاً وتطلق فتحط في برج قلعة حمص حينها تشاهد حمام من صنفها في موطنها، ثم تنقل الرسالة إلى نوع آخر من الحمام حموي أو حلبى ليحط في قلعة حماة أو حلب وهكذا يصل الخبر إلى المكان المراد⁽³⁾، هذا ومما يؤخذ على البريد الجوي نقاط ضعف، فقد كانت رسائله موجزة جداً؛ لأن الشرح والتفاصيل تكبر حجم البطاقة فلا يطيق الطير حملها لا سيما أنها تنشر غالباً تحت جناحيه أو تربط بذيله كي لا تفلت، بالإضافة إلى أن الرياح القوية قد تعيقه عن متابعة الطيران أو تجبره على التوجه جهة غير مطلوبة⁽⁴⁾، ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم في الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات، ومن المعروف أن العرب قد امتازوا باستخدام الإشارات والحمام الزاجل، كما مهر البيزنطيون في استعمال الإشارات، ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم، وذلك لكي يجعلوا الاتصالات الداخلية بين معاقلهم أمراً ممكناً داخل مساحات شاسعة في ممتلكاتهم اللاتينية، ومما لا شك فيه أن جيش «صلاح الدين» امتاز بروح الجهاد الفائقة أكثر من التنظيم الجيد، وامتاز هذا الجيش الإسلامي بتكتيكات الحصار... وبوسائل المواصلات السريعة (الحمام الزاجل)، هذا وقد ذكر المؤرخ «البيروني صالح بن يحيى» في تاريخه «أن أبناء بلاد الشام كانوا في حروبهم مع الصليبيين إذا أرادوا تبليغ أمورهم بسرعة يستعملون النار للحوادث في الليل وحمام البطان للحوادث في

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 128.

(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 129.

(3) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 130.

النهار»⁽¹⁾، هذا ومن أمثلة أهمية استخدام الحمام الزاجل أن الجنود الفرنج كانوا على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) مثلاً يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصبية (بانياس) على سفوح جبل الشيخ، وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب، ومع حامية قلعة صيدا على بعد 19 ميلاً على الساحل، وفي أقصى الجنوب في كرك مؤاب حينما كان يحاصرها «صلاح الدين» عام 579هـ / 1183م، وكانت القلعة تتصل ليلاً بواسطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التي تبعد عنها مسافة تبلغ نحو 50 ميلاً⁽²⁾.

مناعة القلاع وأهمية موقعها

استمدت القلاع مناعتها ليس من حصانة عمارتها ومتانة أسوارها وأبراجها فحسب وإنما من طبيعة مواقعها أيضاً، فإن لم تصل حجارة المنجنيقات إلى داخل القلعة من على أسوارها، فهذا يعنى أنها شاهقة وحصينة وصعبة الحصول عليها، والعكس صحيح، فأثناء حديث «ابن الأثير»⁽³⁾ عن أحداث سنة 584هـ / 1188م، ذكر فيها يخص فتح المسلمين بقيادة «صلاح الدين» لقلعة الشجر التي لجأ الفرنج بعد هروبهم من حصن بكاس، وكلاهما على طريق اللاذقية، أنها منيعة لدرجة لم تصلها أحجار المنجنيقات فلم يأبه المحاصرون بالحجارة التي تصاعدت في الهواء، بينما في حديث عن قلعة صهيون أشار إلى أن الحجارة طالتها من بعض المواقع في الوادي العميق الضيق الدائر حولها⁽⁴⁾، وعن حديثه حول فتح المسلمين لحصن برزية ذكر أنه من جهة الغرب يرتفع الوادي المحيط به لدرجة أن قاذفي الحجارة ورماة النبال أوصلوا قذائفهم من تلك الجهة إلى الحصن ففشلت حصانته⁽⁵⁾.

مميزات القلاع وأهمية موقعها

من أهم المميزات التي امتازت بها القلاع الشامية العزلة في مواقعها، ونهوضها على مرتفعات وعرة وشاقة التسلق ومتحكمة بممرات ومناطق إستراتيجية، هذا بالإضافة إلى تلاؤم أسوارها مع واقع الموقع تضاريسياً مثل قلعة مصياف التي تماشت أسوارها من الخارج

(1) لمزيد من التفاصيل انظر إبراهيم العدوي، الحمام الزاجل في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 2، العدد الأول، مايو 1949م، ص 131 - 138، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 22 - 23، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقي، قدم له وزوده عبد الرحمن زكي، مكتبة النهضة المصرية، 1956م، ص 67 - 68.

(2) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص 67.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 192.

(4) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، ص 153.

(5) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 155.

مع الحركات العامة للمرتفع المتطاوول، والمكون من الصخر الذي تنتصب فوقه، ولكن قلعة مصياف حمت بشكل لافت للانتباه بالمعالم الجغرافية، لذلك اعتبرت في فترة من الفترات أعظم قلاع الإسماعيلية، هذا وقد حاصرها «صلاح الدين» عام 572هـ / 1176م، ومن القلاع التي شيدت في عصر الحروب الصليبية واتصفت بتلك الميزات قلعة عجلون وقلعة بارين، ولموقع القلاع الأهمية البالغة في مدى الاستفادة من قوتها وقيمتها، لذلك اهتم مشيدوها اهتماما كبيرا في اختيار المواقع الحيوية والأكثر إستراتيجية، فصارت القلاع تأخذ أهميتها من مدى أهمية مواقعها، بل كان أحيانا الموقع الذي أقيمت عليه القلعة هو أهم منها ذاتها؛ لأن حصانة القلعة من حصانة موقعها⁽¹⁾، فحتى إذا لم تكن القلعة متينة في حد ذاتها فإن الموقع الحصين كان يمنح القلعة معظم المناعة والقوة والحصانة، فعلى سبيل المثال كان لموقع قلعة الشقيف الذي منحها أهمية عسكرية بالغة؛ لأنه أرصدها من على ظهرة المنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصبية، وكذلك قلعة حارم التي منحها موقعها منعة حرم على أعدائها فتحها فسميت حارم وتحكمت بالطريق الرئيسي بين إنطاكية وحلب، هذا بالإضافة إلى قلعة شيزر التي تعتبر مثالا على حصانة القلاع لمتانتها وطبيعة موقعها فهي مقامة فوق كتف صخرى على يسار العاصي من الجنوب إلى الشمال فيمر بشرقيها، وتنفصل عن جوارها من جهات الشرق والشمال والغرب بسبب عمق المنحدرات الصخرية المحيطة بها، ويتراوح ارتفاعها ما بين 40 و50 مترا، وجهة الجنوب كانت تتصل سابقا بالجبل المجاور للقلعة، ومن أمثلة القلاع الحصينة لطبيعة موقعها قلعة شميميس الواقعة بقاياها على تل جميل وهذا التل ذو شكل مخروطي وتأليف جيولوجي غريب نادر، فأسفله من الصخور الجيرية البيضاء، وقمته من البازلت الأسود، وتظهر الثانية فوق الأولى كطاقية سوداء فوق هامة كبيرة كللها المشيب، مما يدل على أن التل كان بركانا قذف بحممه فكان قليلا فجمد عند الفوهة، وقد نقر مشيدو القلعة في هذه الفوهة بئرا عظيم الدائرة لا يعرف غورها، وبنوا على دائرتها أسوار القلعة وأبراجها وأقيبتها، وحفروا حول التل خندقا عظيما وعميقا كان يحيط بالقلعة، وقد اكتسبت قلعة شميميس أهميتها العسكرية ليس من حصانتها الفريدة هذه فحسب، وإنما من جهة موقعها وعلوه الذي يسمح بمراقبة أبعاد شاسعة حتى آفاق ضواحي حمص من جهة الجنوب، وكل القلاع الشامية بنيت على مرتفعات عالية، والقلعة التي لم تبني على تل أو جبل هي قلعة دمشق، ولكن هذه القلعة زودت أبراجها وزاد من ارتفاعها ودعم أساساتها، هذا بالإضافة إلى قلعة بعلبك⁽²⁾.

(1) أجفان الصغير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) أجفان الصغير، المرجع السابق، ص 157.

ما يمكن قوله في القلاع بصفة عامة

لا شك أن الحصون والقلاع والأسوار ينظر إليها على أنها من مخلفات الإنسان وأقدمها وأكثرها وضوحاً ودلالة على معالم تاريخية، إذ أن فيها ما يمثل انعكاساً لأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية وتطورها في السلم والحرب وينظر إليها على أنها رمز قوة ومنعة ونتاج فكر وخلاصة تجربة ومقتضيات ظروف وحاجة وتعبير صراع وإمكانات وعنوان سيادة وتفوق⁽¹⁾، هذا والقلاع والحصون إنما ترمز إلى القوة في الإبداع عند العقل البشري للسيطرة على الأرض منذ أن وجد الإنسان ككائن بشري على سطح الأرض وهو يسعى لحماية نفسه من كوارث الطبيعة أو من خطر الحيوانات المفترسة باللجوء إلى الكهوف أو إلى أعالي الجبال والأشجار، فمن الطبيعي إذن أن تكون القلعة بالنسبة للإنسان، كالجو بالنسبة للصقر⁽²⁾.

هذا وقد عنى المسلمون باختيار المواقع الاستراتيجية القريبة من المدن لإقامة القلاع عليها لتكون مقراً للوالي أو حاكم المدينة، يطل منها على عاصمته فتزیده ثقة بالنفس وتضفي عليه روحاً معنوية عالية، فهي كذلك تبعث الرعب في نفس الخصم والأعداء وتوحى بالطمأنينة لمن يقيم فيها أو حولها باعتبارها الملجأ الآمن عند الشدائد، ففي قاعاتها ترسم سياسة الدولة وتوضع اللمسات الأخيرة على العمليات الحربية، ومنها تنطلق الجيوش لخوض المعارك مع الأعداء أو لإخضاع المتمردين في الداخل، وفيها تخزن الأسلحة والمواد التموينية⁽³⁾، ولا يغيب عن بالنا أن تلك القلاع لم تشيد لوجهها الخاص بل لغرض معين محدود ويدل تاريخ العديد منها على أنها كانت تهجر أو تترك عندما يستنفد الغرض المقصود منها لتؤول إلى السقوط والتداعي، ولا يمكن فهم القلعة كبناء إلا من حيث ارتباطها السياسي ووضعها الإستراتيجي والظروف التاريخية التي أحاطت ببنائها⁽⁴⁾، هذا ولم تكن التحصينات الحربية في معظم المدن باستثناء حالات قليلة تحظى برعاية أصحابها العرب بعد الفتوحات الإسلامية، ولم تنشأ دفاعات جديدة إلا في عدد محدود من المدن الساحلية في سوريا وفلسطين مثل عكا وعسقلان وقيسارية، أو في مناطق الثغور المتاخمة للحدود البيزنطية

(1) سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 9.

(2) سعد المومني، المرجع السابق، ص 69.

(3) سعد المومني، المرجع السابق، ص 82.

(4) فولفغانغ مولر، القلاع، ص 10.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

العربية، واعتبارًا من بداية القرن العاشر بدأ البيزنطيون والحكام المحليون من المسلمين وغيرهم تشييد عدد من القلاع الجديدة في جوار المستوطنات القديمة بعد أن أصبح الدفاع عن أسوارها القديمة صعبًا، هذا وتتميز المعادل الحصينة بموقعها المنعزل فوق مرتفعات وعرة صعبة التسلق⁽¹⁾.

ولا شك أن أهم ما تشتهر به الدولة الأيوبية هي المنشآت الحربية من قلاع وحصون والتي بطلها «صلاح الدين» الذي جاء للجهاد هو وخلفاؤه ليقفوا أمام المتعصبين المسيحيين، فقد كللت حياة أبطال هذه الدولة بالانتصار الساحق على الصليبيين وغيرهم من الأبطال الذين ردوا غارات الحروب الفظيعة التي راح ضحيتها الكثير والكثير من الشهداء، هذا وقد وصلت القاهرة إلى أقصى درجات الرقي وقد امتد حكم الأيوبيين لمصر ثمانين عامًا فقط ورغم قصر هذه المدة إلا أن القاهرة شهدت تطورًا معماريًا هائلًا في المنشآت الحربية؛ لأنه كان عصر جهاد من الدرجة الأولى فظهرت القلاع الحصينة والأسوار ذات الأبراج المستديرة.

هذا وكما رأينا لم يشرع «صلاح الدين» في بناء مدينة جديدة بل اكتفى بأن يحيط القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط بسور واحد يحميها جميعًا من أي غارات عدائية داخلية أو خارجية، وتوج هذا السور بقلعة حصينة كما رأينا من الحجر المصقول في مداميك منتظمة كامتداد سور «بدر الجمالي» وزوده بأبراج مستديرة، وطرز الهندسة في بناء سور القاهرة هو الطراز السوري المستمد من طرز العمارة البيزنطية، والواقع أن «صلاح الدين» تأثر في عمارة القلعة بالذات بالقلاع السورية الحصينة كما ذكرنا سابقًا⁽²⁾ ولا شك أن المدن تحصن في البداية بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أي هجوم مباغت على أن القلعة وحدها هي القوية إلى درجة تكفي لمقاومة حصار فعلي⁽³⁾.

وعلى كل حال، فإن مجموعة البقايا المتناثرة من أوصاف المعاصرة تمكننا من الاستدلال بأن بعضًا من هذه التحصينات كان قويًا للغاية، فالأسوار الثلاثية التي شيدت على الجانب البري من صور تتمتع بشهرة خاصة، ومثلها تحصينات مدينة عكا التي كانت تتألف من سور

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 13.

(2) حسن الباشا، القاهرة تاريخها وآثارها وفنونها، ص 230.

(3) فولفغانغ مولر، القلاع، ص 28.

مضاعف تخفّره أبراج على امتداده وكانت الأسوار التي تحيط بهذه المدن تعزز بحصون بارزة منخفضة أو أبراج مستطيلة الشكل عادة مقامة بفواصل منتظمة إلى حد ما (25 - 40 متراً)، وتتحدد هذه الفواصل بمدى رمى السهام أو القذائف، وتحف بالأسوار من جهة الخارج خنادق أو أفنية عريضة تملأ بالماء غالباً مع بعض التحصينات الخارجية البسيطة في بعض الأحيان، وكانت بوابات المدن بصورة عامة جيدة التحصين رغم أنها نادراً ما كانت تحظى بمظهر التعقيد المعماري الذي للقلعة أو معقل الحراسة فيها، وغالباً ما كانت تحرسها أبراج ملاصقة لها، أما الوصول إلى الداخل فكان محمياً بمنعطف أو منعطفات بزوايا قائمة غالباً بالإضافة إلى سلسلة من غرف البوابات التي يمكن إحكام إغلاقها وترمى بالنار من الأعلى أو من الجوانب، هذا وقد تبنى الفرنج إقامة تحصينات المدن القوية هذه شكلاً من أشكال العمارة الشرقية من خلال أنهم جهزوا جميع مرافقهم بمنشآت دفاعية خاصة، فعند أطراف الجروف أو المكاسر التي تتحكم بمدخل المرفأ كانت تقام حصون أو أبراج قوية ومنيعة تمتد بينها مثل حصون المرافع في صور وصيدا وجبيل وأبراج الحصار في عكا وبيروت واللاذقية، هذا الشكل كان قد تأسس منذ زمن طويل ولم يمكنهم تركيبهم الاجتماعي المتفاوت في بلادهم من تجاهله أو الاستخفاف به واستمر تطوير بناء القلاع في الاتجاه الذي تم تبنيه منذ منتصف القرن الثاني عشر⁽¹⁾، هذا ويمكن القول كما ذكرنا سابقاً أنه بعد موقعة حطين إن «صلاح الدين» استولى على معظم القلاع الصليبية، حيث سقطت جميعها في يده ولم تقاوم إلا بعض القلاع لكنها سقطت بعد فترة من الوقت، ولم يكن الجوع هو السبب الرئيسي في سقوط ذلك العدد الكبير من القلاع الحصينة على هذا النحو السريع وإنما هو النقص في عدد الرجال القادرين جسدياً وعدم توفر النجديات الحربية، والذي سهل مهمة السلطان في الاستيلاء على القلاع هو تلك الكارثة التي حلت بهم في حطين، وكان قد وطد العزم على اقتحام الأسوار الضعيفة من أول هجوم إذا لم تفتح البوابات في وجهه طوعاً، ورغم ذلك لم تسقط قلاع كثيرة قبل أن يستكمل حصارها شكلاً، وكان لا بد من نقب أسوارها أو فتح ثغر فيها بقذفها بالمجانيق الثقيلة، بحيث يستطيع المحاصرون النفوذ منها إلى الداخل، وذلك بحسب الظروف والموقف، وكان العرب يفضلون الطريقة الأولى التي تستلزم حفر أنفاق تحت مقاطع مناسبة في جدار أو نقاط مكشوفة من دفاعات العدو، وكانت الأنفاق تحت

(1) فولغانغ مولر، المرجع السابق، ص 29.

الأرض تدعم وقتئذ بروافد (عضادات) متينة أو جذوع أشجار جافة وتغلف بمواد قابلة للاشتعال بحيث تنهار عندما تضرم فيها النار وينهار معها جزء كبير من السور، واستطاع «صلاح الدين» بهذا الأسلوب أن يستولى على معظم القلاع، هذا وقد كان المسلمون بإمكانهم منع العدو من تنفيذ ما يريد عن طريق شن الغارات المفاجأة السريعة أو تدمير آلات حصار العدو بالمجانيق أو قوس الزيار (منجنيق السهام)⁽¹⁾، ومن الجدير بالذكر أن أقوى القلاع مهما كان شأنها لا بد أن تصاب بتشققات أو صدوع يمكن للمحاصرين المهرة أن يستغلوها كثغرة للدخول إليها دون صعوبات تذكر، ولقد حدث فعلاً أن تسلل المهاجمون من بقعة غير محروسة من هذا القليل إلى قلعة صهيون التي كانت منيعة للغاية، وذلك بعد حصار قصفوها بالمجانيق واستولوا عليها.

(1) فولفغانغ مولر، المرجع السابق، ص 23.

■ الفصل الرابع

أدوات القتال في العصر الأيوبي

مقدمة

لا شك أن السلاح في المعركة يشبه القلم لدى الكاتب، فالكاتب لا يستطيع أن يستغنى عن قلمه، وكذلك الجندي لا يستطيع أن يتخلى عن سلاحه في ميدان المعركة؛ لأن له دورًا أساسيًا في المعركة الحربية، فالسلاح هو ما قوتل به⁽¹⁾ سأل «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - رجلاً يوماً عن السلاح فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له، قال ما تقول في الترس؟ قال هو المجن (الدائر) وعليه تدور الدوائر، قال فما تقول في الرمح؟ فقال أخوك وربما خانك فانقصف قال: فالنبل؟ قال: منايا تخطى وتصيب، قال: فما تقول في الدرع؟ قال: مثقلة للرجل، متعبة للفارس ويا لها لحصن حصين قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين، فضربه عمر بالدرة⁽²⁾، هكذا وتعكس دراسة الأسلحة والمعدات الحربية في أى مرحلة من مراحل التاريخ مدى تقدم الصناعات في مجال المعارك، فمن المعروف أن المعادن تستخرج من باطن الأرض، وقد تكون متوفرة في المناطق القريبة من ميدان المعركة، أو تكون غير متوفرة وتتوفر في أماكن أخرى بعيدة عن ميدان المعركة، ومن هنا يمكن استخراجها وتصفيتها ونقلها إلى مراكز تصنيعها⁽³⁾، ثم إرسال أدوات القتال إلى المحاربين في المدن، أما الصرف على هذه الصناعة أو تمويلها فقد تحدث عنه كل من المؤرخين «عثمان النابلسي» و«المقریزی»، فقد ذكر «النابلسي»: «أن الحراج - الغابات - حكمها حكم المعادن، وهى ليست مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى ما قاله

(1) النويری، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج6، ط11، مطبعة دار الكتب 1345هـ / 1926م، ص200.
(2) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد، شرحه ورتبه أحمد أمين أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، 7 أجزاء، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1367هـ / 1948م، ص179.
انظر أيضًا النويری، نهاية الأرب، ج6، ص200، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، 1947م، ص137.
(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، ط1، 1986م، ص261.
(4) عثمان بن إبراهيم النابلسي، لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية، طبعة المعهد الفرنسي، دمشق 1961م، ص48.

«المقریزی»: «إن ديوان «صلاح الدين» قرر أن تكون غابات مصر ملكًا للدولة، ولا سيما غابات مناطق بهنسا وسفط (سقط) وأشمونين وأسيوط وإخميم وقوص»⁽¹⁾.

خزانة السلاح وصناعة الأسلحة

تحدث المراجع والمصادر المختلفة عن المعارك الحربية باستثناء «ابن ممتي» المؤرخ الذي تحدث عن مؤسسات الدولة وتنظيم أنشطتها وخزانة السلاح، وتنظيم اقتصاديات الدولة في الحرب والسلم، على الرغم من أن أي دولة لا يمكن أن تخلو من مؤسسات أو دواوين تنظم مختلف شئونها⁽²⁾، ويذكر «ابن ممتي»: «أن خزائن السلاح كان فيها مستخدمون، وتجلب إليها ما تحتاج من خشب وحديد وسلوخ وأصباغ وآلات يعملون منها ما يؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها وتباين أصنافها»⁽³⁾، ففي العصر الفاطمي كانت خزائن السلاح من مرافق الدولة الأساسية، هذا وقد أبقى الأيوبيون ثم المماليك على هذا المرفق، وإن كانوا قد أطلقوا عليه اسم السلاح خانة أو الزردخاناه⁽⁴⁾، هذا وقد ذكر «القلقشندي» أن خزانة السلاح هي المعبر عنها في زماننا (أي زمن المماليك) بالسلاح خاناه، وتوضع فيها مختلف صنوف السلاح⁽⁵⁾. هذا وقد تحدث شيوخ المؤرخين عما تتضمنه خزائن السلاح في العصر الفاطمي، فذكر كل من «المقریزی» و«ابن الطوير» خزانة السلاح يدخل إليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك، ويتأمل حواصلها من الكزاغنديات⁽⁶⁾ المدفونة

(1) المقریزی، الخطط، ج2، ص194.

(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص262.

(3) ابن ممتي، الأسعد بن ممتي، الوزير المتوفى 606هـ / 1209م، كتاب قوانين الدواوين، جمعه وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر 1934م، ص354.

(4) المعروف أن «خاناه» لفظة فارسية تعني البيت فيكون المعنى بيت السلاح أو بيت الزرد لما فيها من أنواع الزرد، والزرد هو الدرع المزروعة تتداخل حلقاتها بعضها في بعض، وإن ذلك البيت كاف من ضمن الحوامل المعبر عنها بالبيوت الشريفة التي كانت بقلعة الجبل، هذا وتوضع فيها الأسلحة اللازمة للجيش بحيث يكفي حاجة مصر ويحمل منها إلى جميع بلاد الشام وتعمرها البلاد والقلاع، ويمكن القول إنه من المحتمل أن القلقشندي يتحدث عن عهد المماليك فينطبق كلامه على العهد الأيوبي كذلك، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص473، د/ نبيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلد الثالث والعشرون 1976م، ص107-108.

(5) لمزيد من التفاصيل عن خزانة السلاح انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص473، انظر أيضًا المقریزی، الخطط، ج1، ص407.

(6) الكزاغندات أو الكزاغنديات، هو المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد وهو لفظ فارسي.

بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة بالصناعة⁽¹⁾ والجواشن وخوذات محلاة بالذهب والفضة وسيوف ورماح ذات نصال مذهبة، وقسى بأنواعها وسهام ودروع وخيل مذهبة، هذا بالإضافة إلى أن «المقریزی» أشار إلى خزائن السلاح الفاطمية التي كانت تضم بعض الأسلحة الموروثة كسيف ذى الفقار الذى كان أحد سيوف النبى ﷺ⁽²⁾ وقد كان صانع السلاح يسمى «الزردكاش»⁽³⁾.

ويمكن القول عند حديثنا عن الدولة الأيوبية والحروب الصليبية، إن الدولة الأيوبية قد تميزت بطابع حربى غلب على معظم مظاهر حضارتها، كما أحاطت بها ظروف وعوامل عديدة⁽⁴⁾، فاستمرار الحروب الصليبية خاصة في بلاد الشام⁽⁵⁾ أدى إلى قيام صناعات مستمرة، لا سيما أن بلاد الشام تتمتع بوفرة المواد الأولية (الحام)، هذا إلى جانب وجود الصناعات المهرة، فبلاد الشام بها الغابات والجبال الكثيرة التى تجعل مادة الخشب متوفرة وكثيرة فمنها أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط والزان... وغيرها، أما الحديد فقد كان به نقص شديد في المنطقة، ومن هنا عوض «صلاح الدين» هذا النقص باستيراد الحديد من الخارج لا سيما إيطاليا وغيرها؛ لأن وجوده كان قد اقتصر على أجزاء من بلاد الشام والموصل⁽⁶⁾، وقد ذكر «المقدسى»: «وبه معادن حديد في جبال بيروت»⁽⁷⁾.

ومما هو جدير بالذكر أن منطقة الموصل كانت تتمتع بغنى أرضها بالحديد والقيروالنفط الأبيض الضرورى لقاذفات النار⁽⁸⁾، هذا بالإضافة إلى أن الموصل كانت تمد «صلاح الدين»

- (1) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرائى، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق د/ أيمن فؤاد 1992م، ص 133.
- (2) المقریزی، الخطط، ج 1، ص 417.
- (3) الزردكاش لفظة عجمية معناها صانع الزرد، أما المتولى لشئون الخزانة فكان يسمى ناظر خزائن السلاح وواجه الإشراف على أمور السلاح وتدوين ما يدخل إلى الخزانة من سلاح وما يخرج منها، مزيد من التفاصيل انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 263.
- (4) حسين عبد الرحيم عليوة، السلاح المعدنى للمحارب المصرى في عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة، المجلد الأول، أغسطس 1974م، ص 18.
- (5) مرت العصور الوسطى بفترة ركود لم تطور خلالها أسلحة الحرب، لكن هذا الركود لم يستمر طويلاً وعاد إليها الانتعاش أثناء الحملات الصليبية، فقد كانت تحتاج إلى تحسين صناعة الأسلحة بكافة أنواعها، لمزيد من التفاصيل انظر قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 81.
- (6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 264.
- (7) المقدسى البشاورى، أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت 387هـ / 997م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل، ليدن، 1906م، ص 184.
- (8) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص 145.

بين فترة وأخرى بما تجود به أرضها فكانت ترسل إليه «أحمالاً من النفط الأبيض مع عزة وجوده، ومن التراس والرماح، من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده»⁽¹⁾.

أما عن بلاد الشام، فقد كانت غنية بأنواع من الخشب الذي استخدم في صناعة السفن، ونظرًا لوفرة الأخشاب في بلاد الشام فمن المرجح أن أدوات القتال الثقيلة، كالدبابات والمنجنيقات والأبراج وغيرها كانت تصنع في بلاد الشام؛ لأنه كان أساس صنع هذه الأدوات هو الخشب الذي يتوفر بكثرة في هذه المناطق، أضف إلى ذلك أنه كان لا يمكن استيراد هذه الآلات الحربية بشكلها المصنوع من مكان آخر خارج الدولة الأيوبية، لثقلها وصعوبة نقلها وارتفاع أثمانها⁽²⁾، ويشير صاحب كتاب «آثار الأول» في موضوع القسي ويذكر أن ما يصنع في دمشق منها كان «أجود من غيرها»⁽³⁾.

أنواع الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش الإسلامي في العصر الأيوبي

أولاً: الأسلحة الهجومية الفردية: وتنقسم إلى:

(1) الأسلحة اليدوية.

(2) الأسلحة الرشقية.

نعني بالأسلحة الهجومية الفردية عند العرب تلك الأسلحة الجارحة أو الراضة التي كان يحملها الجندي الواحد ويستخدمها بنفسه بدون مساعدة من زملائه، وإلا اعتبرت من صنف الأسلحة الجماعية.

(1) الأسلحة اليدوية: وهي الأسلحة الفردية، من جارحة أو راضة التي لا تفارق اليد حين استعمالها أو أنها تقذف بواسطة اليد إلى مسافة قريبة فقط، وتضم السيف، الرمح، الدبوس، الطبر أو الفأس، الخنجر⁽⁴⁾.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص148، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص307، العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص350.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص265.

(3) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد المحسن بن عبد الكريم بن محمد بن هارون بن العباس - رضى الله عنه، آثار الأول في ترتيب الدول، ابتداء تأليفه عشية السبت الثالثة عشر شهر شوال سنة ثمانية وسبعائة، ص160.

(4) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام، دمشق 1964م، ص75.

(2) الأسلحة الرشقية: هي الأسلحة الفردية التي تقذف باتجاه العدو من مسافة بعيدة نسبياً، وتضم هذه الأسلحة القسي بأنواعها، القنابر، وغيرهما⁽¹⁾.

أولاً: الأسلحة اليدوية: لم يكن للعرب في جاهليتهم من السلاح⁽²⁾ غير السيف والرمح والقوس⁽³⁾ والترس، وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها؛ لأنهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بها معائشهم⁽⁴⁾.

السيف⁽⁵⁾

لا شك أن السيف تمتع بشهرة عالية وكبيرة فهو من أشهر الأسلحة كآلة هجومية⁽⁶⁾ والذي استخدم في المعارك الحربية في مختلف العصور، حيث استعمله العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام⁽⁷⁾، حتى قيل عنه إنه أمير الأسلحة البيضاء⁽⁸⁾ وأنبأها⁽⁹⁾ بيدهم⁽¹⁰⁾.

(1) إحسان هندی، المرجع السابق، ص 75.

(2) محمد كامل علوی، المرجع السابق، ص 128.

(3) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 18.

(4) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ط 1، 1920م، ط 2، 1958م، ص 192، محمد كامل علوی، الرياضة عند العرب، ص 128.

(5) السيف في اللغة مشتق من ساف أي هلك والجمع أسياف وسيوف وأسيف وإستاف القوم وتسايفوا أي تضاربوا بالسيوف وسافه بسيفه أي ضربه بسيفه ورجل سائف أي ذو سيف والسياف صاحب السيف، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري الأنصاري الخزرجي، لسان العرب، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، ج 11، ص 67-68، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 139.

(6) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية (الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة)، القاهرة 1970م، ص 91.

(7) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 83.

(8) إحسان هندی، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 91.

(9) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 91.

(10) المخصص، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده المرسى، الطبعة الأولى، المخصص، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المنحمة 1318هـ، ج 5، ص 16، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 266.

هذا بالإضافة إلى أن العرب من كثرة عشقهم للسياف⁽¹⁾ أطلقوا عليه أسماء متعددة، وقد كانت تلك الأسماء صفات، أضف إلى ذلك أن السيف اختلفت أشكاله فمنها الطويل والقصير والعريض وكان الجند يعلقونه في الجنب⁽²⁾.

هذا وقد اشتهرت بلاد الهند⁽³⁾ بأنها كانت موطن صناعة السيوف وتصديرها⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى تصدير الحديد والفولاذ إلى الخارج لصناعته.

ومما هو جدير بالذكر؛ أن البلاد الإسلامية كانت تستورد هذه المواد من الهند وينقلها التجار إلى دمشق⁽⁵⁾ لصنع السيوف الدمشقية⁽⁶⁾، ويتكون السيف من نصل أو شفرة ومقبض أو نصاب، فهو آخر الأسلحة عند العرب استعمالاً في المعركة⁽⁷⁾، ذكر «الطرسوسي» أن عصر «صلاح الدين» شهد تطوراً في صناعة السيوف فبلغت مستوى رفيعاً من الرقى والتعقيد، بإدخال مواد متعددة في تركيبها «حتى إن منه ما يركب فيفعل

(1) كان العرب يعدون السيوف أشهر الأسلحة، وكانوا يستجلبونها من الخارج وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية، وتعرف بالسيوف العتيقة غير أن هذه السيوف أكثر قطعها في اللين، فإذا صادفت الحديد أو الياوس تقصفت، وكانت أسياف الروم أمتن منها؛ لأنهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبرى الحديد، ولذلك كان العرب إذا أصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وأطروه.

لمزيد من التفاصيل انظر رسالة الكندي في جواهر السيوف، باعثناء رانام بن إحسان الهى، مطبعة بنجاب بلاهور، ص 3-5، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 193، محمود أحمد سليمان، الجيش والقتال في صدر الإسلام، مكتبة المنار، ص 358، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 266، محمد كامل علوى، الرياضة عند العرب، ص 129، الحسين عبد الله، آثار الأول، ص 160.

(2) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة في تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص 80.

(3) عبد الرحمن زكى، المجلة التاريخية، المجلد الخامس، صناعة السيوف الإسلامية في العصور الوسطى 1956م، ص 75، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية 1990م، ص 197، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 193.

(4) قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1998م، ص 75، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 266.

(5) ظلت مدينة دمشق تفاخر بما تصنع فيها من السيوف الممتازة، وظلت هذه المدينة محتفظة بشهرتها في صناعة السيوف، وقد كانت شهرة مدينة دمشق في صناعة نصال السيوف تتصل بأبعد مدى في تاريخ القدم، لكن الشهرة التي نالتها دمشق في صناعة السيوف قد بولغ فيها كثيراً على عهد الحروب الصليبية، عبد الرحمن زكى، مجلة الكتاب، السيف في الشرق الأدنى، السنة الأولى، ج 5، ص 655، الجيش والبحرية، مجلة فنية، السنة الأولى، أغسطس 1927م، ص 188.

(6) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 73.

(7) ابن سيده، المخصص، ج 5، ص 15، 28، قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 75.

فعل المغناطيس في جذب الحديد⁽¹⁾، ويعدد «الطرسوسى» المختص بوصف صناعة مختلفة أنواع الأسلحة أصنافاً من السيوف، ويحدد نسب المواد الداخلة في صناعة كل منها سواء كانت مواد نباتية أو كيميائية مع ذكر نوع الحديد، والسيوف الفاخر هو الذى يمتاز بصلابته ومقاومته لتأثيرات الجو، ويكون ذلك حين تكون نسبة الفولاذ فيه عالية، ونسبة الشوائب فيه قليلة⁽²⁾، «فهو أذكأ ما يصنع منه وأقواه، وأشرف ما يعمل من أصنافه وأعلاه»⁽³⁾. ومما هو جدير بالذكر، أن السلطان «صلاح الدين» لما طلب إلى سلطان المغرب أن ينجده في حروبه ضد الصليبيين سنة 586هـ / 1190م، أرسل إليه ضمن هداياه عدة سيوف هندية النصال⁽⁴⁾، هذا وقد طرأ على صناعة السيوف التطور السريع الملحوظ باستخدام المواد المختلفة المستعملة في صناعته⁽⁵⁾، ونذكر على سبيل المثال صناعة أحد هذه السيوف «يؤخذ من الحديد النرمان، وإن كان من رءوس المسامير القديمة كان أجود منوال فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهماً، إهليلج كابلى وبليلج من كل واحد بالسوية، ويوضع الحديد في قصعة ويغسل بالماء والملح غسلًا نقيًا، ثم يلوث بذلك الدواء ويوضع في بوتقة، ويذر عليها درهم ونصف مغنيسيا مكسبر وينفخ عليها في المسبك، ثم يذوب ويجمع بيضه وذلك في أيام عدة ثم يبرد ويعمل منه سيف فإنه سم قاتل»⁽⁶⁾.

(1) الطرسوسى، مرضى بن على الطرسوسى، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كلود كاهين، ص 4.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 268-269.

(3) الطرسوسى، التبصرة، تحقيق كلود كاهين، ص 4.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 173، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 85، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 34-35، كانت سيوف العصر الأيوبي ذات نصال مستقيمة وذات حدين وغير مدببة الطرف وهى بذلك تشبه السيوف الأموية والعباسية، هذا وقد حدث تغير على طريقة حمل السيوف قبل عهد صلاح الدين بقليل، ثم أصبح تقليدًا سار عليه الحكام فبعد أن كان يحمل على الأكتاف ابتدع سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى طريقة شدة في الوسط، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 23، أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 21.

(5) من المواد التى تدخل في صناعة السيوف مواد غريبة في أسمائها وهى إهليلج كابلى، بليلج، مغنيسيا، الشابران، ذرايخ وهى السموم القاتلة، سقمونيا، سبندوتنكار، وكذلك قشور الرمان حامض حرمل، عقص، بلوط، وصبر، ولم نعر على معان لهذه الألفاظ، وهناك مواد أخرى تستعمل في سقى السيوف بعد صنعه ليكون أشد قطعاً وأكثر جودة، بحيث يمكنه من قطع كل شيء حتى الزجاج، ومن هذه المواد فطر الحبة، عصارة شجر البنج الرطب ومواد أخرى غيرها، انظر الطرسوسى، التبصرة، ورقة رقم 20، نقلًا عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 269.

(6) الطرسوسى، التبصرة، ص 4.

الخنجر⁽¹⁾

كان الخنجر أحد الأسلحة الإسلامية التي عرفته معظم البلاد الإسلامية، واستخدمته⁽²⁾، وهو من الأسلحة الفردية⁽³⁾ الخفيفة وهو سلاح فولاذي صغير يحمل عند الالتحام المباشر والطعن خلصة⁽⁴⁾.

والخنجر عبارة عن سكين ذات رأس معقوف ومقبض⁽⁵⁾، وقيل إنه عبارة عن سلاح يشبه السيف المقوس، إلا أنه أصغر منه حجماً، حتى إن منه ما يحمل في الجيب، وكان يحمل عادة في الوسط⁽⁶⁾، هذا بالإضافة إلى أن هناك سلاحاً شبيه بالخنجر، ولم يرد ذكره في المصادر إلا نادراً وهو النمجة⁽⁷⁾ أو النميجة⁽⁸⁾، ويتكون الخنجر من نصل قصير ذي حدين وكان يصنع من الحديد أو الصلب ويثبت به مقبض من المعدن أو من العاج أو من قرن الحيوان، كما كان للخنجر غمد يحفظ به وكان يصنع من المعدن أيضاً أو من العاج أو الأبنوس، وكانت تغطي جزءاً منه كسوة من قطيفة⁽⁹⁾، واختلف الخنجر في أنواعه فمنه الطويل، والقصير، والطويل منها يمسك كمسكة السيف، أما القصير فيحمل تحت الثياب وكانت النساء تفعل ذلك أحياناً⁽¹⁰⁾، ومما هو جدير بالذكر، أن البعض من المحاربين كانوا يتسلحون به،

(1) الخنجر فارسيتها خنجر وهي مركبة من خون ومن كار وهي أداة تلحق بأواخر الأسماء فتفيد معنى الفاعلية، وهي خنجر بالتركية والسرانية الدارجة والكردية والأمنية، انظر السيد أدى شير، معجم الألفاظ الفارسية العربية، مكتبة لبنان، بيروت، 1990م، ص 57.

(2) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 265.

(3) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، 197.

(4) قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 76.

(5) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 120.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 271.

(7) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، الطبعة الأولى 1409 هـ / 1989م، ص 226، والواقع أن التمييز بين الخنجر الطويل والسيف القصير كان في العصور القديمة والقرون الوسطى غير واضح البتة، قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 76.

(8) النمجة أو النميجة ويعنى بالفارسية النصفى أى نصف سيف وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 195، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 271، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 197.

(9) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 265.

(10) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 368-369.

بالإضافة إلى أن «صلاح الدين» قتل الأمير الصليبي الشرس «أرناط» (رينو دي شاتيون) صاحب حصن الكرك يوم انتصار حطين بألة من الخنجر التي كان يحملها معه⁽¹⁾.

الرمح:

هو من الأسلحة الهجومية⁽²⁾ الخفيفة، والرمح من أسلحة الطعن⁽³⁾ استعمله العرب قبل الإسلام وأجادوا استخدامه⁽⁴⁾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ (المائدة: 94).

هذا إلى جانب أن المسلمين كانوا قد استعملوه في مختلف معاركهم الحربية، والرمح عبارة عن عصا طويلة تصنع من خشب صلد ونحوه، وفي نهايته رأس مؤنّف حاد من الخشب أو العظم أو العاج أو المعدن⁽⁵⁾، ويتكون من عود يتراوح طوله بين 4 و7 أذرع، وفي رأسه حربة⁽⁶⁾ يطعن بها⁽⁷⁾.

أنواع الرماح: والرماح ضربان

(1) النوع الأول: متخذ من القنا وهو قصب مسدود الداخل⁽⁸⁾ ينبت ببلاد الهند خاصة، يقال للواحدة قناة⁽⁹⁾ ويقال لمفاصلها أنابيب ولعقدتها كعوب، فإن كان قد نشأ في نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج إلى تثقيب قيل له الصعدة، وإن احتاج إلى تقويم قيل له مثقف، ويوصف القنا بالخطى، نسبة إلى الخط، وهي بلدة بالبحرين تجلب إليها الرماح من الهند وتنقل منها إلى بقية ديار العرب.

- (1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 271.
- (2) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 88.
- (3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 140، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 222، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 198.
- (4) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص 88.
- (5) قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 74.
- (6) الحربة: أصغر من الرمح والجمع حراب وقيل الرمح القصير وكان للعرب أنواع شتى من الحراب وقد كانت رأسها مؤنفة وحادة، لمزيد من التفاصيل انظر بن سيده، المخصص، ج 6، ص 34، حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 244، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 88، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 21-22، محمد كامل علوي، الرياضة عند العرب، ص 131، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 144.
- (7) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 87.
- (8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 140، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 222.
- (9) هي جسم الرمح الذي كان يصنف طبقاً لمادتها أو طولها أو قصرها، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 140، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.

(2) النوع الثاني: هو ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ويسمى «الزوابل»⁽¹⁾، ويذكر «ابن سيده» أنها دعيت بزوابل ليسها ولصوق قشرها⁽²⁾، هذا وقد كانت أسنة الرماح تختلف شكلاً بين المشعب والعريض والرفيع المستوى والمموج وغير ذلك⁽³⁾، والرمح كان سلاحاً خاصاً بالفرسان، إلا أن المشاة حملوه أيضاً وكانت رماحهم أقصر من رماح الفرسان وكانوا يحسنون استعمالها رمياً وطعنًا⁽⁴⁾.

صناعة الرمح

تتخذ الرماح من فروع الأشجار الصلدة اللدنة كالنبع، والشوحط، والوشيح، وقد تصنع من الخشب الهندي المجوف المسمى «البوص»، وتكون طريقة الصنع بأن تسوى الكعوب (العقد) بالسكين، ويعدّها تثقف القناة بالثقاف: وهي خشبة ذات ثقب أعدت لهذا الغرض، حيث يدخل في ثقبها عالية الرمح، وتحرك فيه عدة مرات⁽⁵⁾، وقد لا تحتاج القناة إلى تثقيب لاستوائها حيث يقال لها «صعدة»، ويركب للقناة بعد تثقيبها نصل من الحديد (سنان) في رأسها، ويزجج الرمح بعد ذلك بتركيب حديد الزجاج في أسفله، وقد يكون الزجاج من النحاس⁽⁶⁾، وللمحافظة على مرونة القناة ولدونها يوالى دهنها بالزيت، وثمة رمح شاع استعماله في فترة الحروب الصليبية سمي بـ «القنطارية»⁽⁷⁾. وفي أحداث عام 575هـ / 1179م

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص 140-141.

(2) ابن سيده، المخصص، ج6، ص 31، المطبعة الأميرية ببولاق، ابن سيده، ج5، ص 28، 34.

(3) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص 194، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 88.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 272، نعمان ثابت، الجندية في الدولة العباسية، ط2، مطبعة أسعد 1956م، ص 174، وهناك كتب عديدة قد صنفت في كيفية استخدام الرمح، سواء أكان المقاتل من الفرسان أو من المشاة، انظر ابن هذيل الأندلسي، حلبة الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، القاهرة 1959م، ص 205-206، الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 162-163.

(5) محمود أحمد سليمان، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 330.

(6) محمود أحمد سليمان، المرجع السابق، ص 331.

(7) من اليونانية، جنس من الرماح يصنع من خشب الزان والشوح ليست بالطويلة اشتهر بصنعها بنو الأصفر ومن جانسهم من الروم وأستتها قصار عراض كهيئة البلطية وما جرى مجراها، لعله من المرجح أن القنطاريات كانت موجودة قبل هذه الفترة إلا أن استعمالها زاد في هذا العصر، وقد كانت القنطاريات معروفة لدى الصليبيين.

لمزيد من التفاصيل انظر أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص 460، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 183، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 47.

تحدث «الذهبي» قائلاً «نزل «صلاح الدين» على بانياس، وأغارت سراياه على الفرنج ثم أخبر بمجىء الفرنج فبادر في الحال وكبسهم، فإذا هم في ألف قنطارية وعشرة آلاف رجل»⁽¹⁾.

هذا وقد عرف المسلمون الرمح كسلاح محرق أيضاً، وذلك أنهم كانوا يجعلون في سنانه كلايين من الحديد وحلقة تلف على السنان قطعة من اللباد مبلولة بمزيج من المواد المشتعلة، ثم تشعل النار في اللباد ويرمى المزراق⁽²⁾ فيحرق المكان الذي يقع فيه⁽³⁾، هذا وقد تحدث «الطرسوسى» عن أنواع من الرماح التي كانت متداولة أيام «صلاح الدين»⁽⁴⁾، فقال إن أحسن الطعنات هي بالرمح الأصم القصير⁽⁵⁾ الذي يكون سنانه في صورة البلطية (البلطة) في التحديد والتدوير صغيراً أصغر ما يكون⁽⁶⁾.

وقد ظهر نوع من الرماح في العصر الفاطمى كان يرمى بشدة كما يشد السهم بتوتره بأن تجعل فيه قطعة من وتر القطن للرمى إلى مسافة أبعد مما يرمى بها الرمح العادى⁽⁷⁾، وكان الوتر يثبت فى قفل، ولدى الاستعمال بفتحة الرامى، فيطلق ويخرج ذلك السهم بقوة شديدة، وقد ذكر «الطرسوسى» رمحاً يطلق كما يطلق السهم وهو «الرمح الأجوف»، وهو معقد التركيب يختلف شكله وطريقة استعماله عن الرمح العادى فيؤخذ رمح يشق من وسطه إلى نصفيه، وتجوف القطعتان تجويفاً وتمسحان بألة التجويف مسحاً جيداً حتى لا تبقى فيه شظية تعيق السهم الذى يدخل فيه، وبعد هذا يطبق نصفا الرمح ببعضهما، ويعقب الرمح من أوله إلى آخره بالعقب والغرا⁽⁸⁾ ويدهن ثم يركب فى أسفل الشق مفتاح

- (1) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج4، ص221.
- (2) المزراق، هو عود من خشب مجوف، قيل إنه يستعمل لخرق الدروع، يجعل فى قصبته ماء مهلك، ويكون قصد الزراق وجه الخصم أو الدبابة، ذلك أن من صفة هذا الماء أن يذهب البصر، هذا ويمكن أن يكون المزراق من قنا يجعل بطول الرمح، وفيه سنان فيكون كهيئة الرمح لكنه مجوف وفيه الماء المهلك، لمزيد من التفاصيل انظر نبيل محمد، المجلة التاريخية، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث والعشرون 1976م، ص139.
- (3) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص94.
- (4) الطرسوسى، التبصرة، تحقيق كلود كاهين، ص10، 12.
- (5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (6) الطرسوسى، المرجع السابق، ص10، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص272.
- (7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص273-274.
- (8) الطرسوسى، التبصرة، ص10-12.

يزر يكون أسفله قريب من مماسه داخل الرمح وزره مع بقيته بارز من الشق بروزا يتمكن الذى يجعله فى عقرب الوتر من إدخاله فيه، وينفذ فيه مسبار من جانبى الرمح ويكون بتقدم وتأخر، وتجعل أمامه العقرب وصوبه قطعة خشب منحوتة لطيفة، لها ثخانة، طرفها الذى يلي القوس بمقدار ما إذا جعل فيه القفل مسكة ومنعة من أن يترجع إلى أسفل، فينقلب الوتر منه الوتر الذى للقوس، وتجعل فى عنق هذا الزر الذى جعل فيه القوس صرصرة من وتر عملت كالحلقة، فإذا جذب الوتر أفلت القوس ووقع زر القفل بأصابعه عن العقرب فانخفضت العقرب إلى أسفل يجير الوتر وأنفلت الوتر، فاندفعت باندفاعه الضفدعة فى جوف الرمح فدفعت السهم فخرج من السنان بقوته⁽¹⁾، هذا وقد استعملت هذه الآلة وتطورت مع تطور الزمن فقد كان لابتكار أو لاخترع هذه الآلة شأنها الكبير فى وقتها، على حين أنه أغفل الكثير من المؤرخين بعضًا من هذه الأسلحة بل تكاد تكون معظمها لا تذكر هذا؛ لأن التفاصيل المختلفة فى الحرب لم تكن ضمن اهتمامات المؤرخين⁽²⁾.

الفأس أو الطبر أو البلطة⁽³⁾

هو من الأسلحة الفردية⁽⁴⁾ الهجومية المعدنية⁽⁵⁾، وهو يستخدم للقتال القريب⁽⁶⁾، وهو نوع من أنواع الفئوس⁽⁷⁾ من أسلحة الضرب والتهشيم، يستعملونه فى المعارك الحربية عند

(1) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 275.

(3) الطبر أو الطبرزين، لفظة فارسية تعنى الفأس فهو آلة من السلاح تشبه الطبر أو هو الطبر بعينه، وهذا أصبح لأن أصل معناه الطبر المعلق فى السرج، وتعرف فى التركية باسم بلطة، وقد شاع استخدام لفظ الطبر حتى إن حامل الطبر كان يلقب بالطبردار، أى ممسك أو حامل الطبر وكان رئيس الطبردارية يلقب بأمر طبر، وربما اقتصر مدلول لفظة فأس العربية على الآلة الحديدية التى لا تزال معروفة حتى الآن بالاسم نفسه وتستخدم فى الزراعة فى قطع الأرض أو حفرها، ويلاحظ أن حد النصل فى الفأس يتعارض مع اليد، أما نصل الطبر أو البلطة فيتوازى حده مع اليد، ولذا لا يستعمل الطبر فيما يستعمل فيه الفأس، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 37، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 2، ص 141، ج 5، ص 462، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص 111، يذكر محسن محمد حسين، أن هذه الآلة وهى البلطة تسمى «آلة الجهاق» أو الجوماق وذكر تسميتها العامة فى العراق جهاق وفى مصر تسمى بلطة، لمزيد من التفاصيل انظر ابن الأثير، الكامل، ج 9، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 266.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص 76-77.

(5) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص 275.

(6) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص 76-77.

(7) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، القاهرة 1945م، ص 80.

الاشتباك، والفأس آلة ذات يد (هراوة)⁽¹⁾ قصيرة ورأس حاد ويصنع رأسها من النحاس أو الحديد⁽²⁾، وهي على شكل هلال نصف دائرة وله مقبض من خشب أو حديد، ويضعها الفارس في حلقة في سرج فرسه⁽³⁾، وقد كان استعمالها قديماً جداً ولكنها استعملت بكثرة في العصور الوسطى، ولم يقتصر استخدامها على وقت الحرب فحسب وإنما كان الطبر في وقت السلم من أكثر الأسلحة استخداماً⁽⁴⁾.

ومما هو جدير بالإضافة أن ثمة آلات أخرى شبيهة بالفأس أو تقوم بنفس مهمة الفأس مثل الخطاف⁽⁵⁾ واللت⁽⁶⁾، استعملت هذه الآلة كثيراً في مصادمات ومعارك الجيش الأيوبي، هذا وقد ذكر «ابن الأثير» في حديثه عن فتح قلعة برزية الحصينة الواقعة شرقي اللاذقية آلة البلطة (الجماق) التي رآها في يد «صلاح الدين»، فعندما عظم الأمر واشتد على المسلمين «قام «صلاح الدين» في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم، وكان «تقى الدين عمر» ابن أخيه كذلك فقاتلوه إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا، فلما رآهم «صلاح الدين» قد عادوا، تقدم إليهم ويده جماق يردهم⁽⁷⁾ «فردهم»، وقد كان الفأس مستعملاً في فترة الحروب الصليبية حتى وما قبلها، فقد ذكر المؤرخون أن «أسد الدين شيركوه» حين قرر الانسحاب من مصر بعد فشل حملته الأولى على مصر، فعمل على إخراج جنده من بلبس، في الوقت الذي وقف يراقبهم «ويده لت من حديد وهو يحمي ساقاتهم والمسلمون والفرنج ينظرون إليه ويتعجبون منه»⁽⁸⁾، قيل في موضع آخر إن بدء استخدام الطبر لأول مرة في موقعة

(1) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.

(2) إحسان هندی، الحياة العسكرية، ص 116، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، ص 155، قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 76-77، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.

(3) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 225.

(4) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 275.

(5) الخطاف أو فأس القتال هو سلاح يشبه الطبر في شكله واستعماله ولكن رأسه اقل استدارة وأصغر حجماً من رأس الطبر، انظر إحسان هندی، الحياة العسكرية، ص 118، نعمان ثابت، الجندية والسلم، ص 188.

(6) اللت هو العمود المتخذ من الحديد بأكمله والمزود في أعلاه برأس مستطيلة مخرسة، انظر أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.

(7) جماق أو جوماق نوع من السلاح يشبه الدبوس عرفه (Dozy: supp. Dict. Arab) بأنه Une arme semblable a une massue أي أنه نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، هامش 3 ص 266، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 194، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 266، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 278.

(8) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 336، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 140.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

المنصورة التي جرت بين المصريين والصليبيين سنة (647هـ / 1249م - 648هـ / 1250م)، وكان هذا السلاح يعلق في سرج الفارس في الحرب⁽¹⁾.

النبوت

من الأسلحة الفردية الخفيفة، والنبوت عصا غليظة الرأس، رقيقة من طرف وثقيلة من الطرف الآخر⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى أن رأسها بها مسامير حادة لتصبح أكثر تأثيراً، وهي أكثر استخداماً لدى الفرسان⁽³⁾، وقال «القلقشندي» عنها إنها آلة من خشب تفيد في القتال نحو إفادة الدبوس⁽⁴⁾.

العمود

العمود من الأسلحة الفردية الخفيفة، فهو يشبه النبوت إلا أنه يصنع من الحديد وحده، وقيل إنه سمي بـ «اللت»⁽⁵⁾، وقيل إنه يسمى بـ «الدبوس» أيضاً⁽⁶⁾، وهو آلة من حديد ذات أضلاع انتفع بها في قتال لابس البيضة⁽⁷⁾، على الرغم من أن العمود اتخذ اسماً للدبوس إلا أن هناك فوارق كثيرة بينهما، فالعمود لا يكون إلا قطعة واحدة على شكل قضيب من الحديد برأس ضخم ومضلع، وأما الدبوس فيمكن أن تكون خرزته فقط من الحديد ونصابه من الخشب والصلب المحكم التقدير والتدوير، ويمكن أن تشكل الخرزة قطعة مستقلة عن النصاب، ولكنها تتعلق به بواسطة جنزير طوله شبران أو ثلاثة⁽⁸⁾.

وذكر «الطرسوسي» قائلاً «العمود لا يكون إلا من الحديد»⁽⁹⁾، والنكاية به أقوى من نكاية الدبوس وما شاكله من الآلات الموضوعة التحديد، ويعدد «الطرسوسي» أصنافاً من هذه

(1) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 117.

(2) إحسان هندي، المرجع السابق، ص 115.

(3) إحسان هندي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 142.

4 R.Dozy, Supplement aux Dictionnaires Arabes, liban, Beyrouth, 1968, 2vols, p523

(5) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 114.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 142.

(7) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 115.

(8) نيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح، المجلة التاريخية، ص 141، عبد الرؤوف عون، الفن العربي، ص 154.

الآلة، تختلف من حيث شكل الرأس واللون وتحديد الأضراس، وشكل الخرزة وطرق صنعها وتلييسها بمواد صلبة قاتلة مثل الماس وغيرها⁽¹⁾.

المقاليع⁽²⁾

هي من الأسلحة الهجومية⁽³⁾، وهو من أقدم أسلحة الرشق⁽⁴⁾، فبعد أن كان الإنسان يرمى الحجارة بيده، رأى بالتجربة والمران أن زيادة حركة الذراع تزيد من قوة الدفع في الحجر إلى مسافات بعيدة، فكان أن اخترع المقاليع⁽⁵⁾، والمقاليع عبارة عن كفة من الجلد أو القماش بشكل بيضوي⁽⁶⁾ أو مستدير، لها حبلان إذ كانت يضاوية أو ثلاثة إذا كانت مستديرة، وطول كل من هذه الحبال 50-60 سم وهي مربوطة بالكفة من جهة ومرسلة من الجهة الثانية، ويحوى أحدها عروة لإدخال إصبع الرامي فيها، أما طريقة الرمي بها فهي أن توضع قطعة حجر مناسب في الكفة، ثم يقوم الرامي بتدوير المقاليع فوق رأسه وهو يمسك بأطراف حبالها، وبعد دورتان أو ثلاث يفلت أحد هذه الحبال لتنتقل قطعة الحجر في الاتجاه المطلوب⁽⁷⁾ أو الهدف⁽⁸⁾، ويبقى المقاليع بيده ليكرر العملية مرة أخرى⁽⁹⁾، وعلى الرغم من أن مراجع العصر الأيوبي لم تشر إلى استعمال المقاليع أيام «صلاح الدين» إلا أنه من المحتمل أنه كان يستعمل بصفته سلاحاً للرشق الفردي⁽¹⁰⁾، وعند فتح السلطان «صلاح الدين» لحصن برزية سنة (584هـ/1188م) ذكر «العماد الأصفهاني»: «فقد بعد مرام مرماها، وحات الأوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها، وتحاجزت عنها الحجارة فلها من إجازتها بها الإجازة، فما بلغت إلى القلعة قلائعها...»⁽¹¹⁾.

(1) الطرسوسي، التبصرة، ص 15.

(2) المقاليع هو أبسط أنواع الآلات القاذبة ولذلك يمكن إلحاقها بالقسي، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 91.

(3) إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 119، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 91.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 290.

(5) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 119.

(7) إحسان هندي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(8) أمين الخوالي، الجندي والسلم، ص 28.

(9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 290.

(10) محسن حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(11) القلائع الحجر والمدر يقتلع من الأرض فيرمى به، انظر العماد الأصفهاني، الفتح القسي، هامش 2، ص 248.

الدبوس

كان الدبوس أحد أسلحة الهجوم⁽¹⁾، وهو من الأسلحة الفردية الخفيفة⁽²⁾، فالدبوس يكون رأسه من الحديد أو الصلب⁽³⁾ ونصابه⁽⁴⁾ من الخشب المحكم الدقيق من التقدير والتدوير⁽⁵⁾، وهناك من يطلق على العمود والدبوس اسمًا واحدًا أو يعتبرها آلة واحدة، ويمكن أن تكون الآلة كانت تسمى «العمود»⁽⁶⁾ ثم أُطلق عليها اسم «الدبوس»⁽⁷⁾، هذا بالإضافة إلى أن العمود والدبوس كانا يستعملان لتثبيت رأس العدو⁽⁸⁾ وتهشيم الخوذة المعدنية⁽⁹⁾، ولذلك تسمى بـ«المقعدة»⁽¹⁰⁾، وقد كان انقرسان في المعركة يستخدمونها بعد الحرب بالسيوف والرماح⁽¹¹⁾؛ لأنها كانت شديدة النكاية بالعدو⁽¹²⁾.

أضف إلى ذلك أنها ذات تأثير فعال بالنسبة له، وقد عدد «الطرسوسي» أصنافًا من هذه الآلة تختلف من حيث شكل الرأس واللون وتحديد الأضراس وشكل الخرزة، وطرق صنعها وتلييسها بمواد صلبة قاتلة مثل الماس وغيرها⁽¹³⁾.

وظيفة الدبوس

استخدم الدبوس في العصر الأيوبي وكان أحد أسلحة «صلاح الدين» الشخصية⁽¹⁴⁾.

- (1) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 88.
- (2) محسن حسين، المرجع السابق، ص 277.
- (3) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 289، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 224، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، القاهرة سنة 1945م، ص 80.
- (4) محسن حسين، المرجع السابق، ص 277، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.
- (5) الطرسوسي، التبصرة، ص 15-16، إحسان هندي، المرجع السابق، ص 114.
- (6) محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 144.
- (7) نعمان ثابت، الجندية في الدولة العباسية، ص 189، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 26.
- (8) المقریزی، السلوك، ج 2، ص 324، حاشية رقم 1.
- (9) القلقشندي، ضبح الأعشى، ج 2، ص 142، إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 114، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 244، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 26، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 88، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 143-144.
- (10) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 26.
- (11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 277.
- (12) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 114.
- (13) الطرسوسي، التبصرة، ص 19، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 277، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198.
- (14) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 8.

فاستخدم الدبوس بأشكاله المتعددة المجنحة والكروية والمضلعة الرأس، وكان للدبوس فاعليته في ضرب جسم العدو ودابته، وكان على المحارب أن يضرب به شذراً أي عن يمين وشمال، وكان للدبوس وظيفته في تحطيم أسلحة العدو الحديدية كالترس والدرع والخوذة... إلخ، وكانت نصيحة «ابن منكلى» للمحاربين بأن يتصدوا للفرنج بضربة فوق رؤوسهم بالدبابيس وليس بالسيوف⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى أن هذه الآلة كانت تستعمل في حالة المواجهة المباشرة مع العدو في معظم المعارك الحربية، حيث إنه حينها كان يقابل الجيش الأيوبي الجيش الصليبي، كان جيش المسلمين يثخن فيهم الضرب باللتوت والدبابيس والنشاب والرماح⁽²⁾.

الأسلحة الرشقية

القنبرة أو القنبلة⁽³⁾

هي قارورة ذات شكل خاص كانت تحشى بالنفط والصبر ويزر القرطم المقشور وغير ذلك من المواد، وتجعل لها قنبلة ليشعلها الضارب ويرميها باتجاه العدو، فتحرق بناورها ما تقع عليه أو تنفجر، وكان يقال للقذائف التي كانت ترمى بواسطة المنجنيق قنابر⁽⁴⁾.

والقنابر أنواع عدة من قنابل النحاس، وقنابل الحجر وتتخذ من حجر مستدير ويجعل فيه خزائن تملأ بلزاق من نفط ومصطقي وغيرهما⁽⁵⁾، وقنابل الزجاج وتماماً من دهن يتركب من نفط مصعد وكبريت وكندس... وغيرها ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فتلطح المكان الذي تقع فيه، ويؤتى بعد ذلك حجر عليه نفط مطبوخ تشعل فيه النار ويرمى حيث وقعت القوارير فيلتهب المكان.

وقنابل اليد التي تحشى بالنفط والصبر ويزر القرطم المقشور وغيره وتجعل لها فتيلة

(1) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 303-304.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 244، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 277.

(3) أصلها كلمة تركية قانوبور، نقلها العرب عنهم ونطقوها قنبر ثم قنبرة، كانت تطلق على حشوة المدفع ثم توسعوا بها وأطلقوها على كرتة الحديدية، ودونت قنبرة وقنبلة في معاجم اللغتين العربية والتركية، انظر إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 115.

(4) إحسان هندي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 45-46.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

فيشعلها الضارب ثم يرمى بها فيكسر ها، والقنابل المضيئة، والقنابل الخانقة المملوءة بالكلس المطفى فيتصاعد غباره إلى أنوف الجنود وعيونهم فيعجزون عن القتال⁽¹⁾.

الجلاهقات، جمع جلاهق

وهي عبارة عن كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص، وتسمى أيضًا بـ«البندق»، وكان لرميها شأن كبير في العصور الإسلامية الوسطى⁽²⁾.

القوس⁽³⁾

وهو من أسلحة الرشق الفردية الهجومية⁽⁴⁾ الشهيرة والشائعة عند العرب قبل الإسلام⁽⁵⁾، وقد استعمل القوس في حالات السلم والحرب⁽⁶⁾ وفي حالات صيد الحيوانات⁽⁷⁾، وهو من أبرز أسلحة الرمي طوال قرون عديدة⁽⁸⁾، هذا بالإضافة إلى أنه السلاح الوحيد للرمي إلى مسافات بعيدة⁽⁹⁾.

وقد ذكر صاحب الروضتين، ومفرج الكروب أن الأتراك كانوا رماة جيدين ماهرين وكان الفرنج الطامعون لا يربعون ولا يخافون إلا منهم⁽¹⁰⁾، وقد ذكر أن السهم والنبل

(1) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص172، هامش 2.

(3) القوس جمع أقواس وقسي، والقوس مؤنثة وتصغيرها قويس وجمعها أقوس وأقواس وقياس وقسي، لمزيد من التفاصيل عن نعوت القوس انظر ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص68، ابن سيده، المخصص، ج6، ص37-45، النويري، نهاية الأرب، ج6، ص222، القوس هي أعواد من الخشب اللين المتين، تقوس كاهلال وتثبت عليها أوتار من الجلد ترمى بها السهام، وكان للعرب بالقوس مهارة عظيمة، لخدمة إبصارهم نتيجة لسكنى البادية ولأنهم أخرج إليها من سائر الأسلحة، انظر إحسان هندی، الحياة العسكرية، ص98، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ص192-193.

(4) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص90-91.

(5) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(6) محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص128.

(7) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص73، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص90.

(8) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص279.

(9) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية بمدينة رشيد في العصر المملوكي حتى عصر محمد علي، القاهرة، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة 1991م، ص76، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص198.

(10) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق2، ص460، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص183.

والنشاب أسماء لشيء واحد⁽¹⁾، وكان القوس يصنع من شجر جبلي صلب، عادة شجر المران، وكان ينبت في دمشق على السفوح الغربية لجبل قاسيون، وإليه ينسب دير مران في أعلى الجبل المذكور غربيه، فهو يصنع من قضيب من الخيزران أو الخشب أو القرون أو المعدن على شكل نصف دائرة ترمى بها السهام⁽²⁾.

أجزاء القوس وتركيبها

أجزاء القوس هي القوس والوتر والسهم.

القوس: عند العرب هي الحنية من العود مغلقًا أو مفتوحًا⁽³⁾.

الوتر: وهو الخيط الذي يصل بين نهايتي القوس، وكان يصنع من خيوط مفتولة أو من سير رفيع من جلد الحيوانات وخاصة حيوان الإبل، ثم صار يتخذ من عصب عنق البعير أيضًا، والوتر يفسد إذا تعرض لحرارة الشمس أو ماء المطر، ولذا كانوا يحفظونه في كيس خاص يوضع في الكنانة الخاصة بالسهم ولا يخرج إلا عند الرمي⁽⁴⁾.

السهم⁽⁵⁾: وهو القسم الذي ينطلق باتجاه الهدف بينما يبقى القسمان الباقيان السابق ذكرهما في يد الرامي، والسهم عبارة عن عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريبًا يأخذه الفارس ينحته ويسويه ثم يفرض فيه فروضًا دائرية ليركب في قمته نصلًا من حديد مدبب⁽⁶⁾، هذا وقد ذكر «القلقشندي» أن موضع إمساك الرامي من القوس يسمى «المقبض»، ومجرى السهم فوق قبضة الرامي يسمى «كبد القوس»، وما يعطف من القوس يسمى «سن القوس»، وما فوق المقبض من القوس، وهو ما على يمين

(1) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 137.

(2) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 73.

(3) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور، ص 177، إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 98.

(4) عبد العزيز صلاح سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 47.

(5) السهم من آلات الرمي بالقوس وكانت تصنع من النبع والشوحط، وهو مستدير أو مصفح إذا كان عريضًا وله أنواع شتى، وتسمى أوعية السهام جعبة وجعبها جعباب (جعباب) جفير وهو أوسع من الكنانة، وتكون الجعبة تارة من جلد وتارة من خشب، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 142، النويري، نهاية الأرب، ج 6، ص 235، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 90-91، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 136.

(6) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور وتاريخها، القاهرة 1998م، ص 177.

الرامي يسمى «رأس القوس»، وما أسفله وهو ما على يسار الرمي يسمى «رجل القوس»⁽¹⁾.

تركيب القوس

قيل عن تركيب القوس إنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع وهي العظم ونظيره في القوس الخشب، واللحم ونظيره في القوس القرون، والعروق والعصب ونظيرها في القوس العقب، والدم ونظيره في القوس الغراء⁽²⁾، هذا وقد أخذت القسي تتطور شيئاً فشيئاً، وتصنع بأشكال مختلفة، ونرى أن التطورات التي أدخلت على صناعتها بلغت مستوى عال جداً لم تبلغها صناعه أي سلاح من الأسلحة الفردية الأخرى⁽³⁾، على أن أساس فكرتها ظلت كما كانت، ولقد كان السبب الأساسي في صناعة وتطور القسي خاصة والأسلحة الإسلامية عامة هو الحروب الصليبية، فنحن نرى أن معظم أنواع القسي قد استعملت في عصر الحروب الصليبية، لا سيما في عصر «صلاح الدين الأيوبي»⁽⁴⁾، والدليل على استعمال هذه الأسلحة في عهد «صلاح الدين» هو أن «الطرسوسي» المعاصر للسلطان «صلاح الدين» كان قد ذكر صنعها بالتفصيل.

وقد ذكر «الحسن بن عبد الله» أن أجود أنواع القسي ما كثر فوقها وقل خشبها وصب لجامها واشتد جفافها وثقل وزنها وقوى حبلها⁽⁵⁾.

وذكر «العماد الأصفهاني» عند فتح السلطان «صلاح الدين» حصن صهيون 584هـ / 1188م، فقال عن السهم «توفرت سهام السهام من المقل»⁽⁶⁾.

ثانياً: الأسلحة الجماعية وفنون استخدامها: القسي الجماعية الثقيلة

أنواع القسي الإسلامية

قسي الزيار

هي من الأسلحة الجماعية، وقوس الزيار عبارة عن آلة ثقيلة تعمل على مبدأ القوة الدافعة

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص142، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص223.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج6، ص229-230، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص137.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص279.

(4) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص160.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص241.

كالقسي الأخرى⁽¹⁾، أي قوة شد الوتر الضخم ثم تركه يعود إلى حالته الطبيعية قاذفًا ما يحمله إلى بُعد يتناسب مع قوة الشد أي مع تزيير الوتر (اعوجاج الوتر)⁽²⁾، ولهذا سمي بـ «قوس الزيار»، وكانت ترمى سهما هائل الحجم يتراوح طوله بين 60 و180 سم، ووزنه 2-3 كجم، ويصف «الطرسوسي» هذا النوع من القسي بأنها أشد رميًا وأعظمها جرمًا وأنكأها سهمًا، ويحتاج إيتارها إلى عدد من الرجال وتنصب على الأبراج وما شاكلها ولا يستطيع أحد أن يقف لها⁽³⁾، وبعد وفاة «صلاح الدين الأيوبي» اقتبس الصليبيون هذا السلاح من المسلمين ونقلوه معهم إلى بلادهم، واستعملوه في حروبهم في منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي (637هـ/1239م)⁽⁴⁾، وكانوا قد أطلقوا عليه اسمًا شبيها بالاسم العربي هو «منجنيق السهام»⁽⁵⁾.

وقد اعتبرت قوس الزيار أقوى أنواع القسي؛ لأنها قد بلغت من القوة بحيث بلغ «مقدار حيلها جر عشرين رجلاً يجرها بحيلة رجل واحد، ويرمى عنها أشد رماية وأنكأها وبأرتب حالة وأهنأها فيبلغ منها غاية الأرب وينتهي إلى نهاية الطلب»⁽⁶⁾.

طريقة صنع قسي الزيار

إن صنع الزيار يكون بعمل قوس من صفحتين من خشب السنديان، طول كل صفحة منها ستة أذرع وعرضها الأكثر شبر ونصف والأوسط شبر واحد والأصغر نصف شبر،

(1) إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 123.

(2) إحسان هندي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) الطرسوسي، التبصرة، ص 16.

(4) إحسان هندي، الحياة العسكرية، ص 124.

(5) هو قوس آلي ميكانيكي معقد للإيتار والإطلاق، وهذا الجهاز عبارة عن قائمة طولانية، تتركب عليها عارضة خشبية هائلة لها مستنات كبيرة وفوق هذه العارضة توجد عارضة أصغر منها ذات مستنات متعددة أيضًا، وفي أسفلها نتوء معدني على شكل قفل يشبك به الوتر، ويمكن بهذه الطريقة جذب وتر القوس إلى الورا حسب الطلب ووفق المدى المراد إطلاق السهم إليه، ويوضع السهم في شق طولاني على امتداد العارضة الخشبية فيما يلي ذروة الوتر المشدود، فإذا أعطيت الإشارة بإطلاق السهم جذب الرامي المسار الذي يثبت الوتر فينطلق السهم بقوة عظيمة إلى هدفه، وأهم التحسينات التي طرأت على منجنيق السهام هي اختصار حجمه وجعله صغيرًا، وهذا السلاح الجديد سمي باسم «قوس العقار»، لمزيد من التفاصيل انظر إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 121، 124 - 126، انظر أيضًا محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 76.

(6) الطرسوسي، التبصرة، ص 6.

ويكون رأس هذه الصفحة مقدار قيراطين⁽¹⁾، وتبطن هاتان الصفحتان بالقرن والغراء في زمن الخريف وتحزم كما تحزم القسي، ويترك إلى أن يستوفي وقتها، وبعد التأكد من أن القرن قد التصق بالخشب التصاقاً يؤمن عليه من الانقلاع، يحس الخشب وتزال فواصله ويطل بالقرن ويترك ليبرد، وبعد ذلك يثقف بالمبرد، ويترك إلى أن تزول خشونتها ويستوى هتدامها، ثم يدهن ويزوق⁽²⁾، يضيف «الطرسوسى» قوله «ثم يصنع وتران من الخشب السنديان لاصقان به أو مثبتان معه وينسج على الضلع الأعلى والأسفل على مقدار الثلثين من الضلع الأوسط زيار معمول من شعر وإبريسم كل حبل فيها من غلظ إصبع الخنصر... فإذا كمل نسيج الزيار يدار بأوتاد الخشب... ثم تنزع تلك الأوتاد وتجعل فيها صفحتي للقوس المذكورة»⁽³⁾.

يذكر «العماد الكاتب» أن قسي الزيار كانت مستعملة في عهد «صلاح الدين»، حيث يذكر أنه بعد فتح القدس عاد الملك «العزیز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين» إلى مصر تاركاً «خزانة سلاحه بالقدس كلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال وذخائر وافية وعددا وافية... وفيها آلات وزيارات»⁽⁴⁾، وذكر «ابن الأثير» و«ابن واصل» أن «صلاح الدين» حينما فتح حصن صهيون المنيع، وهو من أعمال حمص، حاصره «صلاح الدين» حصاراً شديداً، «وكان معه من الرجال الجبلين كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة الشهيرة ودام رشق السهام، من قسي اليد والجرح والزنبورك والزيار»⁽⁵⁾.

قسي الجروح⁽⁶⁾

الجرح آلة حربية شبيهة بالمنجنيق؛ لأنها ترمى السهام والنفط والحجارة⁽⁷⁾، ولكنها أخف

(1) القيراط، مقدار عرض الإصبع.

(2) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 78ب، نقلا عن محسن حسين، الجيش الأيوبي، ص 281.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 80أ، نقلا عن محسن حسين، الجيش الأيوبي، ص 282.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 144.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 192، حوادث سنة 584هـ، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 262.

(6) الجرح، كلمة مأخوذة عن الفارسية تشرخ (Tcharkh) والجمع جروح، وهى من أدوات الحرب ومعناها الفلك وتطلق على جميع الآلات التى تدور كالدولاب والبكرة وغيرهما ومنها جرح بالتركية والكردية، السيد أدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، ص 39، ميرفت محمد سالم، حصن الأكراد، ودوره في الصراع الصليبي الإسلامى، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة 1992م، ص 87، نبيل محمد عبد العزيز، المجلة التاريخية، ص 140.

(7) النويرى، نهاية الأرب، ج 28، ص 380، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 76، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 283، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 19، العماد الأصفهاني، الفتح القسي، هامش 7، ص 104.

منه⁽¹⁾، هذا إلى جانب أنها كانت تصنع من القرن، وقد كانت تستعمل من داخل السور للدفاع عن قلاع المدينة المحاصرة، وقد ذكرت عند المؤرخين فقال «العماد الأصفهاني»: «الدبابات نظير من أوكارها عقبان الجروخ».

وفي كتاب الكامل لـ «ابن الأثير»: «الرماة الجرخية من الفرنج، وفي نهاية الأرب لـ «النويري»: «رتب الفرنج فيه ألفاً وخمسين جرخياً»⁽²⁾، ومنها اشتقت كلمة جرخى "ERARBLIST".

وقد كان الصليبيون أكثر استخداماً لهذا القوس لغرض الدفاع عن أنفسهم؛ لأن المسلمين هم الذين كانوا يفرضون الحصار على المدن والقلاع التي كان الصليبيون يحتلونها، باستثناء إنطاكية وطرابلس⁽³⁾.

ومن المرجح أن يكون الصليبيون استعملوا قسى الجرخ⁽⁴⁾، وهم محاصرون داخل أسوار هذه المدن، ومن الجدير بالملاحظة أنها كانت تستخدم في حالة الدفاع فقط ولم تستعمل في حالة الهجوم⁽⁵⁾.

وقد عرف المسلمون هذه القسى في أيام الحروب الصليبية، عندما استخدمها الفرنج في تصادمهم مع المسلمين؛ لأنها كانت معروفة عندهم قبل معرفة المسلمين بها، هذا بالإضافة إلى أن كلا من الصليبيين والمسلمين استعملوها في الدفاع عن المدن.

وقد ذكر «ابن شداد» أن «صلاح الدين» حينما حاصر المدن الساحلية سواء بيروت⁽⁶⁾ أو أنطرسوس التي دافعت عنها القوات الصليبية من الداخل «بجروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد»⁽⁷⁾، وعند حصار كوكب وفتحها عام 584هـ / 1188م، ذكر «العماد الأصفهاني»:

(1) إحسان هندی، الحياة العسكرية، ص 127، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 16.

(2) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 19.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 283.

(4) هناك نوع من قسى الجروخ مستعملة في مراكب البحر تصنع من الخشب؛ لأن هواء البحر يفسد القرن ويتلفه، هذا بالإضافة إلى أن الرامي كان لا بد أن يكون متقناً وحاذقاً عند رمي هذه القسى، وقيل إن الفرنج يعانون قسى الجرخ وهي أكثر نفعاً من داخل السور، انظر الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 160.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 283.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 104.

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 88.

«فقاتلوا أشد قتال، ونازلوا أحد نزال، وفوقوا الجروح المصمية، وصوبوا الصخور المردية»⁽¹⁾، وحينما تعرضت عكا لهجوم الصليبيين الذي أدى إلى وقوع جزء من سورها استعملوا الجروح والمناجيق من داخل المدينة لحمايتها والحيلولة دون دخول الصليبيين إليها⁽²⁾، وفي حوادث (586هـ / 1190م) ذكر كل من «ابن شداد» و«أبي شامة»: «زحف العدو على عكا في خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلين الذين فيه، وذوى الآراء المثقفة من مقدمى المسلمين فيه، حتى نشبت مخالبا أطعاهم في البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة، حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المناجيق وأقواس الرمي والنيران، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد، واستطاع الجيش الأيوبي من إلحاق الهزيمة بالعدو»⁽³⁾.

الزنبورك⁽⁴⁾

نوع سميك من أنواع السهام⁽⁵⁾، فقد ورد عن «دوزى» DOZY نصًا يؤكد فيه كون الزنبورك نوعًا من السهام، إذ قال «الزنبورك سهم من سمك الإبهام»⁽⁶⁾ وفي طول الذراع وله أربعة أوجه (ذو أجنحة)⁽⁷⁾ وطرفه من الحديد وهو مريش ليكون انطلاقه أكثر ثباتًا، وحيثما سقط فإنه مؤكد الإصابة، وقد يخترق في رمية واحدة جسمى رجلين وقف أحدهما خلف الآخر، واخترق في نفس الوقت درع الجندي وملابسه، ثم نفذ بعد ذلك واستقر في الأرض، وقد يصيب كذلك أحجار الأسوار⁽⁸⁾، ويضيف «دوزى» قائلاً

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 273.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 283.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 163، ابن شداد، النوادر، ص 142.

(4) الجمع زنبوركات وهو نوع من القسى التي ترمى عنها السهام وقد يعنى نوعًا من السهام ذاتها، انظر ميرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد، هامش 1، ص 87.

(5) النويرى، نهاية الأرب، ج 28، هامش 2، ص 406.

(6) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 76.

(7) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 198-199.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، هامش 1، ص 244، نقلًا عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 284، انظر أيضًا: نقلًا عن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 284، Dozy, Supplement aux Dict, vol. 1, p605.

إن اللفظ قد يعنى «الزنبورك الصغير»⁽¹⁾، وعلى حد قول «ابن الأثير» إن الزنبورك يرد ذكره بصفته أحد أنواع القسى وليس أحد أنواع السهام في قوله «ودام رشق السهام من قسى اليد والجرح والزنبورك والزيار، فخرج أكثر من بالحصن»⁽²⁾، فذكر الزنبورك بين الجرح والزيار - وهما نوعان من القسى، لدليل على أنها أحد أنواع القسى وليس أحد أنواع السهام⁽³⁾، وذكر صاحب كتاب آثار الأول «أن الروم كانوا أهل صنائع وحرف وحكم، وفيهم صبر وخدمة، ولهم حيل في السياسات ووضع آلات حربية، وحظهم في الفروسية قليل ولهم ضرب بالسيف ورمى بالجرح والزنبورك»⁽⁴⁾، بالإضافة إلى أن «أبا شامة» ذكر «الجروح والزنبورك جنبًا إلى جنب»⁽⁵⁾، في حين أن رواية «العماد الأصفهاني»، تربط بين «الزنبوركات والناوكات»⁽⁶⁾، هناك نوع آخر من الأقواس يسمى «القوس الإفرنجية»، وهى تتألف من عمود وقضيب وجوزة ومفتاح، ويقول إن العمود يسمى «المجرى»، وإنما سمي بذلك لجرى السهام، وكان مفتاحًا طالعًا من جهة الجوزة يرمى سهامًا عديدة مشتملة⁽⁷⁾، وكانت هذه القوس تطلق السهام لمسافة بعيدة وبدقة متناهية مما يجعلها تشبه البندقية إلى حد ما⁽⁸⁾، والظاهر أن اختراع المجرة (الماسورة) كان البداية لاختراع القصبية (السبطانة) في الأسلحة النارية، كما أن الأنواع التى صنعت فى أواخر القرون الوسطى من هذه القسى تشبه إلى حد بعيد «الغدارات النارية»⁽⁹⁾.

- (1) سمي كذلك للشبه بين الصوت الذى تحدثه تلك الحشرة وبين الصوت الذى يحدثه وتر القوس عند انطلاق السهم، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 285.
- (2) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 192، حوادث سنة 584هـ.
- (3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 285.
- (4) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (5) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 119.
- (6) الناوكات، جمع ناوك وهو لفظ فارسى الأصل معناه السهم الصغير، العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 163، هامش 3، نقلا عن د/ مرسى محمد هندواوى، معجم الألفاظ الفارسية، ص 321، ابن واصل، ج 2، هامش 1، ص 244، أبى أنها ضربان من السهام، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 285.
- (7) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 77، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 285.
- (8) انظر: Oman (c . w), A history of the art of war in the Middl ages, new York, vol1, p330.
- (9) الغدارات النارية أو ما يسمى Arab list الذى هو القوس المقذوف، فهو سلاح من أسلحة القرون الوسطى، كانوا يستخدمونه لقذف السهام والكرات والحجارة، هذا بالإضافة إلى أن الغدارات النارية هى تطوير لفكرة

هذا بالإضافة إلى ما شرحه «الطرسوسى» عن وجود قوس سماه «صفة المجراة»، وهو عبارة عن قوس ذى أنبوبة أو إن صح التعبير أنبوية القوام، وتكون باتخاذ «مجرة آلية الوتر»، وبقفل معدنى من الحديد أو النحاس، يوضع فيه مسمار يتحرك صعودًا ونزولاً، فيغلق القفل بالمسار «المفتاح» وإذا نزع عنه «ترك القفل إلى أسفل فينقلب الوتر ويدفع السهم فيخرج... وأيسر جذب ينزعه من الكلاب وإن طال عن أن يصل إليه جعل في طرفه ميقات (حبل) يجذب به عند الحاجة إلى إفلات السهم، ويثقب عرضًا ويجعل فيه ميلاً من حديد يثبت في غلظ الرمح ونصله، ويجعل السهم على المجراة في الموضع الذى يفرض له فيها مقابل الوتر»⁽¹⁾.

وكما هو متوقع بل إنه من المؤكد أن التطور التقنى الذى حدث في صناعة الأسلحة قد بلغ مرحلة متقدمة في العصر الأيوبي، ولا أدل على ذلك من وجود هذه المجموعة من آلات إطلاق السهام التى كانت تطويراً لفكرة الأقواس، إلا أن القوة المحركة الدافعة لهذا السلاح ظلت تعتمد على الطاقة البشرية من شد الوتر وتوتيره وتوجيهه وإطلاقه⁽²⁾، ومنها كما سبق ذكره صفة المجراة، والقوس الإفرنجية.

قسى الرجل

يكون توتير هذا النوع من القوس بدفع رجلى الإنسان مع جذب ظهره⁽³⁾؛ لأن جرها يحوج الإنسان أن يجعل في وسطه حزاماً من الجلد البقرى الجيد الدباغ⁽⁴⁾، وفي طرفيه كلابان من الحديد بجعل وتر القوس فيهما، ويجعل الإنسان الرامى رجلين في بطن القوس جاذباً بظهره الحزام الذى فيه الكلابان إلى أن يحصل الوتر في القفل الذى في المجراة⁽⁵⁾، وينزل

القوس الأنبوية بعد اكتشاف البارود، وهذا السلاح عرفه الصليبيون واستعملوه في معاركهم ضد المسلمين، انظر إحسان هندی، الحياة العسكرية، ص 105.

Oman (c . w), op. cit, p330.

انظر أيضاً محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، هامش 3، ص 286-287.

(1) الطرسوسى، التبصرة، ورقة 81ب، نقلاً عن محسن حسين، الجيش الأيوبي، ص 287.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 285-286.

(3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 77، نبيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح، المجلة التاريخية، ص 139، الطرسوسى، التبصرة، ص 8.

(4) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 106، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 201.

(5) الطرسوسى، التبصرة، ص 8.

المفتاح عن القفل إلى بطن المجراة فيدور القفل؛ لأنه كالبكرة اللطيفة في محور حديد مسمر في جانبي فتح المجراة، فإذا أدار المفتاح عنه دارت البكرة وانفلت الوتر فيدفع النبلة فيخرج بحدّة⁽¹⁾.

قسي الحسبان

قال عنها «الطرسوسي» إنها قوس عربية، تطلق سهامًا سريعة وصغيرة، وهي لهذا شبهت سهامها بالجراد⁽²⁾، وسرعتها متأنية من أنبوب القوس يسع مجموعة من السهام الصغيرة لا يقل عددها عن خمسة «فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المتشر في دفعة واحدة فشبّهت هذه السهام بالجراد، وسميت القوس قوس الحسبان⁽³⁾، ولم يكن لهذا النوع من القسي قفل أو جوزة، فقد كانت هذه القوس من القسي المفضلة عند الجيش الأيوبي، نظرًا لأنها سريعة الرشق، إلى جانب إطلاقها لعدد من السهام الواحدة تلو الأخرى من قبل رجل واحد فقط، لا يتجاوز حجم الواحد منها حجم الإصبع الواحد⁽⁴⁾، ولعل سهام هذه القوس الصغيرة هي المنيعه بالناوكات التي يرد ذكرها في مصادر هذه الفترة⁽⁵⁾، والتي تعنى بالفارسية «السهام الصغيرة»، ويسمى «ابن منكلي» هذه القوس بقوس «البنجكان» التي تعنى بخمسة أسهم «وهو الرمي الذي ليس وراءه رمي... وهو جيد للرمي على العدو فوق الأسوار»، «ويضيف ابن منكلي» أن هذه القوس كانت موجودة منذ عهد قديم⁽⁶⁾.

قسي متعددة الاتجاه

هذه القوس لم تكن قوسًا واحدة، بل أربع قسي جرخ في برج واحد له أربعة اتجاهات أو

(1) الطرسوسي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محمود أحمد ذرويش، الاستحكامات الحربية، ص 77.

(3) الطرسوسي، التبصرة، ص 8-9.

(4) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 107.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 163، يذكر الطبري هذه الأقواس ضمن حوادث سنة 251هـ / 861م،

فيقول «وأقبلت الرماة من بغداد بالناوكية في الزواريق ربما انتظم السهم الواحدة عدة منهم فقتلهم».

(6) ابن منكلي، التدبيرات السلطانية، مخطوط مصور في المجمع العلمي العراقي، ورقة 62، نقلًا عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 287-288.

خمسة أو ستة أو أكثر حسب ما يصنعه الصانع، تنصب في كل جهة قوس ولكل منها مجراة فيها ثلاثة سهام وأربعة، أى أن الأقواس الأربعة كانت من نوع قسى الحسيان أو «البنجكان» التى ترمى الناوكات، وحين يفتح الرامى القوس تنطلق منه مجموعة السهام بالاتجاهات الأربعة، وإذا كان البرج سداسياً وضعت عليه ستة أقواس تطلق أربعة وعشرين سهمًا، هكذا تتضاعف السهام بتضاعف اتجاه البرج⁽¹⁾، فيظن المقاتل أن فى البرج عدة رجال يرمون النشاب⁽²⁾.

قسى قاذفة النفط

من خلال التطور الهائل للقسى وطريقة استخدامها فلم تعد القسى تقتصر على رامى السهام فقط، بل تطورت مهمتها إلى رمى النفط كذلك⁽³⁾، والقوس التى تقوم بهذا العمل شبيهة بقوس الرجل ولها مجراة مكملة بقفلها وجوزتها، وترتبط بها كفة نصف كروية على مثال نصف جوزة هندية، وتجووف تجويفاً تسع القارورة⁽⁴⁾ التى يوضع فيها النفط وباستعمالها ترمى النفط المشتعل على العدو، وعلى حد قول «الطرسوسى»: «وتكسر ما تلاقىها من الأجسام وتحرق ما تماسه؛ لأن القارورة تخرج منها كالسهم بقوة قذفها»⁽⁵⁾، وقد كان للسهم دور مهم آخر كأداة من أدوات التخاطب لا سيما فى رمى الرسائل إلى المحاصرين داخل سور الحصن، فقد كانت هذه الرسائل تنشر الذعر والخوف بين سكان المدينة ومحاربيها، سواء كتب على السهم مباشرة أو من خلال ورقه مشدودة به⁽⁶⁾، وهذه الأخبار كانت كاذبة يخدعون بها العدو ليؤثروا على روحهم المعنوية وجعلهم يميلون إلى التسليم ثم ترمى إليهم، وقد يكون من فى الحصن يرغبون فى التسليم، فيكتبون طلبهم ثم يرمون به فى سهم إلى من فى الخارج⁽⁷⁾.

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص 10.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 288-289.

(3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 78.

(4) الطرسوسى، التبصرة، ص 10.

(5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، هذا يعنى أنهم كانوا يستعملون القوارير المملوءة بالنفط لذفها على العدو، وهذه القوارير شبيهة بالقنبلة النقطية، انظر محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، هامش 3، ص 289.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 289.

(7) عبد الرؤوف عون، الفن الحربى فى صدر الإسلام، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة 1961م، ص 141.

المنجنيق⁽¹⁾

من أهم أسلحة القتال الجماعية، قال عنها صاحب آثار الأول «أعظم الآلات نكاية، وأشدّها»⁽²⁾ فتكا⁽³⁾، وأبسط أشكال المنجنيق عبارة عن قاعدة من الخشب⁽⁴⁾ مربعة أو مستطيلة يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي، ثم تتركب في أعلاه ذراع تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل وفي أحد طرفيها وعاء نصف كروي يتناسب حجمه مع هيكل المنجنيق توضع فيه المقذوفات من حجارة أو حديد أو أوعية النفط⁽⁵⁾ وقدور فخارية أو زجاجية تملأ

(1) هو اسم أعجمي، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ويجمع على مجانيق ومناجيق، أصله من جه نيك وتفسيره بالعربية ما أجودني، قال ابن خلكان تفسيره من وتفسير جي إيش، وتفسير نيك جيد وكلمة منجك معناها الارتفاع إلى فوق، انظر القلقشندي، ج2، ص143-144، د/ صلاح حسين، منجنيق من الحضرة، مجلة سومر، تصدرها مديرية الآثار العامة، الجزء الأول والثاني، المجلد الثاني والثلاثون 1976م، ص122، المغرب للجواليقي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة (1361هـ / 1966م)، ص305-307، انظر أيضًا، أرنبا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، دراسة وتحقيق إحسان هندي، دمشق 1404هـ / 1984م، ص11، هو أيضًا آلة قاذفة ترمى بها الحجارة استخدمها الفينيقيون قديمًا، وأخذها عنهم اليونانيون ومن خلالها انتشرت إلى بقية المناطق، استخدمها الفرس ثم العرب المسلمون، هذا وقد أرشد المسلمين إليها الصحابي سلمان الفارسي، وقيل إنه هو الذي صنعها بيده فاستخدموها في حصار الطائف سنة (8هـ / 629م)، وهناك من يذكر أن المسلمين نقلوا المنجنيق عن البيزنطيين مباشرة وليس عن طريق الفرس، ولعل ما يؤيد اقتباس المسلمين من الفرس أن لفظ منجنيق فارسي، انظر ابن أرنبا الزردكاش، (ت 867هـ)، الأنيق في المناجيق، دراسة وتحقيق د/ إحسان هندي، دمشق (1405هـ / 1985م)، ص18، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، دكتوراه، ص71، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص196، القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص144، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص234، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص141-142، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص201، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، ص162، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص146، الإفصاح في فقه اللغة، ج1، ط2، ص617، محمد سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص396، جزاوي شير، الألفاظ الفارسية، ص146،

Oman (c . w), A history of the art of war, p21.

انظر أيضًا: هذا وقد ذكر ابن شداد أن المنجنيق أو المنجنوق أو المنجميق والجمع مجانيق ومناجيق ومنجنيقات هي اسم واحد لآلة واحدة، انظر ابن شداد الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص85.

(2) أرنبا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص18، آثار الأول، ص191، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي في صدر الإسلام، ص156.

(3) محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص140.

(4) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص145، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص80، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص234.

(5) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص80.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

بالنفظ والزرنينخ وترسل على الأعداء⁽¹⁾، وقيل إن هذه الآلة (المنجنيق) أشبه بالمقلاع تقذف منها الحجارة الكبيرة لتدك مواقع العدو⁽²⁾، وفي طرف الذراع الثانى يتدلى ثقل التوازن، هذا ويراعى أن يكون أحد الطرفين قصيراً والآخر طويلاً وتثقل الجهة القصيرة، وتركب في الجهة الطويلة الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقصف⁽³⁾، هذا وقد أفاض المؤرخون في الحديث عن المنجنيقات وأنواعها من أمثالهم «الطرسوسى»، «الحسن بن عبد الله»، صاحب آثار الأول، «أرنبغا الزردكاش» مؤلف الأنيق في المناجيق، هذا وقد تطور المنجنيق إلى آلة حربية معدة لدك الأسوار والقلاع والحصون بالمقذوفات سابقة الذكر، هذا وقد استخدمها العرب والفرنج على نطاق واسع أثناء الحصار⁽⁴⁾.

ويذكر «الطرسوسى» في حديثه عن المنجنيقات أنها مختلفة التركيب والأصناف والأنواع فمنها العربى وهو أتقن مصنوعاتها وأوثق معمولاتها، ومنها التركى، وهو أقلها كلفة وأحصرها مئونة⁽⁵⁾ ثم الفرنجى، ثم يعاين نوع الخشب الجيد الذى يصنع منه، وخاصة خشب الجراسيا (القراسية) وخشب الأرز وما شاكله من الأخشاب التى تمتاز بصلابتها ويتقارب عقدها من بعضها⁽⁶⁾، وكانت ذراع المنجنيق تشد بحبال قوية متينة إلى مؤخرة القاعدة وتجذبها إلى الخلف، وعند الرمي يلف المنجنيقى العمود الخشبى بحبل الذراع فتجذب الذراع إلى الخلف، فيمتد الوتر الذى خلفها إلى نهايته، ثم توضع المواد المراد قذفها فى كفة الذراع، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة فيجذبها الوتر بقوة عند الكماشة فتصدم الذراع بالحائط الخشبى المثبت أمامها بقوة فترمى رميتها القوية⁽⁷⁾.

(1) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص 80.

(2) النويرى، نهاية الأرب، ج 29، ص 162، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 72.

(3) عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص 145، محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص 141.

(4) قتيبة الشهابى، صمود دمشق، ص 81-82، صلاح حسين، منجنيق من الحضرة، مجلة سومر، ص 124، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 302، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 201.

(5) الطرسوسى، التبصرة، ص 16.

(6) الطرسوسى، المرجع السابق، ص 16-18.

(7) عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص 160.

المنجنيق العربي⁽¹⁾

هذا وقد وصف «الطرسوسى» أنواع المنجنوقات، وذكر تفاصيل كل نوع على حدة، فقد تحدث عن المنجنيق العربى فقال «إنه يصنع من الخشب الجيد، ويكون على شكل مثلث متساوى الساقين، فتكون قاعدته دون الضلعين، ويركب في أعلى المثلث آلة توازن الكفتين أو ما يسميها «الخنزيرة»⁽²⁾، ويشد إليها سقف لحماية الرماة من إلحاق الأذى بهم من الأعداء، وفي أحد طرفي الكفة حبل مثبت فيه على مقدار ذراع والطرف الآخر يجعل عند وضع الحجر في الكفة في خطاف حديدى وثيق، وقد جعل هذا الطرف السهم ليخرج منه عندما نفلت الكفة فيقذف الحجر الذى فيه»⁽³⁾.

المنجنيق الفارسى

يتحدث «الطرسوسى» عن المنجنيق الفارسى ويسميه بـ «التركى» أيضاً، وكان ينصب مائلاً ويجعل له قاعدة تمسكه في ربيع القائمة من الأعلى، ويركز في الأرض منفرجاً عن القائمة لتمسكها ويجعل في رأس العمود القائم موضع تركيب في الخنزيرة⁽⁴⁾، وثمة منجنيق فارسى آخر يصفه «الطرسوسى» ويقول: إنه «شكله لى الشيخ «أبو الحسن ابن الأبرقى الإسكندرى» معاصره الذى كثيراً ما أخذ «الطرسوسى» معلوماته عنه»، ويذكر أن معدل قوة هذا المنجنيق يكون جر خمسين رطلاً، وفي أصل قائمته قوس جرخ يجذبه رجل واحد ويرمى عنه، فإذا جذب الرجل السهم حصلت القنابيب (الحبال) التى يجذب بها وتر القوس في قفلة وأشغل الرجل الكفة في حلقة قد ثبتت في قاعدة تمسك السهم وأخذ القوس ورمى بها فأفلت السهم وقذف الحجر⁽⁵⁾، هذا إلى جانب وصفه للمنجنيق الفرنجى، ومن المرجح أن المسلمين تأثروا بالصليبيين في صنعه،

(1) قيل إن أول من صنع المنجنيق جديمة الأبرش، ملك الحيرة على العرب، وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم - عليه السلام - لم يقدرُوا على القرب من النار ليلقوه فيها، اللعين إبليس علمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به في النار، فكان أول منجنيق عمل ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهى اللوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى الحجر، انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص144.

(2) الطرسوسى، التبصرة، ص17.

(3) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويدل استعمال المسلمين لهذا المنجنيق على جملة التأثيرات المتبادلة بين القوتين المتعاديتين⁽¹⁾.

هذا وقد وصف صاحب آثار الأول المنجنيق اللولبي والدائري وقال «وفيها ثقالات من الرصاص إذا دار فيها الرجال رفعت السهم، فإذا تركت رمت فلم تحتج إلى رجال كثيرين، ويتخذ بقسى كبار موتورة، وتجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة في قواعد المنجنيق وفي أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق وتحرك بزيار فيخرج أشد ما يكون، وإذا أراد الرمي بقدر النفط أو العقارب أو ما شاء فعل فإن كان خفيفاً ثقله بالرصاص والأحجار، وإن كان من النفط أو النار اتخذ له كفة من الزرد وحبالاً بسلاسل⁽²⁾، هذا وقد تفنن الصناع إلى حد كبير في صنع المناجيق، ولم يتوقفوا عن تطويرها خاصة المنجنيق الذي يرمى النار، حتى وصل المنجنيق إلى درجة كبيرة من الدقة، والدليل على ذلك أنه ذكر في كتاب «الأنيق في المناجيق»: «إذا أردت أن ترمى بعيداً فإنك تضع الحجر في المنجنيق وترمى به إلى مطلبك، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن إصبع المنجنيق بالزيت، فإن رميت به وبلغت ما تطلب وأردت أبعد من ذلك، فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع وبين الإصبع الحديد قطعة من المشاق وترمى به، فإن بلغت مقصودك فحسن، وإن أردت أبعد منه، فإنك تضع في إصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمى به، فإنك تبلغ مقصدك، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى، فإنك تبلغ ما تطلبه»⁽³⁾.

هذا وقد بلغت صناعة آلة المنجنيق في عهد «صلاح الدين» مستوى جيداً من الدقة والإتقان؛ لأن هذا العصر جربت فيه مختلف صنوف الأسلحة⁽⁴⁾، وحدث لها تطور والدليل على ذلك أنواع المنجنوقات السابق ذكرها التي وصفها «الطرسوسى»⁽⁵⁾.

أنواع المناجيق

(1) مناجيق قذف الحجارة: هي أعظم الآلات الحربية القديمة وأشدّها تأثيراً لا سيما في

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 305.

(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 191.

(3) سعاد ماهر محمد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر 1967م، ص 226، نقلاً عن الأنيق في المناجيق، ورقة رقم 12.

(4) انظر: Parry and Yapp, war teahnology and society in the Middle east نقلاً عن حسين عليوة، السلاح المعدني.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 304.

الحصار، وتشبه من حيث مهمتها مدفعية التدمير⁽¹⁾ في عصرنا هذا، وتقذف هذه المناجيق قطع الحجارة الضخمة (الملاطيس) باتجاه العدو⁽²⁾.

(2) مناجيق قذف السهام: تسمى باسم «قسي الزيار» أيضًا ومفردتها «قوس الزيار»، وقوس الزيار هذا نوع من القوس الكبير الذي يرمى سهما هائل الحجم⁽³⁾.

(3) مناجيق قذف النفط والكرات النارية: وهي مناجيق عادية مزودة بكفة من الزرد أو من صفائح الحديد ومعلقة بالذراع بواسطة سلاسل منعًا من الاحتراق، وكانت مقذوفاتها عبارة عن قدورة مليئة بالنفط توضع في الكفة وترمى على العدو بعد إشعال النار فيها⁽⁴⁾.

(4) مناجيق قذف القنابل: وتشبه مناجيق قذف الحجارة من حيث المبدأ، ولكن القذيفة هنا تكون عبارة عن قنبلة بدلا من الحجر العادي⁽⁵⁾، وأهم أنواع القنابل، قنابل النحاس، قنابل الزجاج، قنابل الغازات، القنابل المضيفة، القنابل الخائقة، القنابل المسيلة للدموع⁽⁶⁾.

(5) مناجيق قذف الأفاعى والعقارب: إن هذا السلاح من أغرب الابتكارات الحربية في ذلك الوقت، حيث كانوا يضعون الأفاعى والعقارب ضمن سلاسل من القش والعيذان أو داخل جرار من الفخار المخرم، ثم يربطون هذه الجرار أو السلاسل بقطع مناسبة من الرصاص لتصبح بالوزن الملائم لقذفها بالمنجنيق فإذا قذفت ووقعت على الأرض تهشمت وخرجت منها الأفاعى والعقارب⁽⁷⁾.

(6) مناجيق الرمم والقاذورات: وهي مناجيق قوية المفعول ذات كفة ضخمة بسلاسل وكانت من أمضى أسلحة الحصار في ذلك الوقت؛ لأنه يمكن بواسطتها قذف الرمم والحيوانات والقاذورات على جند العدو، مما يضايقهم ويمنعهم من أداء واجباتهم بشكل مرض وينشر جميع الأمراض والأوبئة⁽⁸⁾.

(1) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 130، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 58-59.

(2) أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص 26.

(3) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص 26، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 123-138.

(5) إحسان هندی، المرجع السابق، ص 135.

(6) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص 27-28، إحسان هندی، المرجع السابق، ص 136.

(7) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، ص 29، إحسان هندی، الحياة المرجع السابق، ص 138.

(8) أرنبغا الزردكاش، المرجع السابق، الصفحة نفسها، إحسان هندی، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

العرادة⁽¹⁾

هي من أنواع المنجنيقات سميت بـ«العرادة» وقد استعملت لإلقاء الحجارة⁽²⁾، وهي أشبه بالمدفعية الخفيفة⁽³⁾ التي توجه قذائفها نحو مواقع العدو⁽⁴⁾، فاعتبرها المسلمون منجنيقاً صغيراً⁽⁵⁾، فالعرادة أصغر من المنجنيق⁽⁶⁾ تلقى بها الأحجار على مسافات طويلة بعيدة⁽⁷⁾، وفي العصور الأخيرة ألفت كلمة عرادة على عربة المدفع⁽⁸⁾ والعروسك هو المنجنيق الصغير⁽⁹⁾، هذا ومن مميزات أنها صغيرة الحجم يسهل نقلها من مكان لآخر⁽¹⁰⁾ أثناء الحصار⁽¹¹⁾، وقد كانت طريقة نقلها إلى ميدان المعركة أنها كانت تنقل نقلاً كاملاً⁽¹²⁾.

المنجنيق ودوره في حروب الحصار الصليبية

لا نستطيع أن نغفل دور المنجنيق في حروب الحصار الصليبية، حيث كان يحدث فجوة بقوة ضرباته في الأسوار، ينفذ منها الجيش المهاجم، فقد كان بأنواعه السابقة يلعب دوراً مهماً بل جاسماً في الحصار⁽¹³⁾، والأمثلة كثيرة على ذلك منها ما ذكره «ابن الجوزي» و«الحافظ الذهبي»: «أنه في عام (579هـ / 1183م - 580هـ / 1184م) نازل «صلاح الدين» الكرك، ونصب عليها المناجيق فجاءتها نجدات الفرنج (وطلبوا) وأجلبوا، فرأى أن حصارها يطول فتركها»⁽¹⁴⁾.

(1) ذكر صاحب فقه اللغة أن العرادة شبه المنجنيق يرمى به، من عرد الحجر يعرده إذا رماه رمياً بعيداً، انظر حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، ص 617.

(2) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 167، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 234.

(3) عبد الرؤوف عون، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) عبد الرؤوف عون، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(5) إحصان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 132، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 40.

(6) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 62، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 156، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 40، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 401.

(7) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 62.

(8) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 40.

(9) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 95.

(10) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 401.

(11) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 132.

(12) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 306.

(13) أسامة سيد علي، الظهير الشامي، ص 324.

(14) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من خبر، ج 3، ص 79، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 382، سعد المومني، القلاع في الأردن، ص 165.

هذا وقد ذكر «ابن الأثير» أنه في عام 583هـ / 1187م عند فتح بيت المقدس «نصب عليها المناجيق وآلة القتال وتعلق النقابون بالصور وقاتل الفرنج قتالاً شديداً، فلما رأوا أن المسلمين قد ظهروا عليهم سقط في أيديهم وأيقنوا بالخذلان فصاحوا بالأمان»⁽¹⁾، في العام نفسه أيضاً ذكر صاحب مرآة الزمان 583هـ / 1187م «تقدم السلطان إلى طبرية فنصب عليها المناجيق ونقب أسوارها ففتحها يوم الخميس الرابع عشر ربيع الآخر»⁽²⁾.

ويذكر صاحب مفرج الكروب «أن السلطان «صلاح الدين» سار إلى قلعة صفد سنة أربعة وثمانين وخمسة ونصب عليها المنجنقات، وأدام الرمي ليلاً ونهاراً بالحجارة، وكان فتح صفد في الرابع شهر شوال»⁽³⁾، بالإضافة إلى أنه عند فتح حصن صهيون 584هـ / 1188م ذكر «العماد الأصفهاني» قوله عن المنجنقات «وأسقطت حوامل المنجنقات أجنة الصخور وأدامت إليهم المناجيق والجروح والقسي الرمي المتدارك»⁽⁴⁾.

وفي يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأولى سنة ستة وثمانين وخمسة عند حصار عكا ففى ذكر وصول «الكندهرى» إلى عكا نجدة للفرنج وما جدده من آلة الحصار... نصب المناجيق على عكا فحرقها المسلمون ثم نصب منجنقين فأحرقا في أول شعبان، وكان قد أنفق عليها ألف وخمسة دینار، وأسر من الفرنج سبعين في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون»⁽⁵⁾.

وفي أحداث عام 627هـ / 1229م ذكر «النويرى» أن في هذه السنة بعث الملك «الأشرف» صاحب دمشق أخاه الملك «الصالح إسماعيل» إلى بعلبك، فحاصرها ونصب عليها المناجيق ورمها بأحجارها»⁽⁶⁾، وفي عام 646هـ / 1248م رميت حمص بالمناجيق من قبل المصريين بعد أن تملكها الحلييون»⁽⁷⁾.

وسائل الوقاية من المنجنيق

ويمكن القول إن المنجنيق كان أول سلاح في حرب الأسوار وحصار المدن، ولم تكن

(1) مرآة الزمان، ج8، ق1، ص397، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص183، حوادث سنة 583هـ.

(2) مرآة الزمان، ج8، ق1، ص382.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص272.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص241.

(5) النويرى، نهاية الأرب، ج28، ص426-427.

(6) مرآة الزمان، ج8، ق2، ص659، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص162.

(7) الحافظ الذهبى، العبر في خبر من غير، ج3، ص79.

هناك أي حرب أو أي مجال من مجالات القتال إلا وكان هذا السلاح الفتاك بها، ونظرًا لفاعلية المنجنيق، فكر المستولون بأمر الأسلحة في التقليل من فاعليتها والأضرار المختلفة التي يلحقها هذا السلاح، وذلك بالحيلولة بين مقذوفاته وبين الحصون بحفر الخنادق الواسعة وملئها بالمياه لتمنع وصول المنجنوقات إلى أي جزء من أجزاء سور المدينة وإذا استطاع المهاجمون طم الخندق ووصلوا إلى الأسوار، عمد المدافعون عن المدينة إلى رمي المنجنقيين بالسهم من خلال منافذ شرفات حصونهم وقلاعهم، لذا كان القائد المهاجم يضع أمام رماة المنجنيق جنودًا مدرعين يحمون تقدم سير المواكب، ويدهم التروس أو أن المهاجمين يحملون المنجنيق على عربة لها ستائر⁽¹⁾، هذه الستائر تبطل فعل السهم الموجه إليهم من الحصن⁽²⁾، ومن وسائل الوقاية الأخرى من المنجنيق، تغطية الجزء العلوي من السور بالخشب الصلب، الذي لا تفتره الحجارة، كخشب العرعر⁽³⁾ لأن خط رمي المنجنيق يشبه قوسًا شديد الانحناء على نحو ما هو حاصل في قنبلة مدفع «الهاون» الذي هو أقرب المدافع شبهًا بالمنجنيق في سهولة الرمي به وتقوس مرماه، فكانت هذه الأخشاب تحمي السور من حجارته إذا كسى بها⁽⁴⁾.

(1) الستائر عبارة عن جدران من الخشب أو من الحبل المجدولة، يحتمي وراءها المدافعون عن حصن أو سور، وتوضع هذه الجدران أما فوق الأسوار لمنع حجارة المناجيق العدو من الوصول إلى داخل القلعة المحاصرة، أو أمام مرايض المناجيق وذلك للوقاية من أن تصل إليها حجارة المناجيق العدو، هذا وتتخذ هذه الستائر من الجلود واللباد وتبلل بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية والسفن من قذائف النفط، لمزيد من التفاصيل انظر المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص102، حاشية3، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص428، هامش2، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص142، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص31، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص162، انظر عن حفر الخنادق وملئها بالمياه محمود أحمد سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص406، القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص145، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص303 هامش5، العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص158، هامش3، قال عنها الطرسوسي «سترة للرجال الذين يستعصد بهم في جر المنجنيق وما شاكلة من أن يرموا بحجارة منجنيق يقابله فيحمل عنهم مضرتها ويكفيهم سوء إصابتها، وإذا وقع عليهم الحجر بقوته لم يؤثر فيها، وفضته عنها نفصًا قويًا تلقيه به إلى خلفه وتقى من هو تحتها عظيم بليته وشر إصابتها»، انظر ابن أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص30.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص306-307، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص161، نعمان ثابت، الجندي في الدولة العباسية، ص158.

(3) أرنبغا الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص30، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص406.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص307، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص161.

عيوب المنجنيق

هذا ومن عيوب المنجنيق أنه من الصعب استخدامه في الشتاء، إذا اتفق وقوع الأمطار والثلوج، إذ تحدث المقاساة بسبب جر العجل بواسطة الأبقار فالمسافة التي يستغرقها جر البكر (العجلات) على أرض جافة في الأحوال الجوية العادية، تختلف عنها على أرض وحلة سببها سقوط الأمطار⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى أنه من الصعوبة أن يصل المنجنيق إلى ميدان المعركة سواء كان مفككاً أو كاملاً، نظراً لصعوبة الطريق، وعدم تبليطه ليسهل سير العجلات ومرور السابلة عليه، وكذلك لصعوبة العبور على الممرات المائية⁽²⁾، أما الصليبيون فقد كانوا ينقلون معداتهم على عجلات⁽³⁾ ويضعون آلاتهم الحربية عليها سواء كانت الدبابة⁽⁴⁾ أو المناجيق.

آلات الحصار

الدبابة⁽⁵⁾ (البرج)

الدبابة من الآلات الجماعية التي يشترك فيها أكثر من شخص، وهذا نظراً لصعوبة نقلها من مكان إلى آخر وثقلها الشديد، والدبابة من الآلات الهجومية الجماعية، وهي آلة متحركة تتخذ من الخشب السميك⁽⁶⁾ وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في

(1) محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 204.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 306.

(3) يذكر ابن شداد أن الصليبيين قد استعملوا العجلات في نقل قتلاهم أثناء المعارك في ميدان القتال بواسطة العجلات، كذلك حمل الصليبيون الأبراج الثلاثة الهائلة على عجل، ولا شك أن العربة الحاملة لهذه الأبراج كانت ضخمة إلى حد كبير، انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 113، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 146.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 487.

(5) هي آلة قديمة جداً استخدمها المصريون القدماء والآشوريون فاليونان والرومان والفرس والعرب المسلمون، حيث استعملوها في حصار الطائف سنة (8هـ / 629م)، وهي في تركيبها أقل تعقيداً من المنجنيق، وقد كانت الدبابة تستعمل في حرب الأسوار فقط، فهي آلة تتخذ للحرب، وباختراع المنجنيق صار استعماله مصاحباً لاستعمال الدبابة، والدبابة سلاح يشترك مع المنجنيق في القيام بمهمته كما تتعاون المدفعية مع الدبابات الحديثة، لمزيد من التفاصيل انظر الإفصاح في فقه اللغة، ج 1، ص 2، ج 2، ص 617، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، دكتوراه، ص 88، قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 78، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 308، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 169، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 408.

(6) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 198، محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 202.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

الخل⁽¹⁾ لدفع النار⁽²⁾ ووقايتها⁽³⁾ من قذائف النفط والنار المشتعلة⁽⁴⁾، وهي شبه برج متحرك تتكون أحياناً من أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد والنحاس⁽⁵⁾ تتحرك على عجلات خشبية أو حديدية⁽⁶⁾ مستديرة ليسهل دفعها أو سحبها⁽⁷⁾، ويستقر الجنود داخلها في طبقاتها لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار⁽⁸⁾.

أى أنه عند وصول الدبابة إلى الأسوار المراد تدميرها كان المحاربون يصعدون عليها أو يدخلون في جوفها⁽⁹⁾ ويدهم الآلات التي سوف يهدمون بها السور⁽¹⁰⁾، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يستعملون الدبابة في تسلق سور المدينة، أى أنهم جعلوها بمنزلة برج وسلم⁽¹¹⁾ فيصعدون أعلى السور ويدهم النبال والرماح ويرمون بها جنود العدو داخل الحصن أو المدن المحاصرة⁽¹²⁾، هذا وقد وصف «العماد الأصفهاني» و«ابن واصل» دبابة للعدو، «كان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة، قد أظهرت لها في الشر غائلة، ولها أربعة طباق، شدها على الارتباط باق... الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس... وفي طباقها سبع ضوار...

(1) أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 323، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 240، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 202، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 13، سليمان عواد، الجيش والقتال، ص 408.

(2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 191، أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 323، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 171، صلاح حسين، منجنيق من الحضرة، مجلة سومر، ص 123، هامش 13، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 24-25، سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 408.

(3) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 315.

(4) أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 323.

(5) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 62-63، أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 320، العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 105، هامش 4.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع السابق، الصفحة نفسها، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 143، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 88، أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 320.

(7) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 192، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 198، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 142-143.

(8) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 315، حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 63، أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 322، عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 145.

(9) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 143.

(10) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 24-25.

(11) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 89.

(12) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 308-309.

وكانت الدبابة على العجل، ليقربوا بتقريبها أسباب الأجل، فباتت القلوب منها على الوجل»⁽¹⁾.

– ملحقات الدبابة

(أ) الكبش⁽²⁾

كان الكبش يركب على كتلة خشبية ضخمة مستديرة يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار أو أكثر وتتدلى هذه الكتلة من سطح الدبابة محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب القلعة قربوا منه الدبابة، ثم وقفوا داخلها ويأخذون في أرجحة رأس الكبش⁽³⁾ للخلف والأمام، وهو معلق في السلاسل ويصدمون به السور أو غيره عدة مرات، حتى تنهدم وتنهار حجارته⁽⁴⁾ فيعملون على ثقبه وهدمه، أو يدخلون المدينة من بابها بعد أن استطاعوا تهشيمه⁽⁵⁾.

هذا وقد كان يتم تجهيز الكبش من أكبر ساق لأكبر شجرة يمكن أن تقدمها منطقة الصراع، ثم يعلق ذلك الساق بعد أن يوضع في مقدمته ثقل من الحديد، على نطاق وسط عمودين قصيرين ويجر الكبش على عجلات إلى القلعة، ويقوم فريق من الرجال وهم تحت غطاء سقيفة وقائية، بتوجيه الدعامة الخشبية الكبيرة، تجاه موضع في الحائط وقع عليه الاختيار لإحداث الثغرة به⁽⁶⁾، ومما هو جدير بالذكر أن الصليبيين صنعوا كباشاً مخيفة في محاولة منهم فتح عكا، هذا وقد وصف «العماد الكاتب» كبشاً مركباً على دبابة ضخمة بقوله «واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، وفي رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طوله رحمان كالعمودين الغليظين، فكم من سور إذا نطحته

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 487، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 351-352.

(2) لفظ الكباش مفردة وتجمع على كبوش واكبش وهو آلة متصلة بالدبابة لها رأس ضخمة وقرنان تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها وفتح باب الحصون، انظر صلاح حسين، منجنيق من الحضرة، ص 123، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 171، جميل خانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص 146، أرنباغ الزردكاش، الأنيق في المناجيق، تحقيق إحسان هندی، ص 17، هامش 2.

(3) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص 80.

(4) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 147.

(5) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 190، نعمان ثابت، الجندي، ص 185، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 313، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 95.

(6) انظر:

Fedden (Robin), crusades castles, p38, Archer (T.A), kingsford (cil), the crusades, London, 1919, pp352-353.

طحته»⁽¹⁾، هذا إلى جانب أن الدبابة متينة، وكما أشار «الأصفهاني»: «فقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وكملوا لها أسباب الإحكام الشديد ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البأس فلم يبق للنار إليها سبيل ولا للعطب عليها سبيل»⁽²⁾.

وقد وصف «ابن شداد» الدبابة وصفاً شاملاً بكبشها قائلاً «إنها آلة عظيمة مخيفة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك به من الداخل وفيها المقاتلة، حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى «كبشاً»، ينطح بها السور بشدة عظيمة؛ لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها»⁽³⁾، وذكر صاحب آثار الأول عن آلات الحصار «أن الأسوار المحكمة تقابل بالمنجنقات إذا كانت مرتفعة، وإذا كانت مرجلة فبالكبش والدبابات»⁽⁴⁾.

وفي أثناء تأدية الدبابة عملها كان يرافقها الجنود التي كانت مهمتهم تسهيل سير الدبابة، حتى إذا اعترضها خندق وضعوا بعض الأخشاب عليه، فتكون بمنزلة جسر تعبر عليه الدبابة»⁽⁵⁾.

(ب) سلام الحصار

السلام من آلات الحصار وهو يساعد المحاصر على اعتلاء الأسوار والأماكن المرتفعة وفتح مغاليق الحصون»⁽⁶⁾، وهي تصنع من الخشب والحديد⁽⁷⁾ بارتفاع السور وتسند إليه من

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 432، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 164، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 48.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 432، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 164.

(3) ابن شداد، النوادر، ص 140، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 162، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 334.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 188.

(5) الحسن بن عبد الله، المرجع السابق، ص 192، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 145، حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 63، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 199.

(6) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 173، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 89.

(7) كانت سلام الحصار تصنع أول الأمر من الجبال التي تنتهي بخطافات يسهل تعليقها بحجارة السور ثم أصبحت تصنع من الجبال والخشب معاً، ثم من الخشب والحديد في العصور المتأخرة، كما كانت تزود في بعض الأحيان بعدة عجلات أو بكر ليس نقلها من مكان لآخر، انظر إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 149، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 89، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 411.

مكان آمن فيتسلقه المقاتلون ويقتحمه المدافعون والرماة، وكان للسلم في الحملات الصليبية أهمية تعادل أهمية الدبابة أو المنجنيق، إذ يعتبر سلم تسلق الأسوار (السلم المتحركة) أبسط طريقة للهجوم المباشر، بيد أنه يكلف الجيش المحاصر العديد من الأرواح، إذ يسهل بعدد ملائم من حامية القلعة (الحصن) صد الهجوم ولكن إذا كانت الهجمات مكثفة متوالية، فإنها تعطى أملاً في اقتحام الحصن، وإذا كان الغرض الرئيسي من السلم المتحرك، هو وصول الجيش المهاجم إلى مستوى حاجز شرفة الحصن، ففي الإمكان الاستعاضة عنه بطريقة معقدة، تتمثل في تكديس الأتربة على جدار السور، حتى يتكون منحدر كبير تستطيع القوة المهاجمة أن تتقدم فوقه⁽¹⁾.

عيوب هذه السالم

على أن هذا الأسلوب يعرض الجند المتقدمين على المنحدر الترابي لخط النار المدمرة التي تلقى عليهم من شرفات الحصن، مما يؤدي إلى كوارث فادحة، بالرغم من أن الجيش المهاجم كان يستعين بالسواتر النقالة المغطاة بجلد الحيوان⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى أن السلم المتحرك (سالم الحصار) عرضة للكسر أحياناً⁽³⁾، وقد استخدمت هذه السالم في الحروب الصليبية أيام السلطان «صلاح الدين الأيوبي».

اهتم المسلمون بالسالم فطوروها وأدخلوا عليها التحسينات، فصارت تصنع على قاعدة خشبية واسعة تساعد على ثباته، وأحياناً كانت تصنع من سلمين يلتقيان في ذروتها يدعم كل منهما الآخر، كما أدخلوا على القاعدة بكرات من الخشب أو عجلات ثابتة ليسهل نقلها من موضع إلى آخر⁽⁴⁾، كما أكثروا من السالم في حملاتهم لاسترداد ما احتله الفرنج من المدن والحصون⁽⁵⁾.

(1) انظر:

Fedden, crusades castles, p37,

انظر أيضاً أسامة أحمد، الظهير الشامي، ص 323.

(2) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 202.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 353، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 162، ابن شداد، النوادر، ص 141.

(4) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 149.

(5) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 77.

(ج) الضبر⁽¹⁾، السفود⁽²⁾

هذا وقد استعمل الجيش الأيوبي سلاح الدبابة منذ أن بدأ بهجومه على المدن الحصينة، والقلاع، هذا بالإضافة إلى أن الصليبيين استعملوه في حصارهم الطويل لمدينة عكا، التي دافع عنها المسلمون بكل ما عندهم، فقد ذكر «ابن كثير»: «أن الصليبيين نصبوا ثلاثة أبراج مصنوعة من الخشب والحديد على عكا، ومغطاة بالجلود ومسقاة بالخل، وذلك حتى لا تحترق، وقد كان يسع كل منها خمسمائة مقاتل، ومركب على عجل بحيث يديرونها إلى الاتجاه المطلوب»⁽³⁾، هناك كثير من الأمثلة توضح استخدام الدبابة منها.

أنه قد استعملت الدبابة من جانب الصليبيين أثناء حصارها، فذكر «سبط ابن الجوزي» أن «ابن ملك الألمان (فريدريك بارباروسا) أعد دبابة عظيمة دخل تحتها ألوف الناس لها رأس عظيمة برقبة طويلة إذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته، إلا أن المسلمين تمكنوا من حرق هذه الدبابة الهائلة»⁽⁴⁾، وهناك أيضًا معركة حدثت في رمضان 586هـ / 1190م، أوقع المسلمون الهزيمة بالعدو، وهجموا على كبشهم وألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حرقه هرب المقاتلين عنه... وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل وسرت نار الكبش بوقتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديد المصنوعة في السلاسل فسحبوه، وهو يشتعل حتى حصلوا عندهم في البلد، وكان مركبًا من آلات هائلة عظيمة وألقوا الماء عليه حتى برد حديده، وبلغنا كما يقول «ابن شداد» من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد فكان

(1) هناك من يذكر أن الدبابة والضبر شيء واحد، إذ أن الضبر يصنع من الخشب المغطى بالجلد فيمكن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها وهي أشبه بالسيارات المدرعة اليوم، انظر تاج العروس، الإمام اللغوي، محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنى الواسطى الزبيدى الحنفى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج3، ص347، الإفصاح في فقه اللغة، ج1، ص617، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص143، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص38.

(2) السفود أو سفور، هي حديدة ذات شعب معقفة يشوى بها اللحم، وهي مصنوعة من الحديد أو الفولاذ، وهي تختلف عن الكبش في أن رأسها محدد، على شكل السكة التي يجرث بها، في حين أن رأس الكبش مدور، وهذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها، وقيل إن السفود ينطح به فيهدم ما يلاقيه وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام، وذكر ابن واصل أنه في عام 586هـ في حرق برج الذبان «وسرت نار الكبش إلى السفود، فاحترق حريقًا شنيعًا»، لمزيد من التفاصيل انظر ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص203، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص334-337، ابن شداد، النوادر، ص141، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص162، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص89.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335.

(4) ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص404.

مائة قنطار بالشامى، ثم أنفذ رأس الكبش إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهده «ابن شداد»، وقال إن شكله على شكل السفود الذى يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطج به فيهدم ما يلاقه، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام⁽¹⁾.

وقد زاد اعتماد المسلمين على استخدام الدبابة في عمليات حصار القلاع والحصون وخاصة في مرحلة الاقتحام، حيث نجدهم يمهدون أولاً برمى المناجيق ثم يوعزون للدبابة بالاقتحام⁽²⁾، وقد كان للبرج الصليبي نصيب من الوصف، حيث ذكر أنه مكون من الأخشاب وقطع الحديد فكانت كأنها أطواد تشرف على ارتفاع سور البلد، كذلك ووصف بعض المؤرخون المسلمون البرج بأنه يتكون من خمس طبقات، وفي نهايته فناء متسع يستطيع حمل ما يزيد عن خمسمائة رجل من المقاتلة⁽³⁾.

مساوى استخدام (الدبابة) الأبراج

ومن مساوى استخدام هذه الأبراج في القتال ما تتطلبه من نفقات باهظة في صنعها، بالإضافة إلى عدم دراية الصليبيين بصنعها، كما لم يكن في الإمكان بناء العديد من الأبراج طول الواحد منها ما بين أربعين وستين ذراعاً، وثمة صعوبة أخرى تمثلت في كيفية إحضار برج الحصار وتقريبه من الحصن، إذ كان المحاصرون يحفرون الخنادق حول الحصون لمنع تقدم الأبراج، وكان على الجيوش المهاجمة ردم جزء كبير من الخندق وهو عمل شاق مرهق يتطلب كثيراً من الوقت والجهد ويؤثر في إنجاز المهام العسكرية بسرعة⁽⁴⁾.

أيضاً من مساوى تلك الأبراج أنها لا تستطيع العمل إلا على أرض مستوية، بالإضافة إلى أن المدافعين يمكنهم استكشافها بسهولة⁽⁵⁾.

النار اليونانية⁽⁶⁾

لا شك أن للحروب الصليبية الدور الكبير فيما هو جديد من حيل الحروب وتطورها بما

(1) النويرى، نهاية الأرب، ص 428-429، ابن شداد، النوادر، ص 142، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 163.

(2) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص 64-65.

(3) انظر: Fedden, op.cit, p38.

(4) أسامة أحمد، الظهير الشامى، ص 320.

(5) أسامة أحمد، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) النار اليونانية هي سائل سريع الالتهاب، يزيد اشتعاله بالتماس مع الهواء ولا ينطفئ حتى بإلقاء الماء عليه، انظر أرنباغ الزردكاش، الأنيق في المناجيق، هامش 3، ص 17، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 152.

فيها من طرق الهدم ووضع الألغام واستخدام أنواع السهام والمناجيق والكبوش والاعتقاد على أنواع مختلفة من أسلحة الدفع القوية والمواد القابلة للاشتعال⁽¹⁾، وقد ورد في معظم كتب المؤرخين أن أول من استعمل النار الإغريقية هم المشارقة وينسب اختراعها إلى رجل مصري⁽²⁾ أو سوري⁽³⁾ يسمى «كالينكيوس»⁽⁴⁾ skoniCalli عاش في بعلبك في منتصف القرن السابع الميلادي، وقد استخدمه المشارقة في حروبهم⁽⁵⁾.

مكونات النار الإغريقية

تتكون هذه النار من مواد سريعة الاشتعال ممزوجة مع بعضها البعض، مثل الكبريت⁽⁶⁾ والنفط⁽⁷⁾ وبعض الراتنجات⁽⁸⁾ والأدهان في شكل سائل يطلقونه من أسطوانة نحاسية⁽⁹⁾ مستطيلة تسمى «زراقات»⁽¹⁰⁾ أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع الكتان المشبع بالنفط⁽¹¹⁾، وقد اشتهرت هذه القذائف بقسوة فعلها وأضرارها البليغة لما

- (1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 291.
- (2) البستاني، موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى 1418هـ / 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج 9، ص 75، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 231.
- (3) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 152، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 59، أمين الخولي، الجندية والسلم، ص 33، جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقي، قدم له وزوده عبد الرحمن زكي، مكتبة النهضة المصرية 1956م، ص 55، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 192، د/ جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي، على مصر، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط 1 1969م، ص 157، قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (4) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 80، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 96، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 59، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 152.
- (5) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (6) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص 73، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 96، قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (7) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (8) مادة صمغية قابلة للالتهاب تنضجها بعض الأشجار مثل الصنوبر والبطم والأرزية والمصطقي، انظر الخوارزمي، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة 1342هـ، ص 149، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 291، قيل أيضاً إن الراتنجات صمغ الصنوبر وهو راتنج بالفارسية، انظر أدب شير، الألفاظ الفارسية، ص 70.
- (9) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 59، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 96.
- (10) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 152.
- (11) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 59، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 192، نعمان ثابت، الجندية والسلم، ص 146.

الفصل الرابع: أدوات القتال في العصر الأيوبي

لها من الفعل وقوة الاشتعال في الماء والهواء⁽¹⁾، ويقال إنها إذا اشتعلت أحرقت الحديد والحجر⁽²⁾ ولا تطفئ إلا باللبود المبللة بالخل⁽³⁾ والشب والنطرون⁽⁴⁾، أما الماء فإنه يزيد لها اشتعالاً، وقد اقتبس الإغريق من المشاركة هذه النار، ثم أخذها العرب المسلمون من الإغريق⁽⁵⁾ بعد أن اطلعوا على سرها وأطلقوا عليها اسم «النار الإغريقية»، أما عن الآلة التي يرمى بها النفط والمحروقات فكانت تسمى «النفاطة»⁽⁶⁾ أو «الزراقة»⁽⁷⁾، إلا أنهم ساروا يطلقون هذه المواد بالسهم أو المجانيق؛ لأنها ترمى إلى مسافات أبعد، ويكون تهديفها صحيحاً وأضبط، أما قاذفها يسمى بـ «النفاط»⁽⁸⁾ أو «الزراق»، وكان يتم ارتداء ثوب خاص غير قابل للاشتعال كان يطلق عليه «لباس النفاطين»⁽⁹⁾، كما كانت هناك تجافيف أي دروع واقية يغطي بها الفرس التي تحمل النفاط كي لا تتضرر من قطرات النفط التي تسقط عليها⁽¹⁰⁾، وقد كانت النار الإغريقية شديدة النكاية بالصليبيين الذين كانوا يجهلون استعمالها، فاقصر استعمالها، على الجانب الإسلامي⁽¹¹⁾.

هذا وقد ذكر Oman تعريب أن النار الإغريقية تبدو قليلة الاستعمال جداً في الغرب فلم

- (1) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (2) البستاني، دائرة المعارف، ج 9، ص 705، وهي بهذا تشبه زجاجات مولوتوف (كوكتيل مولوتوف) وهي زجاجات حارقة استعملت في الحرب العالمية الثانية ضد آليات ودبابات الألمان، وما زالت تستعمل إلى اليوم، انظر قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (3) محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص 80، قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص 80.
- (4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 197.
- (5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 292.
- (6) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 60.
- (7) هي آلة من النحاس لقذف النفط، انظر الفتح القسي، هامش 5، ص 105، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 150.
- (8) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 151، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 96، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 30.
- (9) قيل إن مخترع هذا الثوب مسلم اسمه معد بن يزيد ارتداه عندما اقتحم مدينة هيرقلية بعد وقوعها في يد جيش هارون الرشيد، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 151، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 60، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 96.
- (10) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 151.
- (11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 292.

يكونوا متأكدين من تركيبها⁽¹⁾، وقد استمر جهلهم إلى ما بعد انتهاء العهد الأيوبي، وقد وصف الفارسن «دى جوانفيل» في كتابه «ذكريات عن الحروب الصليبية» النار الإغريقية التي كان المسلمون يرمون بها الجيش الصليبي في معركة دمياط (المنصورة)⁽²⁾ (646هـ / 1248م)، التي كانت في عهد الملك الأيوبي «الصالح نجم الدين أيوب»⁽³⁾، وتحدث هذا الكاتب عن الذعر الذي استولى على الصليبيين... حتى الملك «لويس التاسع» نفسه لم يكن أقل جزعاً من جيشه.

وقد تحدثت «أنا كوميننا» ابنة الإمبراطور البيزنطي «الكسيوس كومنينوس» الذي حدثت في عهده الحرب الصليبية الأولى، في كتابها عن تاريخ حياة أبيها فصورتها حين تعلقو في الجو وحين تشتعل ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوي الناس شيئاً، وتركهم مع متاعهم رماداً تذروه الرياح...

هذا وقد أشارت الأميرة إلى تركيبها الذي يشبه التركيب الذي أورده «الطرسوسي»، وقالت إن هذا المزيج الناري يعبأ في أنابيب، ويقذف على العدو، فيصلبه ناراً حامية، إذ ينفجر بقوة الاصطدام، فيندفع منها لهيب لا يمكن لمخلوق أن يخمده، وتنتشر شرارته في كل جانب فتجعل ما جواليها أتوناً متلظياً⁽⁴⁾ فكأنها جهنم وبئس المصير⁽⁵⁾.

وقد ذكر كل من «العماد الأصفهاني» و«جوانفيل» ما يطول شرحه عن هذه النار التي لها صوت كصوت الرعد القاصف، وحينما تندلع النار في الأبراج الخشبية، فإن ألسنتها تمتد وتصل إلى أي مكان، ويذكر «العماد الكاتب» أن المسلمين حين بدعوا بقذف الأبراج التي نصبها الصليبيون على سور عكا، بقدرور تحوى المواد الحارقة، أصابتهم الدهشة «من البلل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل»⁽⁶⁾، وقد بلغت صناعة هذا السلاح المهم مستوى متقدماً، حيث كانت تكبس في أواني فخارية وتوضع في كفة المنجنيق لرميها على العدو، وقد تم التوصل إلى نوع من القنابل أو قوارير النفط التي هي قدرور يجعل فيها النفط ويرمى بها على

Oman (c . w), Op. Cit, P72.

(1) انظر:

(2) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 153.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 293.

(4) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي، الإسكندرية 1969م، هامش 2، ص 156.

(5) ديفيز (دوين جونز)، فرنسا الجريجة على ضفاف النيل، ترجمة زكي شنودة، ص 75-76.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 371.

الحصون والقلاع للإحراق⁽¹⁾، على أن القوارير في اللغة اسم للزجاج وإنما استعيرت في آلات مجازاً⁽²⁾.

تذكر بعض المصادر مثل «ابن كثير» وغيره «أن الملك «عز الدين مسعود بن مودود» - صاحب الموصل - أرسل أحمالاً من النفط إلى السلطان «صلاح الدين» في عام (585هـ/ 1189م)، مع أنواع من الأسلحة الفاخرة كجزء من المعونة التي كانت الموصل تبعثها إلى السلطان في جهاده»⁽³⁾.

«الطرسوسى» يتحدث عن طرق تحضير النار الإغريقية:

في موضع ما يتحدث «الطرسوسى» عن سر تحضير النار فيقول «إن تحضير النار كان من الأسرار التي ينبغي الحيلولة دون تسربها إلى العدو، وجعلها مستوراً إلا لمن يرضونه من الفضلاء (العلماء)»⁽⁴⁾، يتحدث «الطرسوسى» عن طرق تحضير المواد الحارقة «المكونة من نפט وكبريت ومسحوق نورة غير مطفأة وزيت الأترج⁽⁵⁾ والكتان، ودقيق التبن ونخالة الحنطة ودهن البلسان⁽⁶⁾ الراتينج⁽⁷⁾ وقشر التوت وقشر البيض، وتمزج هذه المواد (تخلط) بطرق

(1) استخدمت قوارير النفط الحارقة في حروب الأيوبيين الخارجية، واعتبرها القلقشندى إحدى آلات الحصار وأسلحته، والقوارير في اللغة اسم لأنية من زجاج واستعير اللفظ لأنية النفط مجازاً، وتتخذ قارورة النفط شكل رمانة مدبية قليلاً من أسفل ولها فوهة ضيقة في أعلاها لا يتجاوز قطرها 3سم، وكانت تصنع في الغالب من فخار سميك، وكانت تملأ بمواد قابلة للاشتعال أهمها النفط والصبر ونشارة الخشب وزرنيخ وبنور القرطم أو القطن أو السمسم، وتوضع هذه المواد في القارورة على هيئة مسحوق أو على هيئة سائل يتم مزجه وطبخه على النار، ثم يصفى ويبرد ويوضع في القوارير، وتزود القارورة بفتيل وعند إلقائها يشعل الفتيل ثم ترمى على الهدف ويؤدي انكسارها عنده إلى اشتعال النار فيه ولا يمكن إطفائها إلا بالخل، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145، أبو الفرج العشي، الفخار غير المطلق من العهود العربية الإسلامية في المتحف الوطنى بدمشق، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 1، 1961م، ص150، حسين عليوة، السلاح المعدنى، دكتوراه، ص62، نقلاً عن محمد بن منكل، كتاب الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب (مخطوط مكتبة أياصوفيا بإستانبول، مؤرخ سنة 757هـ رقم 3086، ص165)، محمود أحمد درويش، الاستحكامات الحربية، ص81.

(2) القلقشندى، صبح الأعشى، ج2، ص145.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص350، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص307، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص148، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335، حوادث سنة 586هـ.

(4) الطرسوسى، التبصرة، ص23.

(5) الأترج، من جنس الليمون، وتسميه العامة الكبار، ومذاقه مر، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص295.

(6) البلسان، شجر له زهر أبيض بهيئة العناقيد يستخرج منه دهن عطر، وهو من فصيلة البخوريات وكان كثير الوجود في مصر، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص295، هامش 2.

(7) الراتينج، صمغ من شجر صنوبرى، محسن حسين، الجيش الأيوبي، هامش 4، ص295.

خاصة وأوزان معينة وهذا الخليط المركب له قوة هائلة في الإحراق، ويوضع في قرعة ويركب عليه الأنبيق (آلة التقطير) وتؤخذ وصلة (قطعة قماش) وتوقد تحته نار قوية إلى أن يقطر جميعه، ثم يؤخذ الزيت القاطر وتضاف كمية أخرى من مسحوق نورة غير مطفأة وتضاف إلى الزيت، ويضاف إليه أيضًا ربع مقدار من النفط، ويستعمل في أنه يحرق إحراقًا قويًا لا مثيل له»⁽¹⁾.

وقال تؤخذ أترج صغير، ويقشر قشرة الأعلى ويترك إلى أن يذبل ويعصر زيتته، ثم يطبخ على النار لمرات عديدة، ويضاف إليه دهن اللسان ويستعمل، فإنه من العجائب⁽²⁾، أضف إلى ذلك أن هذه النار «كلما أصابها الماء أو التراب ازدادت وقودا»⁽³⁾، فقد كان هذا دليلاً على مدى التطور الحاصل في تركيب النار، بل إنهم أوجدوا مزيجاً يشتعل ويرمى لحرق المراكب فكان يمشى على الماء دون أن تنطفئ ناره، هذا وقد استعملها العرب المسلمون في بعض التراكيب، هذا ولا ننسى أن نذكر أنهم اكتشفوا مواد تستعمل في طلاء الأجسام دون احتراقها فكانوا يأخذون ملابس وقاية الجسم من النار (التجافيف)⁽⁴⁾.

استعمال النار الإغريقية في الجيش الأيوبي

استعمل الجيش الأيوبي النار في مناسبات عديدة سواء في قذفهم الحصون والمدن التي يحتلها الصليبيون أو في دفاعهم عن مدينة عكا وحرقتهم مناجيق العدو وأبراجه⁽⁵⁾، وأخطر ما فعله الجيش الأيوبي في حروبه استخدام هذه النار في حرق دبابة ابن ملك الألمان وقد دخل تحتها ألوف الناس، وكان لها رأس عظيم برقبة طويلة⁽⁶⁾، هذا وقد كان للإفرنج ثلاثة أبراج من الخشب والحديد وألبسوها جلود البقر المسقاة بالخل والخمر لئلا تعمل فيها النار وطموا خندق عكا⁽⁷⁾ وسحبوا الأبراج على العجل إلى السور فأقبلت مثل الجبال وأشرفت على البلد وفي كل برج خمسمائة مقاتل⁽⁸⁾.

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص 20.

(2) عن الطرق الأخرى لتحضير النار الإغريقية، انظر الطرسوسى، التبصرة، ص 20-23، فهناك أربع وعشرون طريقة لتحضير النار الإغريقية لا نستطيع الإسهاب فيها.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص 23.

(4) عن التجافيف انظر أغطية الجسم من هذا الفصل.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 298.

(6) الجوزى، المرجع السابق، ج 8، ق 1، ص 404.

(7) الجوزى، المرجع السابق، ج 8، ق 1، ص 402.

(8) الجوزى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وفي ربيع الأول عام 586هـ / 1190م، أحرقت هذه النار أبراج العدو الثلاثة المخيفة التي نصبوها على أسوار عكا، وذلك بالمادة التي أحضرها وركبها «ابن عريف النحاسين الدمشقي»⁽¹⁾، وما جلبه من أوعية النفط التي هيأها لإحراقها⁽²⁾، هذا وقد سيلم «الدمشقي» تركيبة النفط إلى المسؤولين عن المنجنيق، وطلب منهم رمي أحدها إلى البرج الأول فالتهمت فيه النيران⁽³⁾، ثم قذفوا بوعاء ثان على طبقة البرج الوسطى، فضج المسلمون بالتكبير والتهليل⁽⁴⁾ وانتقل وعاء آخر إلى الثالث فأحرقه⁽⁵⁾، وذكر «الأصفهاني» في ذلك قائلاً «وما كان ذلك بصنعه منه بل لأن الله وفقه، وما زالت تشرق الثالثة وتتقد اتقاداً، حتى عاد جمرها رماداً، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الأرض سواداً، واحترقت المناجيق والستائر التي كانت بقربها»⁽⁶⁾، كل هذا والفرنجة يتعجبون ويفزعون ولا يدرون ما وراء هذه الشعلة، وبعد ذلك أطلقوا النار على البرج من طرفيه الأدنى والأعلى، فقد كانت هذه النار تحرق البرج بأكمله ولا ينجو منه أحد الصليبيين فيحترقون بسيوفهم ودروعهم وينقلب البرج عليهم كالجحيم⁽⁷⁾، وفي أحداث سنة 614هـ / 1217م في ذكر قتال الفرنج عند الطور ذكر «ابن الجوزي»: «قاتلهم المسلمون قتالاً لم يجر في الإسلام مثله، ودخلت رماح الفرنج من المرامي من كل ناحية فضرب بعض الزرايين السلم بالنفط فأحرقه»⁽⁸⁾.

الأسلحة الدفاعية في الجيش العربي (أغطية الجسم والرأس):

الأسلحة الدفاعية هي أسلحة وقاية الجسم، وهي التي يضعها الجندي على جسده حتى

(1) ابن عريف النحاسين هو شاب نحاسي من دمشق يعرف بعلى بن عريف النحاسين، والتزم بإحراقها فأخذ النفط الأبيض وخلطه بأدوية يعرفها هو وعلى ذلك في ثلاثة قدور من نحاس حتى صار نار تتأجج ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا فاحترقت الأبرجة الثلاثة، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص335، حوادث سنة 586هـ الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص402، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9، حوادث سنة 586هـ ابن شداد، النوادر، ص120-121، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص316.

(5) ابن واصل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص371.

(7) ابن شداد، النوادر، ص121، الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص402، العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص37، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335.

(8) الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص584.

يقى بها جسده ويتفادى الإصابات من ضربات العدو، وهى الأسلحة التى يمكن أن نسميها «الأسلحة الدفاعية».

أولاً: أغطية الرأس

هناك نوعان من الأغطية التى كانت تلبس على الرأس لوقايتها⁽¹⁾ وهى المغفر والبيضة:

المغفر⁽²⁾

هو عبارة عن زرد أو حلقات الدرع ينسج على قدر الرأس⁽³⁾ وهو نسيج من الحديد⁽⁴⁾ ويتدلى جزء منه على الوجه لحمايته، ويكون للمغفر فتحة أمام العينين⁽⁵⁾ ويلبس المغفر تحت القلنسوة⁽⁶⁾ (البيضة)، فى الحرب لحماية الرأس⁽⁷⁾ والمغفر عادة يكون متصلاً بالجوشن نفسها⁽⁸⁾.

البيضة⁽⁹⁾

وهى من الأسلحة الدفاعية⁽¹⁰⁾ وهى تستخدم لوقاية الرأس⁽¹¹⁾، وهى عادة تكون فوق

(1) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 92.

(2) المغفر بكسر الميم، وهو كالبيضة إلا أن فيه أطراف مسدولة على قفا اللابس وأذنيه، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً وقد تكون من زرد أيضاً، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج 2، ص 142، ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 72، وقيل فى موضع آخر الغفارة بالكسر زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس يحمى الرأس «فلولا المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله»، انظر أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 368، حاشية 1، النويرى، نهاية الأرب، ج 28، ص 380، هامش 5.

(3) الإفصاح فى فقه اللغة، ج 1، ط 2، ص 615.

(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، ص 385.

(5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 86، هامش 4، النويرى، نهاية الأرب، ج 28، ص 380، هامش 5، ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 72.

(7) النويرى، نهاية الأرب، ج 28، هامش 5.

(8) القلقشندى، صبح الأعشى، ج 2، ص 142، عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص 178، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 65.

(9) سميت البيضة بهذا الاسم لأنها على شكل بيضة النعام، وتجمع على بيضة ويقال ابتاض الرجل أى لبس البيضة، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 393-394، 396، تاج العروس، ج 5، ص 11، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 2، ص 142.

(10) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 92.

(11) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المغفر ويضعها المقاتل على رأسه كغطاء من الحديد أو القولاذ⁽¹⁾ أشبه بالخوذة⁽²⁾ وعلى البيضة تلبس العمامة أو القلنسوة⁽³⁾.

ومن أسماء أجزاء البيضة، سابغ⁽⁴⁾ وقونس⁽⁵⁾ وموائمة⁽⁶⁾ ويقال للبيضة أيضًا خوذة، وهي غطاء الرأس للجنود وقوادهم، حيث كان الفرسان يتحصنون بها ضد ضربات عدوهم فوق الرأس بلبس الخوذات، وكان النوع المبكر من الخوذة الإسلامية عبارة عن قلنسوة متناسبة الطول مخروطية الشكل⁽⁷⁾.

ثانيًا: أغطية الجسم

الدرع⁽⁸⁾

ذكر «القلقشندی» أن الدرع هو جبة من الزرد⁽⁹⁾ المنسوج يلبسها المقاتل في الحرب لتغطية

(1) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 184، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 384.
(2) هي بيضة الحديد التي تغطي الرأس والقفا ويسمى مقدمها القونس ومؤخرها الدائرة، انظر إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 63-64، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 178.

(3) تاج العروس، ج 5، ص 11.

(4) السابغ هو الذي يستر العنق، انظر النويري، نهاية الأرب، ج 6، ص 240-241.

(5) القونس في اللغة مقدم الرأس وقونس البيضة من السلاح مقدمها وقيل أعلاها أو السنبك أو الحديد الطويلة التي كانت تعلق جمجمة البيضة، وربما أطلق القونس على أحد أنواع الخوذ من باب تعميم اسم الجزء على الكل، انظر لسان العرب، ج 8، ص 66-67، حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 346، هامش 3، ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 73.

(6) من المناسبة أو الموافقة، والموام يعني راس، وكانت اللفظة تطلق على البيضة التي لا جمجمة لها أي التي لا ترتفع فوق الرأس، وإنما تتخذ هي شكل الرأس نفسه كالطاقية مثلاً، ومع هذا فإن لفظ الخوذة كالبيضة والمغفر والقونس والموائمة، انظر لسان العرب، ج 8، ص 67، ج 16، ص 113-114، حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 346.

(7) أبو الحمد محمود محمد فرغلي، تصاویر المخطوطات في عصر الأيوبيين، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، القاهرة 1401هـ / 1981م، ص 209.

(8) الدرع في اللغة لبوس الحديد تذكر وتؤنث والجمع أدرع وأدراع ودروع، وأدرع أو تدرع بالدرع أي لبسه ويقال للدرع أيضًا زرد أو زردية، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 435، ابن سيده، المحكم، ج 2، ص 7، ابن سيده، علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، الطبعة الأولى 1958م، مطبعة البابي، ج 2، ص 7.

(9) الزرد هو حلق الدرع الذي يتداخل بعضه في بعض مكوناً الدرع المزرودة والزراد صانعتها، ويقال إن الزاي حلت محل السين في السرد والسراد والسرد هو ثقب الحلقة والسراد صانعتها، وهو ثوب ينسج من الحديد يلبس في الحرب وقاية من سلاح العدو، تعريب زره الذي بمعناه وزوخ لغة فارسية، والدرع لغة في الزرد وقالوا فيها زرد وزردية وزراد ودرع وادرع وتدرع ومنه زرخ بالتركية، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 177، أدى شير، الألفاظ الفارسية، ص 77.

الصدر والظهر ونصف الذراعين تقريباً، وذلك لوقاية مرتديها من ضربات السيوف وطعنات الرماح⁽¹⁾ وتأثير السهام⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى أن الدرع⁽³⁾ غطاء واق لأجزاء من جسم الخيل⁽⁴⁾، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فكرة الدرع مقبسة من الدروع الطبيعية التي تكسو أجساد بعض الحيوانات كالسلاحف وما إليها⁽⁵⁾، هذا وقد أخبر الله - تعالى - عن داود - عليه السلام - أنه ألين له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: 11]، وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80]، ولذلك تنسب الدروع القائمة إلى نسيج داود - عليه السلام⁽⁶⁾، هذا ويعتبر الدرع السلاح الرئيسي للدفاع، بالإضافة إلى أنه من أهم وسائل الوقاية للمقاتل⁽⁷⁾.

سأل علي - رضي الله عنه - أعرابياً عن سبب لبس الدرع فأجاب أقى نفسه وأثبت به جناني وأقوى قلبى⁽⁸⁾، هذا وقد حذر «الحسن بن عبد الله» أن يضرب المقاتل بسيفه درع خصمه فيقول «ولا تضرب الخصم إلا في المكان الذي لا سلاح فيه، وعليك بالأطراف، فقليل الجراح فيها كثير، ولا تضع الضرب في الدرق أو التروس، فربما نبا السيف أو نشب أو التوى»⁽⁹⁾.

وترجع أهمية الدرع الوظيفية إلى كونه رداءً حربيًا كان يلبسه المحارب طوال اشتراكه في القتال وفي الحراسة أو عند خروجه في المواقب المختلفة، ولذا تميز الدرع بملازمته للمحارب، بمعنى عدم إمكانه الاستغناء عنه في وقت القتال، إذ أنه من الممكن مثلاً أن يستغنى المحارب عن ترسه، ويكتفى بالدرع الذي يرتديه، وعلى الرغم من تعدد أنواع

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص142.

(2) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص61.

(3) لم يقتن الدروع من العرب غالباً إلا الفرسان، وهي من صنع الروم أو الفرس على الغالب، انظر إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص61، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص195.

(4) قتيبة الشهابي، صمود دمشق، ص69، 80.

(5) قتيبة الشهابي، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص142.

(7) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص370.

(8) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص370-371.

(9) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص161.

الدروع فإنها جميعاً كانت تقوم بوظيفة واحدة، وهى وقاية المحارب من ضربات خصمه⁽¹⁾.

مكونات الدروع الكاملة (المركبة)

هذا ومن مكونات الدروع الكاملة (المركبة) الجوشن الذى يقى الصدر، البيضة أو الخوذة، المغفر وهى الأجزاء التى تقى الرأس وقد سبق الحديث عنها، ثم أجزاء أخرى لوقاية الساعدين والساقين والكفين⁽²⁾ ولكل منها اسم خاص⁽³⁾، ويطلق على الدروع كلمة «لبوس»، وكلمة «لاءمه»⁽⁴⁾.

الجوشن⁽⁵⁾

فهو عبارة عن نسيج من حلقات حديدية معدنية⁽⁶⁾ رفيعة⁽⁷⁾ تشبه فى نسيجها إلى حد ما «الشبكة» التى يضعها رجال الفرسان فى بعض الجيوش على أكتافهم⁽⁸⁾، هذا إلى جانب أن حلقاتها كان تنسج مزدوجة، وتسمى «الدروع المضاعفة»⁽⁹⁾ لتزداد إحكاماً⁽¹⁰⁾ ومنعة⁽¹¹⁾، فالجوشن درع مكون من صدر لا ظهر له ولا أكمام، وكان يصنع من ألواح صغار من

(1) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص 338.

(2) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص 27، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 195، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 61.

(3) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 93.

(4) لأمه والجمع لأم ولؤم، الدرع أو السلاح بوجه عام، يقال استلاءم الرجل أى لبس اللائمة وهى ما عنده من عدة رمح وبيضة ومغفر وسيف... لمزيد من التفاصيل انظر ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 70، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 308، هامش 4، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 61، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 50.

(5) لفظة فارسية معربة، تعنى الصدر أو الجزء العريض من وسط الصدر، وتطلق اللفظة على الحديد الذى يلبس لوقاية الصدر، كما تطلق على الدرع أو الزرد المصنوع من حديد لوقاية الصدر، ويتميز الجوشن عن الدرع بتزويده بصفائح معدنية لتقويته، انظر لسان العرب، ج 16، ص 239-240، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 3، ص 473، الطرسوسى، التبصرة، ص 16، حسين عليوة، السلاح المعدنى، هامش 1، ص 376.

(6) حسين عليوة، السلاح المعدنى، ص 308.

(7) عبد الرؤف عون، الفن الحربى، ص 177.

(8) تاج العروس، ج 9، ص 161، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 319.

(9) عبد الرؤف عون، الفن الحربى، ص 178.

(10) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 61.

(11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 319.

الحديد، أو الحديد الممزوج بمسحوق القرن ويلبس حول الجزء الأوسط من الجسم فوق الثياب، ويبدو أن الجواشن يدل على بطولة صاحبه في القتال، فقد سئل على - رضى الله عنه - لمثل هذا الدرع فأجاب: «إذا استمكن العدو من ظهرى فلا يبقى»⁽¹⁾، وقد تحدث «الطرسوسى» عن الجواشن فقال: «وصفة عمل الجواشن والخوذ لا تنفذ السهام ولا تعمل فيه سنان ولا حسام»⁽²⁾.

هذا وقد بلغت صناعة الدروع أقصى ازدهارها عند المسلمين في فترة الحروب الصليبية فيذكر «الطرسوسى» لدى كلامه عن صناعة الدروع «أن الجواشن كانت تصنع من قطع صغيرة من الحديد تارة، ومن القرن تارة، ومن الجلود تارة أخرى»⁽³⁾، وقال أيضاً «كانوا يركبون أخلاطاً إذا عجت واتخذت جواشن منعت السهام أن تنفذ فيها، وأثنت السيوف بل فللتها وكسرتها»⁽⁴⁾.

وتحدث «الطرسوسى» عن صفة عمل جواشن أخرى لا تعمل فيه السيف ولا النشاب فقال «تؤخذ جلود الإبل فتتقع في اللبن والقليل إلى أن ينقشر شعرها ويبيض لونها وترفع وتفصل عن الجواشن وتترك فترة... ثم تعمد إلى نوع من الزجاج ثم تسحق سحقاً ناعماً ويخلط مع برادة النحاس الأحمر ومواد أخرى فتؤخذ من كل واحد جزء وتعجن بالغراء... ثم تترك لتجف فإذا كمل فيببس بالدهن ودهن الأصباغ على أى لون شئت وتذهب وتدهن بدهن الفراغ على ما جرت به العادة فإنه لا تؤثر فيه السيف»⁽⁵⁾، هذا وقد كانت ضربة الرمح أو السيف أو الفأس تحطم الزرد، فتخترق حلقاته المتشابكة جسد المحارب وتصيبه وتشتد خطورته إلى حد بالغ، لهذا فقد كان ضرورياً أن يلبس تحت الزرد ثوب سميك محشو أو ملبد، هذا مما يعوق المحارب أيضاً؛ لأنه يغدو إنساناً مدرعاً ثقيلاً يفقد حرية الحركة وسرعة الالتفات»⁽⁶⁾.

عيوب الدروع المعدنية

على الرغم من أن الدروع لها مزاياها الدفاعية، إلا أن عيوبها تظهر عند الاستعمال فمن عيوبها:

- (1) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 381.
- (2) الطرسوسى، التبصرة، ورقة رقم 117 أ، ب، نقلاً عن محسن حسين، ص 319.
- (3) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 116 ب، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 18.
- (4) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 116 ب، عن محسن حسين، ص 319-320.
- (5) الطرسوسى، المرجع السابق، ورقة 118 أ، عن محسن حسين، الجيش الأيوبي، ص 321.
- (6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 321.

ثقل وزنه لأنه مصنوع من الحديد⁽¹⁾؛ لأن القميص المزروود كان ثقيلًا على الكتفين، وقد كان ثقيلًا جدًا بحيث يتعذر استخدام السيف في قوة ويسر⁽²⁾، هذا بالإضافة إلى طول الدرع الذي كان يصل في بعض الأنواع إلى الركبة أو إلى أسفل منها⁽³⁾، مما كان يسببه ذلك أحيانًا من تقييد لحركة المحارب⁽⁴⁾.

أضف إلى ذلك أن من عيوب الدرع سخونته في الصيف وبرودته في الشتاء وتعرض لابسه عند القتال للإصابة بجروح عند كسر بعض حلقاته ونشوب حديدتها في جسمه، مما يتسبب عنه أضرار جسيمة⁽⁵⁾.

ويمكن القول إنه أمكن التغلب على هذه العيوب بارتداء ثياب من قماش سميك تحت الدرع المعدني وفوقه، حيث كانت الأردية بمنزلة عازل بين جسم المحارب والدرع، كما كانت الأردية تساعد على تقليل أثر الضربات التي تصيب المحارب⁽⁶⁾، هذا وقد تطورت هذه الواقيات وأصبحت أكبر وأكثر وأخف وزنا وإعاققة⁽⁷⁾، وقد وردت إشارات عديدة عند المؤرخين حول استعمال هذه الدروع والكزاغند⁽⁸⁾ أيام الحروب الصليبية الذي هو ثوب مبطن بالحرير يلبس أيام القتال⁽⁹⁾، وهو يشبه الكبر أو الكبورة الذي هو قباء محشو يتخذ

(1) Wilkinson, Let's look at arms and armour, p19.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 321.

(3) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 314.

(4) انظر: Wilkinson, Ibid, p19, Robenson, oriental Armour, p7

(5) حسين عليوة، السلاح المعدني، ص 343.

(6) نجم الدين الأحمد، كتاب نهاية السؤل والأمنية، نقلًا عن حسين عليوة، «السلاح المعدني»، ص 343.

(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 321.

(8) الكزاغند أو القزغند، هو رداء من صفائح وحلق من المعدن ولكنه مغشى من الداخل أو الخارج بطبقة سميكة من الديباج الأحمر أو الأصفر، هذا وتدلتنا المصادر التاريخية المعاصرة على أن القرقل عرف بهذا الاسم في القرن 9 هـ / 630 م، وأنه كان يعرف قبل ذلك في العصر الأيوبي وأوائل عصر المماليك باسم قزاغند أو كزاغند وقد استمر استخدام التسميتين حتى أواخر عصر المماليك.

لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج 2، ص 142، ج 3، ص 473، ج 4، ص 11 - 209، المقریزی، السلوك، ج 1، ص 253 - 690، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 12، ص 207، الحاشية، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 659.

(9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 321.

للحرب⁽¹⁾، ويبدو أن الكبورة كان يلبسها الفرسان والمشاة معاً أيام «صلاح الدين»، فقد ذكر «ابن شداد»: «أن الرجالة كان عليهم الكبورة الثخينة»⁽²⁾، وقيل إن «صلاح الدين» كان يلبس المغفر الكزاغند بصوره دائمة أثناء المصادمات⁽³⁾.

فذكر «ابن الأثير»: «بينما «صلاح الدين» يوماً في خيمة لبعض أمرائه يقال له «جاولي» وهو مقدم الطائفة الأسدية، إذ وثب عليه باطنى فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فلولا المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله، فأمسك «صلاح الدين»، يد الباطنى بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضرباً ضعيفاً فبقى الباطنى يضربه في رقبتة بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه والزردية تمنعه من الوصول إلى رقبتة»⁽⁴⁾.

هذا وقد ذكر «ابن واصل» و«ابن شداد» أنه في عام 589هـ/1193م قبل وفاة «صلاح الدين» بفترة قصيرة «فلم أجد عليه كزاغنده، وما كان له عادة يركب بدونه... فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه وحدثته في إهمال هذا فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند...»⁽⁵⁾.

الترس⁽⁶⁾

كانت الترس إحدى أسلحة الدفاع التي استخدمها المحارب المصري منذ أقدم العصور⁽⁷⁾ وهو ما يستتر به المحارب ويتوقى بها عدوه⁽⁸⁾ ويقي بها نفسه⁽⁹⁾ وجسده من

(1) الجواليقي، المغرب، ص 252، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 322.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 365، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 190، ابن شداد، النوادر، ص 179.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 322.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 138، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 3، ص 29، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 44-45، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج 1، ق 2، ص 86، هامش 10، نهاية الأرب، ج 28، ص 380.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 415، ابن شداد، النوادر، ص 242 ص 243.

(6) الترس في اللغة السلاح الذي يستخدم في الوقاية، ويجمع على أتراس وتراس وتروس، ويقال تراس لصاحب الترس أو لابس، والترس أو التريس بالترس يعنى التستر به (الوقاية)، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 7، ص 330، ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 74.

(7) Wilkinson, Arms and armour pp 9-10, Saxtorph , warriors and weapons of early times (Bland ford press), London, 1972 p 142 .

(8) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، ص 135.

(9) عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص 186.

ضربات السيف والرمح والسهم والحجارة⁽¹⁾ وغيرها، هذا ويطلق على الترس أسماء أخرى كالدرقة⁽²⁾ والحجفة⁽³⁾ والجنوية⁽⁴⁾.

هذا وقد أشار «الحسن بن عبد الله» إلى أهمية التروس بقوله «لا ينبغي أن يدخل في حرب بسيف إلا ومعه ترس إلا عن ضرورة»⁽⁵⁾، وعلى هذا فقد كان يطلق لفظ «أكشف» على من ليس معه ترس في القتال⁽⁶⁾.

صناعة التروس

اتخذت التروس ابتداءً من درق السلاحف الكبرى نظراً لقوة تحملها العالية، ثم أصبحت تتخذ من جلود بعض الحيوانات كالإبل والبقر، حيث كان يطلق عليها في هذه الحالة اسم «الحجف أو الدرقة»، كما سبق أن ذكرنا⁽⁷⁾، وقد يصنع الترس من الخشب ويطلق عليه في هذه الحالة «الققع»، ويستعمل في وقاية المقاتلين الزاحفين نحو الحصون، وما شابهها من الحجارة خاصة، ويبدو أن الخشب الذي يستخدم لهذه الغاية يختار من النوع القوي الذي يحتمل

(1) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 387، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 135.

(2) ضرب من الترس الواحدة (درقة) تتخذ من الجلود غير الدرقة الحجفة وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب والجمع درق وأدراق ودراق ودروق، وهي مصنوعة من عيدان مضمومة بعضها إلى بعض بخيط القطن ونحوه فإن كانت من جلد قيل لها درقة، لمزيد من التفاصيل انظر لسان العرب، ج 11، ص 384، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 143، النويري، ج 6، ص 239-240، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 68، المخصص، ج 6، ص 74.

(3) حجفة هي الترس الصغير وجمعها حجف ومحجف وهو صاحب الحجفة في القتال، والحجفة هي التروس من جلود بلا خشب ولا عقب ولها أشكال مختلفة تختلف بحسب الأماكن والبلاد، يقال رجل تراس - صاحب ترس - وتجمع الترس على تراس وتروس وأتراس وترسة، وتجمع الحجفة على حجف، لمزيد من التفاصيل انظر لسان العرب، ج 15، ص 383، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 143، ابن سيده، المحكم، ج 3، ص 63، ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 74، النويري، نهاية الأرب، ج 6، ص 239-240، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 135-136، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 16-17.

(4) الجينة، يسمى الجينة أيضًا أخذًا من الاجتنان، وهو الاختفاء ما اتقى بها كالترس، والبيضة، والدرع، فأما الترس فمن أسائه بصيرة ترس، جوب، جُنَّة، لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 143، النويري، نهاية الأرب، ج 6، ص 239-240.

(5) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 161.

(6) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 388.

(7) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ضربات السلاح، كخشب الجوز مثلاً، وقد يلصق على سطح الترس جلد مساو له في المساحة، وقد تتخذ التروس من الحديد والفولاذ⁽¹⁾.

أصناف الترس وأنواعه: كان الترس عند العرب⁽²⁾ على أصناف، ولقد تعددت أنواع التروس نظراً لتعدد طرق استعمالها والحاجة إليها فكان منها:

الترس المسطح

والذي يستعمل لاتقاء طعنات الرماح⁽³⁾ وضربات السيوف وسهام القسي، غير أنه لا يستعمل لاتقاء الحجارة، وينظر من جانبه حين الاستعمال⁽⁴⁾.

الترس المستطيل

المحضر الوسط⁽⁵⁾ ويستعمل في اتقاء النشاب خصوصاً من قبل الفرسان، إذ أن طوله يعمل على حماية الفارس وفرسه⁽⁶⁾.

الترس المقرب

الترس المقرب المنحني الأطراف⁽⁷⁾ إلى الخارج، وهذا النوع لا يتقى به الرمح؛ لأنه قد يثبت فيه، وإنما يستعمل لاتقاء ضربات السيف والنشاب ويكون مبسوط الأطراف، وفيه تقبيب قليل، فتتقى به ضربات جميع الأسلحة على أنواعها⁽⁸⁾.

(1) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 389.

(2) غنم العرب من الصليبيين بعضاً من أتراسهم التي كانت تسمى «الجنويات»، وهي أتراس مستطيلة أو بيضوية يمكن نصبها لتقف على الأرض، فيستخدمها الرجال في القتال وتكون بذلك للصف كالحصن المانع الذي يقيه من النبال، كما ويمكن حمل الجرحى عليها عند اللزوم، انظر إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 71.

(3) آثار الأول، ص 161، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 188، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 195، نعمان ثابت، الجندية، ص 179.

(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 391-392.

(5) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 187، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 69، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 16-17.

(6) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 391-392.

(7) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 195.

(8) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الترس المستدير (المدور المعدني)⁽¹⁾

ويكون منحني الأطراف من جهة حامله له قمة بارزة إلى الخارج تسهل انزلاق الرمح عنه إذا أصابه ويستعمل الترس باليد اليسرى⁽²⁾.

وذكر «الطرسوسى» عن التروس «هى أصناف كثيرة وأنواع ولها أشكال متباينة وأوضاع فمنها المدور اللطيف والواسع التدوير ومنها المستطيل فى تدويره المستحسن التقدير، وكل منها مستجد فى دفته ونافع فيها يراد من ستره وكنه»⁽³⁾، ومن معدات وقاية الجسم الأخرى، ما كان يلبس سواء منها فى الرأس أو فى الصدر و الظهر، وكذلك الذراعين، وحتى الركبتين، وكان ارتداؤها ضرورياً للحد من تأثير الأسلحة، لا سيما السلاح الأبيض كالسيف والرمح والسهام.

هذا ونرى أن صنع معدات وقاية الجسم المعدنية كان يكلف الكثير من المال والجهد والوقت، لهذا فإن ارتداؤها اقتصر على القادة وأمراء الدروع والملابس، فقد كان من الصعب توفيرها لكافة المحاربين، فى وقت كان استخراج المعادن ومنها الحديد، وتصفيتها وصبها فى قوالب خاصة⁽⁴⁾ أو تقطيعها وتركيبها على شكل مناسب للجسم، أو أحد الأطراف من العمليات الشاقة وتجربى فى ظروف صعبة وبطريقة بدائية، جعلت توفير المعدات لكافة المحاربين أمراً غير ممكن، هذا وقد تحدثنا عن الأغطية الحديدية التى كانت تلبس على الرأس وسائر أجزاء الجسم⁽⁵⁾.

ويمكن القول إن الترس الذى استعمله المسلمون فى الحروب الصليبية كان مستدير الشكل⁽⁶⁾، ونجد أن الصناع المسلمين كانوا قد تفننوا فى صنع الأتراس ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار⁽⁷⁾.

(1) أبو الحمد فرغلى، تصاوير المخطوطات فى عصر الأيوبيين، ص 216.

(2) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 391-392.

(3) الطرسوسى، التبصرة، ص 12.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 318.

(5) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) هذا ما ذكره محسن حسين فى أن التروس المعروضة فى متحف دمشق الحربى مستدير الشكل، ص 316، هامش 2.

(7) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 69، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 187، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص 16.

عيوب الترس

هذا وقد كان من عيوب الترس أنه كان كبيراً وكان يضايق المحارب ويشل استخدام ذراعه اليسرى التي تمسك به، إلا أنه كان مريحاً أكثر للمشاة فكان على الفارس أن يحمل ترساً خفيفاً ليكون أكثر قدرة على الحركة⁽¹⁾، هذا وقد حدث تأثر بين المسلمين والصليبيين أثناء المعارك الحربية التي دارت بين الفريقين بالمعدات الحربية ومنها الترس فصار المحارب المسلم يستعمل الطارقيات⁽²⁾.

الحسك الشائك⁽³⁾ (مثلثات)

أصل الحسك

هو نبات له ثمرة خشنة «شوكية» ذات ثلاث شعب⁽⁴⁾ تتعلق بصوف الغنم⁽⁵⁾ ووبر الإبل⁽⁶⁾ في مراتعها⁽⁷⁾ وهي شوكة صلبة معروفة⁽⁸⁾، إلا أن اللفظ سار يطلق على آلة صغيرة تصنع من

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 316.

(2) الطارقيات، هي التروس التي كان يستعملها الفرنج والروم، وكانت الطارقيات مستطيلة في شكلها بحيث تستطيع أن تستر جسم الرجل أو الفارس، انظر التبصرة، ورقة 109ب، نقلاً عن محسن حسين، الجيش الأيوبي، ويرى دوزي أن أصل الطارقة مأخوذة من الكلمة اللاتينية تاركا (Targa)، دوزي، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 316، وقيل في موضع آخر إن الطارقة هي عبارة عن شبه عباءة كان يستخدمها الجندي لوقايته، وذكر النويري «وأمر السلطان بالطوارق والجفاتي فصفت وجعل الرماة وراها»، وقد استعمل الصليبيون الطوارق، وذكر في الفتح القسي النص الآتي: «كانوا الصليبيون للطوارق حاملين وللحملات مطرقة، وفي موضع آخر: لمعت بوارق ببارقة وراعت طوارق طوارقة»، انظر عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 39، وذكر ابن الأثير «أن المسلمين رموا الصليبيين بالطارقيات عند فتح حصن برزية المنيع، في جمادى الآخرة سنة 584هـ / 1188م، انظر ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 193.

(3) ذكر ابن سيده في المحكم أن الحسك هي عشبة تضرب إلى الصفرة ولها شوكة تسمى «الحسك»، ابن سيده، المحكم، ج 3، ص 24، وقيل في موضع آخر إن الحسك من أدوات الحرب، وربما اتخذ من حديد وألقى حول العسكر، وربما اتخذ من خشب فنصب حول الدبابة، انظر ابن سيده، المخصص، ج 6، ص 74، ابن منظور، لسان العرب، ج 12، ص 292-293.

(4) تاج العروس، ج 7، ص 119، إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب، ص 154، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 195.

(5) ابن سيده، المحكم، ج 3، ص 24.

(6) تاج العروس، ج 7، ص 119، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 39-40.

(7) تاج العروس، ج 7، ص 119.

(8) الإفصاح في فقه اللغة، ج 1، ص 617.

الحديد أو الخشب⁽¹⁾ ذات أطرف شوكية على هيئة مثلث مستدق الأطراف شبيه بأشواك الحسك الإبرية، ترمى في طريق خيول العدو لتنشب في حوافرها وتمنعها من الحركة⁽²⁾، وهي من أسلحة الحرب الدفاعية⁽³⁾ التي كان لها شأن خطير في الحروب القديمة⁽⁴⁾، وقد يجعلون للحسك أكثر من ثلاث قوائم، كأن تكون ذات قوائم (شعب)⁽⁵⁾، وعندئذ يكون للحسك ثلاث شوكات قائمة على وجه الأرض وتتعرز في الأرض ثلاث شوكات الأخرى⁽⁶⁾.

هذا وقد أشاد «الطرسوسي» الذي كان معاصراً لـ «صلاح الدين» والعصر الأيوبي بهذه الآلة إلى جانب أنه قد يمتدح نكايتها ويصفها بأنها من أطف الآلات «جمعت بين المحاسن والكفاية، وأنها أبدع المصنوعات وأسرعها تأثيراً في النكاية»⁽⁷⁾، وهي مكيدة ترمى في الأرض التي تعلم أن العدو يسلكها إليه... فإذا ساق الخيل عليها ووطيت على شوكتها القائمة فيها عقرتها أشد عقر وأثرت فيها أعظم أثر فتسقط الخيول بمن عليها وتهلك بما أصابها من تلك النكاية وما لذ بها⁽⁸⁾.

استعمالات الحسك الشائك

كان الحسك الشائك يستعمل أو يستخدم في الحالات الآتية:

(1) لاستدراج العدو وإيقاعه في كائنتهم المنصوبة، وذلك بخدع العدو بالدخول معه في معركة وهمية، ثم التظاهر بالهزيمة، وعندما تبدأ قوات العدو بمطاردتهم ينثرون الحسك في طريقها، فينشب في أرجل الخيل فلا تتقدم ولا تتراجع، عندها يبرز رجال الكمين، ويحاصرون العدو ويرمون بالسهام ويقضون عليه⁽⁹⁾.

- (1) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 154، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 394، محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص 144.
- (2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 194، إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 154-156، عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص 196، محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 395.
- (3) المحكم، ج 3، ص 24، محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 394.
- (4) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 95-96.
- (5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 395.
- (6) الطرسوسي، التبصرة، ص 19-20، أمين الخولي، الجندية والسلام، ص 42.
- (7) الطرسوسي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (8) الطرسوسي، المرجع السابق، الصفحة نفسها، الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 194.
- (9) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 325.

(2) في فترات توقف القتال اليومي، إذ كانوا يدخلون معسكرهم ويفرشون الأراضي التي يحتمل أن يتقدم عسكر العدو منها بالحسك لكي يجتاطوا من مفاجأته لهم ليلاً، وكان هؤلاء الفعلة من المتدربين يتقنون مهمتهم هذه بشكل جيد⁽¹⁾، هذا وكان من الضروري أن تحدد شوكات الحسك وتبرد وتسقى بالسموم⁽²⁾؛ لأن هذه الآلات كما يذكر «الطرسوسي» إذا سقيت قتلت⁽³⁾.

الأسلحة الدفاعية للخيل: «اللجام، السرج، الحدوة، التجفاف»:

اللجام:

يتخذ من الحديد أو الخشب أو الحبال حيث يدخل في فم الدابة ويلزمه إلى قفاه، ويتكون من:

الشكيم

وهو حديدة تعترض في فم الفرس ويتوسطها ما يسمى «الفأس»، ويثبت الشكيم بشكل مستعرض بين حديدتين ممتدتين طولياً تدعيان «المسلحين»⁽⁴⁾.

الحكمة

وهي حديدة اللجام تكون على أنف الفرس، وتحيط به وتمنعه من مخالفة راحته.

العنان

وهو سير جلدي كذلك تمسك فيه الفرس، حيث يعترض سيراه على صفحتي العنق من يمين وشمال، ويبدو أنه كان يتخذ من حبال يصفرونها مع بعضها البعض.

الغدار

وهو ما وقع من اللجام على خدي الفرس، ويتخذ من سيور جلدية يجتمع طرفاه عند القفا⁽⁵⁾.

(1) إحسان هندي، الحياة العسكرية عند العرب، ص 169.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 325.

(3) الطرسوسي، التبصرة، ص 19-20.

(4) محمود سليمان عواد، الجيش والقتال في صدر الإسلام، ص 419.

(5) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 421.

السرج

يوضع على صهوة الفرس ليقعد عليه الفارس، وفيها أماكن لتعليق الفئوس والدبابيس، ويعلق على السرج ركابان، كانا يتخذان من الخشب ثم أصبحا يصنعان من الحديد، ويبدو أنه كان هناك اتجاه لعدم الاستناد عليهما في المعركة⁽¹⁾.

الحدوة

تلبس حوافر الخيل بالنعال (الحدوة)، وكانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، ووظيفة (الحدوة) حماية حافر الفرس مما يعترضه أثناء السير، لذا كان بعض الفرسان يفضل الحافر الصلب لقلته تأثيره إذا ما اختفى، وتتخذ الحدوة من الحديد، وقد تتخذ الحدوة من الجلد البقرى المدبوغ⁽²⁾.

التجفاف⁽³⁾

هو من الأسلحة الدفاعية⁽⁴⁾ وهو عبارة عن لباس يرتديه الفارس⁽⁵⁾ وكذلك حصانه، للوقاية من الإصابة بالنار، هذا وقد ذكر «ابن شداد» أن التجفاف كان لباساً واقياً خاصاً بالمحاربين الفرسان، عندما تحدث عن عدد أفراد جيش إحدى الحملات الصليبية، وقال: كان عددهم «اثنين وأربعين ألف مجفف»، وأما الرجال فلا يحصى عددهم⁽⁶⁾، وقد شرح لنا «الطرسوسى» طريقة صنع التجفاف، وهو أن تؤخذ تجفاف مبطن باللبود فيكسى بها الخيل بعد أن تطليها بالطلاء المانع من إحراق النار⁽⁷⁾، هذا ويشرح «الطرسوسى» طريقة تحضير المواد التي تطل بها الملابس الواقية، ويقول إنها مكونة من الطلق المحلوب والصمغ العربى والجبس والدقيق وبياض البيض وغيرها، ثم تعجن هذه المواد «بخل خمر قد مزج بالماء حتى

(1) محمود سليمان عواد، الجيش، المرجع السابق، ص 422.

(2) محمود سليمان عواد، المرجع السابق، ص 425-426.

(3) جمعها تجفاف، والتجفاف هو لفظ فارسى أصله (تن بناه) أى حارس البدن، وفي موضع آخر ذكر صاحب الإفصاح في فقه اللغة أن التجفاف هو آلة للحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه في الحرب، وقيل جفف الفرس أى ألبسه التجفاف، لمزيد من التفاصيل انظر أدي شير، الألفاظ الفارسية، ص 34، الإفصاح في فقه اللغة، ج 1، ط 2، ص 618، الجواليقى، المغرب، ص 191، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 18.

(4) عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 92.

(5) عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 17.

(6) ابن شداد، النوادر، ص 126.

(7) الطرسوسى، التبصرة، ورقة (145ب)، نقلاً عن محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 323.

انكسرت حموضته عجننا شديدا وتلطخ بذلك التجافيف لطحًا جيدا»، ثم يقول «وتشدها في مقدم الفرس وفي مؤخرته وهو الكفل، كل ذلك على التجافيف، أما المحارب فيلبس درعًا من خيش مبطن باللبود وسراويل، وقد أشبعت جميع ذلك الطلاء المذكور... وكذلك تطلّى بها القلنسوة المصنوعة من اللبود»⁽¹⁾ أما «ابن منكلى»: «فيجعل التجافيف لباسًا يغطون به جسم الفرس»⁽²⁾، وقيل إن الأمراء الفرسان المسلمين استخدموا التجافيف لوقاية خيل الجهاد⁽³⁾.

الخيل ودوره في المعارك

من المؤكد والمتعارف عليه في حروب العصور الوسطى أنها لا تكاد تخلو معركة من المعارك من استخدام الخيل، نظرا لأنها تلعب دورًا مهمًا في المعركة، وطوال فترة العصور الوسطى في زمن السلم والحرب معًا، ولم يكن في الإمكان استخدام أي فرس للقتال؛ لأن فرس الحرب يختلف عن الفرس العادي، فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك، ولهذا كان غالي الثمن، من الصعب استبداله، هذا ومن أهم الصفات التي تميز بها فرس الحرب سرعة اندفاعه في الهجوم إذا لمست أصابع الفارس سيور اللجام لمسًا خفيفًا من خلف درعه، وفي العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته على الرغم مما كان يسببه من إزعاج في المعركة، هذا ومن الأمور التي كانت تعيب الفارس، أن يعتلى صهوة جواد غير مدرب على الأساليب الحربية، هذا وقد فطن «نور الدين محمود» إلى ضرورة تدريب الخيل بمزاولة لعبة للكرة التي كان مولعًا بها، كي يتعود الفرس أسلوب الكر والفر⁽⁴⁾.

النظم الحربية

يرى البعض في الحروب الصليبية أنها كانت فصلاً من فصول الصراع بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وكان اللقاء الحربي أحد وجوه ذلك الصراع بين الفريقين الإسلامى والصليبي، ففريق أتى بقصد الغزو والاستيطان، وفريق آخر وقف موقف المدافع

(1) الطرسوسى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 323.

(3) عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 27.

(4) محمود الخويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 168.

عن أرضه وتراثه، وبين هذا وذاك ظهرت صور الفنون الحربية ونظم كل منها في بلاد الشام⁽¹⁾، والذي يدرس الحروب الصليبية خاصة الحملة الصليبية الأولى التي انتهت باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس (493 هـ / 1099م) يلمس أنها حملة إقطاعية بكل ما انطوت عليه، قامت على أساس النظام الإقطاعي الغربي الذي ساد أوروبا أواخر القرن الحادى عشر، إذ أن الخدمة الحربية هي الأساس الأول لحيازة الإقطاع عند الصليبيين، وهو ما يتفق مع النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبى، فإننا نجد نفس الأمر عند المسلمين في الشام، على زمن الحروب الصليبية⁽²⁾، ومما هو جدير بالذكر هنا أن النظام الإقطاعي الحربي انتقل كاملاً إلى الدول التي نبتت وتفرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد، وهذه الدول هي الدولة الزنكية والدولة الأيوبية ثم دولة المماليك⁽³⁾، هذا وقد وضع نظام الملك وهو وزير الدولة السلجوقية (ملك شاة) نتيجة لاتساع الدولة وصعوبة السيطرة عليها وكثرة النفقات المالية الباهظة، حيث كانت تعطى المحاربين مرتباتهم نقدًا، ذهب الوزير بالتفكير إلى إعطائهم إقطاعات من الأرض بدلاً من المرتبات النقدية حتى سار الإقطاع الحربي هو القاعدة⁽⁴⁾، ويمكن القول إن الوجود الإسلامى امتاز باتساع رقعته وطول خطوط مواصلاته المتصلة شرقاً وغرباً، ففي الشمال حلب وحمّاء، وإلى الشرق منها الموصل وقلاع الجزيرة، وفي الغرب مصر وما وراءها غرباً وجنوباً، ثم إن القاهرة غدت في عصر الأيوبيين قاعدة للتدريب والتموين⁽⁵⁾.

فئات الجيش الإسلامى

وطالما نتحدث عن أدوات القتال والمعارك الحربية فلا بد من الحديث عن الجيش الإسلامى في عهد «صلاح الدين» والذي بلغ قمة نشاطه وتطوره وتنظيمه، هذا ويمكن القول إن هناك لفظين وردا في الكتب التاريخية دون تحديد، ألا وهما العسكر والجند، فالمقصود بالعسكر في عهد «صلاح الدين» الجيش النظامى، أما الجند فهم الجيش الاحتياطى أو الجيش الإقليمى⁽⁶⁾، ومهمة الجيش النظامى أو الثابت الخدمة الحربية بصفة دائمة

(1) محمود الخويرى، المرجع السابق، ص 149.

(2) محمود الخويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 150.

(3) محمود الخويرى، المرجع السابق، ص 151.

(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربي المصري، ص 2-3.

(5) نظير سعداوى، المرجع السابق، ص 173.

(6) نظير سعداوى، جيش مصر في عهد صلاح الدين، ص 8.

ويتقاضون راتبًا منتظمًا، ولا يفارقون السلطان، وأحيانًا يكلفون بحراسة القلاع والحصون والدفاع عنها، وجعل «صلاح الدين» هذا الجيش من الأكراد والترك والتركيان وهم الذين اعتادوا حياة التقشف والخشونة⁽¹⁾ ويطلق عليهم «الفرسان»⁽²⁾.

أما الجند فهم في الحقيقة عساكر الأمراء أو عماليك الأمراء أو أجناد الأمراء، فكان على كل أمير أن يشترك في الحرب بجنده، وبمجرد أن تنتهي الحرب عادوا إلى مراعيهم وخيامهم، وهم لا يتناولون أجرًا ثابتًا مثل العسكر⁽³⁾، ولكنهم يأخذون نصيبهم من الأسلاب والغنائم⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى فرق المتطوعين وهم الذين تطوعوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيش حبًا في الجهاد في سبيل الله⁽⁵⁾، هذا وقد كان من واجبات الجند المتطوعين هي الإغارة على العدو قبل نشوب الحرب لإزعاجه في قواعده وعرقلة تجمعاته وتخريب قواعد تموينه ومواصلاته، وقد تناط إليهم مهمة مطاردة العدو عند تدهوره، ويمكن القول إن المتطوعين يعوزهم التدريب والمطاولة والصبر في القتال، ولكن قد يظهر بينهم من هو فارس أو يجيد الرمي أو يمتاز بخفة الحركة⁽⁶⁾، ولكنهم نظرًا لجهلهم بأساليب وحيل الحروب كثيرًا ما كانوا يندفعون بحماسة دون روية فيسيبون الارتباك والفوضى في صفوف الجيش⁽⁷⁾، هذا بالإضافة إلى البدو الأعراب الذين حاربوا ببسالة في المعارك وحرب العصابات والغارات المفاجئة، فضلًا عما قاموا به كأدلاء في الصحارى لمعرفة بالدروب⁽⁸⁾، واستخدمهم «صلاح الدين» في مواضع كثيرة، على أن البعض منهم لم يكن مخلصًا للجيش الإسلامية، ففي عام 578هـ/1172م، توجه «صلاح الدين» من مصر بغرض محاصرة الكرك والشوبك فوجد جماعة من البدو نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج⁽⁹⁾، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين⁽¹⁰⁾، وبذلك طعنوا المسلمين من الخلف وأذوهم في خطوط

(1) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 154.

(2) نظير سداوى، جيش مصر في عهد صلاح الدين، ص 8، 10.

(3) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 154.

(4) نظير سداوى، جيش مصر في عهد صلاح الدين، ص 12.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 157.

(6) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 158.

(7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 159.

(8) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 155.

(9) محمود الخويري، المرجع السابق، ص 156.

(10) الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ص 293.

تموينهم وطرق مواصلاتهم طمعًا في المال⁽¹⁾، ومهما يكن من أمر، فقد قسم «صلاح الدين» جيشه إلى عدة فرق، وتنسب كل واحدة منها إلى سلطان سابق، فيقال للمالِك النورية نسبة إلى السلطان «نور الدين محمود»، أو تنسب إلى أحد القواد العظام السابقين، فيقال للمالِك الأُسدية نسبة إلى «أسد الدين شيركوه» عم «صلاح الدين»، أما ممالِك «صلاح الدين»، فأطلق عليهم عدة أسماء فيقال لهم الممالِك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه الملك «الناصر»، وقد تنسب الفرقة إلى جنسية أفرادها، هذا بالإضافة إلى طوائف أخرى مثل الأكراد وغيرها⁽²⁾.

خطط وأساليب القتال

لا شك في أن الجيش لا يستطيع أن يشترك مع العدو ويخوض معركة دون أن يكون قد رتب أموره، بحيث تتضح معالم الخطوات التي يتخذها وينبغي على الجيش ألا يتصرف بعشوائية تؤدي إلى اضطراب صفوفه، ولكن بالمقابل كان لروح الجهاد الفاتحة التي امتلأت بها قلوب أكثر المحاربين المسلمين في جيش «صلاح الدين» أثرها الفعال في اندفاعهم نحو قتال العدو⁽³⁾، وكان لهذه الروح القوية قوة فاقت أثر قوة التنظيم⁽⁴⁾، فقد كان الهدف الأساسي للجيش الأيوبي في قتاله هو طرد المحتلين واستعادة الأراضي التي يحتلها المعتدون، ومن أجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الإسلامية مختلف السبل وشتى الأساليب، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو، أو عن طريق إضعافه اقتصاديًا ومعنويًا وحصره في نقاط الارتكاز التي حصنها، فالمسلمون لا سيما في عصر «صلاح الدين» اتبعوا مختلف التكتيكات للإيقاع بالصلبيين، فالتكتيك فن القيادة في ميدان المعركة، والتكتيك هو أيضًا فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم والدفاع تبعًا للخطة الموضوعية بمعرفة القيادة العامة⁽⁵⁾، والخطة العسكرية لم يكن يضعها «صلاح الدين» وحده بل كان له مجلسه الاستشاري الذي يأخذ رأيه ويعينه، ومما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من أن قيادة الجيش المركزية ظلت بيد

(1) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 156.

(2) محمود الخويري، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 205-206.

(4) جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ص 67.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 207.

صلاح الدين، والنجاح في الغالب يكون مضمونا إذا حافظ القائد على التعرف الدائم بأحوال الأعداء⁽¹⁾.

هذا وقد كان اليزك⁽²⁾ (الفرق الاستطلاعية) يقوم بدور أساسي في هذا الصدد، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو، هذا ومن الأساليب التي استعملها الجيش الأيوبي نجد أن هناك عدداً من الأعمال والإجراءات التي يمكن إدراجها تحت اسم «الأعمال التكتيكية»، ومن هذه الأعمال أنه في موقعة بيت الأحزان أوعز إلى جنده بقطع كروم ضياع صغد في غور الأردن وأمر بحصد غلاتهم، وقد قصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو حتى لا يستفيد من الكروم وأخشابها وذلك في عام (575هـ / 1179م)⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى أن لتكتيك قطع الماء أثره العميق في إضعاف العدو وهزيمته، فالمعروف أن سيطرة الجيش الأيوبي على منابع المياه يوم حطين كان أحد أسباب هزيمة العدو كما ذكرنا في فصل سابق، هذا وفي عام 587هـ لجأ الجيش الأيوبي إلى إفساد مياه بعض ينابيع القدس (587هـ / 1191م)، وذلك عن طريق إلقاء الزرنيخ أو طرح الجيف فيها⁽⁴⁾، وذلك لمنع وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا⁽⁵⁾.

ومن الخطط التي اتبعتها تطبيقه لأسلوب الحرب الخاطفة ومباغطة العدو، والانتصار عليه قبل أن يستطيع تجميع قواه، وذلك يظهر بوضوح في سبتي (583هـ / 1187م و584هـ / 1188م)، حيث لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين بل اتبع انتصارات سريعة خاطفة فاستولى على عكا وصفورية والناصرية وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً، وحين استعصت عليه صور بسبب تحصينها اضطر إلى تركها وتوجه إلى بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ففتحها⁽⁶⁾، أضف إلى ذلك أن «صلاح الدين» نفذ خطته بنجاح فائق،

(1) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 207-208.

(2) اليزك مصطلح فارسي يعني مقدمة العسكر أو البصااص، والاستعمال العسكري الأيوبي لهذه الكلمة بمعنى فرقة عسكرية تختص أساساً بأعمال المخابرات الحربية وتمارس مهامها في مقدمة الجيش الأيوبي ومهمتها الأساسية هي جمع المعلومات عن الأعداء أثناء المعارك، بلزيد من التفاصيل عن اليزك ومهامهم انظر د/ صلاح الدين البحيري، المخابرات الإسلامية في مواجهة الصليبيين، المجلة المصرية التاريخية، ألقى هذا البحث في ندوة حطين التي نظمتها الجمعية المصرية الدراسات التاريخية عام 1988م، ص 26، 31.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 208.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص 191.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 389.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 209-210.

وهي خطة القتال بالتناوب وذلك بأن قسم عسكره إلى ثلاثة أقسام يقاتل كل قسم منها فترة محددة ثم يستريح ليواصل القتال القسم الثاني ثم الثالث⁽¹⁾، وكان الغرض من هذا الأسلوب هو إنهاء الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا، ولكن هذا الأسلوب اصطدم بمتانة أسوار صور بالإضافة إلى وضع المدينة الطبوغرافي⁽²⁾، وبالإضافة إلى ذلك نجد أن من الإجراءات الحكيمة التي لجأ إليها «صلاح الدين» هي إضعاف العدو اقتصادياً ومن هنا قام بتوطيد علاقته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية وقد كان لهذه الاتفاقية أهميتها من حيث ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري، فحصل على حاجاته من الحديد والخشب والشمع بالإضافة إلى إضعاف تجارة الصليبيين لا سيما إذا عرفنا أن «صلاح الدين» كان يسيطر على البحر الأحمر، ولا شك أن هذه التجارة أدت إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول الإسلامي الأيوبي⁽³⁾، ومن الخطط الحربية التي نفذها «صلاح الدين» بعد استشارة أخيه الملك «العاقل» وأكابر أمراءه هي تخريب المدن التي يريد الصليبيون أن يستولوا عليها وعجز جيشه عن الدفاع عنها ويخشى أن يستولوا عليها، هذا وقد حدث تخريب لمدينة عسقلان المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذهبية إلى مصر وحصن الرملة⁽⁴⁾ وحصن النطرون وجزء من سور يافا⁽⁵⁾ وغزة⁽⁶⁾ واللد⁽⁷⁾ وحصن سرمينية الذي هدم عام 584هـ / 1188م، وتم تسويته بالأرض وعفى أثره⁽⁸⁾، ومما يدخل ضمن خطط «صلاح الدين» الإستراتيجية، تأمينه للطريق الموصل بين مصر والشام والذي تبلغ المسافة بينهما مسيرة حوالي ثلاثين يوماً، ويبدو أنه أدرك وهو في طريقه إلى الكرك والشوبك عن طريق أيلة منذ أن كان نائباً له «نور الدين محمود» في مصر أن الضرورة الحربية تقضي بتطهير شبه جزيرة سيناء من البدو التي يمكن أن تلعب دوراً تخريبياً وتعوق سلامة الطرق، فظهر الوديان ومعابر الطرق منهم ورأى من الحكمة أن يشيد قلعة في قلب شبه جزيرة سيناء، هذا وقد شيد «صلاح الدين» القلاع والمنازل وأقام الحراس على طول الطريق بين مصر

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 249.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 210.

(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 211.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 551، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص 199، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 47.

(5) الجوزي، مرآة الزمان، ج 8، ص 410.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 213.

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 551، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 213.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 264.

والشام فأعاد الأمن والسلامة إلى سيناء⁽¹⁾، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بتحصين مدينتي مصر والقاهرة وثور الديار المصرية ومدخلها وأهمها الإسكندرية ورشيد ودمياط وعيذاب وتيس، وكذلك اهتم بتحصين سواحل البحر الأحمر، وذلك لمحاولة الصليبيين مد نفوذهم إلى جهاته⁽²⁾.

أرض المعركة

لا شك أن الأرض التي كانت تجرى عليها المعارك كان لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التي كان يضعها «صلاح الدين» مع مستشاريه، وكانت نتائج المعركة تتوقف أحياناً على الأرض التي يختارها هذا الجانب أو ذاك، وكان نجاح القائد يظهر من حسن اختيار المواقع، بحيث يكون جيشه في موقع حصين يضمن سلامته في حالة الهجوم والدفاع ويضمن سهولة الحصول على المؤن والعتاد والرجال، ومن ثم المحاولة لجعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا بقدر المستطاع.

والواقع أنه لم تكن هناك أرض معينة يلتقى فيها الطرفان بشكل دائم، بل كانت المعارك تنتقل من أرض إلى أخرى، حتى إن أرض الشام كانت مسرحاً لكافة معارك «صلاح الدين» ضد الصليبيين منذ أن ترك أرض مصر عام (570هـ / 1173م)، وما هو جدير بالذكر أن معارك هذا القائد كانت مضطربة، لا تسير على نظام على الرغم من معرفة «صلاح الدين» بطبيعة الأرض التي يحارب عليها، لذا طبق خططاً مختلفة تطلبتها طبيعة الأرض التي يحارب عليها⁽³⁾، لذا نلاحظ أن «صلاح الدين» طبق خططاً مختلفة تطلبتها طبيعة الأرض في كل منطقة من مناطق بلاد الشام، فهو يطبق خطة في أرض لا يطبقها في أرض أخرى، ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة في معظم الأحيان، لا سيما حينما كان الجانب الصليبي هو الذي يقرر موعد المعركة ويختار مكانها، أو أنهم يجلبون معهم الآلات الضخمة عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الأيوبي وتضطره إلى تغيير خطته وأساليبه⁽⁴⁾.

طريقة القتال ووقته

في الحرب وعندما تبدأ كان فرسان المسلمين يهاجمون من على ظهور خيولهم وفي أيديهم

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 214.

(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 215.

(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 217.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 217.

الرماح، وتميزت الخيول التي استخدموها في القتال بصغر حجمها عن خيول الفرنج، هذا بالإضافة إلى أن الفارس المسلم تميز بخفته في المعركة، فإذا تحرك وهو على فرسه في المعركة مسيطراً على فرسه سريع الالتفاف يحس مواطن الخطر في وقتها، والسلاح الرئيسي الذي استخدمه المسلمون كان القوس بالإضافة إلى حملهم للدروع والحربة والسيف⁽¹⁾، وغير ذلك من أدوات القتال، هذا وما هو جدير بالذكر أن المسلمين استغلوا مقدرتهم الفائقة على التحرك السريع في تطويق العدو والالتفاف حوله كما يفعل النحل بالضبط وإذا لم يتمكنوا من ذلك يتفادونه، ومن المؤكد أن هذا التكتيك يحتاج إلى تفوق عددي، غير أنهم حرصوا على استخدامه دوماً مهما قل عدد المحاربين، حتى في حالة التفهقر فإن رماة السهام كانوا قادرين على أن يلتفوا إلى الخلف بغتة من فوق صهوات خيولهم، ويصوبوا سهامهم تجاه مقتضى أثرهم من العدو⁽²⁾، هذا ويفضل المسلمون خوض المعارك الحربية ضد العدو في فصل الربيع لاعتدال مناخه بعكس الشتاء الذي يشتد فيه هطول الأمطار، الأمر الذي يبعث الضجر في نفوس العسكر وحدوث الأوجال التي تعوق السير⁽³⁾، هذا بالإضافة إلى أن «صلاح الدين» كان يتفاهل بيوم الجمعة للقاء العدو عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر⁽⁴⁾، هذا وقد جرت العادة أن تبدأ المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين في الصباح الباكر وتنتهي عند المساء، هذا وإن كان البعض يفضل أن تدور المعركة ليلاً، فقد كانت الأوامر تعطى بدق الطبول ثم النفخ بالبوق، ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الأعداء، وعند الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند أهبتهم بخيولهم وأسلحتهم⁽⁵⁾، وعند الضربة الثالثة يمتطون صهوات جيادهم ثم ينتظرون بقية الأوامر الصادرة إليهم ويعتبر التكبير بصوت عال من الصفات الحربية عند المسلمين والتي أفزعت الفرنج وحازت إعجابهم في آن واحد⁽⁶⁾، هذا وقد جرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف الغرض منها الوقوف على حجم جيش العدو والتعرف على تحركاته، هذا وتعرف حركة الاستكشاف كما ذكرنا سابقاً في مصطلح الدولة الأيوبية باليزك⁽⁷⁾.

(1) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 160.

(2) محمود الخويري، المرجع السابق، ص 161.

(3) محمود الخويري، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 221.

(5) محمود الخويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 161.

(6) محمود الخويري، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) محمود الخويري، المرجع السابق، ص 163.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية

هذا ويمكن القول إن السلاح بمختلف أنواعه وأشكاله وطرق صناعته لعب دورًا مهمًا في المعارك الحربية منذ أقدم العصور وعلى مختلف العصور نفسها قبل الإسلام وفي صدر الإسلام وبعد الإسلام، وذلك من أجل التوسع والاستيلاء على أماكن مختلفة ذات قيمة وثراء شديد، هكذا كان الاهتمام بالأسلحة وصناعة السلاح.

المبادئ التي كانت تخضع لها صناعة الأسلحة

تخضع صناعة الأسلحة كغيرها من الصناعات لمبادئ ومواصفات عامة، ومن أهمها أن تكون صناعة السلاح متوافقة ومتوافقة مع وظيفته وكيفية استخدامه بمعنى أن يكون كل جزء من أجزاء السلاح كفيًا لوظيفته، وعلى سبيل المثال كان يراعى في صناعة الخوذة أن تكون مقدمتها أكثر سمكًا من مؤخرتها، وذلك لتعرض المقدمة للضرب أكثر من المؤخرة والجنين، وقد روعى الشيء نفسه في صناعة الدروع، إذ كانت الصفائح الأمامية في دروع الجوشن تصنع أكثر سمكًا وأكبر حجمًا من تلك التي كان يزود بها ظهر الدرع نفسه⁽¹⁾، أما السيف فهو من الأسلحة الهجومية، مثلاً يزود بواقية عرضية تعلو المقبض لوقاية يد حامله من الإصابة فضلاً عن وظيفتها في المساعدة على إحكام القبض على السيف⁽²⁾، كما كانت يد الدبوس أو الطبر أو الرمح تتخذ هيئة تناسب في الطول والثقل مع حجم النصل في كل منها وثقله، وقد أجمع مؤلفو كتب الفروسية والحروب وأسلحتها على أن السلاح خفيف الوزن أفضل من السلاح الثقيل لسهولة حمله واستخدامه، كما كان يعد من الصفات اللازمة للأسلحة الجيدة القطع أن تكون نصالها مستوية السطح معتدلة القد، بحيث لا يكون فيها موضع داخل وموضع خارج ولا موضع أثخن من موضع وأن يكون حدهما رقيقًا قدر شعرة.

هذا وقد شهدت الفترة التي قام فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين أساليب متعددة من أدوات القتال، هذا وقد أظهر المسلمون تفوقًا واضحًا على الصليبيين في أساليب الحرب والقتال، وهذا ما لاحظناه في الكثير من المعارك الحربية المختلفة بل ظهرت في كل معركة من المعارك الأسلحة التي كانت تستخدم من داخل الاستحكامات (الحصون - القلاع)، وأهمها المنجنيق الذي كان له الدور الفعال بل الفتاك في المعركة الحربية.

أضف إلى ذلك الدور المهم الذي قامت به الأسلحة النارية وأهمها النار الإغريقية التي

(1) Wilkinson. Lets us look at arms and armour, p32، نقلا عن حسين عليوة، السلاح المعدني.

(2) Hoffmeyer. Islamic swords of the middle age, p78، نقلا عن حسين عليوة، السلاح المعدني.

كانت سرًا من أسرار الأسلحة المرعبة الفتاكة التي أودت بحياة الصليبيين، هذا إلى جانب استخدام الأسلحة التقليدية الأخرى، والتي تتكون من أسلحة الحصار في العصور الوسطى من الدبابات وأبراج الحصار المتحركة وسلام تسلق الأسوار وغيرها من الأسلحة (أدوات القتال).

ومما هو جدير بالإضافة، الأسلحة الدفاعية التي كان يستخدمها المحاربون في المعركة مثل الأسلحة الدفاعية الخاصة بالصدر أو اليد أو الأرجل، كما رأينا في الدروع والتروس والجواشن، بالإضافة إلى أسلحة الرأس الدفاعية التي تقيها ومنها الخوذة والمغفر والبيضة.

ومما هو جدير بالذكر أن للحيوانات هي الأخرى أسلحة دفاعية مثل الفرس الذي كان يحمى بالتجفاف واللجام والسرج والخوذة كما سبق أن ذكرنا، كل هذا التنوع في الأسلحة أدى إلى انتصار المسلمين على الصليبيين في معظم معاركهم الحربية، هذا وقد قيل إنه من أهم الأسس التي يجب مراعاتها عند استخدام هذه الأسلحة أنها يجب أن تحفظ غالبية الأسلحة في جعاب أو حقائب جلدية حتى لا تحدث خشخشة أو أصوات يستدل منها الأعداء على أماكنهم⁽¹⁾.



(1) إبراهيم خميس خليل، الخيل والخيول العسكرية الإسلامية منذ بداية الغزو الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس والثلاثون 1988م، ص 170.



■ الفصل الخامس

الأسطول ودوره في العصر الأيوبي

مقدمة

لا شك أن البحرية في مصر كانت قد تبوأَت مركز الصدارة في العصور الفرعونية القديمة، فقد كان لمصر مركز الصدارة في سيادة البحار، وفي أحضان وادي النيل، وعلى ضفاف نهره المبارك صنعت أول السفن التي صعدت إلى أعلى النيل وانحدرت إلى أسفل أرجائه، ولم تكتف بهذا المجال الضيق، فخرجت بسم الله مجراها ومرساها تمخر عباب البحار والمحيطات وتجوب الثغور الدانية والموانئ القاصية، حتى تبوأَت مصر مركز الصدارة في سيادة البحار بين شعوب العالم القديم⁽¹⁾، وقد جاء نشاط حركة السفن في عهد الدولة القديمة⁽²⁾، ولقد أعقب الحكم الفرعوني ثم الحكم البطلمي ثم الحكم الروماني ثم جاء العرب وتم فتحها على أيديهم في القرن السابع الميلادي، فدخلت مصر في طور جديد من تاريخها المجيد الرائع استعادت فيه ماضيها المجيد، وبلغت فيه أساطيلها البحرية درجة أرهبت أعداءها ودعمت استقلالها، ثم جعلت منها إمبراطورية مترامية الأطراف⁽³⁾.

الأسطول في العصر الإسلامي

عندما ظهر الإسلام⁽⁴⁾ ونخفت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر، رأوا سفن

(1) لقد استطاعت مصر أن تحافظ على هذا العصر الذهبي المرموق في سيادة البحار قرابة سبعة آلاف عام، رغم ما قاسته من المحن وما لاقته من صنوف العذاب من الدول الأجنبية التي توالت على حكمها في فترات ليست بالقليلة، لمزيد من التفاصيل: انظر سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتب العربي للطباعة والنشر سنة 1967م، ص 15، انظر أيضًا سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية، وضع فصوله نخبة من الأساتذة المتخصصة بجامعة الإسكندرية سنة 1973م، المقدمة، ص 1.

(2) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 18، سعد زغلول، تاريخ البحرية المصرية ج 1، ص 1.

(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) لم يركب العرب البحر قبل الإسلام، إلا ما كان من سفائن حمير وسبأ في أيام التبابعة؛ لأنهم كانوا أهل تجارة في البر والبحر، أما عرب الحجاز فإنهم كانوا يخافون البحر وذلك شأن البدو إلى هذا اليوم، لمزيد من التفاصيل انظر، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، وزارة الدفاع السلاح البحري الملكي، القاهرة 1948م، أيضًا انظر جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، طبعة جديدة، راجع عليها الدكتور حسين مؤنس، دار الهلال، ط 1 1920م، ط 2، 1958م.

الروم وشاهدوا حروبها فتاقت أنفسهم للغزو وإنشاء السفن الحربية⁽¹⁾، وقد كان أول من ركب البحر من المسلمين هو «العلاء بن الحضرمي»⁽²⁾ خليفة «عثمان الثقفي» في ولاية البحرين أيام الخليفة «عمر بن الخطاب»، إلا أن حملته قد باءت بالفشل⁽³⁾ وفقد المسلمون سفنهم⁽⁴⁾.

فلما علم الخليفة بأمر تلك الحملة غضب على «العلاء» غضبًا شديدًا؛ لأنه قام بها دون إذن منه، ولأن «عمر» كان يكره ركوب البحر⁽⁵⁾، وشدد «عمر» في منع المسلمين من ركوب البحر⁽⁶⁾، وكان من «معاوية بن أبي سفيان» أن كتب إلى «عمر بن الخطاب» يستأذن في ركوب البحر فرفض «عمر»⁽⁷⁾ وراجع «معاوية» في ذلك وألح عليه⁽⁸⁾، لكن «عمر بن الخطاب» كتب إلى «عمرو بن العاص» عامله على مصر يطلب إليه أن يصف له البحر⁽⁹⁾، فكتب إليه «عمرو»: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركذ حزن القلوب وإن زل أزاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»⁽¹⁰⁾، فلما جاء «عمر» هذا الكتاب كتب إلى «معاوية» يمنعه من ركوب البحر قائلًا «لا والذي بعث «محمدًا» بالحق لا أحمل فيه مسلمًا

(1) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص213.

(2) المقرئ، الخطط، ج2، ص189، جميل خانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص115، ذكرت الدكتورة سعاد ماهر أن أول من قام بغارة بحرية هو عثمان بن العاص الثقفي والى البحرين وأوردت في هامش أن كثيرًا من المؤرخين مثل ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص211، البلاذري، فتوح البلدان، ص464، الموردي، الأحكام السلطانية، ص194، 196، أن أول من ركب البحر في الإسلام هو علاء بن الحضرمي.

(3) جرجي زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص213. سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63.

(4) علي محمد فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص280.

(5) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص62.

(6) جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص213.

(7) علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى 1997، ص61، قاسم عبده قاسم، التنظيم البحري الإسلامي، ص61.

(8) جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص116-117.

(9) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ط1، ص211، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص214، علي محمد فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص279.

(10) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ط1، ص211، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص63، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص214، جميل الخانكي تاريخ البحرية المصرية، ص116-117، علي محمد فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص280، وضع فصوله نخبة من الأساتذة بجامعة الإسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية بجمهورية مصر العربية، 1973م، ص279.

أبدًا، أما قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطوال شىء على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب فيغرقها، وتالله لمسلم واحد أحب إلى الله مما حوته الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي «العلاء» منى ولم أتقدم إليه في مثل ذلك»⁽¹⁾، هذا وقد كان لعهد «معاوية» إذن للمسلمين في ركوب البحر والجهاد على أعواده⁽²⁾، وقد كان أعظم انتصار للعرب في العصر الإسلامي في الحروب البحرية موقعة «ذات الصواري» التي كانت أهم المواقع الحربية البحرية التي كانت بين الأسطول البيزنطي وبين أسطولى مصر والشام متحدتين تحت قيادة «عبد الله بن أبي السرح»⁽³⁾ (34هـ / 654م)، وهى الموقعة التي عرفت باسم موقعة أو غزوة «ذات الصواري» لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال، وقد كانت موقعة ذات الصواري ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين؛ لأنها إلى جانب أنها تعتبر جزءًا من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامة شواطئهم على البحر المتوسط، فإنها جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها⁽⁴⁾، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل في سيادة ذلك البحر، وفي العصر العباسي⁽⁵⁾ زاد الاهتمام بالأسطول نتيجة الغزوات البحرية التي شنها الروم على مصر، هذا بالإضافة إلى اهتمام الطولونيين بتدعيم قوتهم البحرية وإنشاء القواعد البحرية في دمياط والإسكندرية إلى جانب اهتمامهم ببناء دور الصناعة التي تصنع السفن⁽⁶⁾، وفي منتصف القرن العاشر الميلادي عنى «محمد بن طغج الإخشيد» بإنشاء المراكب الحربية⁽⁷⁾، ونقل جزءًا من دار صناعة السفن

(1) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 63، جرجى زيدان تاريخ التمدن، ج 1، ص 214، جميل الخانكي، ص 117، المقرئى، الخطط، ج 2، ص 19، جامعة الإسكندرية: تاريخ البحرية المصرية ص 279.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ط 1، ص 211.

(3) على محمد فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 286، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص 285.

(4) وفي العصر الأموي بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وصار خليفة العالم الإسلامي بدأ استعداداته بحرا وبرا لحملة ضد العاصمة البيزنطية، وتطلب مشروع كهذا أسطول قام معاوية بتجهيزه وقام بحملتين الأولى سنة 48هـ / 668م والثانية سنة 54هـ / 673م، أما الحملة الثالثة فكانت سنة 98هـ / 717م، بدأ في تجهيزها الخليفة الوليد بن عبد الملك واستكملها أخوه سليمان بن عبد الملك، وقد استطاعت الحملات الثلاث أن تحقق أهدافًا واسعة برغم عجزها عن الاستيلاء على القسطنطينية، إذ جعلت البيزنطيين يتخلون عن مشاريعهم وأحلامهم في استعادة مصر والشام وأن يدركوا أن جيوش الإسلام باتت قوية.

(5) في العصر العباسي نتيجة لأن العباسيين نقلوا عاصمتهم من سوريا إلى العراق بعيدة عن الأراضي البيزنطية، وبهذا توقفت المشاريع البحرية الكبرى التي كانت توجه من سوريا ومصر ضد القسطنطينية، فالعباسيون الأوائل لم يقوموا بأى مشروع بحرى ذى قيمة، انظر تاريخ البحرية المصرية، ص 297.

(6) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 91.

(7) جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص 141.

من جزيرة الروضة إلى الفسطاط في دار عرفت باسم «دار صناعة السفن»، وأصبحت السفن الحربية والتجارية تصنع في دار صناعة مصر تارة⁽¹⁾، وفي صناعة الجزيرة تارة أخرى.

الأسطول في العصر الفاطمي

كان للفاطميين دور مهم في تاريخ الأسطول سواء خلال حكمهم ببلاد المغرب أو بمصر⁽²⁾، غير أن الذي يهمننا هو الفترة المصرية فعندما انتقل حكم مصر للفاطميين انتقل إليها نشاطهم البحري أيضًا لحماية شواطئهم الطويلة، فقد سيطر الفاطميون على شواطئ الإسلام من إنطاكية إلى الإسكندرية وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله «وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدوم «المعز لدين الله» وإنشاء المراكب البحرية، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد، واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعسقلان»⁽³⁾، ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة «المعز لدين الله» أنشأ دارًا ضخمة لصناعة السفن بالمقس⁽⁴⁾ بنى فيها ستمائة مركب، وصفها المؤرخ «عز الملك المسبحي» بقوله «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرًا ووثاقة وحسنًا»⁽⁵⁾، بالإضافة إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة ودار صناعة الفسطاط⁽⁶⁾ التي أنشأت السفن الحربية كالشوانى

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 94، جميل الخانكي، المرجع السابق، ص 141.

(2) حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو 1951، ص 104-105.

(3) المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 193، محمد كرد علي، خطط الشام، ج 5، دمشق 1346هـ / 1927م، ص 41-42.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 475، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 97، إبراهيم العدوي، قوات البحرية في حوض المتوسط مكتبة نهضة مصر، القاهرة سنة 1963م، ص 164، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص 142، على إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص 322، المقس: ضيعة كانت تعرف باسم أم دين واقعة على ساحل النيل وقد جعلها المعز مرفأً صناعيًا، وأنشأ بها الخليفة الحاكم «جامع المقس»، وقد عرفت في أول الأمر باسم «المقس» لإقامة صاحب المقس، والعشار بها ثم قلبت الكاف (قاف) فقيل المقس، وهي محله بظاهر القاهرة على شاطئ النيل ومكانها اليوم محطة باب الحديد وشارع كلود بك إلى حديقة الأزبكية، انظر أيضًا أحمد مختار العبادي، البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك ضمن تاريخ البحرية المصرية، ص 549، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 316.

(5) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 316.

(6) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية البحرية، ص 1، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 316، كانت تصنع في هذه الدور المراكب على أنواعها منها النيلية والحربية، فالنيلية كانوا يصنعوها لتمر في النيل من أعلى الصعيد إلى مصاب النيل لتحمل الغلال وغيرها، والحربية هي مراكب هي مراكب للحرب لحمل المقاتلين للجهاد، والتي يقال لمجموعها الأسطول، لمزيد من التفاصيل انظر، المقرئزي، الخطط، ج 2، ص 189. جرجي زيدان تاريخ التمدن، ج 1، ص 219، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 497.

والشنديات والمسطحات⁽¹⁾، واستطاع «المعز» بفضل أسطوله الجديد أن يتابع فتح الشام⁽²⁾ وإيقاف الأخطار التي تواجهه، أيضاً استطاع خلفاء «المعز» ومنهم «العزیز» إمداد قواته في الشام بالأساطيل الحربية وحماتها وتدعيم فتوحاتها⁽³⁾، وعمروا أنواعاً مختلفة من السفن الحربية كالشوانى... وغيرها⁽⁴⁾، هذا إلى جانب إنشائهم ديواناً خاصاً للأسطول عرف باسم «ديوان الجهاد»⁽⁵⁾، غير أن الدولة الفاطمية لم تلبث أن ضعفت في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى⁽⁶⁾، وذلك بسبب اضطراب بلاد الشام⁽⁷⁾، ومما هو جدير بالإضافة أن البحرية الفاطمية تقلصت بسبب الانقسامات الداخلية⁽⁸⁾ حينما تنازع الوزيران «شاور» و«ضرغام» على السلطة، و«شاور» الفسطاط وأضرم النار بها⁽⁹⁾، كما أحرق مراكب الأسطول⁽¹⁰⁾، فاحترقت السفن التي كانت ترابط بصناعة مصر وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى، ولم يبق لها سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية في الإسكندرية ودمياط وتيس وعيذاب⁽¹¹⁾.

البحرية زمن الأيوبيين

من الضرورى أن نعلم أن البحرية في عهد «صلاح الدين الأيوبي» إنما هى استمرار للبحرية الفاطمية التي بذلت أقصى جهدها في الدفاع عن السواحل المصرية والشامية التي

- (1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 477.
- (2) إبراهيم العدوى، قوات البحرية في البحر المتوسط، ص 138.
- (3) إبراهيم العدوى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (4) السيد الباز العرينى، مصر في عهد الأيوبيين، مطبعة الكيلانى الصغير، ص 165.
- (5) اختص ديوان الجهاد بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها، لمزيد التفاصيل انظر: المقرزى، الخطط، ج 2، ص 193، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990، ص 79، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 104، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 474.
- (6) ارشيبالد ر. لويس، القواعد البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100)، ترجمة أحمد عيسى، مراجعة وتقديم، محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، نيويورك، ص 383.
- (7) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ البحرية المصرية، المقدمة، ص 1-2.
- (8) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، المقدمة، ص 1-2.
- (9) سعد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 99، جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص 141.
- (10) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 477، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص 83.
- (11) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 491، 493.

كانت تابعة للفاطميين في وقت سابق⁽¹⁾، وعندما بدأت الدولة الأيوبية تتحمل عبء الدفاع عن مصر ثم الشام، كانت البحرية المصرية قد ضعفت إلى درجة كبيرة سواء في مصر أو في بلاد الشام خاصة بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان وصور وعكا⁽²⁾ وغيرها من القواعد البحرية في الشام وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالإسكندرية ودمياط وتينيس، وقد ذكرت بعض المصادر والمراجع أن بلغت عدة الأسطول الفاطمي «ثمانين شوانى وعشر مسطحات وعشر جمالة»⁽³⁾، وازداد حال الأسطول سوءاً، عندما توجه الصليبيون إلى مصر بقيادة ملكهم «أمورى»، وليست هذه بالمرّة الأولى في عهد وزارة «شاور»، فقد كان «شاور» قد أمر بإشعال النار في الفسطاط⁽⁴⁾ وإحراق مراكب الأسطول⁽⁵⁾ وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحرى، ولم يبق لها سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية في الإسكندرية ودمياط وتينيس وعيذاب⁽⁶⁾، من هنا كان على الدولة الأيوبية حينها قامت أن تبدأ دوراً جديداً في إنشاء أسطول ضخم جديد حتى تستطيع الصمود في مواجهة الأخطار التي ستواجهها⁽⁷⁾.

الإصلاحات التي قام بها «صلاح الدين» في مجال البحرية

من هنا بدأ «صلاح الدين» في إحياء البحرية المصرية وتجديد الأسطول وإصلاح مراكبه⁽⁸⁾ بعمل العديد من الإصلاحات المختلفة التي كان من أهمها:
أولاً: أفرد «صلاح الدين» للبحرية ديواناً خاصاً للإنفاق عليه⁽⁹⁾ عرف بـ«ديوان

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص519، ابن القلانسي (أبى يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق تتلوه نخبة من تواريخ ابن الأزرقي الفارقي) وسبط بن الجوزي والحافظ الذهبي، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين، 1908م، ص179-180.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص331.

(3) المقرئزي، الخطط، ج2، ص193، ارشيبالد.ر.لويس، القوة البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط، ص383، السيد الباز العريني، المرجع السابق، مطبعة الكيلاني الصغير، ص165، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص331.

(4) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص99، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص141.

(5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص477، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص83.

(6) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص493.

(7) أنور عبد العليم، الملاحة وفنون البحار عند العرب، ص97.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 572هـ، ج12، ص296.

(9) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص575.

الأسطول⁽¹⁾ 572هـ/1171م وخصص للصرف عليها خراج الفيوم⁽²⁾ وأعمالها وخراج البرين الشرقي والغربي⁽³⁾ وغيرها من الإقطاعات، كذلك خصص حصيلة النظرون⁽⁴⁾، التي بلغ مقدار ضماها يومئذ ثمانية آلاف دينار في السنة، مضافاً إلى ذلك ما يحصل عليه من مال الزكاة في مصر، والذي بلغ أكثر من خمسين ألف دينار⁽⁵⁾، هذا إلى جانب أجرة المراكب الديوانية (الحكومية)⁽⁶⁾، وأضيف إلى تلك المتحصلات المخصصة لديوان الأسطول حصيلة قريتي⁽⁷⁾ أشنين وطنبدي التابعتين لعمل البهنسا محافظة⁽⁸⁾ المنيا الحالية، وفي عام (587هـ/1191م) عين «صلاح الدين» أخاه «العادل» رئيساً عاماً لديوان الأسطول⁽⁹⁾، فعين «العادل» «صفى الدين بن شكر» نائباً في ديوان الأسطول⁽¹⁰⁾، وقد منح «صلاح الدين» صاحب الأسطول صلاحيات واسعة لتنفيذ المهام الخاصة بالبحرية⁽¹¹⁾، هذا بالإضافة إلى أنه كتب إلى سائر البلاد⁽¹²⁾ المصرية

- (1) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، جرجي زيدان تاريخ التمدن، ج1، ص217، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص144-145، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص83، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني، الطبعة الأولى دار العارف بمصر ص66، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص71، نظير سعداوى التاريخ الحربى المصرى، ص25، السيد الباز العرينى، مصر في عهد الأيوبيين، ص175.
- (2) حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص71، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى حتى الفتح العثماني، ص67.
- (3) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، انظر أيضًا نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص25، المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 2.
- (4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص25، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539.
- (5) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304 - 317، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص71، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص395، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص333-334.
- (6) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص71.
- (7) المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 2.
- (8) المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص107، هامش 3، حسنين ربيع، النظم المالية، ص71.
- (9) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص72، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص317، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539، ص575، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص144 - 145.
- (10) المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص73، 103، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص304، 317، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص539، 575.
- (11) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص335.
- (12) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

والشامية⁽¹⁾ «القول قول صاحب الأسطول، وألا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول ألا ييارح البحر»⁽²⁾.

ثانياً: لإحياء البحرية المصرية عمل «صلاح الدين» أيضاً على الاهتمام بالغابات فقد جعل الغابات من اختصاص الدولة أى ملكاً خاصاً لها ولم يسمح لأحد بالتصرف بالأشجار⁽³⁾، وذلك بالانتفاع بأخشابها، وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به إلى أواخر الدولة الأيوبية في مصر، وبهذا الصدد ذكر «عثمان بن إبراهيم النابلسي» المعاصر للدولة الأيوبية في مصر: «أن الحراج (الغابات) حكمها حكم المعادن وهى لبيت مال المسلمين، ما لأحد فيها ملك ولا اختصاص»⁽⁴⁾، وصار هذا القانون على المواد التى تستوردها الدولة من الخارج وخاصة الحديد والخشب الضرورين لقيام صناعة السفن⁽⁵⁾، بالإضافة إلى أنه كان يوجد ديوان سمي بـ «المتجر السلطاني» كان مقره الإسكندرية⁽⁶⁾، وكان اختصاصه هو شراء البضائع المستوردة التى تحتاجها الدولة للأغراض العسكرية خاصة فى بناء السفن⁽⁷⁾، وكان المشرفون على المتجر يشترون هذه البضائع بأموال الخمس التى تفرض على التجار⁽⁸⁾، ومما هو جدير بالذكر أن «صلاح الدين» استفاد فى بناء أسطوله بالحصول على أخشاب الصنوبر والأرز التى تنبت فى غابات لبنان⁽⁹⁾، هذا إلى جانب عقد «صلاح الدين» معاهدات تجارية مع الجهايريات الإيطالية، حصل بمقتضاها على الحديد والخشب والشمع اللازمة لبناء السفن⁽¹⁰⁾، كذلك اهتم «صلاح الدين» برجال البحرية

(1) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 539.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 1 ق 1 ص 690 (حوادث سنة 572 هـ)، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبية، ص 71، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 575.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي فى عهد صلاح الدين، ص 332.

(4) عثمان النابلسي، لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية، ص 48.

(5) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي فى عهد صلاح الدين، ص 332، على محمود فهمى، تاريخ التنظيم البحرى فى شرق الأوسط، ص 88، إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى البحر المتوسط ص 165.

(6) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 575-576.

(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي فى عهد صلاح الدين، ص 333.

(8) ابن عماتى، قوانين الدواوين، ص 327، حسنين ربيع، النظم المالية، ص 51.

(9) إبراهيم العدوى، قوات البحرية فى البحر المتوسط ص 165، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 575-576.

(10) السيد الباز العرينى، مصر فى عهد الأيوبيين، ص 172.

والعاملين في صناعة السفن برفع المستوى المعيشى لهم وتحسين أوضاعهم⁽¹⁾ وتشجيع الناس على الالتحاق بصفوف البحرية⁽²⁾ والعمل في الأسطول⁽³⁾.

وفي عام (567هـ/1171م) تقرر أن يكون دينار الأسطول نصف وربع الدينار (3/4 الدينار)⁽⁴⁾ بعد أن كان (5/8)⁽⁵⁾ الدينار على عهد الفاطميين «أى بزيادة 17.5% من قيمة الدينار الفاطمى»⁽⁶⁾.

ويبدو أن قيمة ذلك الدينار اختلفت باختلاف درجات الأسطول⁽⁷⁾.

ثالثاً: أيضاً في مجال إصلاح البحرية في العصر الأيوبي فقد قام «صلاح الدين» بتشجيع الناس على الالتحاق بصفوفها من خارج مصر⁽⁸⁾.

وقد نجح «صلاح الدين» في ذلك بيبث روح الجهاد في نفوس المسلمين وحثهم على التطوع للعمل في الأسطول حتى صار «خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم»⁽⁹⁾، ومع هذا ظل الأسطول يعاني من نقص الأيدي الفنية العاملة فيه ومن قلة البحارة على عكس الأسطول الصليبي⁽¹⁰⁾، كذلك اهتم «صلاح الدين» بتحسين ثغور مصر، وتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظرة الممتدة على طول سواحل مصر والشام، فحشد فيها الأجناد

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى لمصر في عهد الأيوبيين، ص 26.

(2) السيد الباز العرينى، مصر في عهد الأيوبيين، ص 171.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 334.

(4) حسنين ربيع، النظم المالية، ص 72، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 334، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 539، ص 577.

(5) حسنين ربيع، النظم المالية، ص 72، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 577.

(6) المقرئى، السلوك، ج 1، ص 194، المقرئى، الخطط، ج 2، ص 194.

(7) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 45، حسنين ربيع، النظم المالية، ص 72، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 539.

(8) كان للملاحين المغاربة دور كبير في اعتماد الأسطول عليهم، إذ كانوا أول العناصر التى اعتمدت عليهم الفاطميون في تأسيس الجيش الفاطمى فضلاً عن أن المغاربة لهم معرفة جيدة بشئون البحر، هذا إلى جانب انضمام الملاحين المهرة في شمال إفريقيا إلى صفوف بحارة الأسطول المصرى، وقد أشاد المؤرخون أمثال ابن جبير والنويرى السكندرى لشجاعتهم في هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك، لمزيد من التفاصيل انظر، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 577، السيد الباز العرينى، مصر في عهد الأيوبيين، ص 171، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 335، ص 338.

(9) المقرئى، الخطط، ج 2، ص 194، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 339.

(10) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

البطالين⁽¹⁾، بعد عودة «صلاح الدين» من رحلته إلى بلاد الشام 572هـ / 1176م خرج ليتفقد أحوال عمليات التحصين والبناء الجارية في الثغور المطلة على البحر المتوسط منها الإسكندرية ودمياط وتينيس⁽²⁾، وفي عام (577هـ / 1181م)، رتب «صلاح الدين» المقاتلة على البرجين الواقعين على طرفي المدينة من جانب البحر، وأمر بشد المراكب إلى السلسلة ليقاوم عليها المدافعون عنها إذا استطاع العدو من الدخول بين البرجين⁽³⁾، ويضيف مؤرخنا «المقریزی» قائلاً عن سلسلة ثغرة دمياط أيام «صلاح الدين»: «إن برج دمياط كان برجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول إلى ديار مصر في النيل»⁽⁴⁾. هذا وقد زار «صلاح الدين» الإسكندرية ثلاث مرات الأولى (عام 566هـ / 1170م) حينما كان «صلاح الدين» وزيراً للخليفة «العاقد» وفيها أمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها⁽⁵⁾، ثم قام بزيارته الثانية للإسكندرية أوائل سلطنته وبها استجد السور الدائر وأتم الثغور وأمر بتعمير الأسطول وجمع له من الأخشاب والصناعات أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه وشحنة بالرجال وولى فيه أحد أصحابه وأمره ألا يبارح البحر وأن يغزو جزائره⁽⁶⁾ (572هـ / 1176م)⁽⁷⁾، وفي الزيارة الثالثة عام (577هـ / 1181م) شاهد «صلاح الدين» الأسوار والتجديدات بها وأمر بالإتمام والاهتمام⁽⁸⁾، وكان «صلاح الدين» قد أمر والي

- (1) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة، راجع المقریزی، السلوك، ج1، ق1، ص73، هامش 4، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، هامش 6، ص576.
- (2) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص577.
- (3) السيد الباز العريني، مصر في عهد الأيوبيين، ص175، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص335-336.
- (4) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص318.
- (5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ق1، ص486، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص199، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني ص65-66، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص577، الأبدان: جمع بدنة وهي الستارة البنائية من السور الواقعة بين برجين، انظر، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص237.
- (6) أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص689-690، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص577.
- (7) ابن كثير، البداية والنهاية، حوادث سنة 572هـ، ج12، ص296، أبو شامة الروضتين، ج2، ص689، المقریزی، السلوك، ج1، ص63، السيد الباز العريني، مصر في عهد الأيوبيين، ص171، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص66، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص336، لم يمض عام واحد على تعمير الأسطول حتى أصبح للإسكندرية أسطول ضخم أضيفت إليه قطع جديدة صنعت بدار صناعة الإسكندرية بأمر حسام الدين لؤلؤ الحاجب.
- (8) جمال الدين الشيال، المجلد في تاريخ دمياط، ص18، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص577.

المدينة «فخر الدين قراجا» بكسر أربعائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري، والقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها، أو لكسر حدة الأمواج على سور الإسكندرية⁽¹⁾.

وبعد عهد «صلاح الدين» صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية، ففي أيام السلطان «الكامل محمد» وولده السلطان «الصلاح أيوب»، شهدت مصر اهتمامًا بالأسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية بقيادة «جان دي برين» صاحب عكا و«لويس التاسع» ملك فرنسا، ويظهر لنا هذا الاهتمام أيضًا في الوصية التي كتبها «الصلاح أيوب» قبل وفاته لابنه وولي عهده «توران شاه» ويقول فيها «واحفظ يا ولدي ما أقوله لك فهذا جميعه ما عرفني به الأخ «فخر الدين» وأخبرني أنه وقف على كتاب بخط «صلاح الدين» أن الفيوم وسمنود والسواحل والحراج للأسطول، فالأسطول أحد جناحي الإسلام فينبغي أن يكونوا شباعا، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهما مستمرة راتبه، جاءوا من كل فج عميق»⁽²⁾.

مراكز صناعة السفن في مصر في عصر الأيوبيين

أما عن مراكز صناعة السفن في عصر الأيوبيين فمنها دار صناعة الجزيرة⁽³⁾ أي جزيرة مصر التي تعرف اليوم بـ«الروضة»⁽⁴⁾ الذي كان قد جردها «ابن طولون» فجدد عمارتها، وقد

(1) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص 577، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 337، عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني، ص 67.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 27، ص 62-91، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص 540، حسنين ربيع، النظم المالية زمن الأيوبيين، ص 73.

(3) لفظ الصناعة بكسر الصاد مأخوذة من قول صنعه يصنعه صنعًا فهو مصنوع وصنيع عملة، فالصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية التي يقال لها السفن ووحدتها سفينة، لمزيد من التفاصيل انظر المقرزي، الخطط، ج 2، ص 189، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 311.

(4) أنشئت في مصر أول دار لصناعة السفن في العصر الإسلامي 54هـ/674م في عهد وليها مسلمة بن مخلد من قبل الخليفة معاوية بن أبي سفيان وهي «صناعة الروضة لأن مقرها جزيرة الروضة، والأمر الذي جعل المسلمين يلجئون إلى تشييد دار صناعة السفن في جزيرة الروضة هو نزول الروم (البيزنطيين) بالبرلس عام 53هـ/673م، هذا بالإضافة إلى أنه قد أقيمت بالإسكندرية دار أخرى لصناعة السفن في عهد والي عبد الله ابن سعد، لمزيد من التفاصيل محمد جمال الدين الشيال، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثاني، أكتوبر 1949م، ص 14، انظر أيضًا عبد الله كامل موسى عبده، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع 1995، ص 247، انظر على محمود فهمي، قاسم عبده قاسم، التنظيم البحري في شرق المتوسط، ص 39، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 104، على فهمي، تاريخ البحارين المصريين المقدمة (ن) ص 346، إبراهيم العدوي، قوات البحرية في حوض البحر المتوسط، ص 152.

سميت في العصر الفاطمي بدار صناعة الروضة نسبة إلى البستان الذي عمره الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش «بدر الجمالي» في شمال الجزيرة 490هـ/1096م، وكانت هذه الدار تختص بصناعة الحراريق والشلنديات⁽¹⁾، إلا أن هذا المركز لم يعد يتمتع بأهميته السابقة في العصر الأيوبي، وذلك لأن صناعة السفن تركزت في الفسطاط بمدينة مصر، هذا ومن الملاحظ أن صناعة السفن في مصر اقتصرت على مدينتي مصر والقاهرة، ولم تكن هناك دور صناعة في الجهات الساحلية، عكس ما كانت عليه الحال في بلاد الشام وإفريقية الشمالية والأندلس، ولعل هذا يرجع إلى سهولة إرسال السفن من الداخل إلى الساحل عبر نهر النيل⁽²⁾.

أما بالنسبة للعصر الأيوبي فمراكز صناعة السفن لم تهتم بذكرها المصادر ولم تلق الضوء الكافي باستثناء دار صناعة الفسطاط بمدينة مصر التي كانت مركزاً لهذه الصناعة منذ أن تولى «محمد بن طغج الإخشيد» حكم مصر عام (324هـ/935م)⁽³⁾، وظل هذا المركز تصنع فيه السفن في العهد الفاطمي والأيوبي والمملوكي، وظلت دار صناعة مصر تصنع فيها السفن التي تحتاج إليها دولة «صلاح الدين»، ومنها أرسلت الأساطيل للدفاع عن البحر الأحمر أو البحر المتوسط أثناء احتدام الصدام بين العدو الصليبي، وكذلك أرسلت منها الحملات إلى بلاد اليمن، فكانت هذه الدور تشحن بآلات الحرب والمقاتلة، ثم تقلع في نهر النيل إلى ثغور مصر كالإسكندرية ودمياط أو تنيس للدفاع عن ساحل مصر، وهناك مراكز أخرى لصناعة السفن منها مركز صناعة المقس على شاطئ النيل بالقاهرة، الذي أنشأها «المعز لدين الله الفاطمي» وقد احترقت عام (386هـ/996م)⁽⁴⁾ وأتت النار على جميع ما في الأسطول من

(1) المقرئزي، الخطط، ج2، ص196.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص340.

(3) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) لجأ الروم إلى بعض أساليب الغدر لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية، ومن ذلك أن الخليفة العزيز أمر عام 386هـ/996م بإعداد أسطول عظيم في دار صناعة المقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام لكن ما كادت دار الصناعات تفرغ من بناء السفن حتى شبت فيها النار واحترقت غالبيتها واتهمت السلطات الفاطمية تجار الروم وعمالهم من مدينة «أما لفي» بتدبير هذا الحادث، ولا سيما أنهم كانوا يقيمون في إحدى الفنادق المجاورة لدار الصناعة البحرية ولم تتأثر البلاد بهذا الحادث إذ أمر الخليفة العزيز عيسى بن نسطروس بجمع الأخشاب من سائر أنحاء البلاد وبناء أسطول آخر وظلت المقس ثغراً مهماً للقاهرة، كما ظلت دار صناعة تعمل حتى بداية العصر الأيوبي، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص549، لمزيد من التفاصيل انظر، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص98، إبراهيم العدوي قوات البحرية في حوض المتوسط، ص139.

العدة والسلاح، فأحرقت خمس عشاريات وأتت على جميع ما في الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ستة مراكب فارغة لا شيء فيها⁽¹⁾.

أنواع المراكب البحرية الأيوبية

زخرت المصادر والمراجع بأسماء العديد من أنواع السفن المختلفة⁽²⁾، وقد كانت السفن والمراكب أنواعاً تتفاوت شكلاً وحجماً وقوة⁽³⁾، وكان لكل منها استعماله الخاص، فالسفن أنواع، منها الحربية والتجارية، ومنها ما هو للرحلة والنزهة فقط⁽⁴⁾، ولعل «ابن ممتى» هو أبرز من تحدث عن أنواع سفن الأسطول وأسماء مراكبها إلا أن حديثه لم يكن وصف السفن والتحدث عنها⁽⁵⁾.

والقرآن الكريم مليء بذكر البحر في مناسبات لا حصر لها وأتى بأسماء للمركب ومن هذه المسميات، الفلك والجارية والسفينة⁽⁶⁾ وذات الألواح والدر⁽⁷⁾، وفي قوله - تعالى - ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [الإسراء: 66]، وقد

(1) المقرئ، الخطط، ج2، ص195.

(2) تحدثت سعاد ماهر عن العديد من أنواع السفن حتى إنه بلغ عدد السفن 157 نوعاً من المراكب، لمزيد من التفاصيل انظر ص328-373، كما قام الدكتور درويش النخيلي بجمع أسماء السفن الإسلامية من المراجع والمصادر في كتاب السفن الإسلامية على حروف المعجم.

(3) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص327، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص219.

(4) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص560-561.

(5) كانت السفن البحرية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغربة والبطسات والأعواديات والشلنديات، والحراقة... لمزيد من التفاصيل انظر الأسعد بن ممتى، قوانين الدواوين، ص339، محمد كرد علي، خطط الشام، ج5، ص43، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص341.

Dozy, supplement, pp659-660

(6) لغة والجمع سفن وسفائن وسفينة وهي الجارية من المراكب الكبيرة، من سفن الشيء سفناً يسفن أى قشرها والسفينة: الفلك لأنها تسفن وجه الماء أى تقشره وقد ورد صانعها السفان وحرفته السفانة، وقد ورد اللفظ في قوله تعالى ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت 15] لمزيد من التفاصيل انظر درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف الإسكندرية، الطبعة الثانية سنة 1979م، ص65، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص166، على محمود فهمي، التنظيم البحري في شرق المتوسط، ص130، على فهمي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص399، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص121.

(7) الدر: ألواح مصنوعة من الخشب والمسامر، على فهمي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص271.

ذكر «المقريزي» أن السفن وهى بمصر على قسمين نيلية وحربية⁽¹⁾، لكن الذى يخصها هنا هى المراكب الحربية وأنواعها .

أنواع سفن الأسطول الحربى

الشيئى أو الشونة

والشيئى هو الأصل الذى يتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقها والجمع شوانى وشون⁽²⁾، وقد كانت من أهم القطع التى يتألف منها الأسطول الإسلامى⁽³⁾، فكل سفينة حربية شيئى تحمل اسما معينا يدل على وظيفتها، وقيل إنها المركب المعد للجهاد فى البحر⁽⁴⁾ فمنها الغراب⁽⁵⁾ والجنف⁽⁶⁾ والطريدة والحراقة، وتمتاز الشينى بالطول وكبر الحجم وحمل المقاتلين⁽⁷⁾ وتجدف بمائة وثلاثة وأربعين مجدافاً⁽⁸⁾، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم⁽⁹⁾ حتى صارت أشبه بالقلاع البحرية، تحاصر العدو وترميه بالنفط⁽¹⁰⁾، بالإضافة إلى

(1) المقريزى، الخطط، ج2، ص189، درويش النخيل، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص11، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، موسوعة عالم المعرفة، يناير سنة 1979م، ص110 .
(2) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص56، هامش 7، درويش النخيل، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص83-84 .

Dozy, Supplement aux Dictionnaires Arabes, tome1, p812.

(3) المقريزى، السلوك، ج1، ق1 ص306 هامش 2، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص352، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص498.
(4) الإفصاح فى فقه اللغة، ج1، ط2، ص616.
(5) الأسعد بن ممتى، قوانين الدواوين، ص339، عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1974، ص259.
(6) عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص259.
(7) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي فى عهد صلاح الدين، ص342.
(8) أبو شامة الروضتين، ج1، ق2، ص598، إبراهيم العدوى، قوات البحرية المصرية، ص167.
(9) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص13، هامش 1، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص120، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص219، درويش النخيل، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص83، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية ص498، عبد الرحمن زكى، السلام فى الإسلام ص36، عبد الحميد زكى، معارك حاسمة فى تاريخ مصر، ص83، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص352، أحمد الزيانت، ومحمود ماهر، مجلة عالم الآثار، العدد الأربعون أكتوبر 1987، ص5، حسين مؤنس، المسلمون فى حوض المتوسط، المجلة التاريخية المصرية، ص109.
(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص13، هامش 1، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص405، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص36.

أنها كانت تزود بالآلات المقاتلة مثل الأحجار والرماح والقسي وسائر الأسلحة المقاتلة⁽¹⁾.

ومما هو جدير بالذكر، أنها كانت من أقدم السفن الحربية في مصر وأكثرها استعمالاً⁽²⁾، ويذكر «أبو شامة» في حوادث عام (569هـ / 1173م - 570هـ / 1174م) حينما نزل أسطول صقلية على الإسكندرية أنهم كان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون رجلاً⁽³⁾، كذلك احتوت تلك الشوانى على مخازن للقمح وصهاريج لخزن المياه العذبة⁽⁴⁾ حتى تساعد بحارتها وجندتها على البقاء أطول مدة ممكنة في عرض البحر⁽⁵⁾، وحدث في أواخر عام (586هـ / 1190م) مناوشة بين الأسطول الأيوبي والأسطول الصليبي، فذكر «العماد الكاتب» أنه خرج الأسطول الأيوبي «بشوانه المعجبة المحسنة، ليكبس شوانى الفرنج وإحراقها، بقوارير النفط... ونالت من الظفر ما نالت وأحرقت للفرنج شوانى برجالها وعرفت بأبطالها»⁽⁶⁾.

الطريدة

طريدة وطريد وجمعها طرائد⁽⁷⁾، وهو نوع من المراكب الحربية⁽⁸⁾ صغيرة الحجم سريعة السير⁽⁹⁾، وهى أكثر شكلاً بالبراميل⁽¹⁰⁾ منها بالسفينة الحربية⁽¹¹⁾ وهى بدون سطح، وتكاد

- (1) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 259.
- (2) المقرئى، الخطط، ج 2، ص 194-195، النورى، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 29، هامش 2، ص 101.
- (3) سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص 126.
- (4) درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 83-84، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 259، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 405.
- (5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 259.
- (6) العماد الأصفهانى، الفتح القسى في الفتح القدسى، ص 463.
- (7) ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 256، وذكر أيضاً أن الطريدة هى السفينة.
- (8) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 56، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 353، درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 19.
- (9) جميل الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص 121، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص 168، انظر أيضاً، الإفصاح في فقه اللغة، ج 1، ط 1، ص 616.
- (10) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 56، هامش 4، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية ص 406، إبراهيم العدوى قوات البحرية في البحر المتوسط، ص 168، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية، ص 110.
- (11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 260.

تكون خالية من المسامير، ولهذا فإن ألواحها الخشبية رقيقة وصلبة⁽¹⁾ وكانت تستخدم في نقل الخيل وحملها ومنها نوع يستخدم لمطاردة العدو لسرعتها⁽²⁾، وقد استعملها «صلاح الدين الأيوبي»، ويذكر أنه في عام (569 هـ / 1173 م - 570 هـ / 1174 م) جاء الأسطول الصقلي⁽³⁾ ونزل في الإسكندرية وكان معه ستة وثلاثين طريدة⁽⁴⁾ تحمل الخيل⁽⁵⁾، ويتحدث «ابن ممتي» عن الطريدة ويقول «فأما الطريدة فإنها برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسًا»⁽⁶⁾، وقيل إنها تفتح عادة من الخلف بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب⁽⁷⁾.

البطشة

جمع بطس يقال أحيانًا بطشة⁽⁸⁾، وهي من أشهر أنواع السفن في أيام الحروب الصليبية⁽⁹⁾، وهي مركب كبير الحجم⁽¹⁰⁾ عظيم البناء⁽¹¹⁾ يتكون من عدة طبقات أخذت عن الصليبيين⁽¹²⁾

(1) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص56 هامش 4. النويری، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28، هامش 2 ص392، جميل الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص121، على فهمي، التنظيم البحري في شرق المتوسط، ص139، أنور عبد العليم، الملاحاة وفنون البحار عند العرب، ص111، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص84-85، حسين مؤنس، المسلمون في حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص109، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، ص5.

(2) عبد العزيز، الأحكام، ص260.

Lane - pool (s), Saladin, pp126-127.

(3) أبو شامة الروضتين، ج1، ق1، ص598،

(4) ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص12-13.

(5) المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص55-56.

(6) الأسعد بن ممتي، قوانين الدواوين، ص339، المقریزی، السلوك، ج1، ق1 ص56 هامش 4، المقریزی، اتعاظ الحنفا، ج3، ص315، هامش 3، ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص12 هامش 3، أبو شامة الروضتين، هامش 3، ص598.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص261، أنور عبد العليم، الملاحاة وفنون البحار عند العرب، ص111.

(8) Dozy, Supplement aux Dictionnaires, pp94-95.

(9) درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص14.

(10) المقریزی، الخطط، ج2، ص194، النويری (شهاب الدين أحمد نهاية الأرب في فنون الأدب)، ج28 هامش 2، ص395، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص578، أنور عبد العليم، الملاحاة وفنون البحار عند العرب، ص112، عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص500، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، ص5.

(11) إبراهيم العدوي، القوات البحرية في البحر المتوسط، ص168

(12) تنوعت سفن الأسطول الصليبي التي اعتمدت عليها في نقل الجنود والعتاد وكان أهم أنواع السفن الصليبية الغلايين، الرماح، الحمام، إلى جانب الدريموند (Dromonds) التي كانت تستخدم في نقل السلاح والطعام لمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة، ص159-160.

يشغل كل طبقة منها فئة من الجند بأسلحتها⁽¹⁾، وتستخدم في نقل الأوزاد والميرة وآلات الحرب⁽²⁾ والحصار وأعداد من المقاتلة تصل إلى سبعمائة⁽³⁾، وهي سفينة كثيرة القلوع تصل إلى أربعين قلعة⁽⁴⁾، وقد كان العمل الأصلي للبطس هو القتال في البحر⁽⁵⁾، ويذكر «النويري» في معرض حديثة عن الأسطول ومحاصرة «صلاح الدين» لعكا عام 585هـ حينما وصل الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدمهم «حسام الدين لؤلؤ»، وكان شهياً شجاعاً، خبيراً بقتال البحر، فوصل بغتة فوق على بطشة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ ما فيها من الأموال الكثيرة والميرة وعبر ذلك إلى عكا، وقال «العماد» إنه ظفر ببطشتين⁽⁶⁾.

الشلندى

الجمع شلنديات⁽⁷⁾ وشلندية⁽⁸⁾ من المراكب الحربية الكبيرة⁽⁹⁾ لا تقل أهمية عن الشوانى والحراريق⁽¹⁰⁾.

وقد قال عنها «ابن ممتى»: «إنها مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره وجداقون يجدفون تحتهم»⁽¹¹⁾.

وهي عبارة عن سفينة مسطحة يقاتل عليها الجنود بينما يكون المجدفون قائمين بتحريك

(1) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 331، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص 168، الخانكي، ص 123.

(2) عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 13.

(3) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 500، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112.

(4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 500، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية ص 109، الخانكي، ص 123، النخيلي، ص 14.

(5) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 14.

(6) ابن واصل مفرج الكروب، ج 2، ص 305، النويرى نهاية الأرب، ج 28، ص 420، ولزيد من التفاصيل عن البطس وأمثلة لها، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث عام 578هـ، 585هـ، 586هـ درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 14-15.

(7) على محمود فهمى، التنظيم البحرى في شرق المتوسط، ص 134.

(8) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 78-79.

(9) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 352، إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص 168، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 111.

(10) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220، درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 78-79.

(11) الأسعد بن ممتى، قوانين الدواوين، ص 339.

المجاديف أسفلهم⁽¹⁾، فالشلمندى بهذا المعنى كان يتكون من طبقتين على غرار المسطح⁽²⁾، وهي مخصصة لنقل المقاتلة والأسلحة⁽³⁾ والبضائع⁽⁴⁾.

ويذكر مؤرخنا «المقريزي» في حوادث 565هـ أنه حينما نزل الفرنج إلى دمياط في مستهل صفر بألف ومائة مركب ما بين شينى ومسطح وشلمندى وطريدة⁽⁵⁾.

الحراقة

جمعها حراقات⁽⁶⁾ وحراريق، استعمل هذا النوع من السفن لأغراض التزهة والنقل⁽⁷⁾ في مياه الأنهار مثل النيل ودجلة وشط العرب. فقد كان للخليفة العباسى الأمين خمس حراقات في نهر دجلة ببغداد صنعت كل واحدة منها على هيئة حيوان هو الأسد والعقاب والحية والفيل والفرس⁽⁸⁾، أيضاً كانت تستخدم في الحفلات الرسمية والاستعراضات البحرية⁽⁹⁾، ولكن تطور شكل الحراقة فصارت تستعمل في القتال فأصبحت من السفن الحربية متوسطة الحجم⁽¹⁰⁾، وسميت الحراقة بهذا الاسم؛ لأنها كانت تحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية⁽¹¹⁾ والنفط الذى يرمى بالمنجنىقات⁽¹²⁾ أو بالسهام أو في

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص194، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص499، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص403.

(2) ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص340، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص346.

(3) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص352، الخانكي، ص121، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص36، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج1، ص220.

(4) حسين مؤنس المسلمون في حوض المتوسط، المجلة المصرية التاريخية، ص109.

(5) المقريزي، حوادث 565هـ، درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص81.

(6) إبراهيم العدوى، قوات البحرية في حوض المتوسط، ص167.

(7) المقريزي، خطط، ج2، ص194-195، النورى، نهاية الأرب، ج29، ص101-102.

(8) قال المقريزي عن الحراقة إنها أقل حجماً من الذى، ويجدف بيائة مجداف ويلحق بهذا النوع من السفن الشلمندى، لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي، الخطط، ج2، ص194، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص339، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص344.

(9) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص340، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص21.

(10) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص111، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص84-85.

(11) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، هامش2، ص306، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص339، الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص121، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص21.

(12) إبراهيم العدوى، قوات البحرية، ص167، عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص84-85.

القوارير⁽¹⁾ لترمى بها على الأعداء لإحراق سفنهم⁽²⁾ أى سفينة فيها مرمى نيران يرمى بها العدو⁽³⁾.

ووصفها «ابن ممتى» وحدد عدد مجاديفها وذلك بعد ذكره الشينى في قوله «الحراقة مختصرة وربما كانت مائة وحوالى ذلك»⁽⁴⁾، وقد ذكر «ابن شداد» في معرض حديثه على محاولة إدخال المسلمين الميرة والأقوات في بطسة إلى عكا المحاصرة، وذلك في شهر رجب عام (586هـ/1190م) «وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات...»⁽⁵⁾.

ويذكر «ابن واصل» في حوادث عام 647هـ/1249م وهو يتكلم عن حملة «لويس التاسع» على مصر «وجاءت الشوانى والحرايق وفيها العدد الكاملة، والمقاتلة، فأرسلوا قدام السور أى سور المنصورة»⁽⁶⁾.

المسطح

جمعها مسطحات⁽⁷⁾ وهى مراكب ضخمة مسطحة⁽⁸⁾ كانت تحمل أسلحة الأسطول⁽⁹⁾، وهى أكبر سفن الأسطول الإسلامى⁽¹⁰⁾ وهى شبيهة بالبطسة كانوا يجرونها في البحار وقت الحرب خلف المراكب الأخرى من مراكب الأسطول خشية أن تغرق في واديهما⁽¹¹⁾، وذكره

(1) حسين مؤنس، المسلمون في حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص 109، أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة الآثار، ص 5.

(2) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 407، على محمود فهمى، التنظيم البحرى في شرق المتوسط، ص 137، السيد سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 498.

(3) الإفصاح في فقه اللغة، ج 1، ط 2، ص 616.

(4) ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص 340.

(5) ابن شداد، ص 135، ابن واصل، ج 2، ص 331.

(6) درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص 33، على لسان ابن واصل.

(7) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 368، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 52.

(8) الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص 123، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 499، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112. Dozy, Supplement, p652.

(9) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 499، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص 112.

(10) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220، حسين مؤنس، المسلمون في حوض المتوسط، المجلة التاريخية، ص 109.

(11) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 368، الخانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص 123، درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص 141، عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، ص 52.

«ابن ممتى» ضمن قطع الأسطول الأيوبي «أن المسطح هو في معناه»⁽¹⁾، ولعله أراد أن يقول أن المسطح شبيه بالشلندي الذي ذكره قبل المسطح أي أن المسطح سفينة ذات طابقين مسقفين يقاتل الغزاة على ظهرها والجداфон يجدفون تحتها⁽²⁾، هذا وقد ذكر «ابن شداد» في حوادث عام 587هـ/1191م أن هذا النوع من المراكب كان يسع خمسمائة راكب أو يزيد فقال «ولما كان يوم السبت خامس شوال، وصل الخبر أن الأسطول الإسلامي قد استولى على مراكب الفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزاد على ذلك»⁽³⁾.

ويتحدث «ابن واصل» أيضًا في حوادث عام 647هـ/1249م وهو يتكلم عن الحملة الصليبية السابعة على مصر وفي يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج سبعة وأربعون رجلاً وأحد عشر فارسًا، وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح لهم من الفرنج.

الحمالة

جمعها حمالات⁽⁴⁾ من سفن الأسطول الخاصة بحمل الغلة⁽⁵⁾، وغير ذلك مما يحتاج إليه الجيش ورجال الأسطول من المئونة والأزواد⁽⁶⁾ والذخيرة⁽⁷⁾، وهناك ما يدل على أن الحمالة كانت تستعمل في حمل الخيول، فقد ذكر «ابن واصل» بعد استيلاء الفرنج على عكا في عام (587هـ/1191م) على لسان «صلاح الدين» في رسالة له حملها «شمس الدولة بن منقذ» - سفيره - إلى ملك «يعقوب بن عبد المؤمن»... «فانبرى في هذه السنة ملكًا «إفرنسيس» (فيليب أوجست)، وإنكلتير (ريتشارد قلب الأسد) وملوك آخرون في مراكب حربية وحمالة، حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة...»⁽⁸⁾، ويذكر «أبو شامة» في حوادث عام

(1) ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص 340.

(2) المقرئزي، اتعاظ الخنفا، ج 3، هامش 3، ص 315، محسن محمد حسين الجيش الأيوبي، ص 345.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 196.

(4) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 40-41، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 340.

(5) المقرئزي الخطط، ج 2، ص 194، ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص 339، محسن محمد حسين الجيش الأيوبي، ص 345.

(6) الخانكي، تاريخ البحرية المصرية، ص 124، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص 340.

(7) إبراهيم العدوي، قوات البحرية، ص 168، حسين مؤنس، المسلمون في حوض المتوسط، ص 109.

(8) مفرج الكروب، ص 361-362.

(569هـ/1173م) وكانت عدة المراكب برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً وفيها من الرجال المتفرقة وغلمايان الخيالة...»⁽¹⁾.

غراب

والجمع أغربة وغربان⁽²⁾ من أقدم أنواع السفن الحربية⁽³⁾، إذ كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان⁽⁴⁾ وظلت معروفة طوال العصور الإسلامية، وسميت بهذا الاسم لأن مقدمها يشبه رأس الغراب أو الطائر⁽⁵⁾ وتطلى بالقار وكانت رقيقة وطويلة⁽⁶⁾ لها قلاع بيضاء، مما يجعلها تشبه الغراب، واشتهرت هذه السفن بالبأس الشديد وإنزال الرعب في قلوب الأعداء⁽⁷⁾، وكان الغراب يسمى أيضاً بالشيتي، جفن، وهو معد لحمل الغزاة⁽⁸⁾، ويسير بالقلع كما كان يسير بعدد من المجاديف لا يتجاوز 180 مجدافاً⁽⁹⁾، هذا وقد تحدث «العماد الكاتب» فقال عنها «فكأنها الأسوار السود ركبها الأسود من كل أفعوان يحمله أفعوان وشجاع امتطته شجعان، وغراب بشتات العدى ناغق وسحاب بوميض الهدى بارق فيا لها من أغربة دارت بعقبان وأجنحة طارت بظلمان...»⁽¹⁰⁾.

هذا وقد أمدتنا الدكتورة «سعاد ماهر» نقلاً عن «ابن شداد» في كتابة النوادر السلطانية «أن من خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية»⁽¹¹⁾.

- (1) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص334، ابن واصل مفرج الكروب، ج2، ص13-14.
- (2) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص101، Dozy, Supplement, tome2, pp204-205.
- (3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص86.
- (4) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359-360، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص123، عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص86.
- (5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359، إبراهيم العدوي، القوات البحرية، ص167، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، المجلة التاريخية ص109، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص42، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص123، علي فهمي، تاريخ البحرية، ص405.
- (6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263.
- (7) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص104، إبراهيم العدوي، القوات البحرية، ص167، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص109.
- (8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263.
- (9) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص42.
- (10) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص61-62.
- (11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص263، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص359-360، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص42، علي فهمي، تاريخ البحرية، ص405.

العشارى أو العشارى

يقال لها عشاريات⁽¹⁾ وهى نوع من السفن الصغيرة المسطحة الضخمة⁽²⁾، التى تسير فى البحر المتوسط والبحر الأحمر، وكانت تستخدم فى نقل البضائع والرجال من ساحل إلى آخر⁽³⁾، كما تستخدم فى الأسطول الحربى لنقل المقاتلة والعتاد⁽⁴⁾ من الساحل إلى السفن الكبيرة التى تقف فى وسط الماء لكونها وإذا نطحت قاع البحر انكسرت لثقلها⁽⁵⁾ وكان هذا النوع يجر بعشرين مجدافاً⁽⁶⁾، وتذكر الدكتورة «سعاد ماهر» ما ذكره «المقريزى» نقلاً عن «ابن منظور»: «أنها من توابع الأسطول، وكان يسار بها فى النيل، منها ما كان يرسم الخليفة (فى عهد الدولة الفاطمية) وهى الدواميس ومفردها ديباس، يخرج بها أيام الخليج وغيرها، ومنها ما هو يرسم ولاية الأعمال، وهى بقية العشاريات والدواميس وللمشارفين الأعمال (أى المفتشى) عشاريات دون ذلك»⁽⁷⁾، وقد أعطانا المؤرخ «عبد اللطيف البغدادى» الذى زار مصر فى نهاية القرن الثانى عشر وصفاً مسهباً عن العشاريات جاء فيه «أما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه «العشرى»، شكله شكل شبارة داخلية، إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً وقد سطح بالأواح من خشب ثخينة محكمة، وأخرج منها أفاريز كالرواشن»⁽⁸⁾.

البركوش أو المركوش أو البركوس

الجمع براكيس⁽⁹⁾ وهى من السفن الصغيرة، ومهمتها الأساسية هى نقل الماء

- (1) حسين مؤنس، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، ص 110، Dozy, Supplement, p131 .
- (2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 347.
- (3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص 262، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 356، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص 42.
- (4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (5) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 122، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 356، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص 402.
- (7) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد الرحمن زكى، السلاح فى الإسلام، ص 41.
- (8) الرواشن: مفردها روشن (كلمة فارسية) ومعناها ما نتأ أو برز عن الحائط، سعاد ماهر، هامش 2 ص 356، نقلاً عن عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص 262، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 356، جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 122.
- (9) درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص 12.

لخفتها⁽¹⁾، قال عنها «ابن ممتى»: «أن المركوش لطيف لنقل الماء لخفته، يدخل على المواضع ويكون وسعه دون مائة أردب»⁽²⁾، ويفهم من كلام المصادر المختلفة مثل «ابن شداد» و«العماد الكاتب» وغيرهما أن البركوس كانت تستعمل لركوب الجند والناس.

وقد ذكر «ابن شداد» أن السلطان استأمن من الفرنج خلقًا عظيمًا لجثوا إلى المعسكر الإسلامي بسبب الجوع وعرضوا على السلطان فكرة القيام باقتناص مراكب الصليبيين، وقالوا «نحن نخوض البحر في براكيس، ونكسب منها العدو، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين»⁽³⁾، فأذن لهم في ذلك، وأعطاهم بركوسًا وهو المركب الصغير، فركبوا به وظفروا بمراكب التجار من العدو، وكان معدل حمولة البركوس حوالى خمسة وعشرين رجلًا⁽⁴⁾، هذا وقد ذكر «ابن شداد» أثناء القتال حول عكا في شهر ذى الحجة عام 586هـ/1190م فقال: «نحن نخوض البحر في براكيس... فإذا لهم في ذلك، وأعطاهم بركوسًا وهو المركب الصغير»⁽⁵⁾.

الأعزازى

هو مركب خاص يحمل المئونة والأزواد⁽⁶⁾، وقد ذكر «ابن ممتى»: «أن الأعزازى من توابع الأسطول تحمل فيه الأزواد»⁽⁷⁾، قالت عنه «سعاد ماهر»: «هى سفينة صغيرة من سفن الأسطول المصرى مخصصة لحمل المؤن والأزواد»⁽⁸⁾.

ابكترا وسبيكلا تورى

وقد ظلت مستعملة حتى العصور الوسطى وخاصة في الحروب الصليبية⁽⁹⁾، وقد لعبت السيكللا تورى دورا لا يستهان به في الحروب الصليبية⁽¹⁰⁾.

(1) المقرئى، الخطط، ج2، ص194، ابن ممتى، قوانين الدواوين، ص339، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص331، السيد سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص500، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص345.

(2) ابن ممتى، المرجع السابق، ص339-340.

(3) ابن شداد النوادر السلطانية، ص154، العماد الأصفهاني، الفتح القسى في الفتح القدسى، ص460، أبو شامة الروضتين، ص181-182، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص347.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسى في الفتح القدسى، ص460.

(5) أبو شامة الروضتين، ج2، ص187، درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص12.

(6) المقرئى، خطط، ج2، ص194.

(7) الأسعد بن ممتى، قوانين الدواوين، ص339.

(8) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص329.

(9) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص328.

(10) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص347.

فاسلي Phaseli

سفينة خاصة بنقل الركاب من مكان إلى آخر، وقد استعمل هذا النوع من السفن في الحروب الصليبية كوسيلة سريعة في نقل قواد الأساطيل والنجادات من المقاتلين من جميع دول أوروبا⁽¹⁾.

أعوادى

الجمع أعواديات، وذكره «الحموي» على أنه نوع من السفن ولم يشرح، وهو كما شرحه «ابن ممتى» سفينة تتبع الشينى وتحمل فيه الأزواد، وقد أخطأ «عزيز سوريال عطية» في قراءته عند نشره لكتاب قوانين الدواوين لـ «ابن ممتى» ذكره الأعزازى⁽²⁾، وقد أوردت الدكتورة «سعاد ماهر» اللفظين أعزازى وأعوادى على أنها نوعان من السفن فأثبتت الأول، كما جاء في نشر «عطية» ثم عرفت الأعوادى بأنه من السفن الصغيرة التابعة للأسطول المصرى⁽³⁾.

سفرى، سفريّة، أو مسافرة

المقصود بالمركب السفرى، أو السفينة السفريّة⁽⁴⁾ أو المركب المسافرة، تلك التى تستعمل كمراكب أو مركب لنقل المتاجر⁽⁵⁾، ولكن معظم المصادر تذكر هذا النوع من السفن إلا وتقرنه بنوع آخر وهو المراكب الحربية، ومن هنا ذهبت د/ «سعاد ماهر»: «أن هذا النوع من السفن ما هو إلا نوع من المراكب الحربية لا تسير إلا فى فصل الربيع»⁽⁶⁾، ويذكر «أبو شامة» عند كلامه عن حملة فرنج صقلية على ميناء الإسكندرية فى عام (569هـ/ 1173م)، «وجدت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم المسلمون إليها فحسفوها وغرقوها»⁽⁷⁾.

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 361-362.

(2) درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص 5.

(3) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 329.

(4) Dozy, Supplement, P335

(5) درويش النخيل، السفن الإسلامية، ص 64.

(6) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 346.

(7) أبو شامة الروضتين، ج 1، ص 235، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 14.

القرقور

جمعها قراقير وقراقر⁽¹⁾، وهي ضرب من السفن الكبار⁽²⁾ التي كانت تستعمل في تمويل الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة⁽³⁾، وتسمى «النقلات»⁽⁴⁾، ومن القرار نوع مسطح أي ذات سطح ضخم وهو في معنى الشلندي تقابل الغزاة على ظهرها، بينما يكن المجدفون قائمين بالتجديف أسفلهم⁽⁵⁾.

وكان الاستعمال الأول للقرقور هو نقل البضائع للتجار ولكن كانت القراقر تستخدم أيضًا في الحرب لنقل المواد التموينية الخاصة بالجنود الغزاة، وفي هذه الحالة يطلق عليها «قرقورة حربية» بمعنى سفينة نقل⁽⁶⁾.

مرمة

والجمع مرمات، نوع من السفن الحربية الكبيرة⁽⁷⁾ في العصور الوسطى ويظهر أنها من أصل إيطالي meramma، وهي اسم ناصية في إيطاليا⁽⁸⁾، وقد ذكر «ابن الأثير» مرمة في حوادث عام 615هـ/1218م فقال «فعملوا - أي الفرنج - آلات ومرمات وأبراجًا يزحفون بها في المراكب»، وقال أيضًا «وصل مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى «مرمة»، وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة الميرة والسلاح، وما يحتاجون إليه، فوقع عليه شوان المسلمين وقتلوهم فظفروا بالمرمة وبها معها من الحراقات وأخذوها»⁽⁹⁾، «وفي سنة سبعة وأربعين وستائة احترقت للفرنج مرمة عظيمة في البحر»⁽¹⁰⁾.

Dozy, Supplement, tome 2, p335

(1) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 120.

(2) ابن سيده، المخصص، ج 10، ص 26.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص 266، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 363، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 120، درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 124، أحمد الزيات، محمود ماهر مجلة عالم الآثار، ص 5، حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص 109، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 47.

(4) عبد الرحمن زكي، معارك حاسمة في تاريخ مصر، ص 86.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص 266.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(7) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 124، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 52، المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 189، هامش 1.

(8) درويش النخيلي، السفن الإسلامية، ص 140.

(9) ابن الأثير، ج 9، حوادث سنة 615 هـ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 260، ج 1، ق 2، ص 348، المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 1، ص 348.

(10) المقرئزي، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

معدات السفن الحربية

لعل من دواعي استكمال الحديث عن الأسطول أن نتحدث عن معدات السفن الحربية، والتي اقتصر استعمالها على المعارك الحربية⁽¹⁾، فقد استعملت في السفن آلات حربية كانت من ملحقات الأسطول، هذا بخلاف أسلحة القتال المعروفة التي استخدمتها في مختلف المعارك سواء البرية أو غيرها، وقد كانت الأسلحة البحرية التي تزود بها سفن الأسطول عديدة، تشبه الأسلحة التي استخدمتها القوات البرية عدا تعديلات تجعلها تتفق مع حرب البحار⁽²⁾، وكان من معدات السفن الحربية⁽³⁾ الكلايب، والباسليقات، والتوايت، اللجام... وغيرها.

الكلايب

زودت كل سفينة من سفن الحرب بنوع من الكلايب⁽⁴⁾، وهي نوع من الخطاطيف⁽⁵⁾ الكبيرة الحجم⁽⁶⁾ مربوطة في نهاية سلاسل قوية معقودة⁽⁷⁾ كانت تلقى على مراكب العدو فتوقفها، ثم يشدونها إليهم وينصبون عليها ألواحًا خشبية عريضة كالجسور⁽⁸⁾ يمرون فوقها ليقاتلوا جند العدو⁽⁹⁾، وإن كان العدو قويًا أبطل فعل الكلايب بفأس ثقيل من الفولاذ يضربون به الكلايب فتقطع⁽¹⁰⁾ ويبطل عملها⁽¹¹⁾ وللوقاية كانوا يستعملون الستائر⁽¹²⁾.

(1) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 347.

(2) إبراهيم العدوي، قوات البحرية في المتوسط، ص 177.

(3) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220.

(4) علي فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص 324.

(5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 502، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 114.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30.

(7) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 197، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 347.

(8) الحسن بن عبد الله، المرجع السابق، الصفحة نفسها، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30، جميل

الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، سعاد ماهر، البحرية، ص 204، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1،

ص 221، إبراهيم العدوي، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.

(9) علي فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص 324.

(10) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، جرجي

زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 221، العدوي، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.

(11) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 197، سعاد ماهر، البحرية، ص 204.

(12) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها، الستائر هي من الآلات الواقية من الطوارئ بما يستر به على

الأسوار والسفن، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 145، وتتخذ الستائر من الجلود واللباد وتبلل بالخل

والشب والنظرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية من قذائف النفط، انظر النويري، نهاية الأرب، ج 28،

هامش 2، ص 428.

الباسليقات

وهي عبارة عن سلاسل تنتهي رءوسها برمانة من الحديد⁽¹⁾ كانت تستخدم في القتال على سطح السفن⁽²⁾، وتستخدم في محاولة خرق مركب العدو عن طريق قذفها إلى مركب العدو عدة مرات حتى يتحقق الغرض⁽³⁾.

التوابيت

جمع تابوت⁽⁴⁾ كان يوجد في أعلى صواري⁽⁵⁾ السفن صناديق مفتوحة من أعلاها تسمى «التوابيت»⁽⁶⁾، إذ يصعد عليها الرجال قبل الاقتراب من سفن العدو⁽⁷⁾ ومعهم حجارة صغيرة في مخلّة معلقة بجانب الصندوق⁽⁸⁾، ثم ترمى سفن الأعداء بهذه الحجارة على حين يحتتمي رجالها بجوانب الصندوق⁽⁹⁾، فإن دهمهم العدو صعدوا إليها مترسين⁽¹⁰⁾، وقد يحملون معهم قوارير النفط ليحرقوا سفن العدو⁽¹¹⁾ أو جرار النورة⁽¹²⁾ المسحوقة غير

- (1) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 502، سعاد ماهر، البحرية، ص 203، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220.
- (2) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 196، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 114، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 502، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 348.
- (3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30.
- (4) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 502.
- (5) الصواري: جمع صاري وهو العمود الذي ينصب في المراكب لتعليق القلوع، لمزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 21، هامش 3، ق 2.
- (6) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220-221، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.
- (7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29.
- (8) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 196، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 220-221.
- (9) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132-133، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.
- (10) مترسين: أي حاذقين في الاحتراز على أنفسهم عن طريق استعمال الترس، انظر الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 161.
- (11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29.
- (12) جرار النورة من بين طرق الحرب أنها كانت تملأ بالجير الحى وتلقى بنفس الطريقة فإذا انفجرت خنقت العدو وأعمته وبذلك تجعله في عجز تام، لمزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29، على فهمي، تاريخ البحرية المصرية، ص 326، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 502.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام في زمن الحروب الصليبية

المطفأة⁽¹⁾ فإنها تغميهم بغبارها وتلتهب عليهم⁽²⁾ وكذلك يرمون عليهم النفط، وكانوا في بعض الأحيان يرمون عليهم بقدر من الفخار يضعون فيها حيات وعقارب فتتكسر ويتشر ما فيها⁽³⁾.

وقد كان ضيق السفينة عاملاً مهمًا في فعل هذه الأشياء إلى جانب أنهم يرمون عليهم قدور الصابون اللين الذي يزلق أقدامهم فوق خشب السفن الناعم⁽⁴⁾ كل هذا يجعلهم يعلنون استسلامهم.

اللجام، الفأس، المتناطح

كان الجنود يجعلون في مقدمة المراكب أداة كالفأس يسمونها «اللجام»⁽⁵⁾، وهي أداة من حديد طويلة، محدة الرأس جدًا، أسفلها مجوف كسنان الرمح⁽⁶⁾ تدخل في خشبة كالقناة بارزة في مقدمة المركب يقال لها «الأسطام»⁽⁷⁾، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارزة من مقدم المركب، يستخدم في مهاجمة مركب العدو عن طريق الطعن أو النطح⁽⁸⁾ وكانوا يضربون بها جانب مراكب العدو بقوة فيخرقونها فيمتلئ المركب بالماء فيطلب أصحابه الأمان خشية الغرق⁽⁹⁾.

اللتوت والدبابيس والمستوفيات

وهناك أنواع من الأسلحة كان يتسلح بها البحريون المقاتلة.

- (1) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 348. (غير المطفى أى الجير الحى).
- (2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29.
- (3) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 349، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 324.
- (4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 196، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 29.
- (5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30، سعاد ماهر، البحرية، ص 203، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 133، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.
- (6) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 221، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 349، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178.
- (7) جرجى زيدان، تاريخ التمدن، ج 1، ص 221، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 333، سعاد ماهر، البحرية، ص 203-204، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 133، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 133.
- (8) سعاد ماهر، البحرية، ص 203-204، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 133، محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 349.
- (9) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 197، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 30، سعاد ماهر، البحرية، ص 203، جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 133.

اللتوت

وهي عمد من الحديد⁽¹⁾ لها رءوس مستطيلة الشكل مخرسة⁽²⁾ مصنوعة من الحديد أيضًا، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير⁽³⁾، وكان خرزتها في هذه الحالة من الحديد، وتلبس في المقبض، وقد تخرس تدوير الخرزة أو تسنن، وكانت تستخدم في تهشيم الخوذات المعدنية⁽⁴⁾.

أما الدبابيس

فلا تختلف عن اللتوت إلا في رءوسها فهي مدورة مخرسة⁽⁵⁾، وتستخدم في تهشيم الخوذات المعدنية⁽⁶⁾.

أما المستوفيات

فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين وله مقبض مستدير، وتستخدم أيضًا في تهشيم الخوذات المعدنية⁽⁷⁾.

الرماح والسيوف والفتوس

الرماح: منها القصيرة والطويلة⁽⁸⁾، وكانت مخصصة للطعن⁽⁹⁾.

السيوف: من أهم أسلحة البحرين⁽¹⁰⁾ فهي أنواع منها الصماصم المصقولة، ومنها السيوف المحدبة.

- (1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 501، أنور عبد العليم، الملاحه وعلوم البحار، ص 113.
- (2) السيد سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، أنور عبد العليم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (3) السيد سالم، المرجع السابق، الصفحة نفسها، أنور عبد العليم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (4) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص 113.
- (5) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 501.
- (6) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 501، أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص 113، عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 26، عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش، ص 88، معركة المنصورة، ص 143-144.
- (7) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 501، أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص 113.
- (8) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص 113.
- (9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2، ص 140، محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت، ص 222، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 501-502.
- (10) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 501-502، ولزيد من التفاصيل انظر الفصل الرابع في أدوات القتال (السيوف).

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام في زمن الحروب الصليبية

الفئوس: هي سلاح لها رأس نصف مستديرة مبطط حاد الأسل مستدير، رأسها يتخذ من الحديد، وتسمى الفأس أحياناً «بلطة» أو «طبر»⁽¹⁾.

القسى: مفردها قوس، وأجودها ما كثر فوقها وقل تحتها، ولها منافعها، وثقل وزنها وقوى حبلها⁽²⁾ وأنواعها كثيرة منها قوس الزيار، وقوس العقار، والجرج، وقوس الرجل⁽³⁾.

الأسلحة المحرقة

وهي أخطر الأسلحة في قتال البحر، لما تسببه من إشعال النيران في مراكب العدو، ويزيد من خطورتها الزيت والقار الذي كانت تطلّى به المراكب⁽⁴⁾.

ومن هذه الأسلحة ما يلي:

السهام النارية

وهي عبارة عن سهام عادية ملفوف على نصلها في مشاكة كبريت وراتينج، ونورة وشحم الكلس «وتشتعل عن طريق حمرة لطيفة أو إحراق طرفه، تستخدم في الرمي على مراكب الأعداء، فإذا واجهت الهواء تشعل ناراً عظيمة تحرق كل ما تصيبه»⁽⁵⁾.

الزراقة

وهي أنبوبة من النحاس تستخدم في قذف مزيج من المواد الملتهبة، مما يطلق عليها «النفط»، وكان يقذف مشتعلاً فتبعث ناره⁽⁶⁾، «يارعاد ودخان شديد فتحترق السفن»⁽⁷⁾، وكانت توضع في مقدم المركب والمؤخر وكذلك في الجانبين وفوقها ستائر خشبية⁽⁸⁾، يتكون

(1) قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، ص 76-77، أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ص 198، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية المصرية، ص 501-502.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 15، ق 2، هامش 2.

(3) الطرسوسي، التبصرة، ص 6-8، الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 160، عبد الرحمن زكي، الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص 90.

(4) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 197.

(5) الطرسوسي، التبصرة، ص 21، نقلاً عن عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 31، انظر أيضاً هامش 3، ص 18.

(6) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 31.

(7) الطرسوسي، التبصرة، ص 20-21.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 31.

من ألواح مشققة مسيحة فوقها بألواح أخرى يقف فوقها الزراقون واختلفت التركيبات التي يتكون منها المقذوف، فمنها ما يشعل نارًا ولا تنطفئ ولو أقامت شهرًا وأكثر من ذلك إلا أن تتخذ لها ما يطفىء بها، وهو سر أخفاه الحكماء⁽¹⁾، ومنها ما يشتعل فوق الماء «ما شئت لم يطفىء وهو من أصلح النفوط لحرق المراكب»⁽²⁾.

السفن الإسلامية والنار الإغريقية

بما لا شك فيه أنه من يقرأ عن المعارك الحربية البحرية يعلم أن أهم سلاح في المعارك البحرية هو النار الإغريقية⁽³⁾، ولم يعرف العرب سر هذه النار في بداية قتالهم في البحر المتوسط⁽⁴⁾، فقد استخدمت هذه النار ضد السفن في البحار، ولم تطفئها المياه التي لجأ إليها العرب⁽⁵⁾، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء⁽⁶⁾، أي أنها تزداد اشتعالاً في الماء والهواء⁽⁷⁾ كالنفط وتدمر ما تنصب عليه، ولذا سميت أيضًا «النار البحرية»⁽⁸⁾، واستطاع الروم الاحتفاظ بسر هذه النار التي نسبت إليهم، وقد أمدت الروم حلفاءها بقذائف النار البحرية دون أن تطلعهم على سر تركيبها⁽⁹⁾، وقد أدخل المسلمون كثيرًا من التحسينات على النار اليونانية بعد أن توصلوا إلى سر تركيبها⁽¹⁰⁾، غير أن النار التي زودت بها السفن الحربية، كانت عبارة عن

(1) الطرسوسى، التبصرة، ص 23.

(2) الطرسوسى، المرجع السابق، ص 21.

(3) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 130.

(4) يرجع اكتشاف النار اليونانية إلى كالينكوس من بعلبك الذى كان مهندساً في هيلوبوليس في سوريا، ويظهر أنهم استخدموها لأول مرة بشكل ما في حصار القسطنطينية عام 54هـ / 674م، لمزيد من التفاصيل انظر جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 130، على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 324، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 178-181.

(5) إن أهم ما يميز النار الإغريقية عن المواد المحرقة في ذلك الوقت وجود الحجر الجيري الحى الذى عرف أنه يحدث حرارة شديدة إذا اتصل بالماء، لمزيد من التفاصيل انظر على فهمى، تاريخ البحرية المصرية، ص 325.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 130.

(7) جميل الخانكى، المرجع السابق، ص 132.

(8) سعاد ماهر، البحرية، ص 132.

(9) العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 181.

(10) لم يقف العرب أمام هذا السلاح الجديد حتى توصلوا إلى سر تركيبية «تتكون هذه النار من حامض الطرطريك والصمغ الفارس والقار الخام والنترات، ثم يمزج الخليط معاً، وغمست في هذا الخليط نسيج الكتان ثم يشعل فيه النار في الحال، ويطفىء هذه النار الرمل فقط أو الخلل، لمزيد من التفاصيل عنها انظر الطرسوسى، التبصرة، ص 20، العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 181.

أنابيب من النحاس تقذف من مقدمة المركب⁽¹⁾ فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلونه على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المدهون بالنفط فيقع على السفن ويحرقها⁽²⁾، وعند إضافة الصمغ لها كانت تزيدها اشتعالاً⁽³⁾، وكانت توضع على مقدمة السفن ثمايل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضاربة⁽⁴⁾، وقد كانت المراكب تحتوى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى «لبوس» عليه غطاء يسمى «لبود» من جلود البقر الطرية، أو من البسط، على حين يحتوى رجال الأسطول من الحريق بدهن أجسادهم بالبلسان⁽⁵⁾، وعادة ما يزود المقاتلة بالدرع المبطن والتراس الواقية⁽⁶⁾.

المناجيق

ومن معدات السفن الحربية ذات الأهمية والتي زودت بها السفن المنجنيق، وهو آلة من الخشب لها جانبان بينها عمود طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف⁽⁷⁾، وفيه كفة الإمكانيات التي توضع فيها الحجارة أو المواد التي يراد قذفها على العدو⁽⁸⁾، ويعمل هذا العمود بواسطة حبال لولبية⁽⁹⁾، حيث يشد طرف العمود الذى به الكفة، مما يؤدي إلى اندفاع الحجارة أو غيرها من المواد الحارقة كالنفط، جرار الزيت المغلى أو القلفونية اندفاعاً شديداً صوب العدو فتحرقه وتقضى عليه.

فالمنجنيق هو أول سلاح يستعمله الأسطول في الهجوم قبل أن تقترب مراكبه بمراكب أسطول العدو، ويكون القتال في هذه الحالة بالسلاح الأبيض: كالسيوف، والبلطة... وغيرهما، والمناجيق من الآلات الحربية التي لا يمكن الاستغناء عنها في البر والبحر على السواء⁽¹⁰⁾، إن كانت الضرورة إليها في البحر أشد وأكثر.

(1) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 114-115.

(2) الخانكي، البحرية المصرية، ص 130، حسين مؤنس، المسلمون في حوض المتوسط، ص 111.

(3) سعاد ماهر، البحرية، ص 233.

(4) العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 182.

(5) البلسان: شجر لا يعرف نباته اليوم بغير مصر خاصة بالموضع المعروف منها بعين شمس، مزيد من التفاصيل انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، هامش 7، ص 53.

(6) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 114.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، هامش 1، ق 2، ص 43.

(8) العدوى، قوات البحرية في المتوسط، ص 177.

(9) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 114.

(10) سعاد ماهر، البحرية، ص 221، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ق 2 هامش 1، ص 43.

هذا إلى جانب العرادة

وهي أصغر من المنجنيق وترمى بالحجارة أو السهام المرمى البعيد، وقد تستخدم لقذف قدور النفط أو العقارب أو نحوها من آلات الأذى، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص، وإن كانت من السوائل كالنفط ونحوه اتخذوا لها كافة كالكأس وعلقوها بالسلاسل⁽¹⁾.

خطورة الأسلحة النارية والتزام الجند بالحذر والحيلة

كان لرجال الأسطول دور كبير في إحراق المراكب الكبيرة باستخدام القطع البحرية الخفيفة الحركة السريعة الدوران المتمكنة من الكر والفر بخفة الشيطي، الكاشير، الزورق⁽²⁾، ويستخدم الرماة هذه القطع الصغيرة لرمى العدو بالسهم النارية وغيرها من وسائل الإحراق⁽³⁾، وكانت هناك أنواع أخرى من النفط يرمى بالنشاب، أو بالقوارير أو بالمناجيق وغيرها⁽⁴⁾.

ونظرًا لخطورة الأسلحة المحرقة اجتهد الغزاة في دفع خطرها بوسائل عدة، من ذلك أنهم كانوا يعلقون حول مراكبهم من الخارج الجلود أو اللبود المبللة بالخل والشب والنطرون لدفع أذى النفط، وقد يمتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون والخطمي المعجون بالخل⁽⁵⁾، فإن هذه المواد لها خاصية مقاومة فعل النفط⁽⁶⁾، وكان يجب على الجند التزام الحذر والحيلة عند استعمال هذه الأسلحة خصوصًا وقت هبوب الريح، فربما تعود النيران على المقاتلين ساعة الإطلاق، ولذلك كان الواجب على الرجال الذين يعملون بالأسلحة النارية⁽⁷⁾ أن يغطوا أيديهم بخيش مطلى بالطلاء الذي لا تحرقه النار⁽⁸⁾، وكذلك يلبسون ثوبًا لا يحترق حتى لا يصاب الرجال من حر النار⁽⁹⁾.

(1) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 132.

(2) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 31.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 314.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 32.

(6) الحسن بن عبد الله، آثار الأول في ترتيب الدول، ص 197.

(7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 32.

(8) الطرسوسي، التبصرة، ص 23.

(9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام المملوكية، ص 32.

نشاط البحرية الأيوبية

بادئ ذي بدء يجب أن أوضح أن دولة «نور الدين محمود» كانت تفتقر إلى قيام أسطول؛ لأن الصليبيين كانوا قد احتلوا الساحل الشامي من الشمال إلى الجنوب، أما مصر فكانت تحت حكم الفاطميين، وعندما أتاحت الفرصة لـ «صلاح الدين» أن يتولى حكم مصر بعد وفاة عمه «شيركوه» وجد أن حالة الأسطول سيئة للغاية⁽¹⁾، وقد كان نتيجة لسوء حال الأسطول أن انتهز الصليبيون هذه الفرصة فتحالفوا مع الروم البيزنطيين⁽²⁾ وقاموا بهجوم مشترك على دمياط، وبعد قيام الهجوم البيزنطي على مصر ظهرت حاجة البلاد واضحة إلى وجود أسطول قوى يدفع عنها عادية هؤلاء المغيرين⁽³⁾، فما كان من «صلاح الدين الأيوبي» إلا القيام بالإصلاحات البحرية المختلفة كما ذكرنا سابقاً فصار للدولة الأيوبية أسطول قوى اعتباراً من عام (565 هـ / 1168م-1169م)، واستمر الأسطول ينمو نمواً كبيراً.

فإذا جاء عام (575هـ/1179م) وتضاعفت قوة الأسطول وزادت عدته حتى بلغت «ستين شينياً وعشرين طريداً، فسارت الشوانى خاصة، فدخلت البلاد الرومية، ودونحت السواحل الفرنجية، وأسرت ألف علعج أحضرتهم أسرى في قيد الإيسار، وقت الرفاق الكبار»⁽⁴⁾.

وقد نال الأسطول الأيوبي من النصر المبين ما تتوج به رأس مصر والإسلام بأكاليل العز والفخر وسطره له التاريخ بحروف من ذهب⁽⁵⁾.

المراحل التي مر بها الأسطول الأيوبي

مر الأسطول الأيوبي (البحرية الأيوبية) بثلاث مراحل نوجزها فيما يلي:

- (1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 351.
- (2) عبد العزيز عبد الدايم، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة 1991م، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، مطبعة هيئة الآثار المحلة سنة 1991م، ص 130.
- (3) السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص 175.
- (4) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 11.
- (5) جميل الخانكي، تاريخ البحرية، ص 144-145.

مرحلة التمهيد

وهي المرحلة التي يمكن تسميتها بمرحلة الإعداد ووضع الأساس لقيام أسطول أيوبي قوى في مصر، هذه المرحلة قام فيها «صلاح الدين» بإصلاحات مختلفة⁽¹⁾.

ويمكن اعتبار عام (575هـ/ 1179م) نهاية لهذه المرحلة، حيث سار الأسطول الأيوبي يقوم بنشاط مؤثر في مياه البحر المتوسط، فالمعروف أن كلا من الصليبيين والبيزنطيين والصقليين فشلوا في إيجاد موطئ قدم لهم في مصر⁽²⁾ رغم قوة أسطولهم الحربي وضخامته، ولا يمكن اعتبار الانتصار الذي أحرزه «صلاح الدين» عليهم في دمياط (565هـ/ 1169م)، وفي الإسكندرية (569هـ/ 1173م) انتصارًا بحريًا إذ لم يجر صدام بحري بين الطرفين على الرغم من أن الاحتلال الصليبي للصقل لدمياط دام خمسة وخمسين يومًا استعملوا خلالها مختلف أنواع الأسلحة سواء للهجوم أو الحصار، إلا أنهم اضطروا أمام المقاومة إلى الانسحاب من هذا الثغر، «ورحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مناجيقهم ونهبت آلتهم وقتل منهم خلق عظيم وسلم البلد»⁽³⁾، «وحدث مثل ذلك في الإسكندرية في عام (569هـ/ 1173م)، ونزل الفرنج عسقلان في عشر حراريق على تينيس عام (575هـ/ 1180م) يريدون خربها ولكنهم أخفقوا في عملهم هذا»⁽⁴⁾.

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 352، وما يجدر ذكره هنا أنه كان للخليفة العباسي دور كبير في تشجيع صلاح الدين على الاهتمام بالأسطول في مصر، فقد تتضمن التقليد الذي بعثه الخليفة العباسي بمصر بعد قطع خطبة الفاطميين وإقامتها للعباسيين الحث على الاهتمام بالأسطول. فقد قال في التقليد «وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى.. فلا بد من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده، فإنه العملة الذي تستعين بها على كشف العلماء، انظر: عبد الله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون (استرداد بيت المقدس)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة سنة 1951م، ص 147. هذا ويمكن القول إنه بمجيء صلاح الدين إلى السلطة في مصر سنة (565هـ/ 1169م - 569هـ/ 1173م)، وقد تميزت البحرية المصرية في هذه الفترة بالضعف الشديد نتيجة التدهور الذي حل بالدولة الفاطمية في أواخر أيامها، ذلك التدهور الذي أدى إلى سيطرة الصليبيين على السواحل الشامية واعتداءاتهم المتكررة على السواحل المصرية انظر الغامدي، صلاح الدين والصليبيين (بيت المقدس ص 147).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 42-43، أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 1، ص 456، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 179-180.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 457، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1، ص 183، الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، ج 4، ص 189، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 144، حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، ص 134-135، ثم قام صلاح الدين بتحسين تينيس ففي عام 577هـ/ 1182م عمل صلاح الدين على عمارة قلعتها وتجديد الآلات فيها عندما اشتد خوف أهلها من الإقامة بها، هكذا سارت هذه المرحلة مرحلة الاستعداد وزيادة قوة الأسطول.

(4) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 352-353.

الأسطول المصري يغزو ميناء عكا 575 هـ / 1179 م

سار الأسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم، وكانت قوة الأسطول قد زادت إلى درجة كبيرة في هذه السنة، واستخدم فيها عساكر بحرية مغربيين ممن سبق لهم غزو الإفرنج، وكذلك رجال المصريين الأقوياء المعروفين بالشهامة والقوة، ومراكبهم كانت كنانين إلا أن تمزق مروق السهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام، فلا أعجب أن تسمى «غربانًا»، وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى «جوارى»، وكم يسر مجراها من النصر فوصلت في الأحد حادي عشر جمادى الأول عام 575 هـ / 1179 م ميناء عكا، وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين، ومراكب التجارة، فاستولى الأسطول على عدة مراكب من المراكب تحطيًا وتكسيرًا وأخلى الميناء من الباقي.

وهذا مما أن يعهد من أسطول إسلامي سالف الدهر، ومما يذكر أن عساكر الأسطول قتلوا بعض رجال عكا رميا بالسهام من بعد كبير⁽¹⁾.

مرحلة قوة الأسطول الأيوبي في مصر

تبدأ هذه المرحلة من عام (575 هـ - 1179 م) إلى عام (579 هـ - 1183 م) أي أنها استمرت حوالي أربع سنوات⁽²⁾.

وفي هذه المرحلة استطاع الأسطول الأيوبي القيام بأعمال هجومية حربية ضد الأسطول البحري الصليبي، وأن يتصدى للأعمال العدوانية التي قام بها العدو بعد أن قويت عدة الأسطول واستغرقت فيها عزائم الجهاد⁽³⁾، وكانت أولى المعارك البحرية الناجحة التي قام بها الأسطول الأيوبي هي صدامه مع الصليبيين في معركة بحرية عام (575 هـ / 1180 م)، وهي موقعة مرج عيون وأحرز النصر عليها وكسر الصليبيون وظفر الأسطول الإسلامي بطسة صليبية، في الوقت الذي أحرز فيه الأسطول الأيوبي انتصارًا بحريًا، أحرز الجيش الأيوبي انتصارًا في البر في موقعة بيت الأحزان فعم النصر وتساويا فيها البر والبحر⁽⁴⁾.

ولم يكتف «صلاح الدين» بالانتصار على العدو، وتدمير بيت الأحزان، والإغارة على صور وصيدا وبيروت بل إنه أمر الأسطول بالخروج من ثغور مصر للهجوم على عكا،

(1) سيد على الحريري، الحروب الصليبية، ص 140.

(2) محسن محمد حسن، الجيش الأيوبي، ص 353.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 13-14.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 302، أبو شامة الروضتين، ج 1، ق 2، ص 9.

واستطاع أسر مراكب صليبية عديدة وهذا إلى جانب تحطيم وتكسير المراكب⁽¹⁾، وانتصار «صلاح الدين» هذا سجله في كتابه إلى وزير بغداد بخط القاضي «الفاضل» ولم يعهد للأسطول الإسلامي بهذه الحالة «لا في حالة قوة إسلامية، ولا في حالة ضعف كفر»⁽²⁾.

موقعة الحوراء البحرية

لعل الانتصار الأكبر الذي أحدثه الأسطول الإسلامي عام (578هـ / 1182م) في البحر الأحمر (بحر القلزم) والمعروف بموقعة الحوراء البحرية⁽³⁾ (578هـ / 1182م)، ففي شعبان (578هـ / خريف 1182م) استغل الأمير الصليبي المعروف «أرناط» (رينو دي شاتيون) صاحب حصن الكرك⁽⁴⁾ انشغال «صلاح الدين» بحصار الموصل فقام «أرناط» بمشروع خطير كان يريد منه السيطرة على البحر الأحمر⁽⁵⁾ باحتلال قلعة أيلة⁽⁶⁾ على خليج العقبة، وعيذاب على الساحل المصري الجنوبي الذي يشرف على البحر الأحمر، إلى جانب محاولته إقناع مملكة الحبشة بالعمل على المشاركة في حروبه⁽⁷⁾ أيضًا محاولته الاعتداء على مكة المكرمة وإخراج الرسول ﷺ من ضريحه⁽⁸⁾.

بدأ «أرناط» بتنفيذ خطته بقطع غابات إقليم الكرك إلى جانب نخيل العريش⁽⁹⁾ وحوله إلى حصن الكرك منذ نوفمبر عام 1181م، وهناك عهد إلى دير الرهبان بصنع بعض المراكب،

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين، ص 121.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج 1، ق 2، ص 14.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 159، الدوادارى، كنز الدرر وجامع مع الغرر، ج 7، ص 71-72، سنة 1972م،

أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 14، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 105-106، عبد العزيز عبد الدايم،

الأحكام المملوكية، ص 85-86، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 567، حسين مؤنس، أطلس

تاريخ الإسلام، ص 297، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، ص 119.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) لم ينس أرناط أهمية أيلة العسكرية وضياعها على الصليبيين، لا سيما وقد توالى عليه نكايات الحامية المصرية

المرابطة بحصن أيلة الواقعة وسط البحر ولا سبيل للصليبيين إليها، لمزيد من التفاصيل انظر، ابن واصل،

مفرج الكروب، ص 240، جرجى فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص 48.

(6) نظير سعداوى، التاريخ الحربى، ص 144.

(7) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار، ص 98.

(8) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 74.

كما عهد إلى «صليب عسقلان» بصنع البعض الآخر حتى توافر لديه خمس سفن حربية كبيرة⁽¹⁾ وعدد كبير من المراكب الخفيفة ونقلها جميعاً مفككة على جمال⁽²⁾ البدو إلى الساحل بعد أن أغراهم بالمال⁽³⁾، وتم تركيب المراكب ودهنها وشحنها بالرجال وآلات القتال وأوقف منها مركبين على جزيرة قلعة أيلة⁽⁴⁾ تمنع أهلها استيقاء الماء، ومضى الباقيون في مراكبهم إلى عيذاب⁽⁵⁾، أما في البر فسير «أرناط» جيشه إلى بلاد تبوك⁽⁶⁾ للحيلولة دون وصول أى مدد عسكري قد يطلبه نائب من الشام إلى مصر⁽⁷⁾.

اتخذ «أرناط» سبيله في البحر وتوجه إلى أيلة وانطلق ببقية سفن الأسطول للإغارة على الساحر الإفريقي، وأخذوا يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا إلى عيذاب، وقد فزع المسلمون حين شاهدوا مراكب الصليبيين تجوب عباب البحر الأحمر؛ لأنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط ولا تاجراً ولا محارباً⁽⁸⁾ ارتكب الصليبيون من خلالها حوادث شنيعة فأحرقوا مراكب المسلمين، هذا فضلاً عن حوادث القتل والأسر والتنكيل التي ارتكبوها في البر والبحر⁽⁹⁾، وصلت أنباء ما فعله «أرناط» في رسالة بعث بها نائب قلعة أيلة إلى «صلاح الدين» وهو على الموصل، فبعث «صلاح الدين» إلى أخيه ونائبه بمصر الملك «العادل أيوب»⁽¹⁰⁾ بتعمير الأسطول في مصر والإسكندرية⁽¹¹⁾، وتذكر بعض المصادر إلى أن

(1) نظير سعداوى، التاريخ الحربى، ص 140، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش، ص 125.

(2) سعاد ماهر، البحرية، ص 105-106، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 567.

(3) جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص 48.

(4) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، 4 مجلدات فى جزأين، ص 65، سعاد ماهر، البحرية، ص 106، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص 149.

(5) أبو الفداء، المختصر، ص 65، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 106، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص 150-151، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص 140، المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 79.

(6) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 357، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص 140.

(7) محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها، نظير سعداوى، المرجع السابق، ص 141.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 159، أبو الفداء، المختصر، ص 65.

(9) المقرئى، السلوك، ج 1، ص 79، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 127.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 159، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص 568، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 359.

(11) المقرئى، السلوك، ج 1، ق 1، ص 79، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، سنة 1970، ص 129.

الملك «العادل» استعد لتلك المهمة قبل أن يصله طلب أخيه السلطان «صلاح الدين»⁽¹⁾، سافر «العادل» إلى السويس⁽²⁾ بعد أن عهد إلى قائد الأسطول الحاجب «حسام الدين لؤلؤ»⁽³⁾ بحمل المراكب مفككة على الجمال إلى تلك المدينة، وهناك أشرف على تركيبها في يناير 579 هـ/ 1183م وتعميرها بالرجال ذوى الخبرة والتجربة في شئون البحر بصحبة المحاربين المغاربة⁽⁴⁾ الذين قاموا بتركيب أجزاء المركب.

بدأ «حسام الدين لؤلؤ» بتقسيم أسطوله إلى قسمين سارت الفرقة الأولى إلى قلعة أيلة واستولت على مراكب العدو برمتها⁽⁵⁾ وقتلت وأسرت من بها، أما الفرقة الثانية فذهبت إلى عيذاب⁽⁶⁾ ولم يجدوا فيها أحداً منهم فقاموا بتعقب أسطول العدو فوجدوا السفن راسية عند ساحل الحوراء⁽⁷⁾ ولحق بهم أسطول المسلمين بقيادة «لؤلؤ» واقتتلوا قتالاً شديداً⁽⁸⁾ وقتل منهم الكثير، ثم أخذ لؤلؤ الأسرى إلى الإسكندرية، وأمر «العادل» بضرب رقابهم، وتصادف أن كان موسم الحج فساق المسلمون معهم بعضاً من الأسرى إلى منى، «لذبحهم كما تنحر البدن - الذبائح»⁽⁹⁾، أما «أرناط» فقد استطاع الإفلات من الأسر والعودة إلى حصنه بالكرك،

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص128.

(2) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص311 حوادث عام 578، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص85-86، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص297، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568، الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ص179، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-142، عبد الرحمن زكى، موسوعة الجيوش الإسلامية، ص129، الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص71-72، جرجى فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص49، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص79.

(4) نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142.

(5) نظير سعداوى، المرجع السابق، ص142-143، نفس الكلام عند العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص127، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص568.

(7) الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص71-72، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص85-86، نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى، ص142-143.

(8) الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص71-72.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص159، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص79، ابن خلدون، ج5، ص656، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص35، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص128، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص86، سيد على الحريرى، الأخبار السنوية فى الحروب الصليبية، ص140، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص107، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، ص119.

لكن «صلاح الدين» أعلن بأنه لن يخفر له محاولته في انتهاك الحرمين ونذر نفسه للانتقام منه⁽¹⁾، وامتازت هذه المرحلة بقوة الأسطول الأيوبي، إلا أنها لم تصل بالطبع إلى مستوى انتصارات معارك «صلاح الدين» وفتوحاته البرية الشهيرة⁽²⁾.

لكن نلاحظ أنه من عام (579هـ/1183م - 582هـ/1186م) أي طيلة أربع سنوات حدث للأسطول الإسلامي فترة ركود لم يرق من خلالها بأي نشاط بحري يذكر، لكننا نجد أن الأسطول المصري ساهم في موقعة حطين، إذ خرج الأسطول المصري في خمس عشرة سفينة بقيادة الأمير «حسام الدين لؤلؤ» إلى الإسكندرية استعداداً للجهاد⁽³⁾، هذا إلى جانب أن الأساطيل المصرية في موانئ دمياط والإسكندرية رهن إشارة «صلاح الدين» لتخرج إلى مياه الشام تساعد في إحكام الحصار على مدينة ساحلية أو تخفف وترفع الحصار عن مدينة أخرى تعرضت لهجوم الصليبيين⁽⁴⁾.

مرحلة ما بعد حطين إلى صلح الرملة (583هـ/1187م - 588هـ/1192م)

فإلى جانب «صلاح الدين» وجيشه في القتال البري في الجبهات المختلفة، نجد أن نشاط الأسطول ظل دون المستوى المطلوب في العمل الحربي، إلا أن للأسطول مساهمات مختلفة لمعاونة جيش «صلاح الدين» في فتح صور⁽⁵⁾، هذا وقد بلغ الأسطول ذروته في منتصف ذي القعدة (585هـ/25 ديسمبر 1189م)، ففي هذا العام وصل إلى مياه عكا حسب طلب السلطان الأسطول المصري بقيادة «حسان الدين لؤلؤ»⁽⁶⁾، وبه خمسون قطعة من الشوانى⁽⁷⁾ اعترضتها قطع الأسطول الصليبي الموجود في المنطقة، وتصادم الطرفان في معركة قصيرة واستطاعت مراكب الأسطول الإسلامي أن تنتصر في البداية، ولكن جاءت الأقدار بما لم يكن في الحسبان، حيث إنه أثناء ما كانت خمس قطع من الأسطول الأيوبي تقوم بالحراسة ليمعنوا الصليبيين من الخروج من صور والدخول إليها تصوروا أنهم قد سيطروا على الوضع فأمن

(1) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج2، ق2، ص72، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص185، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص77.

(2) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص361.

(3) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص63.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الجبهة الصليبية في معركة حطين، مجلة المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير 1988، العدد الأول، يصدرها قسم التاريخ، ص25-52.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص186، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص362.

(6) الباز العرينى، مصر في عصر الأيوبيين، ص184، سيد على الحريرى، الأخبار السنوية، ص153.

(7) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص101.

الحراس وناموا وقت السحر⁽¹⁾، وقد كان «عبد السلام المغربي» هو مقدم شوانى المسلمين، المعروف بالشجاعة والإقدام، فما شعروا إلا بشوانى الصليبيين نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم وقتل الصليبيون من أرادوا قتلهم، وأخذت خمس شوانى من المسلمين بما فيهم وأدخلوها ميناء صور وكان قبل أن يحدث كل هذا كان المسلمون قد ظفروا بيسطتين كبيرتين للفرنج بما فيها من أموال ورجال وغلل⁽²⁾.

ظل الأسطول الصليبي هو المسيطر على البحر المتوسط وعلى السواحل الشمالية، حتى بعد أن خسروا أكثر من نصف السواحل فكان ما عندهم من قطع بحرية يزيد على ما كانت تملكه البحرية الإسلامية⁽³⁾.

واقعة عكا البحرية

. في مستهل حصار عكا اجتمع ما لا يقل عن أربع وخمسين وخمسة سفينة صليبية منها خمسمائة سفينة إسكندنافية وأربع وخمسين من بيزا وجنوة والبندقية، وكان هذا العدد يفوق ما لدى «صلاح الدين» من قوة بحرية⁽⁴⁾، ومن الجدير بالذكر أن أبرز العمليات البحرية ما حدث في جمادى الأولى عام (586هـ / 1190م)، إلا أن الصليبيين عمروا أسطولاً قام بمواجهة الأسطول الإسلامى وحاول السلطان أن يمنعهم من ملاحقة الأسطول فقام بهجوم برى على الصليبيين المحاصرين لعكا لإشغالهم عن قصد أسطوله، لكن الصليبيين ردوا على «صلاح الدين» بالمثل «والتقى الأسطولان في البحر والعسكران في البر»⁽⁵⁾، وسميت هذه المعركة بواقعة عكا البحرية وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله حسب قول «ابن الأثير»، وانتهى الصدام البحرى بوصول الأسطول الإسلامى إلى عكا⁽⁶⁾، بعد أن كسب كل فريق مركباً للفريق الآخر، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامى

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 363.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 333، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 148، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 102، سيد على الحريرى، الأخبار السنية، ص 153.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 365.

(4) Grousset, Histoire des croisades, , vol III, P23

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 204، العماد الكاتب، الفتح القسى، ص 385، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 154، نفس الكلام عند ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 336، حوادث عام 586هـ جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص 152، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص 108، نقلا عن سيد الحريرى.

(6) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص 152، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 365.

سألًا⁽¹⁾، وقد لجأ المشرفون على شئون عكا إلى استخدام الحيل لوصول المواد التموينية إليهم، وحينما ظهرت الشكاوى من قلة الذخيرة وعدم وصول البطس المستدعاة من مصر بالموثون الغذائية كتب إلى والى بيروت «عز الدين أسامة»⁽²⁾ أن يجهز بطسة كبيرة كانت قد أخذت من الصليبيين ويملؤها بالميرة والسلاح والرجال، ولإدخال الحيلة والخداع والتمويه على الصليبيين طلب القائد «أسامة» من البحار أن يرفعوا على قلاع المركب صليبيًا⁽³⁾ وأن يحملوا بعض الخنازير على ظهر البطسة⁽⁴⁾، وأن يلبسوا زيًا فرنجيًا ويحلقوا لحاهم على طريقة الأوروبيين، بل إنهم أشركوا معهم بعض المستأمنين من الفرنجة لكي يتحدثوا مع أفراد العدو بلغتهم إذا اعترضوا سبيلهم⁽⁵⁾.

ومن هذه الحيلة استطاع رجال الأسطول الإسلامي إيصال الموثون والغذاء إلى عكا وكان فرحًا عظيمًا، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد⁽⁶⁾، وكانت هناك ثلاث بطس قادمة من مصر إلى عكا، وكان بها ما يحتاج إليه الأسطول في الحصار من أقوات وأدام ومير⁽⁷⁾، لكن تأخر وصولها، وكان «صلاح الدين» قد أمر بتجهيزها وشحنها بالأقدام والمير وجمع ما تحتاج إليه المدينة، بحيث تكفيها طوال موسم الشتاء⁽⁸⁾، واتجهت هذه السفن إلى عكا لكن الأسطول الصليبي لم يدعها أن تصل بل اعترض طريقها عندما اقترب من المدينة وجرى قتال بينهما، كل هذا والسلطان «صلاح الدين» والعساكر الإسلامية يشاهدون ما يحدث فأخذوا يبتهلون إلى الله - عز وجل - إلى أن أزاح الله هذه الغمة⁽⁹⁾، ووصلت البطس إلى عكا رغم الصعوبات التي اعترضتها⁽¹⁰⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص206.

(2) العماد الكاتب، الفتح القسى، ص417.

(3) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص366.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص337-338، سيد على الحريري، الأخبار السنية، ص187.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص118، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص337.

(6) ابن شداد، النوادر، ص135، الفتح القسى، ص418، أبو شامة، الروضتين، ص160-161، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص330-331.

(7) سيد على الحريري، الأخبار السنية، ص188.

(8) ابن شداد النوادر، ص138، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص161.

(9) سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص188.

(10) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص367.

حرق برج الذبان

ومن ناحية أخرى، أراد الصليبيون إحكام الحصار على المدخل الجنوبي لعكا والسيطرة عليه براً وبحراً لمنع المسلمين من الاتصال بالمدينة، ومنع دخول أى شئ إليها، وعندما عجزوا عن تحقيق ذلك حاولوا حرق برج الذبان⁽¹⁾، ذكر عنه «العماد الأصفهاني»: «هذا البرج يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الشجر على مراكبه وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه وبالجرحية والرماة والرزاقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته إياه عصمناه وكلاءناه»⁽²⁾، ولحرق «برج الذبان» جهز الصليبيون لهذا الغرض ثلاث بطس ضخمة وضعوا في الأولى حطباً ونفطاً، وفي الثانية كمية كبيرة من الحطب والوقود⁽³⁾، لرميها على البرج⁽⁴⁾، أما الثالثة فجعلوها على هيئة قبو⁽⁵⁾ يختفى تحته المقاتلة بحيث لا يصل إليها نشاب المسلمين أو أى سلاح من جانبهم⁽⁶⁾.

ظل كل من المسلمين والصليبيين يفعل ما عليه على أكمل وجه، لكن دائماً تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فقد سقطت ويسقوطها انتهت مهمة الأسطول الأيوبي في مياه البحر المتوسط، وأصبح عملها قاصراً في الدفاع عن الثغور المصرية، وظلت السيطرة للأسطول الصليبي الذي ظل مسيطراً على تلك المياه، وكان للأسطول أهمية قصوى بالنسبة للصليبيين، والدليل على ذلك أن الحملة الصليبية الثالثة كانت حملة بحرية بقيادة ملوك أوروبا، «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا و«فريدريك بارباروسا» إمبراطور ألمانيا الذي عرف ولم يصل إلى عكا، وكانت نتيجة الحملة هي سقوط عكا ثم عقد صلح الرملة 21 شعبان 588هـ/ أول سبتمبر عام 1192م⁽⁷⁾.

(1) هو برج في وسط البحر، مبنى على الصخر على باب عكا تحرس منة الميناء، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو، لمزيد من التفاصيل انظر ابن شداد، النوادر السلطانية ص 138، الفتح القسى، ص 211، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 162، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 336، محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، ص 165، سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص 189، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج 1، ق 1، ص 404.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسى، ص 211.

(3) سيد على الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص 189.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 335-336، محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 369.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، الجزء والصفحة أنفسهما، محسن محمد حسين، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 335-336.

(7) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 182، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص 348، العماد الكاتب، الفتح القسى في الفتح القدسي، ص 463-464.

وحدث في أواخر عام 586هـ بداية 1191م، صدام بحرى بين الشوانى الأيوبية والصليبية، لكن المسلمون استطاعوا الصمود والوقوف في وجه العدو وإحراق بعض سفنه، وعند عودة المسلمين تأخرت إحدى الشوانى الأيوبية وكان يقودها الأمير «جمال الدين محمد ابن أرككز» وظل يقاتل إلى أن استسلم حينما عرضوا عليها الأمان، فسلم القائد نفسه وقال له لن أضع يدي إلا في يد أميركم (مقدمكم)، فجاء إليه أميرهم وعانقه «ابن أرككز» بقوة ولم يتركه إلا وأوقعه معه في البحر وغرقا معا⁽¹⁾.

ضعف البحرية الأيوبية بعد «صلاح الدين»:

هذا وقد ضعفت البحرية الأيوبية بعد «صلاح الدين»، فاستغل الصليبيون هذا الضعف⁽²⁾ واستطاعوا إعادة سيطرتهم على بعض ثغور الشام، فقد هاجموا بيروت واستولوا عليها عام (593هـ / 1197م)، بعد أن أظهر صاحبها «عز الدين أسامة» إبداء المقاومة فسلمها دون قتال، وقد أثارت هذه الحادثة استياء المسلمين فمن قال إنه تجبن وتجنب، ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل إن رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ما أجابوا حتى نظم بعضهم هذه الأبيات:

سلم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذى يروم السلامة
فغطاء الحصون من غير حرب سنة سننها بسبيروت «أسامة»⁽³⁾

فلا شك أن هذا يلقي الضوء على الوضع الذى ترتب على وفاة «صلاح الدين»، حتى «قل الاهتمام بالأسطول، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه»، ويضيف «المقرئى» قائلاً إن وضع رجال البحرية في مصر بعد «صلاح الدين»: «إذا دعت الضرورة إلى تجهيز الأسطول طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا في السلاسل نهاراً، وسحبوا في الليل، حتى لا يهربوا ولا يصرف لهم الشئ قليل من الخبز ونحوه وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو، فسارت الخدمة في الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولى غضب غضباً شديداً، بعد ما كان من خدام الأسطول يقال لهم: المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس»⁽⁴⁾.

(1) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص 369.

(2) محسن محمد حسين، المرجع السابق، ص 372.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 233.

(4) المقرئى، الخطط، ج 2، ص 194.

دور الأسطول في الحملة الصليبية الخامسة

في بداية الحديث عن الحملة الصليبية الخامسة يجب أن نذكر أن دعاة هذه الحملة والمتحمسين لها وصلوا في نهاية القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر إلى نتيجة حاسمة، وهي أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة، وأن عليهم البدء بمصر أولاً بوصفها الطريق الطبيعي - الذي لا طريق - للوصول بهم إلى بيت المقدس، وظهرت هذه العقدة في أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها، فهم يشبهون مصر أنها رأس الأفعى وأحياناً يشبهونها بالقلب في الجسم⁽¹⁾، من هنا وجه البابا «أنوسنت الثالث» دعوته للقيام بحملة صليبية جديدة، ثم تعهدوا من بعده البابا «هنريوس الثالث» وكان قائدها هو «حنا دي برين»⁽²⁾ ملك بيت المقدس وكان شيخاً كبيراً، وله من التجارب وبعد النظر ما جعله يؤمن بفكرة مهاجمة مصر⁽³⁾، قصد الصليبيون دمياط فوصلوها في عام 614هـ/1218م⁽⁴⁾، وكان أسطولهم يتكون من نحو 70.000 فارس، 400 ألف رجل فخيّموا تجاه دمياط في البر الغربي⁽⁵⁾، وحفروا حول معسكرهم خندقاً، وأقاموا عليه سورا وشرعوا في الهجوم على برج دمياط المنيع⁽⁶⁾، وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصيناً قوياً، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل مآصر⁽⁷⁾، إلى جانب ذلك البرج (برج السلسلة) وهو بمنزلة الحصن الذي بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها⁽⁸⁾.

ذكر «ابن الأثير» في حوادث سنة 614هـ «وقد بنى في النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص920.

(2) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص921.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص924.

(5) سيد علي الحريري، الأخبار السنوية، ص232، جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص153.

(6) المقرزي، السلوك، ج1، ق1، ص188-189، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص108-109، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص20 ص22، جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص153.

(7) هي «سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من عبور أرض مصر»، لمزيد من التفاصيل انظر ميخائيل عواد، المآصر في بلاد الروم والإسلام، المقتطف، ج23، المجلد الرابع بعد المائة، ص40-44.

(8) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص104 هامش1، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص552-553، سيد علي الحريري، الأخبار السنوية، ص232.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام في زمن الحروب الصليبية

سلاسل حديد غلاظ»⁽¹⁾، ومدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح أن تصعد في النيل إلى ديار مصر، في ذلك الوقت كان الملك «الكامل» ينوب عن أبيه السلطان «العاذل» في حكم مصر، وعندما علم بنزول الصليبيين في مواجهة دمياط، أسرع على رأس جيشه⁽²⁾، وأمر والى الغربية بجمع العربان وسار في جمع كبير وخرج الأسطول، ونصب الكامل معسكرة جنوبى دمياط عند منزلة العادلية⁽³⁾، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى⁽⁴⁾.

لم يلبث أن أدرك الصليبيون فداحة الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية الواقعة عليها مدينة دمياط، مما جعلهم في مشكلة كبيرة وهى كيفية عبور النيل بالإضافة إلى أنهم أضاعوا وقتاً كثيراً في النزول، وهذا أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد «حتى سار عند «الكامل» من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده»⁽⁵⁾، وقضى الصليبيون ثلاثة أشهر يهاجمون برج السلسلة عن طريق «آلات وممرات وأبراج يزحفون بها إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه»⁽⁶⁾، وفعلاً تم لهم الاستيلاء على برج السلسلة بعد أن أقاموا برجاً ضخماً على بطسة كبيرة⁽⁷⁾، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية والاستيلاء على برج السلسلة⁽⁸⁾، وقطع المآصر التى كانت تعترض مجرى النهر⁽⁹⁾ وتحول دون دخول الصليبيين فيه⁽¹⁰⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ، المقرئى، الخطط، ج1، 215، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص188-189.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925.

(3) شيد العادل 613هـ/1217م مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل، وشحنها بالمقاتلة خشية قدوم الصليبيين إلى مصر من جهة البحر فأصبحت من ذلك الحين مدينة جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها، لمزيد من التفاصيل انظر المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص189، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(4) سعيد عاشور، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(5) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص189.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص104، المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص189.

(7) المقرئى، السلوك، ج1، ق1، ص188-189، النويرى، نهاية الأرب، ج29، ص87-88.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص103 هامش6، جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص153، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص22، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص553.

(9) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص925.

(10) نقلاً عن سعيد عاشور، المرجع السابق، ج2، ص925

ومما هو جدير بالذكر أن سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين⁽¹⁾، وتحطم تلك المآصر التي تحمي مجرة جاء خسارة كبيرة، إذ اعتبر المحاصرون ذلك البرج «قفل الديار المصرية»⁽²⁾. وعندما علم الملك العادل بذلك الخبر «دق بيده على صدره ومرض مرض الموت»⁽³⁾، ولم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام⁽⁴⁾، خلف «الكامل» في ملك مصر أباه «العادل»، وبدأ «الكامل» كفاحه ضد الصليبيين بسد مجرى النيل في وجههم، وذلك بمحاولته إقامة جسر عظيم بعرض المجرى لكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر⁽⁵⁾، وعندئذ لجأ «الكامل»: «إلى عدة مراكب وملاها وخرقها في النيل»⁽⁶⁾، لتعوق تقدم السفن الصليبية⁽⁷⁾، لكن الصليبيين تغلبوا على تلك الصعوبة فلجئوا إلى خليج هناك يعرف بالخليج الأزرق⁽⁸⁾، كان النيل يجري فيه قديماً⁽⁹⁾، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت إلى موضع يقال له بورة⁽¹⁰⁾، يقابل منزلة العادلية، حيث كان يقيم «الكامل»⁽¹¹⁾، ومن هنا أصبح في استطاعة الصليبيين مهاجمة المعسكر الأيوبي عن طريق البحر⁽¹²⁾.

كل هذا في الوقت الذي عرض فيه «الكامل» الصلح على الصليبيين مقابل أن يترك لهم بيت المقدس وجميع فتوح «صلاح الدين» بالساحل ما عدا الكرك، لكنهم رفضوا ذلك وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمره بها، فلم يتم الاتفاق بينهم وقالوا لا بد من الكرك⁽¹³⁾.

- (1) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 87-88.
- (2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 79، أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 109، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص 552-553.
- (3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 79، المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 109، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص 103 هامش 6، أنور عبد العليم، الملاحاة عند العرب، ص 100.
- (4) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 315، حوادث سنة 614هـ، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص 22.
- (5) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها، جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص 153.
- (6) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (7) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (8) جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص 153، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص 22-23.
- (9) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (10) ابن الأثير، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (11) المقرئ، السلوك، ج 1، ق 1، ص 195، جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ص 22-23.
- (12) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 926.
- (13) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 315.

بعد ذلك توالت الأحداث وشرع الصليبيون في الزحف على القاهرة فتقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً، ثم إن السفن الإسلامية وقفت لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم في دمياط «ومنعوهم أن تصل إليهم الميرة من دمياط»⁽¹⁾، وكان أن وصل الصليبيون إلى المكان الذي أطلق عليه المؤرخ «أبو المحاسن» اسم «رأس الجزيرة»⁽²⁾.

وكان الوقت وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل⁽³⁾، ولم يلبس أن قطع المسلمون السدود، فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت الأرض المحيطة بهم⁽⁴⁾، بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط⁽⁵⁾، ولكن «الكامل» أنزل عند شار مساح (شربين) ألفى فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج ودمياط⁽⁶⁾، وبذلك قطع المسلمون خط الرجعة على الصليبيين «وملكوا الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص»⁽⁷⁾.

هكذا ساء موقف الصليبيين في دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور، وأخيراً لم يبق أمام الصليبيين إلا الصلح بعد أن عاينوا الهلاك فأرسلوا للسلطان «الكامل» في (618هـ - 1221م) يعرضون استعدادهم لترك دمياط والجلء عن البلاد، مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم ليعودوا إلى بلادهم سالمين⁽⁸⁾، وفيها أي سنة (618هـ - 1221م) طلب الفرنج على أن يسلموا دمياط إلى «الكامل» فأجابهم إلى طلبهم⁽⁹⁾، بشرط أن يبعثوا برهائن من ملوكهم لا من أمرائهم⁽¹⁰⁾ يبقون لديه حتى يسلموا

(1) أبي المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.

(2) هي نقطة تفرغ البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط، وتمثل رأس المثلث يحيط بها المياه من ثلاث جهات، انظر أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241.

(3) المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص207.

(4) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109-110، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص554.

(5) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص939.

(6) المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص203، جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص154-155.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث سنة 614هـ.

(8) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص241، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص554-555.

(9) العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص79، جميل الخانكي، البحرية المصرية، ص155.

(10) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص940، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص109-110.

دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم وعلى رأسهم «حنا دى برين» نفسه و«بلاجيوس» مندوب البابا في حين بعث الكامل إليهم مقابل ذلك ابنه «الصالح نجم الدين» ومعه جماعة من خواصه .

وأخيرًا تم جلاء الصليبيين عن دمياط في سنة 618هـ / 1221م بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة التي كان متوقعًا لها النجاح وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصه الحصول على بيت المقدس وتوابعها من المدن والحصون مقابل الجلاء عن دمياط، وفي مقابل ذلك يذكر «ابن الأثير» أن «الله تعالى آتى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها...»⁽¹⁾.

سبب فشل الحملة الصليبية الخامسة

يرجع فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى حدوث اضطراب ظاهر في عملياتهم الحربية، في الوقت الذي بدا من الممكن أن يتقدم فيه الصليبيون في عملياتهم الحربية ضد المسلمين بفضل قيادة «حنا دى برين»، فبعد سقوط برج السلسلة، اعتقد كثير من الصليبيين أن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وكان على «حنا دى برين» أن ينتظر وصول إمدادات جديدة.

بالإضافة إلى أنه في سبتمبر عام 1218م⁽²⁾ وصلت الإمدادات بصحبة الكاردينال «بلاجيوس» مندوبًا عن البابا وقائدًا أعلى للصليبيين في حملتهم على مصر، لكن هذا الازدواج في القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة بل إنه أدى إلى فشلها⁽³⁾.

أثر الأسطول ودوره في الحملة الصليبية السابعة: 647هـ / 1249م

تعتبر الحملة الصليبية السابعة حملة بحرية بالدرجة الأولى جاءت عن طريق البحر، واعتمدت على الأسطول في الاحتفاظ بصلتها بمنبعها وبالقوى المسيحية المساندة لها، كما اشترك أسطولها بنصيب كبير في المعارك التي دارت في دلتا النيل، وتمثل هذه الحملة أول تجربة حربية مرت بها فرقة المهاليك البحرية الناشئة، ومن هنا كان اهتمام المهاليك بالأسطول⁽⁴⁾، كان

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص315، حوادث عام 614هـ.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص926.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص105-106.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ق1، ص44.

سلطان مصر في ذلك الوقت هو السلطان «الصالح نجم الدين أيوب»، وعندما سمع بخبر حملة «لويس التاسع» أمر نائبه في القاهرة «حسام الدين بن أبي علي الهذباني الكردي»⁽¹⁾ أن يجهز السفن الحربية من الشوانى والأغربة والطرائد والحراريق في دار صناعة مصر ويعمرها بالرجال والعتاد⁽²⁾ لتكون مانعاً ضد أى حركة صليبية في النيل⁽³⁾.

هذا إلى جانب إسراع السلطان «نجم الدين أيوب» وعسكر في بلد أشنوم طنّاح وإصدار أوامره بتحصين دمياط، وتزويدها بالذخائر والأسلحة كما وضع فيها حامية من عرب كنانة للدفاع عنها⁽⁴⁾، هذا بالإضافة إلى إرسال «الصالح أيوب» جيشاً إلى دمياط بقيادة الأمير «فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ»⁽⁵⁾، وأمر أن ينزل في البر الغربي لدمياط ليحول دون نزول العدو إلى الشاطئ⁽⁶⁾، قاد هذه الحملة «لويس التاسع» ملك فرنسا الملقب بـ «القديس لويس»، ومهما يكن من أمره فقد بارحت حملة «لويس التاسع» أوروبا⁽⁷⁾ لتصل إلى ميناء ليا سول⁽⁸⁾ جنوبى قبرص في عام (646 هـ - 1248 م)⁽⁹⁾، حيث مكثت الحملة هناك نحو تسعة أشهر تستعد لغزو مصر، وبعد أن تجمعت الحملة واستعدت استعداداً كاملاً في (21 مايو 1249 م)⁽¹⁰⁾ تحركت نحو السواحل المصرية فيما يقرب من 1800 سفينة مختلفة الأحجام⁽¹¹⁾، وفي (20 صفر 647 هـ / في 4 يونيو 1249 م)، ورغم كل الاستعدادات السريعة التى اتخذها المسلمون، فقد استولى الصليبيون على دمياط دون مقاومة تذكر⁽¹²⁾؛ لأن الرعب استولى على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم هارين، بعد أن أشعلوا النار في سوق المدينة بل إن بعض عرب

(1) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، ق1، الصفحة نفسها.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231-232، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص333، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص44.

(4) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص555-556.

(5) العبادى، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص231-232، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص61.

(7) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1007.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص110-111، عبد الرحمن زكى، معركة المنصورة، ص59.

(9) Joinville, the life of saint lowis, p197

(10) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص555.

(11) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص99.

(12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص44.

كنانة الذين عهد إليهم «الصالح أيوب» بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار أيضًا وتركوا أبواب المدينة مفتوحة⁽¹⁾ وفاتهم أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل⁽²⁾.

هكذا صارت مدينة دمياط مفتوحة خالية من وسائل الدفاع، فدخلتها جيوش «لويس التاسع» في سهوله بالغه في 6 يونية 1249م، وأجمع المؤرخون «أنه تملكها بغير قتال ولا ضربة ولا طعنة»⁽³⁾.

وقبل الزحف على القاهرة كانت هناك آراء مختلفة منها أن الحملة تتجه إلى الإسكندرية⁽⁴⁾ على أن فريقًا آخر من الصليبيين وعلى رأسهم أخو الملك «لويس» «روبرت كونت ارتوا» الذي فضل النزول على القاهرة مباشرة لطعن مصر في قلبها⁽⁵⁾، لكن «لويس التاسع» اقتنع بالرأى الأخير، ولكن لم يستفد من خبرة الصليبيين السابقة، والذين قاسوا كثيرًا من حملة «حنا دي برين»، ومن الضفة الشرقية للنيل شرع الصليبيون في زحفهم نحو القاهرة في (11 شعبان 647هـ/ 20 نوفمبر 1249م)⁽⁶⁾، وصل الصليبيون في نهاية زحفهم ناحية الجنوب عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط فاستقروا بمنزلتهم هذه، وخذقوا عليهم خندقًا وأداروا سورًا وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين ونزلت السفن الصليبية من شوان وطرائد وشلنديات وبطس بقواتهم في بحر النيل، ووقفت سفن المسلمين من الأنواع المماثلة بإزاء المنصورة، ووقع القتال بين الفريقين برًا وبحرًا⁽⁷⁾، وكان ينبغي على القوات المتجمعة في المنصورة أن تظل تقاوم وهي في أماكنها ضد الزحف الصليبي؛ لأنه على حد قول «ابن واصل»: «إذا قدر لهذه القوات أن تتفهم ولو لمرة واحدة،

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1012، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص555-556.

(2) أبو الفداء، المختصر، حوادث سنة 647هـ، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111.

(3) العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج5، ص237، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، 452، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص106-107، المقرئ، السلوك، ج1، ق1، ص336، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1012، سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص111.

(4) Grousset, hist, de croisades, p448 .

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، 45، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص556.

(6) Stevenson, the crusades, p326, Joinville, op.cit, p100

(7) المقرئ، السلوك، ج1، ص347، عبد الرحمن زكي، الجيش المصري، ص185، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص133، العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص556.

ملكت ديار مصر أجمعه في أسرع الأوقات»⁽¹⁾، ودارت اشتباكات بين الأسطولين المصري والصليبي، استولت فيها البحرية المصرية على بعض السفن الصليبية، من ذلك أنه في يوم الأربعاء 7 شوال 647هـ / 12 يناير 1250م، استولت البحرية المصرية على سفينة صليبية من النوع المعروف باسم «الشيني»، وعليها نحو مائتي راجل على رأسهم كونت كبير⁽²⁾، كما تمكنت البحرية المصرية من إحراق عدة سفن صليبية⁽³⁾، وذلك أنه في يوم الخميس 22 شوال 647هـ - 27 يناير 1250م احترقت للفرنج سفينة من النوع الذي يسمى «مرمة»⁽⁴⁾.

ويتحدث «ابن واصل» في حوادث 647هـ عن مهارة المسلمين في فن القتال البحري وحسن استغلال النيل في مقاتلة الصليبيين⁽⁵⁾، فيذكر أن الحرافشة⁽⁶⁾ كانوا يعبرون النيل وهم يسبحون ويهاجمون المعسكر الصليبي، وإذا ما شعر الصليبيون بهم ألقوا أنفسهم في الماء، وسبحوا إلى أن يصيروا في بر المسلمين⁽⁷⁾، ومن الأحداث الأخرى التي تدل على براعة المسلمين في القتال البحري، ما ذكره «المقريزي» من أن مجاهدًا من المسلمين⁽⁸⁾ أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه، وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين⁽⁹⁾، كان على القوات الصليبية أن تعبر بحر أشموم طنّاح حتى تستمر في زحفها جنوبًا، واستعد «لويس التاسع» لبناء جسر ثابت من الطين والخشب، إلا أن الأعمال البطولية التي قام بها المصريون منعتهم من بناء الجسر، وظلت القوات الصليبية في أسوأ حال حتى دهم البدو على مخاضة سلمون، والتي عن طريقها عبرت القوات الصليبية بحر أشموم طنّاح خلسة⁽¹⁰⁾، واشتبكت

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث سنة 614هـ.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص348، العبادي، عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ.

(3) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص46.

(4) المرمة نوع من المراكب الحربية التي كانت مستعملة في العصور الوسطى، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص77، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ.

(5) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص46.

(6) الحرافش: جمع حرفوش وهو الرجل من الطبقة السفلى، انظر عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص46، هامش 3.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، حوادث سنة 647، المقريزي، السلوك، ج1، ص348، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر ج7، ص376.

(8) العبادي، تاريخ البحرية المصرية، ص556-557.

(9) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص348، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص153.

(10) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص46.

مع فرقة صغيرة من الخيالة المصرية، وقتل في هذا الاشتباك الأمير «فخر الدين»⁽¹⁾، انهارت المقاومة المصرية وتقهقرت القوات المصرية إلى معسكر المنصورة وتولى الأمير «بيبرس البندقدارى» الذى تولى قيادة فرقة المماليك البحرية الصالحية⁽²⁾، ووضع خطة مضادة لهجوم الصليبيين على معسكر المنصورة التى انتهت بهزيمة القوات الصليبية فى 4 ذى القعدة سنة 647هـ/ 8 فبراير سنة 1250م⁽³⁾، وبعد ذلك وصل «توران شاه» بعد وفاة والده السلطان «الصالح نجم الدين أيوب»⁽⁴⁾ إلى معسكر المنصورة فى (21 ذى القعدة سنة 647هـ/ 25 فبراير سنة 1250م)⁽⁵⁾، وضع «توران شاه» خطة حربية⁽⁶⁾ بهدف منع وصول الإمدادات والمؤن إلى الصليبيين فى معسكرهم ليقطع مواصلاتهم فى النيل مع دمياط، ولتحقيق هذا الهدف صنع المسلمون عدة مراكب من النوع المعروف باسم الحرايق وحملوها على ظهور الإبل إلى بحر المحلة⁽⁷⁾، حيث تم تركيبها وشحنها بالمقاتلة⁽⁸⁾، ووقفت هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية التى تحتوى على المؤن التى يعتمد عليها الصليبيون وسارت هذه السفن المصرية فى بحر المحلة بحذر شديد ولكن سفن الحراسة الصليبية فيما بين المنصورة ودمياط كشفت هذه المراكب المصرية القليلة العدد، فهاجمتها واستولت على سبع منها⁽⁹⁾ بعد أن أفلتت بحارتها خشية الوقوع فى أيدي الصليبيين⁽¹⁰⁾، وسرعان ما اكتمل تركيب المراكب المصرية فى المحلة⁽¹¹⁾ وزادت أعدادها وكان بينها مراكب من النوع المعروف باسم «شوانى»، الذى عسكر منها عند بحر المحلة، فى انتظار قافلة ضخمة من سفن المئونة الصليبية التى بارحت دمياط وقتذاك⁽¹²⁾.

وخرجت السفن المصرية عليها وقاتلتها، وفى الوقت نفسه كما ذكر المؤرخون «قدم

- (1) المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص349، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص336.
- (2) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص112، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص557.
- (3) المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص350-351، المقرئى، خطط، ج1، ص219-222.
- (4) جميل الخانكى، تاريخ البحرية، ص155.
- (5) المقرئى، الخطط، ج1، ص219، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص353، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص366، حوادث سنة 647هـ.
- (6) العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص557.
- (7) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص298-299.
- (8) ابن أيك الدوادارى، كنز الدرر، ج3، ص377، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص353.
- (9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص47.
- (10) المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص354، زيادة، حملة لويس التاسع، ص179.
- (11) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص298-299.
- (12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص47.

أسطول المسلمين من جهة المنصورة⁽¹⁾ ليحيط بالأسطول الصليبي وينهى تلك المعركة النهرية بالاستيلاء على السفن الصليبية وعدتها اثنتين وخمسين (52) سفينة، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات وأخذ رجالها أسرى، وعدتهم نحو ألفى رجل، وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة⁽²⁾، بعد ذلك حدثت هزيمة أخرى نهرية للصليبيين عند مسجد النصر على مسافة سبعة كيلومترات شمالي المنصورة⁽³⁾، حيث حدثت معركة نهرية بين السفن الصليبية المحملة بالحبوب والأعلاف والمؤن وكانت عدتها اثنتين وثلاثين⁽⁴⁾ سفينة منها سبع شوان صليبية بحرية للحراسة⁽⁵⁾، التي حاولت اختراق خط الشوانى المصرية ولكن المعركة انتهت بأسر السفن الصليبية كلها⁽⁶⁾، عدا سفينة صغيرة واحدة أفلتت في الظلام ووصلت إلى المعسكر الصليبي الشمالى على النيل⁽⁷⁾، وأخبرت المعسكر باستيلاء الشوانى المصرية على القافلة كلها⁽⁸⁾، وذلك في يوم الثلاثاء 9 ذى الحجة سنة 647هـ / 15 مارس سنة 1250م⁽⁹⁾.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الانتصارات المتتابة أثرها في إضعاف قوة الصليبيين وحرمانهم من الأقوات والميرة، فطلب الصليبيون عرض هدنة على أساس الجلاء من دمياط مقابل إعادة بيت المقدس وبعض مدن الساحل إلى الصليبيين⁽¹⁰⁾ «فلم يجابوا إلى ذلك»⁽¹¹⁾، وعندما رفض «توران شاه» شروط الهدنة المقترحة من جانب الصليبيين، أمر «لويس التاسع» بإشعال النار في أخشاب المعسكر وأسواره ليعلن بذلك للصليبيين استحالة البقاء في المعسكر الصليبي وينذرهم بضرورة الانسحاب⁽¹²⁾.

- (1) الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص378، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص353.
- (2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص364، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص367، حوادث سنة 647هـ العينية عقد الجمان، حوادث سنة 647هـ، زيادة، حملة لويس التاسع، ص299.
- (3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص367.
- (4) جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص155.
- (5) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص300.
- (6) المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص3354، المقرئى، الخطط، ج1، ص221.
- (7) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.
- (8) زيادة، حملة لويس التاسع، ص300.
- (9) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.
- (10) عبد العزيز عبد الدايم، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- (11) المقرئى، الخطط، ج1، ص221، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص354.
- (12) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص48.

وفي الأربعاء 3 محرم 648 هـ / 5 إبريل 1250 م بدأ الصليبيون يتراجعون هاربين⁽¹⁾ بحذا الضفة الشرقية للنيل، في حين حمل المرضى والجرحى في السفن «فركب المسلمين أقيمتهم»⁽²⁾ من الجسر الذي قد أقامه الصليبيون على بحر أشموم، وكان الملك «لويس التاسع» قد كلف جماعة من الصليبيين بإتلافه «فسهوا عن قطعه»⁽³⁾ وأحاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب، وكان لهبوب رياح عكسية في تلك الليلة أن قللت كثيرا من سرعة السفن الصليبية، سواء كانت حربية أو غير حربية، وفجأة وجدت السفن الصليبية نفسها أمام المراكب الأيوبية، وهى على استعداد للقتال وفي محاذاتها على الشاطئ فئة من الخيالة والرماة المصريين المزودة والتي يقع على عاتقها حراسة السفن المحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين واتخذت سبيلها في النيل نحو الشمال طلبًا للنجاة، على حين نشبت معركة بين السفن الصليبية المحملة بالمرضى والجرحى، وبين القوات المصرية الأيوبية سواء كانت في البر أو البحر (النهر) وسرعان ما انتهت القذائف المصرية على السفن الصليبية في أثناء تلك المعركة من رماة في البر ورماة في البحر⁽⁴⁾، وتم الاستيلاء عليها في سهولة ويسر وسرعة⁽⁵⁾، وعند فارسكور في (يوم الأربعاء ثالث المحرم سنة 648 هـ / سنة 1250 م)، شنَّ المسلمون هجومًا على الصليبيين، حيث وقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريبًا بين أسرى وجرحى وقتلى، وكان من جملة الأسرى «لويس التاسع»⁽⁶⁾ نفسه الذي سيق مكبلًا بالأغلال إلى المنصورة في حراقة وأحدقت به نحو مائتى قطعة من مراكب المسلمين من الشوانى والغربان والحراريق تضرب بالطبول، حيث سجن في الدار التي كان ينزلها كاتب الإنشاء «فخر الدين بن لقمان»⁽⁷⁾، وذلك في يوم الإثنين (28 محرم سنة 648 هـ / 2 مايو سنة 1250 م)⁽⁸⁾، ومن هنا كان لهذا الانتصار أثره في شعور

(1) الدوادارى، كنز الدرر، ج7، ص379.

(2) المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص355.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص264، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1073.

(4) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص49.

(5) زيادة، حملة لويس التاسع، ص190-191.

(6) جميل الخانكى، البحرية المصرية، ص155.

(7) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6، ص366، المقرئى، السلوك، ج1، ق2، ص355، الدوادارى كنز الدرر، ج7، ص366، عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ص109، سعيد عاشور، ج2، ص1024، العبادى، تاريخ البحرية المصرية، ص558، أبو الفدا، المختصر، ج3، ص151، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص100.

(8) عبد العزيز عبد الدايم، الأحكام، ق1، ص49.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام في زمن الحروب الصليبية

المماليك بمدى قوتهم ولم يقبلوا سياسة «توران شاه»، فاتفقوا على قتله، بعد أن بلغ كل منهم «عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه»⁽¹⁾.

وعقب مقتل «توران شاه» حدث تطور خطير في تاريخ الشرق الأدنى وهو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام⁽²⁾.



(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1025.

الخاتمة وتتضمن أهم نتائج البحث

لا شك أن البحث حمل كثيرًا من النتائج التي قد توصلت إليها في نهاية هذا البحث، وأهم النتائج ما يلي:

1- أوضحت الدراسة أهم الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهت الدولة الأيوبية، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على الانقسامات التي حكمت العلاقات بين القوى الإسلامية، سواء كانت الخلافة العباسية في بغداد من ناحية، والخلافة الفاطمية في القاهرة من ناحية أخرى، وهذه الأحداث كان لها أكبر الأثر في إضعاف العالم الإسلامي ونجاح الصليبيين في حملتهم الصليبية الأولى.

2- أوضحت الدراسة أيضًا مرحلة القوة والجهاد التي بلغت ذروتها في العصر الأيوبي بوصول «صلاح الدين» إلى السلطة واتخاذ جميع الاحتياطات، سواء لقضائه على الأخطار الداخلية أو الاستعداد للدخول في الحرب مع الصليبيين بكافة الأشكال.

3- أشارت الدراسة أيضًا إلى انتصارات «صلاح الدين» التي توجهها بإنقاذ بيت المقدس وتخليصه من السيطرة الصليبية، مما أصاب الوجود الصليبي بانهزام وانكسار.

4- تعرض خلفاء «صلاح الدين» لثلاث موجات من الغزو الصليبي تعرف أولها بالحملة الصليبية الخامسة التي انحصرت في الفترة بين (615هـ / 1218م - 618هـ / 1221م) وقد كان هدفها مصر، ودارت معاركها في المناطق الشمالية الشرقية من الدلتا، أما الموجة الثانية من الغزو وهي الحملة الصليبية السادسة التي اتجهت إلى جنوب الشام حيث الموطن والمكان الذي حقق فيه «صلاح الدين» انتصاراته، ومن أبرز الإنجازات التي حققتها هذه الحملة نجاحها في الاستيلاء على بيت المقدس وذلك 626هـ / 1228م.

أما الموجة الثالثة وهي الحملة الصليبية السابعة والأخيرة التي قادها «لويس التاسع» ملك فرنسا والتي اتجهت إلى مصر في سنة 647هـ/ 1249م، ودارت معاركها في المنطقة التي كانت مسرحًا لمعارك الحملة الصليبية الخامسة.

5- أيضًا أوضحت الدراسة الظروف والأسباب التي دعت إلى تشييد القلاع العديدة أو إضافة الترميمات في بعض القلاع الأخرى، نظرًا للظروف العديّة التي أحاطت بالأيوبيين ودعتهم إلى بناء قلعة وترميم الأخرى، وهذا ينطبق على مصر وبلاد الشام بدليل قلعة الجبل بالقاهرة وأسوار «صلاح الدين»، وترميم أسوار الإسكندرية والاهتمام بتحصين الثغور المصرية، حتى إنه لم يترك شبه جزيرة سيناء التي غدر أهلها البدو به فقام بتحصينها وتحسينها حتى يأمن غدرهم وشرهم، ويؤمن هذه المنطقة حتى لا يدخلها أي عدو.

6- أوضحت الدراسة المقومات المعمارية في تحصينات الحربية بالإضافة إلى إلقاء الضوء على مميزات العمارة الحربية في العصر الأيوبي.

7- ألفت الدراسة الضوء على أن منشآت العصر الأيوبي الحربي اتسمت بالبساطة والمتانة والتشرف؛ لأن موارد الدولة كانت تنصب في تجهيز الجيوش وإعدادها وتسليحها، مما أدى إلى انعكاس هذه الظروف على مبانيهم ومنشآتهم بكافة أنواعها وزخارفها.

8- هذا بالإضافة إلى إلقاء الضوء على التأثيرات المختلفة التي تأثر بها الأيوبيون في منشآتهم الحربية من الصليبيين والتأثيرات التي تأثر بها الصليبيون وأخذوها عن المسلمين (الأيوبيين).

9- أوضحت الدراسة الأدوار المختلفة التي كانت تقوم بها القلاع سواء كان منها الدور الاقتصادي في حفظ المواد التموينية (الغذاء) وحفظ المياه في الخزانات والصهاريج وغير ذلك، بالإضافة إلى الدور الاجتماعي، وقد قامت القلاع أيضًا بدور مهم بوصفها محطات بريدية سواء بالحمام الزاجل أو الخيول السريعة.

10- ألفت الدراسة الضوء على السلاح بمختلف أنواعه وأشكال وطرق صناعته، حيث إنه لعب دورًا مهمًا في المعارك الحربية منذ أقدم العصور في صدر الإسلام وبعد الإسلام، بالإضافة إلى أهمية السلاح كحد فاصل في المعارك الحربية التي يدخلها المتحاربون من الطرفين سواء المسلمون أو الصليبيون.

- 11- تميزت الدولة الأيوبية بطابع حربي غلب على معظم مظاهر حضارتها، إذ أن هذه الفترة شهدت صراعًا دائمًا بين المسلمين والصليبيين، فقد كان لكل منهم أسلحته الخاصة وأدوات قتاله المميزة التي استطاع كلٌّ منهم أن يطورها ويستخدمها قدر استطاعته، إذ أنه بدون أدوات القتال لا يستطيع المحارب أن يدخل المعركة وينتصر على أعدائه .
- 12- ألفت الدراسة الضوء على الأسلحة الهجومية والرشيقة والأسلحة الجماعية وفنون استخدامها، بالإضافة إلى آلات الحصار، وأغطية الجسم من درع وترس وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الدفاعية للخيال التي كان لا بد أن يرتديها؛ لأن الخيل عنصر أساسي في الدفاع بأي معركة، إذ كان لا بد أن يرتدى هو الآخر أسلحة دفاعية تقيه من أي ضربة تصدر من العدو، فقد كان يرتدى اللجام والشكيم والحكمة والعنان والغدار إلى جانب السرج والحدوة والتجفاف وغير ذلك .
- 13- ألفت الدراسة الضوء على النظم الحربية وفئات الجيش الإسلامي، هذا بالإضافة إلى الخطط وأساليب القتال بالإضافة إلى طريقة القتال ووقته .
- 14- أوضحت الدراسة إدراك المسلمين لأهمية الحروب البحرية ويظهر ذلك في اهتمام الخلفاء بإنشاء السفن المختلفة، وقد ظهر اهتمامهم بإنشاء دور الصناعة وتطويرها وتجديدها سواء كان ذلك في عهد الطولونيين أو الإخشيديين، وظهر الاهتمام الأكبر من جانب الدولة الفاطمية؛ لأنها واجهت أخطاراً قوية ممثلة في الصليبيين والبيزنطيين، فكان لا بد من قوة بحرية ضخمة وكبيرة إلى جانب القوة البرية لتدعم كل منهما الأخرى... لكنها ضعفت في نهاية الدولة الفاطمية .
- 15- ألفت الدراسة الضوء على نشاط البحرية الأيوبية مرة أخرى بعد أن أصابها الضعف والعجز نتيجة للانقسامات الداخلية التي حدثت في نهاية الدولة الفاطمية فتقلص نشاط البحرية، لكن كان على «صلاح الدين» أن يحشد قواته البرية إلى جانب قواته البحرية حتى يستطيع أن يواجه الأخطار الخارجية الممثلة في العدوان الصليبي، سواء على مصر أو بلاد الشام، فكان الاهتمام بالأسطول وإصلاحاته المختلفة التي سبق ذكرها حتى يجذب إلى الجهاد البحري جميع المسلمين .
- 16- أوضحت الدراسة اختلاف أنواع السفن والمراكب البحرية الحربية، فقد كانت تتفاوت شكلاً وحجماً وقوة، وقد كان لكل منها اسم خاص بها إلى جانب اختلاف غرض ووظيفة كل منها، فمنها ما كان مخصصاً لحمل الجنود وأسلحة القتال المختلفة البحرية

مثل الشينى أو الشونة، ومنها ما هو مخصص لنقل الخيل كالطريدة، ومنها ما هو مخصص لنقل الأزواد والميرة وآلات الحرب كالبسطة والمسطح والشلندى أيضا، هذا إلى جانب العديد من أنواع السفن الحربية البحرية الأخرى.

17- أوضحت الدراسة أنه كى تُتم السفن الحربية عملها على أكمل وجه فقد كان لا بد أن تزود السفن نفسها بأسلحة للقتال تجعلها تتفق مع حرب البحار، فاختلقت أنواع أسلحة القتال حسب نوع ووظيفة واسم كل منها فقد كان منها الكلايب والباسليقات والتواييت واللجام وغيرها من أسلحة القتال الفتاكة والتي لعبت أهم الأدوار في حرب البحار.

هذا وقد ألفت الدراسة الضوء على أن أهم أسلحة القتال والتي لعبت دورًا خطيرًا في حرب البحار هي النار الإغريقية التي عرف العرب سرها وطورها إلى الحد الذى تبيد به أعداءهم وتفتك قواهم.

18- ألفت الدراسة الضوء على معظم المعارك الحربية التى دخلها المسلمون مع الصليبيين واعتبرت مرحلة القوة هى التى مر بها الأسطول من سنة 575 هـ / 1180م، واستطاع الأسطول أن يحقق الانتصارات المختلفة فى موقعة مرج عيون، وبيت الأحزان، وموقعة الحوراء البحرية التى حقق فيها انتصارًا رائعًا على الصليبيين.

وإلى جانب نشاط الأسطول فى البحر الأحمر فقد كان للأسطول دور كبير فى فتح صور وحصار عكا سنة 585 هـ / 1189م، ولعبت البطس دورًا مهمًا فى حرق برج الذبان وفشل الصليبيين فى الاستيلاء عليه.

أضف إلى ذلك أهمية الأسطول أيضًا بالنسبة للصليبيين فى معظم عملياتهم الحربية المختلفة والدليل على ذلك الحملة الصليبية الثالثة التى كانت حملة من الدرجة الأولى جاءت عن طريق البحر وقادها ملوك أوروبا العظام.

19- أوضحت الدراسة أنه بعد وفاة «صلاح الدين الأيوبي» قل الاهتمام بأمر الأسطول، ولكن زاد الاهتمام به مرة أخرى فى عهد خلفائه.

هذا وقد ظهرت أهمية العامل البحرى فى الحملة الصليبية الخامسة والسابعة والتى كان محورها الأساسى هو البحر والأسطول، ومن هنا كان الإحساس بأهمية الأسطول لحماية الدولة الإسلامية والدفاع عن شواطئ الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى.

20- لعب الأسطول دوراً مهماً في مختلف نواحي الحياة سواء منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحربية، هذا بالإضافة إلى دوره في عملية النزهة والفتحة وحمل المسافرين من مكان لآخر .

هكذا ساهمت البحرية النيلية بدور إيجابي في القضاء على المعتدى الصليبي .





أولاً: قائمة المصادر العربية

- (1) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، المتوفى سنة 697هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، خمسة أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول، سنة 1953م.
- (2) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد، راجعه محمد مصطفى زيادة، القاهرة سنة 1962، الجزء الأول القسم الثاني.
- (3) ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن القديم (588هـ/ 660هـ) زبدة الحلب من تاريخ حلب، 3 أجزاء نشر وتحقيق د/ سامي الدهان، دمشق الشام سنة 1954م.
- (4) الحنبلي: أحمد بن إبراهيم الحنبلي، (ت 876 هـ / 1471 م)، شفاء القلوب في مناقب بن أيوب، تقديم وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، سنة 1415هـ / 1996م.
- (5) ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، محمد محيي الدين عبد الحميد، 6 أجزاء، سنة 1367 هـ / سنة 1948م.
- (6) المقرئزي: تقى الدين أحمد بن علي المقرئزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914م (جزأين) الجزء الأول ثلاثة أقسام، الجزء الثاني قسمان.
- (7) المقرئزي: تقى الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة المعزية سنة 1270هـ.
- (8) المقرئزي: تقى الدين أحمد بن علي المقرئزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد، 3 أجزاء، القاهرة سنة 1393هـ / 1973م.

- (9) أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة 1348هـ / 1929م الطبعة الأولى، 12 جزءاً.
- (10) ابن الأثير: أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين، المتوفى سنة 630هـ، الكامل في التاريخ، 9 أجزاء، إدارة الطباعة الميترية سنة 1348هـ.
- (11) ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزرى (555هـ / 630م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليحات، ملتزم الطبع والنشر، دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة 1382هـ، 1963م.
- (12) ابن إياس: أحمد بن إياس الحنفى المصرى، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدايع الزهور في وقائع الدهور، الطبعة الأولى، بولاق سنة 1311هـ.
- (13) الحافظ الذهبى: مؤرخ الإسلام 748هـ / 1373م، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان .
- (14) العماد الحنبلى: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحى العماد الحنبلى، المتوفى سنة 1089م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 5 أجزاء، عنيت بنشرة مكتبة القدس سنة 1350م .
- (15) أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبى الفدا، (تاريخ أبو الفدا) المختصر في أخبار البشر، 4 مجلدات في جزأين، دار الطباعة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، وهناك 4 أجزاء في مجلد واحد، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسنية المصرية سنة 1325هـ .
- (16) أبو الفدا: السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، كتاب تقويم البلدان، طبعه وصححه رينو مدرس العربية، والبارون مارك كوين دبسلان، طبع في مدينة باريس المحروسة بدار الطباعة السلطانية 1840م مسيحية.
- (17) الأسعد بن ممتى الوزير الأيوبي: المتوفى سنة 606هـ / 1209م، كتاب قوانين الدواوين، جمعة وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر سنة 1943م، طبع الجمعية الزراعية الملكية سنة 1898م، بإشارة الأمير عمر طوسون .

- (18) الحموى: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادي، معجم البلدان 5 مجلدات، بيروت سنة 1956م / 1375هـ.
- (19) القلقشندي: أبى العباس على القلقشندي سنة 821هـ / 1418م، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء 14 جزءاً، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر.
- (20) القزويني: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
- (21) التويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة 1345هـ / 1926م، 31 جزءاً.
- (22) ابن الطوير: أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد، سنة 1412هـ / 1992م.
- (23) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد المحسن بن عبد الكريم بن محمد هرون بن محمد هرون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه، آثار الأول في ترتيب الدول، ابتداء تأليف عشية السبت الثالثة عشر شوال سنة ثمانية وسبعائة.
- (24) ابن أرنبغا الزردكاش: سنة 867هـ، الأنيق في المناجيق، دراسة وتحقيق د / إحسان هندی، دمشق سنة 1405هـ / 1985م
- (25) ابن القلانسي: أبى يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذييل تاريخ دمشق تتلوه نخبة من تواريخ ابن الأزرق الفارق - وسبط بن الجوزي - الحافظ الذهبي طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1908م.
- (26) ابن شداد: عز الدين محمد على إبراهيم، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، جزء يتكون من قسمان، تحقيق يحيى زكريا عبادة دمشق سنة 1991م.
- (27) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع، المتوفى سنة 632هـ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق: جمال الدين الشيال الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة 1964م.
- (28) ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المتوفى سنة 774هـ، البداية والنهاية في التاريخ، 14 جزءاً، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة 1358هـ.

(29) ابن الأثير: أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الوهاب الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين سنة 630هـ، الكامل في التاريخ، 9 أجزاء .

(30) الشافعي: شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي، الروضتين في أخبار الدولتين، طبعة جديدة بمطبعة وادي النيل القاهرة سنة 1287هـ .

(31) ابن جبير: أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلبسى الرحلة، كتاب راحلة بن جبير، الشركة العامة للكتاب ش.م.ل .

(32) ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان .

(33) أسامة بن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، و.ف مطبعة برنستون، الولايات المتحدة سنة 1930م .

(34) الدوادرى: أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى، كنز الدر وجامع الغرر، الدر المطلوب شرحه أخبار ملوك بنى إياس، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، 9 أجزاء، القاهرة 1392هـ/ 1972م .

(35) العينى: بدر الدين محمود العينى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د/ محمد محمد أمين، 4 أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1407هـ/ 1987م .

(36) العمرى: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى (701هـ/ 1301م-749هـ/ 1349م)، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه د/ أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

(37) ابن الجوزى: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلى التركى المشهور بسبط بن الجوزى المتوفى 654هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعلام، الطبعة الأولى 1371هـ/ 1952م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن/ الهند .

(38) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر الخضرى الإشيبلى الأصل التونسى ثم القاهرى (ت 808هـ/ 1405م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، 7 أجزاء، منتصف تمام تسعة وسبعين وسبعمئة .

- (39) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري، كتاب فتوح البلدان، 3 أقسام نشره ووضع ملاحقه وفهارسه د/ صلاح الدين المنجد، ملتزمة النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية 1957م.
- (40) الأنصاري الدمشقي: نخبة الدهر شرحه عجائب البر والبحر، مكتبة المثني ببغداد، 1923م.
- (41) الداعي إدريس عماد الدين المتوفى 872هـ/1488م، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق / محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 1985م.
- (42) المقدسي: أحسن التقاسم في معرفة الإقاليم، طبعة ليدن، إبريل 1906م.
- (43) ابن هذيل الأندلسي: حلبة الفرسان وشعار الشجعان، دار المعارف، القاهرة 1959م.
- (44) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة 1342هـ.
- (45) السيد أدى شير، معجم الألفاظ الفارسية العربية، مكتبة لبنان بيروت سنة 1990م.
- (46) ابن منظور: العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري الأنصاري الخزرجي، لسان العرب، الطبعة الأولى المطبعة الأمير بيولاقي مصر المحمية سنة 1301هـ، 20 جزءاً.
- (47) الإمام اللغوي: محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسن الواسطي الزبيدي الحنفي، تاج العروس من جواهر القاموس، 10 أجزاء.
- (48) الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي معجم البلدان، 5 مجلدات، دار صادر بيروت سنة 1374هـ، 1955م.
- (49) ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة، 12 جزءاً، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية سنة 355هـ/1936م.
- (50) ابن سيده: أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي، المخصص، 17 جزءاً، الطبعة الأولى، المطبعة الأمير بيولاقي مصر المحمية سنة 1318هـ.

(51) ابن سيده: علي بن إسماعيل بن سيده، المتوفى سنة 458هـ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، الطبعة الأولى سنة 1377هـ / 1958م، 6 أجزاء .

(52) ابن عبد ربه: أبي عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد شرحه ورتبه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، 7 أجزاء، الطبعة الثانية، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1367هـ / 1948م .

(53) حسين يوسف موسى: عبد الفتاح الصعيدى، الإفصاح في فقه اللغة، الطبعة الأولى الثانية، جزءان، دار الفكر العربى، الجزء الأنيق .

(54) عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى، المتوفى سنة 1143هـ، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم وإعداد د/ أحمد عبد المجيد الجوهري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1986م .

(55) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى، بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة 1301هـ، 20 جزءاً .

(56) عثمان بن إبراهيم النابلسى، لمع القوانين المضية في شرح دواوين الديار المصرية، طبعة المعهد الفرنسى، دمشق 1961م .

(57) غريغوريوس أبى الفرج بن هرون الطيبى الملقب المعروف بابن العبرى تاريخ مختصر الدول وقف على طبعة الأب أنطون صالحى اليسوعى، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة 1890م .

(58) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية د/ نبيه فارس منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1948م .

(59) الطرسوسى: مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى، المتوفى سنة 589هـ ألفه لصالح الدين الأيوبي عنى بتحقيق ونشرة كلود كاهين، تبصرة أرباب الأبواب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعنية على لقاء الأعداء .

ثانياً: قائمة المراجع العربية

(1) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى، الطبعة الأولى 1961م، دار المعارف بمصر .

(2) السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينه صيدا في العصر الإسلامى، 1970م .

- (3) السيد الباز العرينى، دراسات في تاريخ العصور الوسطى، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة 1956م.
- (4) السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد سالم، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1999م.
- (5) أنور عبد العليم، الملاحاة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب، الكويت، المحرم، صفر 1399هـ/يناير (كانون الثانى) 1979م.
- (6) أبو الفرج العشى، آثارنا في الإقليم السورى، الطبعة الأولى 1960م، المطبعة الجديدة دمشق (داخل محطة الحجاز).
- (7) أحمد الأبيش، د/ قتيبة الشهابى، معالم دمشق التاريخية، دراسة تاريخية ولغوية عن أحيائها ومواقعها القديمة تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها، دمشق 1996م.
- (8) أحمد شلبى، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، الطبعة السابعة 1984م، الجزء الرابع مكتبة النهضة المصرية.
- (9) أحمد قدرى، آثار سيناء، مطبعة هيئة الآثار المصرية، 1986م.
- (10) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، 1397هـ، 1977م.
- (11) الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسى دارفيو ترجمة وتعليق أحمد أيش، الطبعة الأولى، دمشق 1403هـ/ 1982م.
- (12) أنيس فريجة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها (دراسة لغوية) منشورات كلية العلوم والأدب، الجامعة الأمريكية في بيروت 1956م.
- (13) أيمن فؤاد سيد، التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الطبعة الأولى، القاهرة 1997م.
- (14) أبو الحمد محمود فرغلى، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، 1409هـ/ 1989م.
- (15) أمين الخولى، الجنديية والسلم موقع ومثال، دار المعرفة، القاهرة 1960م.
- (16) أرشيبالد ر. لويس، القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م) مراجعه وتقديم: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة نيويورك).

- (17) نعوم بك شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى، 1411هـ/ 1991م.
- (18) أبو الحمد محمود فرغلي، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، القاهرة (1409هـ/ 1989م).
- (19) إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، الإسكندرية 1990م دار المعرفة الجامعية.
- (20) إحسان هندی، الحياة العسكرية عند العرب (الجيش العربي في ألف عام) دمشق 1964م.
- (21) بيج (جون بيرتون): البرج في العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1402هـ/ 1981م.
- (22) تاريخ البحرية المصرية، وضع فصوله نخبة من الأساتذة المتخصصين بجامعة الإسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية بجمهورية مصر العربية 1973م.
- (23) توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة (العصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية)، الجزء الثاني، يوليو 1969م.
- (24) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثاني العصران الأيوبي والمملوكي، دار المعارف، الإسكندرية، 1966م.
- (25) جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً، مطبعة دون بوسكو بالإسكندرية 1949م.
- (26) جميل خانكي، تاريخ البحرية المصرية، وزارة الدفاع، السلاح البحري الملكي، القاهرة 1948م.
- (27) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، طبعة جديدة راجعها وعلق عليها د/ حسين مؤنس، دار الهلال، 1920م طبعة أولى، 1958م طبعة ثانية.
- (28) جان سوفاجيه، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر نقلها إلى العربية فؤاد أفرام البستاني، ظهرت في مجلة الشرق، المطبعة الكاثوليكية بيروت 1936م.
- (29) جورج كاستلان، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقي، قدم له وزوده عبد الرحمن زكي، مكتبة النهضة المصرية، 1956م.

- (30) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي، الإسكندرية 1969م.
- (31) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الثقافة والنشر، 1404هـ / 1984م.
- (32) حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الأول الطبعة الأولى 1420هـ / 1999م، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع خمسة مجلدات.
- (33) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة 1981م.
- (34) حسين مؤنس، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الطبعة الأولى، القاهرة 1378هـ - 1959م.
- (35) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى 1407هـ / 1987م، الزهراء للإعلام العربي.
- (36) حسنين محمد ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، دار النهضة العربية، القاهرة 1990م.
- (37) حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ دولة البيزنطيين، 1403هـ - 1983م، دار النهضة العربية.
- (38) درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف الإسكندرية الطبعة الثانية 1979م.
- (39) ديفيز (دوين جوتز)، فرنسا الجريجة على ضفاف النيل، ترجمة زكي شنودة بدون سنة.
- (40) رسالة الكندي في جواهر السيوف، باعتناء رانام بن إحسان إلهي مطبعة بنجاب بلاهور، رسالة إسحاق بن يعقوب إسحاق الكندي إلى بعض الخلفاء في جواهر السيوف.
- (41) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى 1998م.
- (42) سعاد ماهر محمد، البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر 1967م.
- (43) سيد كريم، القاهرة عمرها ألف سنة، القاهرة 1999م.

- (44) سامية توفيق عبد الله، دراسات في تاريخ مصر الإسلامية من الحكم الفاطمي حتى نهاية العصر المماليكي، القاهرة 1983م.
- (45) سوسن سليمان يحيى، آثارنا الإسلامية، (العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول) دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، 1420هـ / 2000م.
- (46) سليم عادل عبد الحق، نزعات آثرية في سوريا، المؤتمر الأول للآثار في البلاد العربية، طبع في مطبعة الترقى بدمشق 1366هـ / 1947م.
- (47) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، جزءان، الطبعة الثالثة 1978م. مكتبة الأنجلو المصرية.
- (48) سعد محمد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن (في الفترة الأيوبية المملوكية دراسة تاريخية أثرية إستراتيجية)، دار البشير 1987م.
- (49) سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، تحقيق د/ عصام محمد شبارو، الطبعة الأولى، 1988م.
- (50) ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د/ السيد الباز العريني - دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية 1980م.
- (51) صالح أفندي مجدى، ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والمقلاع، دار الطباعة المصرية، ببولاق القاهرة المعزية (أوائل شهر ربيع الأول أحد شهور السنة الخامسة والسبعين من القرن الثالث عشر).
- (52) صالح أفندي مجدى، المطالب المنيفة في الاستحكامات الخفيفة، 1278هـ.
- (53) صالح لمعى مصطفى، التراث الإسلامى العمارى فى مصر، دار النهضة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1984م.
- (54) عبد الرحمن زكى، معارك حاسمة في تاريخ مصر (دمياط والمنصورة)، مطبعة النيل القاهرة، 1364هـ - 1945م.
- (55) عبد الرحمن زكى، السلاح في الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة 1951م.
- (56) عبد الرحمن فهمى، مقال عن سور القاهرة وقلعة الجبل، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، تأليف حسن باشا وآخرون.

- (57) عبد الرحيم أحمد، تاريخ الفن في العصور الإسلامية (العمارة وزخارفها)، الطبعة الأولى 1989م، مكتبة عالم الفكر.
- (58) عبد الرحيم غالب، (جروس برس)، موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى 1408هـ / 198م بيروت.
- (59) عبد الرحيم إبراهيم أحمد، تاريخ الفن في العصور الإسلامية (العمارة وزخارفها) الطبعة الأولى 1989م، مكتبة عالم الفكر.
- (60) عبد الرحمن زكي، معركة المنصورة وآثارها في الحروب الصليبية، إبريل 1960م.
- (61) عبد الرحمن زكي، موسوعة الجيوش الإسلامية (الجيش المصرى في العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة) القاهرة 1970م.
- (62) عبد الرحمن زكى، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك 969هـ / 1517م أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - إبريل 1969م، الجزء الثانى مطبعة دار الكتب 1971م.
- (63) عبد العزيز صلاح سالم، الرياضة عبر العصور تاريخها وآثارها، مركز الكتاب للنشر القاهرة 1998م.
- (64) عبد العزيز محمود عبد الدائم، بيت المقدس في العصر الأيوبي، القاهرة 1989م.
- (65) عبد العزيز صلاح سالم، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي، الجزء الأول، القاهرة 1998م.
- (66) عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبي، مكتبة الأنجلو المصرية 1958م.
- (67) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1966م.
- (68) عبد العليم عبد الرحمن خضر، التطور العمرانى لمدينة القدس، السعودية، 1981م، 1401هـ مطبعة سحر.
- (69) عبد اللطيف حمزة، صلاح الدين بطل حطين، دار الفكر العربى، 1958م.
- (70) عبد النعيم محمد حسنين، دولة السلاجقة، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية 1975م.
- (71) عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، النهضة المصرية 1959م.

التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام في زمن الحروب الصليبية

- (72) عبد الله سعيد محمد الغامدي، صلاح الدين والصليبيون (استرداد بيت المقدس)، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة 1985م.
- (73) علي محمود فهمي، التنظيم البحري في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي ترجمة د/ قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى 1997م. (عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية) العربية، القاهرة 1990م.
- (74) علي حسن الخربوطلي، مصر العربية الإسلامية، 1963م.
- (75) الإسلامى منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، الجيزة 1963م.
- (76) عمر الإسكندرى و.أ.ج سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى مع نبذه فى أخبار الأمم التى ارتبطت بمصر إلى ذلك 1410هـ / 1990م.
- (77) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف بمصر 1951م.
- (78) عمر صالح البرغوثى و خليل طوطح م.ع كولومبيا نيويورك، تاريخ فلسطين، عنى بنشره بولس وديع سعيد، مطبعة بيت المقدس فى القدس 1923م.
- (79) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور / كمال اليازجى، أشرف على مراجعته وتحريره د/ جبرائيل حبور دار الثقافة، بيروت 1959م.
- (80) فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاية)، المجلد الأول الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970م.
- (81) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، الطبعة الأولى 1409هـ / 1988م.
- (82) فرحات الدشراوى، الخلافة الفاطمية بالمغرب، نقله إلى العربية حمادى الساحلى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994م.
- (83) فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، الطبعة الثالثة، بيروت 1985م.
- (84) قتيبة الشهابى، معجم دمشق التاريخى، 3 أجزاء، دمشق 1990م.
- (85) قتيبة الشهابى، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق 1996م.
- (86) قتيبة الشهابى، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية (مستخرج نصوص المؤرخين العرب والأجانب، منشورات وزارة الثقافة فى الجمهورية العربية السورية)، دمشق 1998م.

- (87) قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1994م.
- (89) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1381هـ/ 1961م.
- (90) محمد عبد الله عنان المحامى، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1352هـ/ 1934م
- (91) محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى 1945م القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1953م - 1954م.
- (92) موسوعة العالم الإسلامى، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامى تصدر عن دار الرأى العام، إعداد / مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام، الإشراف العام/ عبد الحميد حجازى، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1397هـ/ 1977م.
- (93) محمد عبد الهادى شعيرة، دراسات فى الآثار الإسلامية، من تاريخ التحصينات العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة، الطبع بوحدة الإنتاج بإدارة التوثيق والمعلومات اليكسوا.
- (94) محمد ضاهر وتر، معركة عين جالوت 658هـ/ 1260م، دراسة فى الجيشين المملوكى والمغولى، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1989م.
- (95) محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبى وعصره، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1346هـ/ 1927م، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- (96) محمد عبد العزيز مرزوق، بين الآثار الإسلامية فى العالم، الإسكندرية 1372هـ/ 1953م.
- (97) محمد كامل علوى، الرياضة البدنية عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، 1947م.
- (98) محمد مصطفى زيادة، عبد الحميد العبادى، إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية من تاريخها وحضارتها، الطبعة الثالثة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1958م.
- (99) محمود محمد الخويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، 1979م.
- (100) محمود أحمد محمد سليمان عواد، الجيش والقتال فى صدر الإسلام، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، الطبعة الأولى 1407هـ/ 1987م.

- (101) محمد عبد العظيم أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري.
- (102) محمد محمود إدريس، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى 1983م، دار الثقافة والطباعة والنشر.
- (103) محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ / 1986م.
- (104) نظير حسان سعداوى، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، مكتبة النهضة المصرية، 1961م.
- (105) نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربى المصرى في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.
- (106) نعوم بك شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبل، بيروت، تقديم د/ محمد إبراهيم أبو سليم، الطبعة الأولى، 1411هـ / 1991م.
- (107) نبيلة إبراهيم مقامى، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى 1994م.
- (108) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د/ حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ - 1950م.
- (109) نعمان ثابت، الجندي في الدولة العباسية، الطبعة الثانية، مطبعة أسعد 1956م.
- (110) هاشم عثمان، الأبنية والأماكن الأثرية في اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1996م.
- (111) وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د/ حسن حبشى، الجزء الرابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م.
- (112) يوسف الدبس، تاريخ سوريا، طبع في بيروت في المطبعة العمومية الكاثوليكية 1983م، 8 أجزاء.

ثالثاً: قائمة الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه)

- (1) أسامة سيد على، الظهير الشامى ودوره في الصراع الإسلامى الصليبي رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس سنة 1996م.

- (2) إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها في العصر الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 1412هـ - 1992م.
- (3) أبو الحمد محمود فرغلي، تصاوير المخطوطات في عصر الأيوبيين، رسالة ماجستير، القاهرة، سنة 1401هـ - 1981م.
- (4) أجفان الصغير، القلاع في بلاد الشام، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة دمشق، سنة 1995م.
- (5) أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1992.
- (6) أمل محفوظ أحمد جمعة، العماير الحربية في عصر محمد علي بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1999م.
- (7) جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها الخارجية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بينها، جامعة الزقازيق سنة 1989م، 1410هـ.
- (8) عبد العزيز صلاح سالم، المعادن الأيوبية في مصر والشام، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة 1998م.
- (9) حسين عبد الرحيم عليوة، السلاح المعدني للمحارب المصري في عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، سنة 1994م.
- (10) سرور علي عبد النعيم، الدور السياسي لحصن شقيف آرنون في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة طنطا سنة 1997م.
- (11) سهير محمد إبراهيم، جبلة ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة 1994م.
- (12) عبد العزيز محمود عبد الدايم، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر مع دراسة عن فن القتال البحري في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1974م.
- (13) كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب ودورها في الحرون الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين شمس، سنة 1991م.
- (14) محمود درويش، الاستحكامات الحربية بمدينة رشيد في العصر المملوكي حتى عصر محمد علي، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة سنة 1991م.

(15) منى فريد مصطفى عثمان، حماه في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، كلية البنات جامعة عين شمس، سنة 1995م.

(16) مها يسرى محمد، معرة النعمان ودورها عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م.

(17) مرفت محمد أحمد سالم، حصن الأكراد ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م.

(18) مصطفى عبد العزيز العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، سنة 1992م.

(19) محمد عبد العزيز السيد، جزيرة الروضة وآثارها الدارسة حتى نهاية العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1977م.

رابعاً: قائمة المجلات العلمية

(1) أحمد الزيات، محمود ماهر، مجلة عالم الآثار، العدد الأربعون، أكتوبر سنة 1987م يحررها خبراء هيئة الآثار المصرية بالتعاون مع مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، (مقال عن الترميم الدقيق للمتحف الحربي بقلعة صلاح الدين).

(2) أحمد فكرى، أبحاث الندوة الدولية التاريخية القاهرة (مارس - إبريل الجزء الأول)، مطبعة دار الكتب، سنة 1997م.

(3) الجيش والبحرية، مجلة فنية علمية شهرية، السنة الأولى، مطبعة جريدة نهضة الشرق بالإسكندرية، سنة 1927م.

(4) إبراهيم العدوى، الحمام الزاجل في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، سنة 1949م.

(5) أسامة زكى زيد، الخوارزميون ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد الثلاثون، سنة 1956م.

(6) الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلة تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، المجلد الثالث والثلاثون (الجزء الأول)، سنة 1983م.

- (7) إبراهيم خميس إبراهيم، الحيل والخدع العسكرية الإسلامية منذ بداية الغزو الصليبي حتى وفاة نور الدين محمود، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس والثلاثون، سنة 1988م.
- (8) القلاع، مقال بدائرة المعارف السعودية (الفيصل)، مجلة ثقافية شهرية العدد 152، السنة الثالثة عشر، سبتمبر سنة 1989م.
- (9) جوزيف نسيم، سيناء كنوزها وآثارها التاريخية في العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربي، العدد الرابع، مطبعة الجامعة ببغداد، سنة 1977م.
- (10) حسنين محمد ربيع، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية (ندوة تاريخ البحر الأحمر) جامعة عين شمس، سنة 1979م.
- (11) سوسن سليمان يحيى، تجديد صلاح الدين الأيوبي للعمائر الإسلامية في بيت المقدس، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة العدد الخامس، سنة 1991م.
- (12) سعيد عبد الفتاح عاشور، صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن عشر سنة 1971م، مطابع سجل العرب.
- (13) سعيد عبد الفتاح عاشور، شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس عشر، سنة 1969م.
- (14) سعيد عبد الفتاح عاشور، الجبهة الصليبية في معركة حطين، مجلة المؤرخ المصري، دراسات وبحوث تاريخية، كلية الآداب جامعة القاهرة، سنة 1988م.
- (15) سعد أبو دية، قلعة الرض (عجلون)، المتحف العربي، السنة الثانية، العدد الثالث جامعة اليرموك، الأردن، سنة 1407هـ / 1987م.
- (16) صلاح الدين البحيري، الإعداد المعنوي للحروب الصليبية المضادة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادي والعشرون، سنة 1974م.
- (17) صلاح حسين، منجنيق من الحضر، مجلة سومر، تصدرها مديرية الآثار العامة، الجزء الأول والثاني، المجلد الثاني والثلاثون، سنة 1976م.
- (18) عبد الرحمن زكي، مقال عن السيف في الشرق الأدنى، مجلة الكتاب المجلد الأول، الجزء الخامس، السنة الأولى، سنة 1946م.
- (19) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس عشر، القاهرة، سنة 1969م.

- (20) عبد الرحمن زكى، بين قلاع العرب وقصورهم، المجلة، العدد الخامس سنة 1376 هـ/1957م.
- (21) عبد الرحمن زكى، صناعة السيوف الإسلامية في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس سنة 1956م.
- (22) عبد الرحمن زكى، امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثاني، مطبعة دار الكتب سنة 1971م.
- (23) عبد العزيز عبد الدايم، علاقة الأيوبيين بالروم (البيزنطية)، دراسات أثرية إسلامية، المجلد الرابع مطبعة هيئة الآثار المصرية، القاهرة 1991م.
- (24) عبد الله كامل موسى، الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد الرابع سنة 1995م.
- (25) عدنان الينى، قلعة دمشق، مقال بمجلة الحوليات الأثرية السورية سنة 1985م.
- (26) كمال الدين سامح، القلاع الإسلامية، مجلة المتحف العربى، السنة الثانية، العدد الثالث، سنة 1407هـ/1987م.
- (27) مصطفى حسن محمد الكنانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثاني، سنة 1990م.
- (28) ميخائيل عواد، المآصر في بلاد الروم والإسلام، المقتطف، ج3، من المجلد الرابع بعد المائة، سنة 1944م/1363هـ. انظر أيضاً ج4، من المجلد الرابع بعد المائة، 1944م/1363هـ.
- (29) مصطفى حسن محمد الكنانى، ريتشارد قلب الأسد ومشروع غزو مصر، مجلة كلية الآداب، العدد التاسع، المجلد الثاني، سنة 1990م.
- (30) موسوعة العالم الإسلامى، أول موسوعة ثقافية تاريخية عن العالم الإسلامى تصدر عن دار رأى العام، إعداد مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار رأى العام، الإشراف العام، عبد الحميد حجازى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 1977م.
- (31) مجلة المجمع العلمى العربى (دمشق)، الجزء الأول والثانى من المجلد السادس كانون الثانى وشباط سنة 1926م.
- (32) محمد جمال الدين الشيال، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثانى، أكتوبر سنة 1949م.

(33) محمود إبراهيم حسين، قلعة عجلون العربية، مجلة المتحف العربي، العدد الثاني، سنة 1407هـ / 1986م.

(34) موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى سنة 1418هـ / 1998م، مركز الشارقة للإبداع الفكري.

(35) بيل محمد عبد العزيز، خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية الثالث والعشرون، سنة 1976م.

خامسا: أسماء المراجع الأجنبية

- 1) Amin Maalouf, the Crusades through Arab eyes, Translated by Jon Rothschild, 1983.
- 2) Archer (T.A), kings ford (cl, the crusades, London, 1919.
- 3) Benvenisti, The crusades in the Holy land Jerusalem, 1970.
- 4) Deschamps (p), les chateaux des croises en terre sainte le crac chevaliers, etude historique et Archeologique, 2 Tomes, paris, 1934 .
- 5) Deschamps (p), les chateaux des croises en terre sainte, la defense du Royaume de Jeruslalem etude Historque,Geographique et Monumentel, paris, 1939.
- 6) Fedden (Robin): crusades castles, London, 1950 .
- 7) Grousset, Histoire des croisades, paris, 1935 .
- 8) Heinrich von sybel, History and literature of the crusades, translated from the German and edited by Lady Duff Gordon with an index, London, new york, 1861 .
- 9) Hoffmeyer, (Ada Bruhn), Islamic swords of the Middle age. Koben hagen, 1956.
- 10) Joshua prawer, Histoire Du Royaume latin De Jerusalem, second edition, TomeII, paris, 1970
- 11) K.A.C cresweel, A short Account of early Muslim Architecture, pelican, 1958 .
- 12) K.A.C. creswell, fortification in Islam Before A.D 1250, The proceedings of the British A Cademy (XXXVIII), London, 1952.
- 13) Lane – pool (s), Saladin and the Fall of King dome of Jerusalaem, Beirut, 1964 .

- 14) Lane-pool (s): Saladin, (put nan), London, 1926 .
- 15) Max van Bercham, corpus inscription un (Jerusalem ville), le caire, 1922.
- 16) Max van Bercham, voyage en Syrie, collection memories de l'institut francais D'Archeologie orientale 1914
- 17) Nasser .o . Rabbat, The citadel of cairo (A New Interpretation of Royal Mamluk Arehitecture) leiden – New York 1995.
- 18) Oman (c . w), A history of the art of war in the Middl ages, New York, 2vols, 1953.
- 19) Parry and yapp, war teahnology and society in the Middle east .
- 20) Ray (G), Etudes sur les Monuments de l'architecture militaire de croses en Syrie et dans l'Me de chypre, paris, 1871 .
- 21) Robinson (H . Russell), oriental Armour (Arms and Armour series, Herbert jenkins) London, 1967 .
- 22) R.DOZY, Supplement aux Dictionnaires Arabes, liban, Beyrouth, 2vols, 1968.
- 23) Saouaf, Aleppo past and present, alleppo, 1965 .
- 24) Saxtorph, warriors and weapons of early times, London, 1972, (Bland ford press) .
- 25) Souvaget .J, citadelle de Damas Syrie (XI), 1930 .
- 26) Steven Runciman, Ahistory of the crusades, 3 vols, Combridge, 1951 .
- 27) Villehardouin and de Joinville, Memoirs of the crusades, London, new york, 1908 .
- 28) W.B Stevenson, The Crusaders in the east, combridge, 1907 .
- 29) Wiet, L' Egypt Arabe, History de la Nation Egyptinne, paris, 1937 .
- 30) Wilkinson (Fredrick Muller), let's look at Arms and Armour, London, 1968
- 31) Zoe oldenBourg, The crusades, Translated from the French by anne carter, new york (without date) .

مكتبة معهد الدراسات الإسلامية والشرقانية